

مسلة
الجوائز
العالية



قَدْرُ الْإِنْسَانِ

القصة الحائزة على
جائزة جونغور ١٩٣٣

تأليف

أندريه مالرو

ترجمة : فؤاد كامل
مراجعة : الدكتور أنور لوقا

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأخبار والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة

١٩٤٤

فتدرا الإنسَان

القصة المحائزة على جائزة جونكور سنة ١٩٣٣

تأليف

أندريه مالرو

مراجعة : الدكتور أنور لوقا

ترجمة : فؤاد كاميّل

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر

الدار المصرية للتأليف والترجمة

هذه ترجمة كاملة للقصة الحائزة

على جائزة جونسكور عام ١٩٣٣

La Condition Humaine : André Malraux

الجزء الأول

٢١ مارس ١٩٢٧

• الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل •

أيحاول « تشن » أن يرفع الكلة ؟ أم يضرب من خلالها ؟ واعتصر القلق تأحشاه ، لقد كان يعرف أنه صادق العزم ، ولكنه لم يكن يستطيع فى هذه اللحظة الا أن يفكر فى أمره ببلاهة ، وقد أبهظه هذا الركام من النسيج الأبيض الرقيق (الموسلين) الذى ينسدل من السقف فوق جسد أخفى من الطيف ، لا تبرز منه سوى القوم التى أرخاها النوم ، ولكنها تنبض مع ذلك بالحياة ، لأنها جزء من جسد الرجل • أما الضوء الوحيد فكان يتسلل من المبنى المجاور : مستطيل كبير من نور الكهرباء الشاحب تشطره قضبان النافذة ، وكان أحد هذه القضبان يلقي ظله على السرير عند قدم الرجل تماما ، وكأنما ليضفى عليها ضخامة وحياة • وانطلق صرير أربع أو خمس آلات تنبيه فى وقت واحد • هل افتضح أمره ؟ عليه اذن أن يقاتل ! • أن يقاتل أعداء متأهبين للدفاع عن أنفسهم ، أعداء متيقظين ! فياله من خلاص !

وانحسرت موجة الضوضاء ، وكانت مجرد ارتباك فى حركة المرور (كانت ثمة ارتباكات فى حركة المرور ، هناك ، فى عالم الناس ٠٠٠) • وألقى نفسه هرة أخرى وجها لوجه أمام تلك القطعة الكبيرة المتهدلة من النسيج الرقيق (الموسلين) ، وذلك المستطيل من الضوء اللذين يتحركان فى هذه الليلة حيث تتوقف الزمان عن الوجود •

وطفق يردد لنفسه - ترديدا أحق - ان هذا الرجل يجب أن يموت • • اذ كان يعلم أنه لابد قاتله • وسواء ألقى القبض عليه ، أم لا ، وسواء أعدم أم لم يعدم ، فان الأمر يستوى لديه • لا وجود لغير هذه القدم، ولغير هذا الرجل الذى ينبغى عليه أن يسدد اليه ضربه قبل أن يستطيع الدفاع عن نفسه ، لأنه لو دافع عن نفسه ، فقد يصيح مستنجدا •

واختلجت أجفان « تشن » حين اكتشف فى نفسه - وهذا الكشف بلغ به الى حد الغثيان - انه لم يكن المقاتل الذى يتوقعه ، وانما شخص يقدم مغربانا • ولم يكن هذا القربان للآلهة الذين اختارهم فحسب ، بل كان قربانا

للثورة ، يتصاعد وراءه عالم من الظلمات العميقة الذى تعد هذه الليلة الطاحنة من القلق بالقياس اليه نورا وهاجا . « ان الاغتيال - وا أسفاه ! - لا يعنى القتل فحسب . . » وفى جيبه كانت قبضته المترددتان ، تضمان : اليمنى . موسا مقفلة ، واليسرى خنجرا صغيرا . وكان يدسهما فى أبعد مكان ممكن ، وكأن الليل لا يكفى لاختفاء حركاته . وكانت الموسى أضمن الا أن « تشن » كان يحس أنه لن يستطيع استخدامها على الاطلاق ، أما الخنجر فقد كان تقززه منه أقل . وتخلّى عن الموسى التى كان ظهرها يتخلل أصابعه المطبقة ، وكان الخنجر عاريا فى جيبه بلا غمد ، فنقله الى يده اليمنى ، بينما ترك يسراه تسقط على صفحة قميصه الصوفى ، وهناك ظلت ملتصقة بها . ورفع ذراعه اليمنى قليلا ، وقد راعه استمرار السكون الذى أحاط به ، وكأن حركته تلك كانت كفيلة باحداث كارثة . . . ولكن شيئا لم يقع : وظل الاقدام على الأمر متروكا له ، كما كان دائما .

القدم نابضة كأنها حيوان نائم . أهى حقا نهاية جسد ؟ « هل أصابنى مس من الجنون ؟ » ينبغى أن يرى هذا الجسد . . أن يراه ، وأن يرى هذا الرأس ، ودون ذلك لابد من أن يدخل منطقة الضوء ، وأن يدع ظله المكتنز يمر على السرير . ترى كيف تكون مقاومة الجسد ؟ وفى حركة تشنجية ، أغمد « تشن » الخنجر فى ذراعه اليسرى . وكان فى تلك اللحظة عاجزا عن ادراك أنها ذراعه هو ، غير أن الألم ، وفكرة البطش المؤكد به اذا استيقظ النائم أعاده برهة الى الواقع : فالعقاب أهون من جو الجنون الذى يحيط به . واقترب . وفجأة ، دارت القدم التى كادت تلمس سروال « تشن » كما فى النور الساطع . وفجأة ، دارت القدم التى كادت تلمس سروال « تشن » كما يدور المفتاح فى القفل ، ثم عادت الى وضعها القديم فى الليل الهادئ . ربما أحس النائم بحضوره احساسا لا يكفى مع ذلك ليقاظه . . . وتمشت القشعريرة فى أوصال « تشن » : انها حشرة تزحف على جسده . . كلا ، بل الدم يتساقط قطرات من ذراعه الجريحة ، وما برح شعور أشبه بدوار البحر يسيطر عليه .

حركة واحدة يموت بعدها الرجل . ان قتله ليس أمرا عسيرا : وانما لمسه هو المحال . ولا بد أن تسدد الطعنة تسديدا دقيقا . ولم يكن النائم الرائد على ظهره فى سرير من الطراز الأوروبى - يرتدى سوى سروال قصير ،

تخير أن ضلوعه من تحت جلده السمين لم تكن ظاهرة ، فكان على « تشن » أن يحدد هدفه مسترشدا بطرفي الثديين القاتمين . وكان يدرك مدى صعوبة الضرب من أعلى إلى أسفل ، ومن ثم فقد شعر نصل الخنجر في الهواء ، غير أن الثدي الأيسر كان أشد بعدا : فكان عليه من خلال شبكة الكلة ، أن يضرب إلى أقصى ما تصل إليه ذراعه في حركة منحنية أشبه بضربة « السوينج » في الملاكمة . وغير من وضع الخنجر ، فجعل نصله أفقيا .

ان لمس هذا الجسد الساكن لا يقل صعوبة عن ضرب جثة . . وربما كان ذلك للأسباب نفسها . وانبعثت من الرجل حشجة كأنما أهابت بها فكرة الجثة هذه . ولم يعد « تشن » قادرا حتى على التراجع ، فقد لانت ساقاه وذراعاها تماما ، وانتظمت الحشجة ، ذلك أنها لم تكن حشجة بل كانت شخيخا . لقد صار من جديد حيا ، قابلا للإصابة . وخامر « تشن » في الوقت نفسه شعور الخزي من ذلك الاستهزاء به . وانزلق الجسد في حركة خفيفة إلى اليمين . هل سيستيقظ الآن ؟ وأوقفه « تشن » بطعنة كافية لاختراق لوح من الخشب وسط حفيف « الموسلين » المتمزق الذي اختلط بصوت الضربة المكتوم . وامتد احساسه حتى طرف الخنجر ، فأحس بانتفاضة الجسد نحوه ، مدفوعا بهزة « الملة » المعدنية ، فشد ذراعه حانقا لكي يوقفه في مكانه : وهنا تراجعت الساقان معا صوب الصدر ، وكأنهما مربوطتان إليه ، ثم تراختا فجأة . وكان ينبغي عليه أن يضرب مرة أخرى ، ولكن كيف ينتزع الخنجر ؟ وكان الجسم راقدًا على جنبه دائما في غير استقرار ، وعلى الرغم من تلك الانتفاضة التي جعلته يهتز منذ لحظة ، فقد أحس « تشن » أنه إنما يثبتته إلى السرير بسلاحه القصير الذي ضغط عليه بثقله كله . ومن ثغرة واسعة في الكلة ، كان يستطيع أن يراه بجلاء : الجفنان مفتوحان . . . آمن الممكن أن يكون قد استيقظ في تلك اللحظة ؟ وكانت العينان بيضا كلها . وبدأ الدم يسيل على نصل الخنجر . . . دم أسود في ذلك الضوء الزائف وكان يبدو أن الحياة ما زالت تتردد في ثقل هذا الجسد المتهيب للسقوط يمنة أو يسرة . ولم يستطع « تشن » أن يتخلى عن الخنجر . وعبر هذا السلاح ، وعبر ذراعه المتصلبة ، وكنفه المتوجعة سرى تيار من القلق يصل بين ذلك الجسم وبينه ، حتى أعماق صدره ، وحتى قلبه المتشنج ، وهو الشيء الوحيد الذي كان يتحرك في تلك الحجرة . ووقف جامدا جمودا مطلقا ،

وخيل اليه أن الدم الذى ما زال يسيل من ذراعه اليسرى هو دم الرجل. الراقد ، ودون أن يطرأ شيء جديد أيقن فجأة أن هذا الرجل قد مات • وكان لا يكاد يتنفس ، ولكنه ظل يسند الرجل على جنبه فى ذلك النور الثابت. العكر ، وفى تلك الوحشة التى خيمت على الحجرة • ولم ينم أثر ما على وقوع عراك ، حتى ذلك التمزق فى قطعة الموسلين الذى كاد يشطرها الى نصفين : لا لشيء سوى السكون ونشوة ساحقة غاص فيها ، منعزلا عن عالم الأحياء ، متشبثا بسلاحه • واشتد انقباض أصابعه أكثر فأكثر ، غير أن عضلات ذراعه ارتخت ، وبدأت ذراعه كلها ترتجف كما يرتجف الوتر • ولم يكن ما به خوفا ، ولكنه كان ذعرا فظيحا مهيبا فى الوقت نفسه ، ذعرا لم يعد يعتريه منذ طفولته : لقد كان وحيدا مع الموت ، وحيدا فى مكان خلا من البشر ، وقد سحقه الرعب ، وطعم الدماء فى آن واحد ، فأذاباه •

واستطاع أن يبسط قبضته ، فتدحرج الجسد برفق على بطنه : وحين انحرف مقبض الخنجر عن موضعه ، انتشرت على الملائة بقعة قاتمة ، أخذت تتسع شيئا فشيئا وكأنها كائن حي • والى جانبها ، أخذ يتسع مثلها أيضا ، ظل أذنين مدببتين •

كان الباب قريبا ، وكانت الشرفة أبعد ، ومن هذه الشرفة كانت تأتي الظلال • وعلى الرغم من أن « تشن » لم يكن يؤمن بالعفاريت ، إلا أنه ظل مشلولاً عاجزاً عن أن يتلفت • وقفز عن موضعه ، فقد تناهى الى سمعه مواء • وأحس بشيء من الخلاص ، فتجراً على النظر : كانت قطة قدرة تسللت عن طريق النافذة بأقدامها الصامتة ، وقد سددت اليه عينيه • واستولى على « تشن » غضب اشتد احتداده كلما تقدم الظل ، ولم يكن هذا الغضب موجهاً ضد الحيوان نفسه ، وإنما ضد هذه الحضرة ، فما كان ينبغي لكائن حي أن يتسلل الى المنطقة الوحشية التى ألقى فيها : ان النظرة اليه ممسكا بتلك المديّة كانت تمنعه من العودة الى عالم الناس • وفتح الموسيقى ، وتقدم خطوة الى الأمام ، فلاذ الحيوان بالفرار من الشرفة ، وانطلق « تشن » فى أعقابها ، وفجأة ، ألقى نفسه وجها لوجه أمام شئهاى •

وبات الليل - وقد سرى فيه ما يهز تشن من قلق - يغلى كسحابة هائلة من الدخان الأسود مليئة بالشرر ، وعلى ايقاع أنفاسه التى قل لهاثها شيئا

فشيئا ، سكن الليل • وبين مرق السحب ، استقرت نجوم في حركتها الأزلية التي اجتاحتها مع هواء الخارج الذي برد • وانطلقت صفارة ، ولكنها لم تلبث أن تبددت في ذلك السكون المقبض • وهناك في أسفل المدينة تماما ، حيث تنعكس أضواء منتصف الليل من خلال الضباب الأصفر على صفحة الأسفلت المبتل وخطوط القضبان الباهتة • • هناك كانت تنفق حياة الناس الذين لا يقتلون • ملايين من الحيوانات التي تنبذ الآن جميعا حياته ، ولكن أين تقع ادانتهم التعسة اذا قيسست بالموت الذي بات ينحسر عنه ، والذي كان يبدو له أنه يتدفق من جسده دفقات طويلة مثل دم الرجل الآخر ؟ ان هذه الظلال جميعا الساكنة منها والمتأرجحة هي الحياة ، انها كالنهر ، كالبحر البعيد الذي لا يبلغه البصر - البحر • • • وتنفس أخيرا من أعماق صدره ، وخيل اليه أنه عاد الى الحياة مرة أخرى ، فأحس بعرفان لا حد له ، وأوشك على البكاء ، وانتابته الحيرة التي استولت عليه منذ لحظة • « ينبغي الفرار • • • » ولبث في مكانه ، يتأمل حركة السيارات ، والمشاة الذين يهرولون تحت قدميه في الشارع المضيء ، وكأنه أعمى استرد بصره ، أو جائع يلتهم طعامه • وود في نهمه الذي لا يرتوي الى الحياة أن يلمس هذه الأجساد • وانطلقت الصفارة مرة أخرى ، وانتشرت في الأفق ، عبر النهر • • انها تعلن انتهاء « وردية » عمال الليل في الترسانة • ألا تبا لهم من عمال حمقى ذهبوا ليصنعوا الأسلحة المخصصة لقتل هؤلاء الذين يجاهدون من أجلهم ! وهل قدر على تلك المدينة المضاعة أن تبقى في حوزة ذلك الديكتاتور العسكري كأنها حقل يملكه ، وأن تؤجر حتى الممات - كأنها القطيع - الى قواد الحرب ، وتجار الغرب ؟ ان جريمة القتل التي ارتكبها تعادل انتاج أيام طويلة تقوم به ترسانات الصين : فالثورة الوشيكة التي تهدف الى وضع شنغهاي في أيدي القوات الثورية لا تملك مائتي بندقية • • أما اذا ملكت الثورة الغدارات (وعددها حوالي ثلاثمائة) التي كان يتفاوض ذلك الوسيط المقتول لبيعها الى الحكومة ، فان فرص الشوار تتضاعف ، ذلك أن أول عمل ينبغي أن يقوموا به هو أن يجردوا البوليس من أسلحته ، ليزودوا بها رجالهم • ولكن « تشن » لم يفكر في شيء من ذلك ولو مرة واحدة خلال الدقائق العشرة الأخيرة •

ولم يكن قد أخذ بعد الورقة التي قتل من أجلها هذا الرجل • فعاد أدراجه ، وكأنه يعود الى السجن • وكانت الثياب معلقة عند قدم السرير

تحت الكلة • وفتش الجيوب •• فوجد منديلا ، وسسجائر •• ولم يجد المحفظة ؛ والحجرة ما زالت على حالها لم تتغير : الكلة ، والجدران البيض ، والمستطيل المحدد من الضوء ، ان جريمة القتل لا تغير اذن شيئا •• ومد يده تحت الوسادة وقد أغمض عينيه ، فأحس بالحافطة ، صغيرة جدا ، أشبه بحافطة النقود • أكان خجلا أم قلقا ما أحس به ؟ وزاد من قلقه ضغط الرأس الخفيف على الوسادة ففتح عينيه مرة أخرى • لم تكن ثمة دماء على الحشوية ، ولا يكاد يبدو على الرجل أنه ميت • أينبغى عليه اذن أن يقتله مرة أخرى ؟ ولكن سرعان ما التفت عيناه بالعينين البيضاتين وبالدماء التي لطخت الملاة ، فتخلص من هذا الاحساس وانسحب الى حيث يوجد الضوء لكي يفتش في الحافطة • وكان هذا الضوء آتيا من مطعم زاخر بالمقامين • ووجد الوثيقة فاحتفظ بالحافطة ، واجتاز الحجرة ركضا ، وأدار المفتاح في قفل الباب مرتين ، ثم وضع المفتاح في جيبه • وفي نهاية دهليز الفندق - وكان يحاول أن يخفف من سرعته - لم يجد المصعد • أيقرع الجرس ؟ ونزل على السلم • وفي الطابق السفلي حيث المرقص والبار وموائد البلياردو ، كان نحو عشرة أشخاص ينتظرون المصعد ، الذي لم يلبث أن وصل • وسار في أثرهم • وخاطبه الرجل المجاور له بالانجليزية قائلا : « ان الراقصة ذات الرداء الأحمر رائعة حقا » ، وكان يبدو عليه أنه من بورما أو سيام ، وأنه في حالة سكر خفيفة • وود « تشن » في آن واحد أن يصفعه ليرغمه على الصمت ، وأن يعانقه لأنه كان حيا • فغمغم بكلمات على سبيل الإجابة ، فربت الآخر على كتفه مؤيدا • « انه يظن أنني مخمور أنا أيضا •• » غير أن المنحدث فتح فمه من جديد ، فبادره « تشن » قائلا بلغة أهل بكين : « اننى أجهل اللغات الأجنبية » فأطبق الآخر شفثيه ، ولكنه حذق في اهتمام الى هذا الشاب الذى لا يرتدى ياقة ، وانما يلبس صديريا من الصوف الممتاز • وكان « تشن » يقف فى مواجهة مرآة المصعد الداخلية ، ان الجريمة لم تترك أى أثر على وجهه ••• فلم تتغير ملامحه التى هى أشبه بلامح المغول منها بلامح الصينيين : وجنتان بارزتان ، وأنف أفطس جدا ، وان تكن ذات طرف خفيف ، أشبه بالمنقار ••• لم تتبدل ملامحه ، وان ارتسم عليها التعب ••• بل ان كتفيه الراسختين ، وشفثيه الغليظتين اللتين تنمان عن رجل طيب ، بقيت على حالها لا تعبر عن شيء غريب يثقله •• اللهم الا ذراعه التى أحس بلزوجتها وسخونتها حين ثناها • وتوقف المصعد ، فخرج مع الآخرين •

الساعة الواحدة صباحا

وابتاع زجاجة من المياه المعدنية ، واستدعى سيارة أجرة : سيارة مغلقة ، وفيها غسل ذراعه ، وعصبتها بمنديل . وكانت قضبان الترام المهجورة وبرك مياه الأمطار الخفيفة التي تساقطت في الأصيل تلمع لمعانا باهتا . وعليها انعكست السماء المضيئة . ورفع اليها « تشن » بصره ، دون أن يدري لذلك سببا : وما كان أقربه اليها منذ لحظة حين فطن الى النجوم ! وانه لينأى عنها كلما أخذ حماسه في الفتور ، وعاد الى عالم الناس . . وفي أقصى الشارع ، كانت السيارات ذات المدافع رمادية بلون برك المياه ، وثمة حاجز متألق من الخوذات التي تحملها ظلال صامتة : انها فصيلة من الجنود تدل على نهاية منطقة النفوذ الفرنسي ، ان سيارة الأجرة لا تستطيع أن تمضي الى أبعد من ذلك . وأبرز « تشن » جواز مرور مزيف يثبت أنه كهربائي يعمل في منطقة النفوذ ، ونظر الحارس في الورقة بلا مبالاة (« ان ما فعلته لتوى لا يبدو للعيان بكل تأكيد ») ، ثم أذن له بالمرور . وأمامه امتد شارع الجمهوريتين ، الذي يعد حدا للمدينة الصينية .

وحشة وسكون . . . وهزيم الأمواج المحملة بجلبة أكبر مدينة صينية تضيق في هذا المكان ، كما تضيق الأصوات المنبعثة من أعماق الأرض في قاع البئر : جلبة الحرب ، والهزات العصبية الأخيرة لحشد لا يريد أن يخلد الى النوم . على أن الناس كانوا يعيشون بعيدا ، وأما هنا ، فلم يبق شيء من العالم غير ليل استسلم له « تشن » بغريزته كما يستسلم لصداقة مفاجئة : فهذا العالم الليلي المضطرب لا يتعارض مع القتل . انه عالم اختفى منه الناس . . عالم أبدي ، فهل سيغمر الفجر مرة أخرى هذه الأسقف القرميدية الخربة ، وهذه الأزقة التي في أحشائها يضيء مصباح جدارا بلا نوافذ ، وعشا عن أسلاك البرق ؟ واستغرقه عالم الجريمة ، فبقى فيه كما يبقى المرء في الدفء . ولم تكن ثمة حياة أو وجود ، أو صوت قريب ، أو حتى صيحة الباعة الصغار ، أو نباح الكلاب الضالة .

وأخيرا ، وصل الى حانوت قدر : « جراموفونات لو - يو - شن وهملريش » لا بد من العودة الى الناس . ولكنه انتظر بضع دقائق لا يستطيع لنفسه انتزاعا ، وأخيرا طرق مصراعا خشبيا ، فانفتح أحد الأبواب على الفور : انه

انه حانوت مليء بالاسطوانات المرتبة فى عناية ، عليه مظهر مكتبة الحى العامة ، وهناك فى الجزء الخلفى من الحانوت ، وهو فسيح ، كان أربعة من الرفاق يرتدون الأقمصة •

وحين أغلق الباب تأرجح المصباح ، فاخفتت الوجوه ، ثم ظهرت من جديد : على اليسار « لو - يو - شن » المستدير تمام الاستدارة ، ثم رأس همليش الحليق وكأنه ملاكم مرهق مكسور الأنف ، غائر الكتفين ؛ وإلى الخلف ، فى الظلام ، كان كاتوف ؛ وعلى اليمين ، كيوجيسور ؛ وحين عبر المصباح فوق رأسه أظهر فى جلاء ركنى فمه الهابطين كأنه صورة من الصور اليابانية المطبوعة ، وما أن ابتعد المصباح حتى تحولت الظلال ، وبدأ هذا الوجه الهجين أشبه بوجه أوربى • وتزايدت سرعة تأرجح المصباح ، فجعل وجهها « كيو » يظهران كل بدوره ، وأخذ الاختلاف بينهما يقل رويدا رويدا •

كان التلهف على السؤال يسيطر عليهم جميعا ، فتطلعوا الى « تشن » فى توتر أبله ، ولكنهم لم ينطقوا بشيء ، أما هو فقد نظر الى بلاط الأرضية الذى تناثرت عليه بذور عباد الشمس • انه يستطيع أن يزود هؤلاء الرجال بالمعلومات ، ولكنه لا يستطيع مطلقا أن يشرح لهم ما يدور بنفسه • وكانت مقاومة الجسد للخنجر تسيطر عليه ، فقد كانت أشد من مقاومة ذراعه : « ولولا سورة المفاجأة ، ما نفذ السلاح عميقا فى جسد الرجل • وماكنت أتوقع قط أن يكون الجسم بهذه الصلابة • • • »

قال : « لقد تم كل شيء » •

وفى تلك الحجرة ، وجهها لوجه ازاء الجسد ، كان على يقين من شيء واحد ، انه « أحس » بالموت •

وأخرج التصريح بتسليم الأسلحة • وكان النص طويلا ، فشرع « كيو » فى قراءته : « أجل ، ولكن • • • »

وانتظر الجميع • ولم يكن « كيو » متعجلا أو محتدا ، وظل يقرأ بلا حراك وان انقبض وجهه قليلا • غير أن الجميع أحسوا بأن ما اكتشفه يحيره ، وأخيرا أعلن قائلا : « ان ثمن الأسلحة لم يدفع • • الدفع عند التسليم » •

واستبد الغضب بـ « تشن » ، وكأنه سرق فى غفلة من أدره • تأكد من.

أن هذه الورقة التي كان يبحث عنها ، دون أن يسمح له الوقت لقراءتها .
على أى حال ، ما كان يستطيع أن يغير شيئا . وأخرج الحافظة من جيبه .
وناولها لـ « كيو » : لم يكن فيها غير صور فوتوغرافية ، وايصالات .
ولا ورق غير ذلك .

قال كيو : « نستطيع أن ندبر الأمر - على ما أعتقد - مع احدى فرق
الهجوم » .

وأجاب كاتوف : « ان كنا نستطيع أن نتسلل الى ظهر السفينة ، فمن
الممكن أن يتم كل شيء على ما يرام » .

وساد الصمت . وانتزع حضورهم « تشن » من وحدته الرهيبة في
رفق ، كما تنتزع نباتا من الأرض ما زالت جذوره الدقيقة تشده اليها .
وكلما عاد اليهم في الوقت نفسه ، رويدا رويدا ، كان يبدو له أنه يتعرف
عليهم للمرة الأولى ، كما تعرف على أخته حين عاد اليها بعد أن زار للمرة الأولى
في حياته منزلا للبغاء . كان هناك التوتر الذي يشيع في قاعات القمار حين
يشرف الليل على نهايته .

وسأل كاتوف : « هل سار كل شيء سيرا حسنا ؟ » ووضع اسطوانته
أخيرا ، وتقدم حيث يوجد الضوء .

وتأمل « تشن » - دون أن يحير جوابا - رأس هذا الروسي الطيب بعينه -
الضيقتين الساخرتين وأنفه المرفوعة في الهواء - تلك الرأس التي كان
لا يستطيع حتى هذا الضوء أن يضيئ عليها مسحة درامية ، أما هو ، فكان
يعرف ما هو الموت . ونهض ، وتقدم ليلقى نظرة على « الجدد » النائمين في
قفصه الصغير . وكان يمكن أن تكون لـ « تشن » أسبابه التي تدعوه الى
الصمت ، لقد راح يراقب حركة الضوء التي أتاح له أن يكف عن التفكير :
غير أن صيحة الجدد المتهدجة - وكان قد استيقظ عند مجيئه ، اختلطت
باهتزازات الظلال الأخيرة على الوجوه . وما برحت فكرة صلابة الجسد
مسيطرة عليه ، ورغبته في أن يتكئ بذراعه في قوة على أول شيء يصادفه .
ولم يكن الكلام مجديا اللهم الا في تعكير ألفته بالموت ، تلك الألفة التي استقرت
في فؤاده . وسأله كيو : « متى خرجت من الفندق » .

— « منذ عشرين دقيقة » .

وألقى نظرة على ساعته . . انها الواحدة الا عشر دقائق .

— « جميل . . فلننه أمورنا هنا ، ثم نغادر المكان » .

— « أريد أن أقابل أباك يا كيو » .

— « أنت تعلم أن الأمر سيحدث غدا بكل تأكيد ؟ »

— « فليكن » .

وكانوا يعلمون جميعا ما يعنيه كيو . . انه يشير الى وصول القوات الثورية الى المحطات الأخيرة في الخط الحديدي ، وهذا الوصول اشارة البدء بالثورة .

وردد تشن قوله : « فليكن » . . ذلك أن الشعور بالخطر ، كجميع الأحاسيس العنيفة ، يخلف وراءه فراغا ، فكان يسعى الى استعادته .

— « ومع ذلك ، أريد أن أراه » .

— « اذهب اليه هذه الليلة ، فانه لا ينام مطلقا قبل الفجر » .

— « سأذهب اليه حوالى الساعة الرابعة » .

وكان « تشن » يتجه بوحى من غريزته الى الأب چيسور حين يحتاج الى من يفهمه ، ومع أنه يعلم أن موقفه هذا يؤلم كيو — وعلى الأخص لأن يخلو من كل غرور — فانه لم يكن يستطيع أن يمتنع عنه : لقد كان « كيو » أحد منظمى الثورة ، وكانت اللجنة المركزية تثق به ، وكان تشن أيضا يثق به ، غير أنه ما كان يقدم على القتل أبدا اللهم الا اذا اشتبك في قتال . أما « كاتوف » فكان أقرب الى نفسه . كاتوف الذى حكم عليه بالأشغال الشاقة خمس سنوات سنة ١٩٠٥ حين اشترك ، وهو اذ ذاك طالب بكلية الطب ، فى الهجوم — الصبيانى — على سجن أودسا ، ومع ذلك . . .

وكان الروسى يأكل قطعة صغيرة من الحلوى المسكرة ، واحدة اثر أخرى ، بدون أن يكف عن النظر الى « تشن » ، وفجأة أدرك « تشن » معنى الشراهة . فالآن ، وقد قتل شخصا ، كان من حقه أن يشتهى أى شىء . أجل . . الحق ، يولو كان ذلك شيئا صبيانيا . ومد كفه المربعة . . فظن « كاتوف » أنه يريد مغادرة المكان ، ولهذا صافحه . ونهض تشن : فربما كان من الخير كذلك

أن ينصرف اذ لم يعد أمامه ما يفعله فى هذا المكان ، فقد أحيط « كيو » بكل شىء ، وعليه أن يتصرف وفقا لهذه المعلومات • أما هو تشن - فانه يعرف ما يريد أن يفعله الآن • وبلغ الباب ، ولكنه عاد ثانية وقال :

- « ناولنى هذه الحلوى » •

فناولته « كاتوف » كيس الحلوى • وكان يريد أن يتقاسمها معه ، ولكنه لم يجد ورقا ، فملاً تجويف راحته ، وحشا فيه ، ثم خرج •

وقال كاتوف : « لابد أنها كانت مهمة شاقة » •

وكان « كاتوف » قد لجأ الى سويسرا وأقام بها من سنة ١٩٠٥ الى سنة ١٩١٢ ، حيث عاد خفية الى روسيا ، وعلى الرغم من أنه كان ينطق الفرنسية دون أن تشوبها أية لكنة روسية ، الا أنه كان يبتلع بعض حروف الحركة ، وكأنما يريد أن يعوض على هذا النحو ضرورة النطق الواضح حين يتحدث بالصينية • ومع أنه كان فى هذه اللحظة يكاد يقف تحت المصباح ، الا أن الضوء على وجهه كان قليلا • وكان « كيو » يفضل رؤيته على هذه الصورة ، وقد ارتسم عليه تعبير عن السذاجة الساخرة ، تضيفه على وجهه تلكما العينان الضيقتان ، وعلى الأخص تلك الأنف المرفوعة (وكان همليش يشبهه بعصفور يسخر دون أن يضحك) ••• هذا التعبير الذى كان يزيد من إبرازه أنه يخالف ملاحظه ، مما كان يضايقه كثيرا •

قال كيو : « فلننته من هذا الموضوع • أليك الاسطوانات يا « لو ؟ »

وبابتسامة عريضة تنم عن استعداده لأداء آلاف الانحناءات المعبرة عن الاحترام ، وضع لو - يو - شن الاسطوانتين كلا على جراموفون ، بعد أن فحصهما كاتوف ، وكان لابد أن تبدأ كل منهما فى الحركة فى وقت واحد •

وشرع كيو فى العد قائلا : « واحد ، اثنين ، ثلاثة » •

وطغى صفير الاسطوانة الأولى على الاسطوانة الثانية ، وفجأة ، انقطع هذا الصفير ، واتضح كلمة : « أرسلوا » ، ثم عاد الصفير مرة أخرى ، واتضح كلمة أخرى « ثلاثين » •• تبعهما صفير آخر ، تلته كلمة « رجلا » •• ثم امتد الصفير •

وهتف كيو : « رائع » ، ثم أوقف الحركة ، وأدار الاسطوانة الأولى.

«وحدها : صفير .. سكون .. صفير . قف . حسن . ضع عليها ما يفيد انها
- غير صالحة للاستعمال .

والآن ، فلنستمع الى الاسطوانة الأخرى : الدرس الثالث . يجرى ...
يمشى ، يذهب ، يجرى ، يرسل ، يتلقى . واحد ، اثنان : ثلاثة ، أربعة ،
- خمسة ، ستة ، سبعة ، ثمانية ، تسعة ، عشرة ، عشرون ، ثلاثون ، أربعون ،
- خمسون ، ستون ، مائة . رأيت عشرة رجال يركضون . عشرون امرأة هنا .
ثلاثون ...

وكانت هذه الاسطوانات المزورة لتعليم اللغات رائعة ، والبطاقة الموضوعة
- عليها بارعة التقليد .. ومع ذلك كان « كيو » قلقا :

- « أكان تسجيلي رديئا ؟ »

- « انه جيد جدا .. بديع . »

وانفجرت أسارير « لو » عن ابتسامة ، بينما بدا عدم الاكتراث على
- همليش . وفى الطابق العلوى ، صرخ الطفل متألما .

ولم يعد « كيو » قادرا على الفهم :

- « اذن لماذا غيرتموه ؟ »

فأجاب لو : « انه لم يتغير ، انه صوتك نفسه .. ومن النادر أن يتعرف
- المرء على صوته ، كما ترى ، حين يسمعه للمرة الأولى . »

« الحاكي يشوّهه ؟ »

كلا .. ليس هذا هو السبب ، فان كلا منا يتعرف بلا عناء أصوات
- الآخرين ، ولكننا لم نألف ، كما ترى ، سماع أنفسنا ... »

وكان « لو » مغتبطا اغتباط الصينى حين يشرح لرجل مثقف شيئا
- : يجهله .

« وهذا الكلام ينطبق على لغتنا أيضا ... »

- « تماما .. أما زالت الخطة أن يأتى من يأخذ الاسطوانات الليلة ؟ »

- « ستبحر السفن فجر غد متجهة صوب « (هان - كيو) » . »

وكانت الاسطوانات ذات الصفير مرسلة على احدى السفن ، بينما كانت

الاسطوانات التى تحمل الكلام مرسلة على سفينة أخرى . . وكانت هذه الاسطوانات الأخيرة فرنسية أو انجليزية تبعا للبعثة الموجودة فى المنطقة بروتستانتية كانت أم كاثوليكية . وكان الثوار يستخدمون اسطوانات حقيقية لتعليم اللغات تارة ، واسطوانات مسجلة بأصواتهم تارة أخرى .

وقال كيو لنفسه مفكرا : « حين يطلع النهار . . وكم من أشياء قبل أن يطلع النهار ! . . » ونهض من مكانه .

— « لابد من متطوعين ، لأجل الأسلحة . . وبعض الأوروبيين ، ان أمكن » .

واقترب منه همليش . وفى الطابق العلوى ، صرخ الطفل من جديد .

قال همليش : « ها هو الطفل يجيبك . أيكفيك هذا ؟ ماذا أنت صانع بالطفل الذى أوشك أن ينفق ، والمرأة التى تئن فى الطابق العلوى بصوت خافت حتى لا تزعجنا . . . »

وكان الصوت الذى يشوبه شئ من البغض هو صوت الرجل صاحب الأنف المكسور ، والعينين الغائرتين اللتين وضع مكانهما الضوء العمودى — بقعتين سوداوين .

وأجاب كيو : « لكل عمله . . والاسطوانات ضرورية أيضا . . وأستطيع ان أتصرف أنا وكاتوف . فلنذهب للبحث عن بعض رجالنا . (وسنعرف خلال ذلك ان كنا سنقوم بالهجوم غدا أم لا) وأنا . . . »

فقال كاتوف : « لاحظ أنه من الممكن أن يكتشفوا الجثة فى الفندق » .

— « لن يكون ذلك قبل الفجر . فقد أغلق تشن باب الحجرة بالمفتاح . . وليست هناك دوريات » .

— « ربما كان الوسيط على موعد ما ؟ »

— « فى هذه الساعة بالذات ؟ هذا شئ بعيد الاحتمال » . ومهما يحدث فان المهم هو تغيير مرسى السفينة : فاذا حاولوا أن يصلوا اليها ، أضاعوا على الأقل ثلاث ساعات قبل العثور عليها . . انها تقف الآن عند حدود الميناء .

— « الى أين تريد أن ننقلها ؟ »

— « الى قلب الميناء . . حيث لا ترسو على رصيف بالطبع . . فهناك

مئات من السفن . . كذلك تضيع ثلاث ساعات على الأقل . على الأقل .
 * - « ربما ارتاب القبطان فيما يحدث . . . »

ولم يكن وجه « كاتوف » يفصح مطلقا عن عواطفه : وانما يستقر عليه دائما ذلك التعبير من المرح الساخر . . أما في هذه اللحظة ، فقد كانت نغمة صوته وحدها تشي بقلقه . . . ولهذا كان تعبيره قويا .

قال كيو : « اننى أعرف خبيرا فى صفقات الأسلحة . وسيضع فيه القبطان ثقته . ونحن ، وان لم نملك كثيرا من المال ، الا أننا نستطيع أن ندفع لهذا الخبير أجره . . وأعتقد أننا متفوقون على أن نستخدم التصريح للصعود الى ظهر السفينة وأن ندبر أمرنا بعد ذلك ؟ »

وهز « كاتوف » كتفيه ، وكأن الأمر واضح لا يحتاج الى جدال . وارتدى معطفه الخشن الذى لا يقفل ياقته قط ، وناول كيو سترة كانت معلقة على أحد المقاعد ، وصافح كل منهما همليش فى حرارة . فما كان المعطف الا ليزيد من اذلاله . وانصرفا .

وتركما الشارع على الفور ، ودخلا الحى الصينى .

وكانت السحب المتكاثفة الواطئة التى تنفرج فى بعض الأماكن لا تدع نجوم آخر الليل تظهر الا من أعماق الثغرات الممتدة بينها . وكانت هذه الحياة التى تشيع بين السحب تضيئ حيناً على الظلمة التى تخف تارة ، وتشهد تارة أخرى ، وكأن ظلالا هائلة تأتى لتزيد الليل قتامة . وكان كاتوف وكيو ينتعلان أحذية للرياضة ذات نعال من المطاط ، فما كانا يسمعان خطواتهما الا حين ينزلقان على الوحل . وعلى جانبى مناطق النفوذ - حيث يوجد العدو - كان ثمة وهج يحف بأسطح المنازل . وانبعث فى الجو صوت صفارة طويلة أخذ يتضخم فى بطن حتى ملأ الرياح التى تحمل ضوضاء المدينة المحاصرة ، تلك الضوضاء التى أوشكت أن تتلاشى كما حملت صغير الزوارق الصغيرة التى انضمت الى السفن الحربية - هبت هذه الرياح على المصابيح الكهربائية البائسة التى تضيء جوف الأزقة والحدائق ، وحول تلك المصابيح ، برزت من الظلال المهجورة جدران متآكلة كشف عنها بكل ما فيها من ثغرات ، هذا النور الذى لم يكن شئ يؤرجحه ، وكأنها تصدر عن أولية قدرة . هذه الجدران تحجب نصف مليون من الناس : أهل مصانع النسيج ،

أولئك الذين يعملون منذ طفولتهم ست عشرة ساعة يوميا . . شعب من القروح والعاهات والبطون الجائعة . وغامت الزجاجات التي تغطي المصابيح الكهربائية ، ولم تلبث أمطار الصين العنيفة المنهمرة أن اجتاحت المدينة في دقائق معدودات .

وناجي كيو نفسه قائلا : « انه حي طيب » . . ذلك أنه كان ينتقل منذ أكثر من شهر - من اجتماع الى آخر ليعد الثورة فلم يعد يرى الشوارع . . لم يكن يسير في الوحل ، وانما يسير على خطة معينة . واختفى صراع ملايين الحيوانات الصغيرة اليومية ، وقد سحقته حياة أخرى . ولم يعد مناطق الامتيازات ، وللأحياء الغنية بأسوارها التي غسلتها الأمطار عند أطراف الشوارع . . لم يعد لهذه الأحياء وجود الا بوصفها أخطارا تهدد ، وحوارج وجدعان سجن ممتدة لا نوافذ فيها ، أما الأحياء الفظيعة التي منها تألفت معظم قوات الثورة ، فكانت على العكس من ذلك تنبض بانتفاضة شعب متربص . وعند منعطف أحد الأزقة ، غاصت نظراته فجأة في أعماق الضوء المنبعث من شارع عريض . وعلى الرغم من الأمطار المنهمرة التي كانت تحجب هذا الشارع ، فقد ظل يراه في صورة امتداد أفقي ، اذ كان لابد من مهاجمة هذا الشارع في مواجهة بنادق ومدافع رشاشة ، تطلق نيرانها من أقصاه . وكانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني قد عهدت الى كيو بعد فشل مظاهرات فبراير - بتنسيق قوات الثورة . وفي كل شارع من هذه الشوارع الهادئة التي اختفت معالم منازلها تحت سيل المطر ذي الرائحة الشبيهة برائحة الدخان ، ضوعف عدد المقاتلين . كان « كيو » قد طلب رفع العدد من ألفي رجل الى خمسة آلاف ، فتمكنت القيادة من ذلك في خلال شهر . غير أنهم لم يكونوا يمتلكون سوى مائتي بندقية (وكان هناك ثلاثمائة غدارة على السفينة « شان تونج » التي ترقد ساهرة وبسط النهر المتلاطم الأمواج) . وكان « كيو » قد تولى تنظيم مائة واثنين وتسعين فرقة مقاتلة ، تضم كل منها خمسة وعشرين رجلا ، ولا يحمل السلاح الا رئيس الفرقة . . .

وتفقد أثناء مروره « جاراجا » شعبيا مليئا بسيارات النقل القديمة التي حولت الى أوتوبيسات . وكانت الجراجات كلها « مندرجة » في القائمة . وكانت الادارة العسكرية قد شكلت هيئة أركان حربية ، وانتخب مجلس الحزب لجنة مركزية ، فاذا بدأت الثورة كان لابد أن تكون تلك الهيئات على اتصال (لا م ٢ - قدر الانسان)

مستمر بفرق الهجوم • وأنشأ كيو وحدة اتصال أولى مؤلفة من مائة وعشرين راكب دراجة ، بحيث اذا انطلقت الرصاصات الأولى ، كان على نماني فرق أن تحتل الجاراجات ، وأن تستولى على السيارات • وكان رؤساء هذه الفرق قد فحصوا تلك الجاراجات ، ومن ثم فانهم لن يرتكبوا أية أخطاء • أما الرؤساء الآخرون ، فقد ظل كل منهم يدرس - منذ عشرة أيام - الحى الذى سيقا تل فيه • كم عدد الزوار الذين دخلوا - ذلك اليوم نفسه - الى الأبنية الرئيسية ، طالبين مقابلة صديق لا يعرفه أحد ، فتحدثوا وقدموا الشاى قبل رحيلهم ؟ وكم من العمال ، رغم المطر المنهمر ، عكفوا على اصلاح السقوف ؟ لقد أصبحت كل المراكز المفيدة للقتال الذى سينشب فى الشوارع معروفة • • وأفضل المواقع لاطلاق النار كانت مبينة على الخرائط الموجودة فى المركز الدائم لفرق الهجوم • وكان مايعلمه كيو عن الحياة الدفينة للذرة يعرضه عما يجهل • ثمة شىء يتجاوز به الى ما لا نهاية ، كان يتصاعد من أجنحة المدينة الكبيرة الممزقة • • من تشاباي وبوتونج اللتين تكسوهم المصانع ويكسوهم البؤس • • شىء يتصاعد لتفجير مراكز الأعصاب الهائلة الكامنة وسط المدينة ، وكان حشدا خفيا يعجل بليل القيامة هذا •

قال كيو : « غدا ؟ »

وتردد كاتوف ، وكف عن هز راحتيه الكبيرتين • كلا ، ان هذا السؤال ليس موجها اليه • • أم الى أحد •

وسارا صامتتين • • وتحول المطر الغزير شيئا فشيئا الى رذاذ ، وخفت الضجة التى يحدثها المطر بسقوطه على أسقف المنازل ، وامتلا الشارع الأسود بخير جداول المياه • وارتخت عضلات وجهيهما ، أما كيو فحين اكتشف الشارع كما يتبدى فى الواقع • • • شارع طويل ، أسود ، لا يكثرث بشىء - فقد توسم فيه ماضيا انتهى عهده • • ذكرى ملحة تدفعه الى الأمام •

وتساءل كيو : « أين تعتقد أن تشن قد ذهب ؟ لقد قال انه لن يذهب الى أبى الا فى حوالى الساعة الرابعة • أترأه قد ذهب لينام ؟ »

وكان فى سؤاله اعجاب يشيع فيه لون من الارتياح •

« لا أدري • • • ربما ذهب الى ماخوز • • • فهو لا يدمن الشراب • • • »

ووصلا الى حانوت : « شيا • • • تاجر مصابيح • • • المصابيح مغلقة ، كما

«هى الحال فى كل مكان .. وفتح الباب وأمامهما انتصب رجل صينى قصير القامة نحيف لا تبين ملامحه فى الضوء المعتم الذى ينبعث من الخلف : ومن هالة الضوء المحيطة برأسه كانت أقل حركة تصدر منه ، ترسل شعاعا زيتيا على أنفه الضخم الذى حفرتة البثور . وكانت مئات الزجاجات التى تحيط « بمصابيح - العاصفة » المعلقة تعكس وهج مصباحين قائمين على منضدة الحساب ، ولا يلبث هذا الوهج أن يتبدد فى الظلمة التى تجثم على أعماق الحانات المحتجة .

قال كيو : « ويعد ؟ »

ونظر اليه « شيا » وهو يفرك كفيه فى ترحيب ، ثم قفل على أعقابهِ دون أن يقول شيئا ، وتقدم بضغ خطوات ، وفتش فى مكان خبيء . واحتكت أظافره بشيء من الصفيح . فضرست أسنان كاتوف ، وسرعان ما عاد تتأرجح -حالات بنطلونه المتدلّية يمنة ويسرة وقرأ الورقة التى أتى بها ، فى ضوء صادر من أسفل نحو رأسه التى كادت تلتصق بأحد المصابيح . كان ذلك تقريراً من المنظمة العسكرية المكلفة بالاتصال برجال السكك الحديدية ، وقد ورد فيه أن الامدادات التى تدافع عن شىغهاى ضد الثوار تأتى من نانكين : وأن عمال السكك الحديدية قرروا الاضراب عن العمل ، غير أن جنود الحرس الأبيض والجيش الحكومى ، كانوا يرمون بالرصاص أولئك الذين يمتنعون عن قيادة القطارات الحربية .

ومضى الرجل الصينى فى قراءته قائلاً : « وأخرج أحد رجال السكك الحديدية المعتقلين القطار الذى يقوده عن الخط الحديدى .. وكان مصيره القتل . وخرجت ثلاثة قطارات حربية عن الخط أمس ، بعد انتزاع القضبان » .

وهنا قال كيو : « أصدر الأوامر بتعميم أعمال التخريب ، واذكر فى نفس التقارير طريقة الاصلاح فى أسرع وقت ممكن » .

« ان رجال الحرس الأبيض يطلقون النار على كل من يقوم بالتخريب » .

« تعرف اللجنة ذلك .. ونحن نطلق النار بدورنا .. شيء آخر أريد

أن أسألك عنه : « ألا توجد قطارات أسلحة ؟ »

« كلا » .

— « ألا تعرف متى تصل قطاراتنا الى تشننج — تشيو (١) ؟ »
 — « لم تصلنى بعد أخبار منتصف الليل . ومندوب النقابة يعتقد أنها ستصل الليلة أو غدا . . . »

اذن ، فستبدأ الثورة غدا أو بعد غد . . ولا بد من انتظار تعليمات اللجنة المركزية . وأحس « كيو » بالعطش . وخرج الاثنان .

ولم يكونا بعيدين عن المكان الذى كان عليهما أن يفترقا عنده . وانطلقت من احدى السفن صفارة أخرى ثلاث مرات متقطعات ، أعقبها مرة أخرى طويلة . وكان يبدو كأنما تفتتح صرختها فى هذه الليلة المشبعة بالماء ، وتساقطت أخيرا كما يسقط الصاروخ . « هل بدأ القلق يساورهم على ظهر السفينة شانج تونج ؟ » محال . ان القبطان لا ينتظر زبائنه الا فى الساعة الثامنة . وواصل سيرهما ، أسيرين لتلك الباخرة الراسية هناك فى المياه الباردة الخضراء ، حاملة صناديق الغدارات . وانقطع المطر .

قال كيو : « سيتم كل شئ على ما يرام ، مادمت ساجد الشخص الذى أريده . . ولكننى أكون أهذا بالالوان « شانج — تونج » غيرت مرساها . »
 ولم يعد طريقهما واحدا ، فتواعدا ، وافترقا . . وذهب « كاتوف » للبحث عن الرجال .

وبلغ « كيو » أخيرا بوابة منطقة الامتيازات ذات القضبان الحديدية ، وأقبل لفحص أوراقه جنديان من « أنام » ، وجاؤيش من جيش الاستعمار : وكان يحمل جواز سفره الفرنسى . ولاغراء الحرس وضع تاجر صينى شطائر صغيرة على أطراف الأسلاك الشائكة . (وقال كيو لنفسه « طريقة صالحة لتسميم مركز للحراسة اذا لزم الأمر ») .

وأعاد اليه الجاؤيش جواز المرور . ولم يلبث « كيو » أن وجد سيارته أجرة ، وألقى للسائق بعنوان « القط الأسود » .

والتقت السيارة التى كان السائق يقودها فى سرعة فائقة ببعض دوريات المتطوعين الأوروبين . وكانت الصحف تقول عنها : « ان جنود ثمانى دول تحرس هذا المكان » . ولم يكن لذلك أهمية ، فما كان الكومنتانج ينوى الهجوم

(١) تشننج — تشيو Tchong-Tchéou هى آخر محطة قبل شنغهاى .

على مناطق النفوذ . . وامتدت أمامه الشوارع المهجورة ، وتناثرت ظلال التجار الصغار الذين يحملون حوانيتهم على أكتافهم على هيئة موازين . . ووقفت السيارة عند مدخل حديقة صغيرة تنيرها لافتة مضيئة عليها هذه الكلمات : « القط الأسود » وحين مر كيو بحجرة ايداع الملابس نظر الى الساعة : الثانية صباحا . « من حسن الحظ أن كل أنواع الأزياء تقبل هنا » ذلك أنه كان يرتدى صدارا تحت سترته الرياضية المصنوعة من وبر الصوف الرمادي القاتم .

وكانت موسيقى الجاز تحطم الأعصاب . . ولقد حافظت هذه الموسيقى منذ خمس ساعات - لا على جو من المرح ، بل على ضرب من البشورة الوحشية التي تشبث بها كل زوج من الراقصين في لهفة . . وفجأة ، توقفت الموسيقى ، وتفكك الجمع : وجلس الزبائن في المؤخرة ، بينما جلست الراقصات المحترفات على الجانبين : بعضهن صينيات في أثوابهن الضيقة من الحرير المشغول ، وبعضهن الآخر روسيات أو تجرى في عروقهن دماء مختلطة . تذكره لكل رقصة ، أو لكل محادثة . وفي وسط الحلبة ، وقف رجل عجوز تحسبه قسا انجليزيا مخبولا يأتي بمرفقيه حركات أشبه بحركات البطة . وكان قد قضى ليلته - وهو في سن الثانية بعد الخمسين - خارج منزله لأول مرة ، فلم يجرؤ على الرجوع اليه ، خوفا من زوجته ، وهكذا أخذ يقضى ليلاليه منذ ثمانية أشهر في تلك النوادي الليلية عاجزا عن تنظيف ملابسه ، فكان يغير ثيابه الداخلية - بين ستارتين - في محلات القمصان الصينية . وثبت رجال الأعمال الذين يواجهون الافلاس ، والراقصات والعاهرات ، جميع أولئك الذين يعرفون أنهم مهددون - ثبتوا أنظارهم على هذا الشبح ، وكأنه وحده الذي يستطيع أن يمنعهم من السقوط في هوة العدم . فاذا حان الفجر سعوا للنوم ، وقد طحنهم الارهاق ، في الوقت الذي تبدأ فيه من جديد ، جولة الجلاب في المدينة الصينية . ولم يكن هناك في تلك الساعة ، غير رؤوس مجزوزة في الأقفاص السوداء ، رؤوس يسح شعرها من المطر .

- « . . . كالقروء ، يا صديقتي العزيزة . سوف نلبسهم ثيابا كالقروء » .

وكان الصوت المهرج الذي يستوحى « القراقوز » - يبدو منبعثا من أحد الأعمدة . ولم يكن يتنافر مع جو المكان ، هذا الصوت الأختف المرير - المنعزل

فى صمت حافل بقعقة الزجاجات فوق رأس القس المخبول : لقد كان الرجل الذى يبحث عنه « كيو » موجودا .

شاهده حين دار حول العمود القائم فى مؤخرة القاعة حيث صفت - بعضها وراء بعض - المناضد التى لا تشغلها الراقصات . وفوق خليط من الظهور والنحور الملفوفة فى زكام من الأسمال الحريرية ، كان مهرج نحيف غير محدودب الظهر ، يتلاءم مظهره مع صوته ، يلقي خطابا تهريجيا على امرأة روسية وأخرى فليبينية مولدة تجلسان الى مائدته . وكان يتحدث واقفا وبكل عضلات وجهه ، وقد ألصق مرفقيه الى جسده ، وجعل يلوح بيديه ، تعوقه فى اتيان هذه الحركات ملفعة من الحرير الأسود تغطى عينه اليمنى التى كانت مصابة بلا شك . وأيا كان ما يرتديه البارون كلابيك - وقد كان يلبس هذه الليلة بذلة « سموكنج » - فانما يبدو عليه مظهر من يريد التنكر . وقرر « كيو » ألا يقترب منه فى هذا المكان ، وآثر أن ينتظره حتى يخرج :

- تماما يا صديقتى العزيزة ، تماما ! سيدخل تشانج كان - شيك هنا مع ثواره صائحا - بأسلوب كلاسيكى . . أقول لك ، بأسلوب كلاسيكى ! على النحو الذى يصيح به عندما يستولى على المدن : اخلعوا على هؤلاء التجار أمامى ثياب القروء ، وعلى هؤلاء الجنود جلود الفهود (كما يحدث حين يجلسون على أرائك طليت بدهان لم يجف) ! ولنصعد - يافتاتى العزيزة - الى السفن الامبراطورية ، كأننا آخر أمير من أسرة « لينج » - ولنتأمل رعايانا الذين ارتدى كل منهم - للترويح عنا - لون خرقته من أزرق وأحمر وأخضر - ووضعوا ضفائر وشراريب ، لا تتفوهى بكلمة واحدة . . . يا صديقتى العزيزة . . . بكلمة واحدة ، أقول لك !

ثم همس كمن يفضى بسر :

« الموسيقى الوحيدة المسموح بها هى موسيقى الأجراس الصينية » .

- « وماذا أنت صانع ، وسط هذا كله ؟ »

فأجاب متأوها ، منتحبا :

« كيف ؟ ألا تستطيعين أن تخمنى يا صديقتى العزيزة ؟ سأكون منجم البلاط ، وسألقى مصرعى ذات ليلة وأنا اسعى مخمورا - الى الامساك بالقمر فى بركة ماء - لعلها هذه الليلة ؟ »

ثم باللهجة متعالملة :

« ... كالشاعر « تو - فو » ، الذى تسحر أعماله بكل تأكيد - لا تتفوهى بكلمة ، اننى على يقين من ذلك - أيامكن الفارغة .. وفضلا عن ذلك ... »

وانطلقت صفارة سفينة حربية فملأت القاعة .. وسرعان ما امتزجت بها طرقات الصنوج الشائرة ، وبدأ الرقص من جديد . وكان البارون قد جلس واستطاع « كيو » أن يظفر من خلال الموائد وأزواج الراقصين بمائدة خاليه وراء مائدة البارون بمسافة قريبة . وطغت الموسيقى على كل ضجة ، ولكنه بعد أن اقترب من كلابيك ، استطاع أن يسمع صوته من جديد . وكان البارون يداعب المرأة الفليبينية ولكنه ظل يتحدث الى الراقصة الروسية ذات الوجه النحيف الذى تحتله بأكمله عينان فقط .

- « ... من المؤسف يا صديقتى العزيزة ، أنه لم يعد للناس خيال . من حين الى آخر .. » وهنا يرفع سبابته ويواصل حديثه قائلاً : « يبعث وزير أوروبى الى زوجته طردا بريديا ، وتفتيح الزوجة الطرد - لا تتفوهى بكلمة - » ويضع سبابته على شفتيه : « .. فاذا برأس عشيقها .. ويدور الحديث عن هذا الموضوع ثلاثة أعوام متعاقبة ! »

ثم يقول بصوت المفجوع : « شىء مؤثر يا صديقتى العزيزة .. شىء مؤثر ! انظرى الى . أترين رأسى ؟ هذا ما أدت اليه عشرون سنة من الخيال الوراثى .. انه يشبه مرض الزهرى . - لا تتفوهى بكلمة ! »

ويتخذ صوته لهجة الأمر : « يا ولد ! شمبانيا لهاتين السيدتين ، ولى » . ثم يعود صوته وكأنه يهمس بسر : « كأس صغير من المارتينى » .

ويصطنع القسوة : « جاف جدا » .

(وحدث كبير نفسه قائلاً : « اذا افترضت أسوأ الفروض ، مع وجود هذا البوليس ، فقد بقيت أمامى ساعة كاملة .. ولكن ، أيطول الأمر أكثر من ذلك ؟ »)

وضحكت الفليبينية ، أو تظاهرت بالضحك ، بينما حاولت الروسية أن تفهم بكل عينيها . واستمر كلابيك فى الاتيان بحركاته وإشارات ، مستخدما سبابته وكأنها كائن حى ، قاسيا فى لهجته الآمرة ، داعيا الى الانتباه عند

«الافضاء بسر • وأوشك « كيو » ألا يسمعه ، ذلك أن حرارة الجو كانت تخدر حواسه ، وبالإضافة اليها قلق خفى تفتح فى هذا الليل وتحول الى تعب مختلط •• هذه الاسطوانة ، وصوته الذى لم يتعرف عليه ، منذ لحظة ، عند همليش • كان يفكر بنفس القلق المعقد الذى انتابه وهو طفل أثناء تأمله للوزتية ، بعد أن انتزعهما الجراح •• ولكنه عجز عن متابعة فكرته •

وصاح البارون وهو يغمز بجفنه المكشوف ، وملتفتا صوب المرأة الروسية • « وباختصار ••• كان يملك قصرا فى شمالى المجر » •

— « وهل أنت مجرى ؟ »

— « كلا •• اننى فرنسى (وهو شئ يؤسفنى يا صديقتى العزيزة ••• يؤسفنى أشد الأسف !) غير أن والدتى كانت مجرية •

« وهكذا •• كان جدى العجوز يسكن هناك قصرا •• له قاعات واسعة •• واسعة جدا — وتحت أرضه دفن أجدادى • وحوله أشجار الشربين •• كثير من أشجار الشربين ••• أرمل • كان يعيش وحيدا ، مع بوق صيد هائل معلق على المدفأة •• وذات مرة ، أقبل سيرك •• ومعه فارسة •• جميلة •• » واستأنف يقول بلهجة فخمة : « أقول •• انها جميلة » ثم غامزا بعينه مرة أخرى : « خطفها •• ولم يكن الأمر صعبا •• وحملها الى احدى تلك الغرف الواسعة ••• »

ويسترعى الانتباه ، رافعا يده : « لا تتفوهى بكلمة ! ••• انها تعيش هناك •• باستمرار •• ثم أصابها السأم •• وأنت أيضا يا صغيرتى » — (ودغدغ المرأة الفلبينية) — « ولكن صبيرا ، فانه فضلا عن ذلك لم يبذل أى جهد لتسليتها : اذ كان يقضى نصف فترة ما بعد الظهر فى تقليد أظافر يديه وقدميه بواسطة حلاقه الخاص (كان لديه أيضا حلاق ملحق بالقصر) بينما كان سكرتيره — وهو ابن عبد قذر — يقرأ له ، ويقرأ — بصوت مرتفع — تاريخ الأسرة ••• عمل سناحر — يا صديقتى العزيزة — وحياة كاملة ! وفضلا عن ذلك ، فقد كان مخمورا بوجه عام — أما هى ••• »

وهنا تساءلت الروسية : « فوقعت فى غرام السكرتير ؟ »

— « رائعة •• هذه الصغيرة •• را — ثعة ! يا صديقتى العزيزة ، أنت رائعة •• فراسة عظيمة ! »

ولثم يدها .

« غير أنها كانت تضطجع مع مقلم أظافر القدمين ، لأنها لم تقدر - كما تقدرين - ثقافة العقل . ثم لاحظت أن الجد العجوز يضربها . . لا تتفوهى بكلمة ، لا جدوى : هكذا افترقا .

« وطفق الرجل المهجور ، يجول فى قاعاته الفسيحة (وأسلافه يرقدون دائما تحت أرضها) ، متوعدا هذين الصعلوكين اللذين جعلاه منه أضحوكة ، بينما كان هذان الأثيمان يثلمان عرضه ما طاب لهما اللثم فى أحد فنادق الأقاليم الصغيرة كتلك التى يصفها جوجول ، حيث ابريق ماء مشروخ فى الغرفة ، والعربات فى الفناء . وأنزل بوق الصيد الهائل من مكانه على المدفأة ، ولكنه لم يستطع أن ينفخ فيه ، فبعث وصيفه يهيب بالفلاحين الى حمل السلاح . (وكانت لا تزال له حينذاك حقوق) . وسلح الفلاحين : كان لديه خمس من ينادق الصيد ، وغدارتان . . ولكن ، يا صديقتى العزيزة كان عددهم أكثر من اللازم !

« لذا حملوا كل ما فى القصر من متاع . . وشرع أولئك التعساء فى المسير . تصورى . . أقول لك . . تصورى . . مسلحين بسيوف قصيرة ، وبالقربينات ، وبالبنادق القديمة . . وبأى شئ آخر . . بالمفاول (١) ، وبعد أخرى غريبة الشكل ، وعلى رأسهم جدى متجهين صوب البندر . . الانتقام يتعقب الجريمة . . وانتشر خبر هذه الحركة ، وسرعان ما وصل الخفراء ومعهم بعض رجال البوليس . فيالها من لوحة رائعة ! »

- « وبعد ؟ »

- « لا شئ . جردوهم من أسلحتهم . ونجح جدى مع ذلك فى الوصول الى المدينة غير أن المجرمين كانا قد رحلا عن فندق جوجول بأقصى سرعة ، فى عربة من تلك العربات المتربة . واستبدل جدى لاعبة السيرك بفلاحة ، ومقلم الأظافر بمقلم آخر للأظافر ، وراح يتعاطى الخمر مع سكرتيه . . وكان يعمل من حين الى آخر . . فى وصية من وصاياها الصغيرة . . . »

(١) سيوف طويلة .

« ولمن أوصى بأمواله ؟ »

– « هذه مسألة لا أهمية لها يا صديقتي العزيزة .. ولكنه عندما مات ،
وهنا اتسعت حدقتنا البارون ، ثم قال :

« .. اتضح كل شيء .. كل ما كان يدور برأسه – ذلك النبيل السكير
– أثناء تقليم أظافره ، وقراءة كتب الأنساب ! ونفذت وصيته ، ودفن تحت
أرض الكنيسة ، فى فجوة هائلة .. واقفا فوق جواده المقتول ، مثل أتيليا ..
وانقطعت جلبه الجاز .. وواصل كلاييك حديثه ، ولكنه كان فى هذه
اثرة أقل ميلا الى التهريج ، وكأنما خفف السكون من شعورته :

« حين مات أتيليا ، وضعوه فوق حصانه المشرب ، فوق الدانوب ، وألقت
الشمس الغاربة منه ظلا هائلا عبر السهل ، جعل الفرسان يولون الأدبار
مذعورين ، كما يتطاير الغبار .. »

وأصابته نوبة من الشرود بفعل أحلامه وبفعل الخمر والسكون المبالغ
وكان كيو يعرف ما ينبغى أن يعرض عليه من اقتراحات ، ولكنه لم يكن يعرفه
جيذا – كما يعرفه والده – وبخاصة فى هذا الدور الذى يقوم به ، واستمع
اليه نافذ الصبر (فبمجرد أن تخلو مائدة أمام البارون سينتقل اليها ،
ويومئ اليه بالخروج ، اذ لم يكن يريد أن يبادره بالحديث أو أن يناديه نداء
ظاهرا) ، ومع ذلك فان شعوره لم يكن خاليا من حب الاستطلاع .. وكانت
المرأة الروسية هى التى تتحدث الآن بصوت متدد مبجوح – وربما كانت
تهذى من فرط السهاد :

– « كان أبو جدى يملك هو أيضا مزارع جميلة .. وقد هاجرنا بسبب
السيوعيين .. أليس كذلك ؟ وحتى لا نكون مع الناس جميعا ، ولكى نكون
محترمين ، أما هنا فنجلس اثنين على المائدة الواحدة ، وننام أربعة فى الحجرة
الواحدة ! أربعة فى الحجرة الواحدة .. وفوق ذلك لابد من دفع الايجار ..
محترمين .. ليت الخمر على الأقل لا تسبب لي مرضا ! .. »

وتأمل كلاييك كأسه : لم يكن قد شرب منه شيئا يذكر . أما الفلبينية ،
فعلى العكس .. كانت هادئة ، تصطلى كالقطعة فى حرارة النشوة الخفية التى
سرت بها . لا خير فى أن يلقي اليها بالا ، فالتفت الى الروسية :

– « أليس معك نقود ؟ »

فهزت كتفيها • وهنا نادى الساقى ، وأخرج ورقة مالية من فئة المائة دولار •• وحين أعاد السائق بقية النقود ، أخذ منها عشرة دولارات ، وأعطى الباقي للمرأة ، فنظرت نظرة محددة كليلة ، وقالت : « طيب » ثم نهضت • فقال البارون : « كلا »

وكان منظره منظر كاب وفى يبعث على الرثاء •

— « كلا •• ذلك قد يضايقك هزم الليلة » • وكان ممسكا بيدها • فنظرت اليه مرة أخرى وقالت : « أشكرك » •

ثم قالت فى تردد : « ومع ذلك ، اذا كان هذا يسرك •• »

— « سوف أكون أشد سرورا بهذا يوم لا أملك من المال شيئا •• »

وعاد المهرج فيه الى الظهور :

— « ولن يتأخر ذلك طويلا •• »

وضم احدى راحتيها الى الأخرى ، ثم لشمها عدة مرات •

ولحق به كيو — الذى كان قد دفع حسابه — فى الدهليز الخلفى :

— « فلنخرج معا •• هل تشاء ؟ »

فنظر اليه « كلابيك » وتعرف عليه ، وقال : « أنت هنا ؟ شىء عجيب.

ولكن •• »

وكف عن هذا التلثم بأن رفع سبابته قائلا : « لقد فسقت أيها الشاب! »

— « فليكن ! »

وكانا قد خرجا فعلا • وعلى الرغم من أن المطر قد انقطع ، الا أن الماء

كان حاضرا فى الجو حضور الهواء •• وسارا بضعة خطوات فوق حصباء الحديقة •

قال كيو : « فى الميناء سفينة مشحونة بالأسلحة •• »

وتوقف « كلابيك » • وكان ينبغي على كيو أن يستدير اليه ، بعد أن تقدم

الى الأمام خطوة ، وكاد وجه البارون ألا يبين فى الظلمة ، غير أن القطة الكبيرة

المضيئة شعارا للحانة أحاطت برأسه كالهالة :

قال : « هى شانج — تونج » •

وكانت العتمة ووقفته بحيث يولى الضوء ظهره ، لا يتيحان له التعبير
عن شيء ، فلم يصف شيئا .

واستطرد كيو قائلا : « لقد قدمت الحكومة عرضا : ثلاثون دولارا
للمسدس الواحد . ولم يصل اليها الرد بعد ، ولكنني حصلت على مشنر
يدفع خمسة وثلاثين دولارا ، علاوة على ثلاثة دولارات عمولة لك والتسليم
فورا فى الميناء . . . حيثما يريد القبطان ، على شرط أن يكون ذلك فى الميناء .
ويستطيع أن يغادر مرساه حالا ، وسيتم التسليم الليلة ، مع دفع النقود .
وقد وافق مندوبه : وهذا هو العقد » .

وناوله الورقة ، وأشعل قداحته ، وهو يحميها بيده .

وحدث كلابيك نفسه قائلا وهو يتأمل العقد : انه يريد أن يفسد الصفقة
على المشتري الآخر . . « قطع منفصلة » والحصول على خمسة دولارات عن
كل سلاح . هذا واضح ، ولكن ماذا يعينى من هذا كله ، اذا كنت سأحصل
على ثلاثة دولارات لنفسى .

قال بصوت مرتفع : « اتفقنا . . وتترك لى العقد طبعاً » .

— « أجل ، وهل تعرف القبطان ؟ »

— « يا صديقى ، هناك أشخاص أعرفهم معرفة أفضل من ذلك ، ولكننى
على كل حال ، أستطيع أن أقول اننى أعرفه » .

— « من الممكن أن يرتاب فى الأمر (وخاصة ، وهو موجود فى مكانه ذاك
« من النهر ») ، وتستطيع الحكومة أن تستولى على الأسلحة ، بدلا من أن تدفع ،
أليس كذلك ؟ »

— « مطلقا ! »

وعاد مهرجا مرة أخرى . غير أن كيو كان ينظر الجزء التالى من كلامه :
« لماذا يملك القبطان حتى يستطيع أن يمنع رجاله هو (لا رجال الحكومة)
من الاستيلاء على الأسلحة ؟ واستطرد « كلابيك » قائلا بصوت مكتوم :

— « لقد بعث هذه الأشياء مورد رسمى ، وانى لأعرفه » .

ثم بلهجة المتهمك : « انه خائن . . »

ورن الصوت رنيناً غريبا فى الظلام ، اذ لم يكن يصاحبه أى تعبير

بالوجه . . لقد صدر عنه وكأنه يطلب كأسا من الكوكتيل :

« انه خائن حقيقى . عاتى الخيانة ! اذ يمر هذا كله عن طريق مفوضية تقوم . . لا تتفوه بكلمة ! سأتولى هذا الموضوع . ولكن ذلك سيكلفنى أولا مبلغا جسيما أدفعه لسيارة الأجرة : فالسفينة بعيدة . . . ولم يبق معى . . »

وفتش فى جيوبه ، فلم يجد سوى ورقة مالية واحدة ، واستدار لكى . يسقط عليها ضوء الالافته .

« عشرة دولارات ، ياعزيزى ! هذا لا يكفى ، وسأشتري حالا من عمك . كما » بعض لوحاته بلا شك من أجل فيرال ، ولكن فى هذه الأثناء . . . »
« خمسون . . أيكفيك هذا ؟ »

« هذا أكثر مما ينبغى . . »

وأعطاه كيو النقود .

« ستخطرني فى منزلى حالا ينتهى الأمر » .

« اتفقنا » .

« فى ظرف ساعة ؟ »

« أكثر من ذلك ، على ما أظن . ولكن حالا أستطيع » .

وبنفس اللهجة التى قالت بها الروحية هذه العبارة « لو أن الخمر لا تسبب لى مرضا » ، وبنفس الصوت تقريبا ، كأنما استولى ذلك اليأس بعينه على كل من فى هذا المكان ، قال : « أليس هذا كله عجيبا ؟ . . »

وابتعد ، خافض الأنف ، محنى الظهر ، عارى الرأس ، وقد وضع يديه فى جيبى الاسموكنج .

واستدعى كيو سيارة أجرة « قادتة الى حدود منطقة الامتيازات ، عند أول زقاق فى المدينة الصينية ، حيث كان قد تواعد مع « كاتوف » .

* *

وصل « كاتوف » - بعد أن ترك كيو بعشر دقائق - وصل الى حجرة بيضاء عارية من الأثاث ، تضيئها أضواء مسنة مصابيح - العاصفة ، وذلك

بعد أن اجتاز دهاليز ، وعبر أبوابا . ولم تكن ثمة نوافذ . وتحت ذراع الرجل الصيني الذي فتح له الباب ، شاهد خمسة رؤوس منكبة على المائدة ، ولكنها تركز نظراتها عليه ، على قوامه الفارع الذي تعرفه فرق الهجوم جميعا : ساقان متباعدتان ، وذراعان متأرجحان ، وصديري غير مقفل في أعلاه ، وأنف مشرع في الهواء ، وشعر غير ممشط . وكانوا يفحصون قنابل يدوية من أحجام مختلفة . انها فرقة « تشون » tchon إحدى منظمات القتال الشيوعية التي أنشأها هو وكيو في شنغهاي .

وسأل باللغة الروسية : « كم تطوع من الرجال ؟ »

– « مائة وثمانية وثلاثون » . وكان الشخص الذي أجابه أصغر شاب صيني من الموجودين . . . مراهقا ذا رأس صغيرة ، تبرز في عنقه «تفاحة آدم» يروزا واضحا ، وله كتفان متهدلتان ، وقد ارتدى ثياب العمال .

– « لا بد لي من اثني عشر رجلا هذه الليلة » .

وكانت كلمة « لا بد » تتردد على لسان كاتوف بكل اللغات التي يعرفها .

– « متى ؟ »

– « الآن » .

– « هنا ؟ »

– « كلا : أمام حوض السفن ين – تانج » .

وألقى الرجل الصيني ببضعة تعليمات ، فغادر المكان واحد من الرجال .

وقال الرئيس : « سيكونون هناك قبل الساعة الثالثة » .

وكان يبدو بوجنتيه الغائرتين وجسمه الطويل الهزيل ، شديد الضعف ، غير أن التصميم الذي يشيع في لهجته ، وثبات عضلات وجهه ، كانا يشهدان بارادة مستندة تمام الاستناد على الأعصاب .

وسأل كاتوف : « والتعليمات ؟ »

– « فيما يتعلق بالقنابل اليدوية ، تم كل شيء . . . ويعرف الرفاق الآن أنواع قنابلنا . أما بالنسبة للمسدسات – من طرازي ناجان ومويزر على الأقل – فستسير الأمور على ما يرام أيضا . وقد جعلتهم يعملون بخراطيش

تأرغة ، ولكن يجب أن يطافوا رصاصات حقيقية ، حتى ولو كان ذلك على غير هدف . . . وهناك من عرض على أن يعيرنا كهفا مأمونا تماما » .

وأثير هذا السؤال نفسه ، فى كل حجرة من الحجرات الأربعين التى تعد فيها الثورة .

ـ « لا وجود للذخيرة ، ولعلها تصل ، أما فى اللحظة الحاضرة ، فلا داعى للحديث عنها . والبنادق ؟ »

ـ « ستصل هى أيضا . وانما المدفع الرشاش هو الذى يقلقنى ، ان لم نتدرب قليلا على اطلاق الرصاص الحى » .

وكانت « تفاحة آدم » ترتفع وتنخفض تحت جلده ، فى كل اجابة من اجاباته ، ومضى قائلا : « ولكن ، ألا توجد وسيلة للحصول على مزيد من الأسلحة ؟ سبع بنادق ، وثلاثة عشر مسدسا ، واثنان وأربعون قنبلة يدوية محشوة ، هذا معناه أن نصف الرجال لا يملكون أسلحة على الإطلاق » .

ـ « سنمضى لنأخذها ممن يملكونها . وربما استطعنا أن نحصل على المسدسات حالا . واذا تم لنا ذلك غدا ، فكم من الرجال فى قسمك لن يعرفوا استخدام أسلحتهم النارية ؟ »

وفكر الرجل هنيهة ، وقد أضفى عليه الانتباه استغراقا تاما . وقال كاتوف لنفسه : « انه مثقف » .

ـ « حين نستولى على بنادق رجال البوليس ؟ »

ـ « لابد من ذلك » .

ـ « أكثر من النصف » .

ـ « والقنابل اليدوية ؟ »

ـ « الجميع يستطيعون استخدامها ، وبصورة جيدة جدا . ولدى هنا

ثلاثون رجلا يمتون بصلة القرابة الى الذين عذبوا فى فبراير . . . الا اذا . . . »

وتردد ، ثم ختم جلته بحركة غامضة . . . وكانت يده مشوهة ، ولكنها مرهفة .

ـ « الا اذا . . . ؟ »

ـ « الا اذا استخدم هؤلاء الأوغاد الدبابات ضدنا » .

ونظر الرجال الستة الى كاتوف ، فأجاب : « لا أهمية لذلك . وعليك أن تأخذ قنابلك اليدوية ، وأن تربط كل ست منها معا ، وأن تدسها تحت الدبابة ، ولن تلبث أن تتطاير فى الهواء بعد ثوان . واذا ساءت الأمور فانكم تستطيعون أن تحفروا حفرا فى اتجاه واحد ، على الأقل . . . أليكم أدوات؟ »

ـ « قليلة جدا . . . ولكننى أعرف أين نستولى عليها » .

ـ « حاول أن تستولى أيضا على دراجات : فاذا بدأت الثورة ، ينبغى على كل قسم أن يكون لديه مندوب اتصال ، بالإضافة الى مندوب مركز القيادة » .

ـ « وهل أنت على ثقة من أن الدبابات سوف تنفجر ؟ »

ـ « تماما ! ولكن لا تشغل بالك بهذه المسألة : لأن الدبابات لن تغادر الجبهة . واذا غادرتها ، فسوف أحضر مع فريق خاص . هذا شأنى » .

ـ « واذا بوغتنا ؟ »

ـ « من الممكن رؤية الدبابات عن بعد : ولدينا مراقبون الى جوارنا . فاحمل أنت حزمة من القنابل اليدوية ، وأعط واحدة لكل شخص من الثلاثة أو الأربعة أشخاص الذين تعتمد عليهم كل الاعتماد » .

وكان رجال هذا القسم يعرفون جميعا أن كاتوف ـ الذى حكم عليه بالنفى عقب مسألة أودسا ـ فى معتقل للأشغال الشاقة أقل قسوة من سواء ـ قد طلب أن يرافق عن طيب خاطر بعض أولئك التعساء الذين أرسلوا الى مناجم الرصاص ليقوم بتعليمهم ، كانوا يثقون به ، ولكنهم ما برحوا قلقين . ولم يكونوا يخشون البنادق أو المدافع الرشاشة ، ولكنهم كانوا يخافون الدبابات: اذ يعتقدون أنهم عزل فى مواجهتها . بل حتى فى هذه الحجرة التى لم يكن فيها غير متطوعين ، وكلهم أقارب الأشخاص الذين عذبوا ـ كانت الدبابة فى نظرهم وريثة قوة الشياطين .

واستأنف « كاتوف » الحديث قائلا : « لا تخشوا شيئا من مجيئ الدبابات ، فسوف نكون لها بالمرصاد » .

ولكن ، كيف يخرج عقب هذا القول الذى لا يجدى فتيلا ؟ وكان قد قام بعد الظهر ـ بالتفتيش على خمسة عشر قسما ، ولكنه لم يلتق بالخوف . . . ولم يكن هؤلاء الرجال أقل شجاعة من الآخرين ، ولكنهم أكثر دقة فى التفكير .

وكان يعلم أنه لن يستطيع تخليصهم من خوفهم ، وأن التشكيلات الثورية خليقة بأن تلوذ بالفرار أمام الدبابات ، فيما عدا الخبراء الذين يتولى هو قيادتهم . وكان من المحتمل ألا تستطيع الدبابات مغادرة الجبهة ، ولكنها اذا وصلت الى المدينة ، فانه يكون من المحال حينئذ ايقافها بواسطة حفر في تلك الأحياء التي تقطعها أزقة كثيرة .

قال : « لن تغادر الدبابات الجبهة على الاطلاق » .

وسأله أصغر شاب صيني بين الموجودين : « ولكن ، كيف نحزم القنايل اليدوية معا ؟ »

وأخذ « كاتوف » يشرح له الطريقة . وخف جو التوتر ، وكأن هذه العملية اليدوية ضمان النصر ضد الطوارئ المقبلة . واستغل « كاتوف » هذه الفرصة للانصراف ، ولكنه مازال مهموما . ان نصف الرجال لا يعرفون استعمال أسلحتهم ، ولكنه يستطيع - على الأقل - أن يعتمد على أولئك الذين شكل منهم فرقا للقتال ، وكلفهم بتجريد البوليس من سلاحه غدا . ولكن ماذا بعد غد ؟ ان الجيش يتقدم ويقترب ساعة بعد أخرى ، ويعتمد على قيام المدينة بالثورة . وربما استولى فعلا على المحطة الأخيرة . وحين يعود كيوي ، سيعرفان ذلك بلاشك من أحد مراكز الاستعلامات . أما تاجر المصابيح فلم يصل الى علمه شيء منذ الساعة العاشرة .

وانتظر « كاتوف » برهة في الزقاق ، دون أن يكف عن المشي . وأخيرا وصل كيوي ، فأطلع كل منهما الآخر على ما فعل . واستأنفا سيرهما في الوحل بحذاءيهما المصنوعين من المطاط الثقيل : كيوي ، صغيرا مرنا كالقط الياباني ، وكاتوف ، مؤرجحا كتففيه ، ومشكرا في الجنود الذين يتقدمون - ببنادقهم اللامعة من جراء المطر - نحو شنغهاي المتوهجة في أعماق الليل . وكان كيوي يريد بدوره أن يعرف ما اذا كان هذا الزحف قد أوقف .

أما الزقاق الذي مضيا يسيران فيه ، وهو أول زقاق في المدينة الصينية - فكان بسبب مجاورته للمنازل الأوروبية - هو زقاق تجار الماشية . وكانت الحرايت كلها مغلقة ، ولم يكن ثمة حيوان واحد في الخارج ، وما من صوت يعكر صفو السكون بين نداءات الصفارة وقطرات المطر الأخيرة التي تتساقط

فى برك المياه من سقوف المنازل ذات القرون • كانت الحيوانات نائمة •
ودلفا الى أحد هذه الحوانيت بعد أن طرقا بابه • انه حانوت أسماك حية •
وكان الضوء فيه مقصورا على شمعة غرست فى حامل ، ينعكس ضوءها الخافت
على الجرار المشعة المرصوفة كأنها جرار « على بابا » ، وفيها ترقد أسماك
الشبوط الصينية الشهيرة دون أن تثبينها العين •

سأل كيو : « غدا ؟ »

ـ « غدا ، الساعة الواحدة » •

فى مؤخرة الحانوت ، خلف منضدة الحساب ، كان يرقد شخص غير
واضح المعالم على ذراعه المثنية • انه لم يكد يرفع رأسه لكى يجيب • لقد
كان هذا الحانوت أحد المراكز الأربعة والعشرين التى يستخدمها الكومنتانج
ننقل الأخبار •

ـ « وهل تقرر ذلك رسميا ؟ »

ـ « أجل • والجيش قد وصل الآن الى تشننج - تشيو • والاضراب العام
عند الظهيرة » •

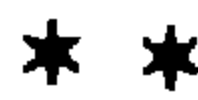
ولم يتغير شئ فى الظلال ، ولم يبد التاجر الراقد فى مؤخرة حانوته
الصغير أية حركة ، وانما بدأ السطح المشع الذى تؤلفه تلك الجرار يهتز
اهتزازا خفيفا : وصعدت أمواج رخوة سوداء متجمعة فى هدوء •• ذلك أن رنين
الأصوات أيقظ الأسماك النائمة ••• ودوت صفارة مرة أخرى ، ولكنها لم
تلبث أن تبددت فى الأفق البعيد •

• وخرجا ، واستأنفا سيرهما ، دون أن يتجاوزا شارع الجمهوريتين •
واستدعيا سيارة أجرة ، انطلقت فى الحال بأقصى سرعة كما تنطلق السيارات
فى الأفلام • وانحنى « كاتوف » الذى كان يجلس على اليسار ، ونظر الى السائق
بانتباه •

ـ « انه من مدمنى الأفيون •• وا آسفاه ! اننى مصر على ألا أقتل قبل
مساء الغد • تمهل •• يا بنى ! »

قال كيو : « وعلى هذا فان كلابيك سيتولى احضار الزورق • ويستطيع
الرفاق الذين يعملون بمخازن مهمات الحكومة أن يزودونا بتياب رجال
البوليس ••• »

- « لا داعى لذلك ، فلدى أكثر من خمس عشرة حلة بالمخزن » .
- « فلنأخذ رجالك الاثنى عشر فى الزورق البخارى » .
- « يستحسن ألا تكون معهم . . . »
- ونظر اليه كيو دون أن يقول شيئاً .
- « ليس الأمر شديد الخطورة ، ولكنه ليس يسيراً كل اليسر ، كما ترى . انه أخطر من الركوب مع هذا السائق المعتوه الذى يوشك أن يستأنف اسرعه . وليس هذا هو الوقت المناسب لمصرعك » .
- « ولا لمصرعك أنت أيضاً » .
- « ليس الأمر سيئاً ، فمن الممكن أن يحل مكانى أحد سيوى . . . فاهم . . . وأفضل أن تهتم أنت بسيارة النقل التى سوف تنتظر ، وبتوزيع الأسلحة » .
- وتردد ، وقد أصابه الارتباك ، ووضع يده على صدره ، وقال لنفسه : « ينبغى أن أدعه يفكر فى الأمر ملياً » . وام يتفوه كيو بشيء . وواصلت السيارة انطلاقها بين صفين من الأضواء التى غشاها الضباب . لم يكن ثمة شك فى أنه أنفع من كاتوف : فاللجنة المركزية تعرف تفاصيل خططه كلها ، ولكن بالأرقام ، أما هو فقد كان يحيا هذه التفاصيل ، وكانت المدينة تسرى مسرى الدماء فى عروقه ، وكأن مواطن ضعفها هى جروحها الخاصة . ولم يكن بين رفاقه من يستطيع أن يتصرف بمثل سرعته وسداده .
- قال : « اتفقنا » .
- وأخذت الأضواء تتكاثر شيئاً فشيئاً . . . وظهرت من جديد السيارات المصفحة فى مناطق الامتيازات ، ثم خيمت الظلمة مرة أخرى .
- ووقفت السيارة ، ونزل منها كيو .
- قال كاتوف : « انى ذاهب لاحضار الثياب ، وسأصحبك حين يتم الاستعداد » .



كان كيو يقطن مع أبيه منزلاً صينياً لا يعدو الطابق الأرضي ، ويتألف من

أربعة أجنحة تحيط بحديقة • واجتاز الجناح الأول ثم الحديقة ، ودلف إلى قاعة
قد زينت جدرانها البيض على اليمين وعلى اليسار ، رسومات ترجع إلى عهد
أسرة سونج (١) Song وعنقاوات زرقاء على طريقة شاردان (٢) ، وفي
المؤخرة تمثال لبوذا من أسرة « وای » منحوت على الطراز الروماني ، ومتكئات
نظيفة ، ومنضدة للأفيون • وبدأت النوافذ خلف كيو عارية كنوافذ المرسوم •
وما كاد والده يسمع صوته ، حتى دخل • لقد كان يعاني منذ عدة سنوات
من داء الأرق ، فلم يكن يغفو أكثر من بضع ساعات عند الفجر ، ولهذا كان
يرحب مسرورا بكل ما يمكن أن يملأ ليله •

— « مساء الخير يا أبتاه ... سوف يأتي تشن لزيارتك »

— « جميل » •

ولم تكن ملامح « كيو » هي ملامح أبيه ، ومع ذلك ، فقد كان يبدو أن دماء
والدته اليابانية كانت كافية لتخفيف صرامة رأس الراهب المتنسك الذي
يحملة « چيسور » العجوز — وهي صرامة أبرزها هذه الليلة رداؤه المصنوع
من وبر الابل — لتحبو ابنه وجه مقاتل من « الساموراي » •

— « هل حدث له شيء ؟ »

— « أجل » •

ولم يوجه سؤالا آخر • وجلس الاثنان • ولم يكن « كيو » يشعر
بالنعاس ، فأخذ يقص على والده قصة « كلابيك » دون أن يذكر شيئا عن
الأسلحة • ولم يكن ذلك لأنه لا يثق بوالده ، وإنما لحرصه على أن يكون
المستول الوحيد عن مصيره ، فما كان يطلع أحدا على أكثر من مجمل لأفعاله •
ومع أن هذا الشيخ — أستاذ عالم الاجتماع بجامعة بكين الذي طرده « تشانج —
تسو — لين » بسبب تعاليمه — قد شكل أفضل إطار توري في الصين

(١) هي الأسرة المالكة الصينية التاسعة عشرة • وقد حكمت من سنة ٩٦٠ م إلى سنة ١٢٨٠ م • (المترجم)

(٢) مصور فرنسي (١٦٩٩-١٧٧٩) يعد من أعظم المصورين انفرنسيين
الواقعيين في القرن الثامن عشر • (المترجم)

الشمالية ، الا أنه لم يكن يشارك فى العمل الثورى نفسه . وما أن يلج كيو هذا المكان حتى يشعر أن ارادته تتحول الى عقل ، وهو شيء لا يكاد يحبه ، فهو يهتم بالكائنات بدلا من أن يهتم بالقوى . ولأنه كان يتحدث عن كلابيك الى أبيه الذى يعرفه معرفة طيبة ، فقد بدا له البارون أشد غموضا من الشخص الذى كان ينظر اليه منذ لحظة .

« . . . وانتهى به الأمر الى أن طلب منى خمسين دولارا . . . »

« انه لا يريد لها لنفسه ، يا كيو . . . »

« ولكنه كان قد أنفق لتوه مائة دولار : شاهدهته يفعل ذلك بعينى رأسى . ان جنون الكذب شيء محير دائما » .

وكان يريد أن يعرف الى أى مدى يستطيع أن يواصل استخدام كلابيك . أما والده فكان - كعهده دائما - يبحث عما فى هذا الرجل من صفات جوهرية أو فريدة . غير أنه من النادر أن نجعل رجلا ما يتصرف مباشرة بوحى من أعماق شيء فيه ، وكان كيو يفكر فى غدارته .

« اذا كان فى حاجة الى الاعتقاد بأنه غنى ، فلماذا لا يحاول أن يفتنى ؟ »

« لقد كان أكبر تاجر للتحف فى بكين . . . »

« لماذا ينفق اذن كل أمواله فى ليلة واحدة ، ان لم يكن ذلك لايهام نفسه بأنه غنى ؟ »

واختلجت عينا جيسور ، وألقى بشعره الأبيض الطويل الى الوراء ، واتخذ صوته - على الرغم مما يشيع فيه من وهن الشيخوخة - طابعا واضح المعالم كالخط الهندسى :

« ان جنونه بالكذب وسيلة لانكار الحياة . . الانكار ، لا النسيان

أليس كذلك ؟ ويحسن بك ألا تثق بالمنطق فى مثل هذه المسائل . . . »

وبسط كفه فى حركة مضطربة ، وكانت ايماءاته القصيرة لا تتجه يمينا أو يسارا ، وانما تتجه أمامه : كان يبدو أن حركاته التى يكمل بها جملة ما لا تنحى شيئا ، وانما تقبض على شيء .

« كان يبدو عليه وكأنه يريد أن يثبت لنفسه ليلة أمس - أن الشراء لا وجود له ، على الرغم من أنه قد عاش ساعتين كما يعيش الأثرياء . . ولأنه

فى هذه الحالة لا يعود للفقر وجود أيضا • وهذا هو جوهر الموضوع • لاوجود
لشئ • وما الأشياء كلها غير حلم • ولا تنسى الخمر التى تساعده ••• «

وابتسم چيسور • وكانت ابتسامة شفّتيه الهزيلتين، بطرفيهما المتهدلين،
تعبر عنه تعبيرا أدق من الكلمات التى ينطق بها • وكان قد راض عقله منذ
عشرين عاما على محبة الناس بالتماس المعاذير لهم ، ولهذا كانوا يقدرّون عطفه،
دون أن يفطنوا الى أن هذا العطف انما يضرب بجذوره فى الأفيون • وبينما
كانوا يرون فى حلمه سجية من سجايا البوذيين ، كان هذا الحلم فى الواقع
هو حلم مدمنى الأفيون •

وأجاب كيو : « لا يستطيع انسان أن يواصل الحياة اذا أنكرها » •
- « انها طريقة سيئة للحياة •• ولكنه فى حاجة الى أن يحيا حياة
سيئة » •

- « فهو مضطر الى ذلك » •

- « اضطرارا من صنع تجارة التحف ، وربما المخدرات ، وتهريب الأسلحة
بالتواطؤ مع البوليس الذى يمقته بالطبع ، ولكنه يتعاون فى هذه الأعمال
الصغيرة كنوع من الجزاء العادل ••• »

ولم يكن لذلك خطر فى رأى البوليس ، الذى كان يعلم أن الشيوعيين
لا يملكون ما يكفى من المال لشراء الأسلحة ممن يستوردونها فى الخفاء •
قال كيو : « ان لكل انسان نوع الألم الذى يلائم طبيعته • ولكن ما الذى
يجعله يتعذب ؟ »

- « لم يعد لألمه من الأهمية ، أو من المعنى - أليس كذلك ؟ - ولا من
العمق ما يفوق أكاذيبه أو سروره ، انه يخلو تماما من كل عمق ، وربما كان
هذا ما يصوره أحسن تصوير ، لأنه شئ نادر • وهو يفعل ما فى وسعه من
أجل ذلك ، ولكنه يحتاج الى مواهب ••• وحين لا تكون مرتبطا بشخص
ما يا « كيو » - فلا بد من أن تفكر فيه لكى تتنبأ بأفعاله ؛ وأفعال كلابيك ••• »

وأشار الى حوض الأسماك ، حيث كانت تصعد وتهبط كيفما اتفق أسماك
الشبوط السوداء ، الرخوة ، المدببة الأطراف كأعلام القتال •

- « ها هى ذى •• انه يشرب الخمر ، ولكنه خلق لتعاطى الأفيون ،

فالناس يخطئون أحيانا فى انتقاء رذائلهم ، وكثيرا منهم لا يلتقون بالرديلة التى يمكن أن تنقذهم • شئ مؤسف ، لأنه أبعد من أن يكون بلا قيمة • غير أن مجاله لا يعنيك •

وكان هذا حقا • لقد كان « كيو » اذا انقطع هذه الليلة عن التفكير فى القتال فانه لم يكن يستطيع أن يفكر الا فى نفسه • سرى فيه الدفء شيئا فشيئا ، كما حدث له ذلك فى « القط الأسود » منذ لحظة ، ومن جديد ، استولى عليه خاطر الاسطوانة الملح ، كما يمشى دفء الراحة الخفيف فى ساقيه • وقص على والده ما أحس به من دهشة أمام الاسطوانات ، غير أن قصته كانت توحى بأن الأمر يتعلق بتسجيل من تلك التسجيلات التى تتم فى المحلات الانجليزية • وأنصت اليه چيسور ، وهو يربت على ذقنه المدببة بيده اليسرى • وكانت يدها بأناملهما النحيلة بديعتين جدا • وكان قد أمال رأسه الى الأمام ، فسقط شعره على عينيه رغم اتساع جبينه • ولكنه لم يلبث أن أزاحه بحركة من رأسه دون ان يفارق الشرود نظراته :

ـ « لقد تصادف أن وجدت نفسى أمام مرآة ، فلم أتعرف على نفسى • • »
وكان يدلك بابهامه أصابع يده اليمنى تدليكا رقيقا ، وكأنه ينشر مسحوقا من الذكريات • وكان يتحدث الى نفسه ، متعقبا فكره ، دون أن يدخل فى حسابه وجود ابنه :

ـ « لاشك أنها مسألة وسائل : فنحن نسمع صوت الآخرين بأذاننا • »
ـ « وصوتنا ؟ »
ـ « عن طريق الحلق : فانك اذا سددت أذنيك ، سمعت صوتك •
والأفيون ينتمى هو أيضا الى عالم لا نسمعه بأذاننا • • • »
ونهض كيو ، دون أن يلحظه أبوه •
ـ « ينبغى أن أخرج مرة أخرى هذه الليلة • »
ـ « هل أستطيع أن أفيدك بشئ يتعلق بكلاينيك ؟ »
ـ « كلا • • أشكرك • • نعمت مساء • »
ـ « نعمت مساء • »

* *

انتظر « كيو » راقدا ، فى محاولة لتخفيف احساسه بالتعب • لم يوقد

ضوءاً ، ولم يتحرك من مكانه . ولم يكن يفكر فى الثورة ، وانما الثورة التى تحيا فى كثير من الرؤوس كما يحيا النوم فى رؤوس أخرى - هى التى كانت تجئ عليه بحيث لم يعد سوى قلق وانتظار . بمجموع البندقيات أقل من أربعائة . . انه النصر ، أو الرمي بالرصاص ، مع بعض التجويد ! غدا . . كلا : فى الحال . مسألة سرعة : تجريد البوليس من سلاحه ، وتسايح فرق القتال بخمسة مئتين موزر قبل أن يتدخل الجنود الذين يحماهم القطار الحكومى المصفح . من المقدّر أن تبدأ الثورة فى الساعة الواحدة - والاضراب العام ، بالتالى ، عند الظهر . فينبغى أن يتسلح الشطر الأكبر من فرق القتال قبل الساعة الخامسة . أما الجماهير فكانت على أهبة الاستعداد . وليس من شك أن نصف رجال البوليس الذين يعانون هم أنفسهم من شظف العيش ، سينضمون الى الثوار . ويبقى النصف الآخر . وجال فى خاطره : « الصدين السوفيتية . . . » الاعتراف بكرامة قومه ، ورفع تعداد الاتحاد السوفيتى الى ستمائة مليون نسمة . وسواء أكان النصر أم الهزيمة . . فان مصير العالم يحوم الليلة بالقرب من هذا المكان . . اللهم الا اذا حاول الكومنتانج - بعد الاستيلاء على شنغهاى - أن يسحق حلفاء الشيوعيين . . وقفز من مكانه : ها هو باب الحديقة يفتح . . وطغت الذكرى على القلق . . أهى زوجته ؟ وأدّاهف سمعه . . وأغلق باب المنزل ثانية . لقد دخلت « ماى » . كان معطفها المصنوع من الجلد الأزرق والذى يكاد يشبه معطف العسكرين يضاعف من طابع الرجولة فى مشييتها ، بل وفى ملامحها : فم واسع ، وأنف قصير ، ووجنتان ناتئتان تميزان أهل شمال ألمانيا .

- « هل سيبدأ كل شيء حالا ، يا كيو ؟ »

- « أجل » .

كانت طبيبة باحدى المستشفيات الصينية ، ولكنها كانت قادمة من هيئة النساء الثوريات التى كانت تشرف على ادارة مستشفاهما السرى .

- « انه دائماً نفس الشيء كما تعلم : فقد تركت لتوى صبية فى الثامنة عشرة من عمرها حاولت أن تنتحر بحد الموسيقى فى محفة العرس ، اذ أرغمها أهلها على الزواج من حيوان محترم . وحملوها الى المستشفى فى ثوب الزفاف الأحمر الذى لطخته الدماء ، وسارت وراءها أمها أشبه بطيف قزم صغير ، تنتحب بالطبع . وحين أخبرتها بأن الفتاة لن تموت قالت لى : « يا للمسكينة

الصغيرة ! ومع ذلك فقد سنحت لها فرصة الموت . . « فرصة . . ان هذه الكلمة تقول وحدها أكثر مما تقوله خطبنا جميعا عن حالة النساء هنا . . »

كانت ألمانية الأصل ، ولكنها ولدت في شنغهاي ، وتخرجت في الطب من هيدلبرج وباريس ، وتتحدث اللغة الفرنسية دون أن تشوبها أية لكنة . وألقت بقلنسوتها على السرير . وكان شعرها المتموج مرصلا الى الوراء ، حتى يسهل تمشيطة . وراودته رغبة في أن يربت على شعرها . وكان لجبينها العريض طابع رجولي أيضا ، غير أنها منذ أن كفت عن الحديث - ولم يحول « كيو » عنها نظراته - عاودتها الأنوثة أولا : لأن تخليها عن الإرادة أضفى على قسماتها شيئا من الوداعة ؛ وثانيا : لأن التعب أرخى عضلاتها ؛ وثالثا : لأنها خلعت غطاء رأسها . ويشيع الحياة في محياها فم شهواني ، وعينان واسعتان ، شفافتان ، صافيتان الى درجة أن نفاذ نظراتها لا يبدو صادرا عن حدقتها ، بل عن الظل الذي يلقيه جبينها على محجريها البيضاوين .

واجتذب الضوء كلبا بيكينيا أبيض ، أقبل يخب في مشيته ، فداعبته قائلة بصوت مكدوم : « أيها الجرو ، ذو الشعر الكثيف ، المهفف الغزير . » وأمسكت به بيسراها ، ورفعته الى وجهها تعانقه ، وقالت باسمه : « أيها الأرنب . . . المتأرنب . . . »

قال كيو : « انه يشبهك . »

- « أليس كذلك ؟ »

ونظرت في المرأة الى الرأس البيضاء الملتصقة برأسها ، فوق أقدام صغيرة متقاربة . لقد صدر ذلك الشبه الطريف بينهما عن وجنتيها الجرمانيتين البارزتين . وعلى الرغم من أنها لم تكن جميلة الا تجاوزا ، فقد تذكر تلك التحية التي ألقاها عطيل بعد أن أدخل عليها شيئا من التعديل : « يا فارستي العزيزة . . »

ووضعت الكلب على الأرض ، ثم نهضت . ونم معطفها نصف المفتوح عن نهدين كاعبين يذكران المرء بوجنتيها . وقص عليها « كيو » ما حدث له تلك الليلة .

وأجابت : « استقبلت المستشفى هذا المساء ما يقرب من ثلاثين فتاة من هيئة الدعاية ، استطعن الهرب من الجنود البيض . . جريحات . ومازالت

المستشفى تستقبل المزيد منهم • وتقول الفتيات ان الجيش قريب جدا ••
وان هناك كثيرا من القتلى ••• «

– « ونصف الجرحى سيموتون •• لا يمكن أن يكون للألم معنى الا حين
لا يؤدي الى الموت ، وانه ليؤدي اليه دائما •• »

واستغرقت ماى فى التفكير ، ثم قالت أخيرا : « أجل •• ومع ذلك ربما
كانت هذه الفكرة من أفكار الرجال •• أما بالنسبة لى •• أنا المرأة ، فان
الألم – وهذا شئ غريب – يجعلنى أفكر فى الحياة أكثر مما أفكر فى الموت ••
ربما بسبب أوجاع الولادة •• »

واستغرقت مرة أخرى فى التفكير : « كلما زاد عدد الجرحى ، واقتربت
الثورة كثرت المضاجعة ••
– « هذا واضح •• »

– « ينبغي أن أخبرك بشئ ، ربما ضايقت قليلا ••• »
وكان يتكىء على مرفقه ، فنظر اليها متسائلا • وكانت ذكية جريئة ،
ولكنها تفتقر فى كثير من الأحيان الى اللباقة •
– « لقد انتهى بى الأمر الى مضاجعة « لنجلن » بعد ظهر اليوم •• »

وهز كتفيه وكأنه يريد أن يقول « هذا شئ يعينك وحدك » • غير أن
حركته ، والتعبير المتوتر المرتسم على وجهه ، لم يكونا ملائمين لعدم الاكتراث
هذا • وسددت اليه بصرها ، تلوح عليها علامات الارهاق الشديد ، وقد بالغ
فى إبراز خديها ما يسقط عليهما من ضوء عمودى • ونظر بدوره فى عينيها
المحتجبتين فى الظل ، الخاليتين من أية نظرة ، ولم يقل شيئا • وسأل نفسه
ألا يمكن أن يكون التعبير الشهوانى الذى يتسم به وجهها ناشئا عن التقابل
القائم بين عينيها هاتين المحجوبتين ، واكتناز شفيتها اكتنازا خفيفا ، وبين
بقية ملامحها •• هذا التقابل الذى يؤكد أنوثتها تأكيدا عنيفا • وجلست على
السريـر وأمسكت بيده • وكاد يسحبها ، ولكنه استسلم لها • غير أنها أحسست
بحركته :

– « أيؤملك هذا ؟ »

– « قلت لك انك حرة •• وأضاف فى مرارة : « فلا داعى لأن تطلبى
ما هو أكثر من ذلك •• »

ووثب الجرو على السرير ، فسحب يده ، ربما لكي يربت عليه .
 وأعاد قوله : « أنت حرة .. وكل ما عدا ذلك قليل الأهمية » .
 - « ومع ذلك ، فقد كان « ينبغي » أن أخبرك .. ولو كان ذلك من أجل
 راحة نفسي » .
 - « نعم » .

- « أما أنه كان من واجبها أن تخبره ، فأمر لم يكن يشك فيه أحدهما .
 وأحس برغبة في أن ينهض فجأة : فان وضعه وهو راقد على هذا النحو ،
 وهي جالسة على سريريه كأنه مريض تسهر عليه .. ولكن ، لأية غاية ؟ لقد
 بات كل شيء بلا جدوى .. ومع ذلك ، واصل النظر اليها ، واكتشاف أنها
 تستطيع أن تعذبه ، ولكنه أحس أيضا منذ شهور أنه سواء نظر اليها أم لم ينظر ،
 فإنه لم يعد يراها .. وقد يرى أحيانا بعض التعبيرات المرتسمة على وجهها ..
 أما ذلك الحب العنيف الذي كثيرا ما كان يوحد بينهما كالطفل المريض ، وهذا
 المعنى المشترك لحياتهما وموتهما . وهذا الاندماج الجسدي بينهما .. فلم
 يعد لشيء من هذا وجود ازاء المصير المحتوم الذي تبهت دونه الصور التي
 تشبعت بها أنظارنا . وساءل نفسه : « ألقى أحبها اقل مما أظن ؟ » كلا
 فحتى في هذه اللحظة كان واثقا من أنها لو قضت نحبها ، فإنه لن يخدم
 قضيته كما يخدمها الآن بحافز الأمل ، بل مجررا . يأسسه ؛ وكأنه ميت هو
 أيضا . غير أن شيئا لن يحول دون زوال لون هذا الوجه المدفون في أعماق
 حياتهما المشتركة ، كأنما يكتنفه الضباب ، أو يطويه لاشرى . وتذكر صديقا
 قدر عليه أن يشهد أقول عقل المرأة التي يحبها بعد أن أصيبت بالشلل عدة
 شهور ، وخيل اليه أنه يشهد ماى وهي تموت على هذا النحو ، وأنه يشهد
 اختفاء صورة سعادته اختفاء لا مبرر له ، كما تتلاشى سحابة في السماء
 الرمادية . كأنها ماتت مرتين ، مرة بفعل الزمن ، ومرة بفعل الاعتراف الذي
 أفضت به اليه .

ونفضت من مكانها ، ثم سارت حتى بلغت النافذة . كانت تسير بخطوات
 ثابتة رغم ما تعانيه من ارهاق . وآثرت بدافع من الخوف والحياء العاطفي
 ممتزجين ألا تعاود الحديث عن الاعتراف الذي أدلت به منذ لحظة ، ما دام
 هو قد التزم الصمت ، آثرت أن تتجنب تلك المحادثة التي كانت تشعر مع
 ذلك أنهما لن يستطيعا تجنبها ، فحاولت أن تعبر عن حنانها بأن تقول أى

شيء ولو كان تافها ، فعمدت - بوعى من غريزتها الأنثوية - الى الاهابة بروح فى الطبيعة يحبها : ففى مواجهة النافذة كانت شجرة من أشجار مارس قد تفتحت أثناء الليل ، وكان نور الحجرة يسطع على أوراقها التى ما زالت منكمشة بحيث تعلو خضرة رقيقة جسمها المعتم ، وقالت :

- « لقد أخفت أوراقها فى جذعها خلال النهار ، وها هى ذى تخرجها الليلة بينما لا يراها أحد » .

وكان يبدو كأنها تناجى نفسها ، ولكن هيهات أن يخفى على « كيو » معنى النغمة التى شاعت فى صوتها .

قال دون أن يفتح ما بين فكيه : « كنت تستطيعين اختيار يوم آخر » . وكان يرى نفسه هو أيضا فى المرآة متكئا على مرفقه : وجهه يابانى صميم بين هذه الملاءات البيضاء . « لو لم أكن مولدا » . وبذل مجهودا عنيفا لكى يطرد الأفكار العاقدة أو الوضيعة المتأهبة لتبرير غضبه واشعاله . ونظر إليها ، وأطال النظر ، وكأنما يريد - بقسوة الألم الذى يصبه - أن يعيد الى هذا الوجه ما فقد من نضارة .

- « ولكن اليوم - يا كير - هو اليوم الذى تصبح فيه هذه المسألة بالذات شيئا لا أهمية له . . . و . . . » .

وكادت تضعيف : « وما أشد ما كان اشتهاؤه ! » . وفى مواجهة الموت ، يهون ذلك ، ولكنها قالت : « . . . وأنا أيضا ، يمكن أن أموت غدا . . »

هذا أفضل . . . وكان كيو يعانى أشد الآلام اذلالا للنفس : الألم الذى يحتقر المرء نفسه لأنه يعانى . لقد كانت فى الواقع حرة فى أن تضاجع من تشاء من الرجال . . . فما مصدر هذا العذاب الذى لا يعترف له بحق واحد عليه ، بينما يستأثر دونه بكل تلك الحقوق ؟

- « حين فهمت يا كيو أننى متمسكة بك ، سألتنى ذات يوم - وربما لم يكن ذلك بطريقة جدية تماما ، اذا كنت أعتقد أننى أستطيع الذهاب معك الى معسكر الاعتقال ، فأجبتك بأننى لا أدرى ، وأن العسير فى المسألة هو بلاشك البقاء فى ذلك المكان . . . ومع ذلك ، فقد جال بخاطرك أننى أستطيع أن أفعل ذلك ، مادمت أنت أيضا تتمسك بى . . . فلماذا تنصرف الآن عن ذلك الاعتقاد ؟ »

– ذلك أن الذين يذهبون الى معسكر الاعتقال أشخاص معينون • كاتوف
يمكن أن يذهب ، حتى ولو لم يحب حبا عميقا •• انه يذهب من أجل فكرته
عن الحياة •• وعن نفسه •• والمرء لا يذهب الى معسكر الاعتقال من أجل
شخص ما •

– « يا لها من أفكار تنتمى الى عالم الرجل وحده •• يا كيو ! »

وظفك يفكر ، ثم قال : « ومع ذلك ، فأنا يحب الانسان أولئك الذين
يستطيعون أن يفعلوا ذلك ، أو أن يحظى بحبهم ، ماذا ينتظر الانسان من
الحب أكثر من ذلك ؟ يا له من جنون أن يحاسبهم بعد هذا على سلوكهم !
وحتى لو فعلوا ذلك بدافع من أخلاقهم ••• »

قالت فى لهجة متئدة : « ليس ذلك من أجل الأخلاق •• فأننى لن أكون
قادرة بكل تأكيد أن أفعل ذلك ، فى سبيل الأخلاق • »

وقال هو أيضا بلهجة متمهلة « غير أن هذا الحب لم يمنعك من مضاجعة
ذلك الشخص ، مع أنك كنت تدركين – كما قلت منذ لحظة – أن هذا
العمل سوف يثير ثائرتى ؟ »

– « كيو ، سأقول لك شيئا غريبا ، ولكنه صادق مع ذلك •• كنت أعتقد
منذ خمس دقائق فحسب ، أن الأمر سواء لديك •• وربما لأن هذا الاعتقاد
كان يريحنى •• ثمة نداءات – وخاصة حين يكون المرء قريبا الى هذا الحد
من الموت (وانه لموت الآخرين الذى اعتدت على مواجهته حتى الآن يا كيو ••)
••• لا علاقة لها بالحب ••• »

وعلى الرغم من هذا كله . فقد كانت الغيرة مرجودة ، وربما كانت أدعى
للحيرة بقدر ما كانت الشهوة الجنسية النى اثارها فى نفسه قائمة على
الحنان • كانت عيناه مغمضتين ، وقد استند على مرفقه ، وحاول – ويا لها
من عملية تعسة ! أن يفهم • ولم يكن يسمع سوى أنفاس ماى المبهورة وأخاديش
مخالب الكلب الصغير • ان جرحه راجع أولا (نمة جروح أخرى – والى أسفاه !
كان يشعر بها متوارية داخل نفسه كزملائه الذين يتوارون خلف الأبواب
التي مازالت موصدة) الى تفكيره فى أن الرجل الذى ضاجع « ماى » (لا أستطيع
أن أدعوه مع ذلك عشيقها) يضم لها الاحتقار • وكان هذا الرجل زميلا من
زملاء ماى فيما مضى ، أما هو فلم يكن يعرفه تقريبا ، وإنما كان يعرف العدوة

التي يضمها جل الرجال للنساء . « ان فكرة أن هذا الرجل قد ضاجعها ، ونتيجة لأنه ضاجعها يستطيع أن يقول عنها : « هذه العاهر الصغيرة . . . » هذه الفكرة تجعلني أود قتله . أو لن نغار أبدا الا مما نفترض أن الآخر يفترضه ؟ يا لها من انسانية بائسة ! » ولم يكن الجنس بالنسبة لـ « إاي » ، علامة على ارتباطها بشيء ؛ وهذا ما كان ينبغي أن يعرفه ذلك الشخص . فلبضاجعها - هذا شيء مفروغ منه - ولكن لا يتخيلن أنه بهذا بملكها . « لقد أصبحت مثارا للثرثاء . . » ولكنه كان عاجزا عن مقاومة مشاعره . . . وكان يعلم أن هذا ليس هو الشيء الجوهرى ، فالشيء الجوهرى والذي كان يعذبه الى درجة القلق ، هو أنه قد انفصل عنها فجأة . . . لا بالبغض . . . وان يكن فى نفسه كثير من البغض - ولا بالغيرة (أو لعل هذه هى الغيرة بعينها ؟) وانما شعور لا اسم له . . شعور يحمل من التدمير ما يحمله الزمان أو الموت : انه لا يستطيع أن يستردها . وفتح عينيه مرة أخرى . . أى كائن بشرى هذا الجسد الرياضى المألوف ، وهذا الوجه الغائب ؟ عين مسحوبة تبدأ من الصدغ ثم تغوص بين الجبهة والسفرة وبين الوجنة . . أهى المرأة التى ضاجعت لتوها رجلا ؟ أو ليست هى أيضا تلك التى كانت تتحمل ضعفاته وآلامه ، وسخطه ، المرأة التى عالجت معه رفاقه الجرحى ، وسهرت معه فى حضرة أصدقائه الموتى . . ان عذوبة صوتهما مازالت تشيع فى الجو . . اننا لا ننسى ما نريد نسيانه . ومع ذلك فقد اتخذ هذا الجسد مرة أخرى طابع السر المؤلم لكائن نعرفه لم يلبث أن تحول فجأة . . فبدا لنا أصم ضريبا غيبولا . . . تلك كانت امرأة ، لا نوعا من جنس الرجال . . وانما شيء مختلف . . .

لقد أفلتت منه تماما . ولعل ذلك ما جعله يشعر بنداء مهتاج الى الاتصال بها اتصالا قويا ، وهذا النداء كان يعنى بصيرته ، ولتكن نتائجه ما تكون . فزع . . صرخات . . ضربات . . فنهض ، واقترب منها . كان يعلم أنه اجتاز أزمة نفسية ، وأنه ربما لم يفهم غدا شيئا مما يعاينه اليوم ، ولكنه كان فى مواجهتها وكأنه ازاء شخص يحتضر . . ولهذا كانت غريزته تدفعه نحوها . . فالمرء يريد أن يلمس وأن يحس ، وأن يحتفظ بأثرلك الذين يرحلون عنه ، وأن يتعلق بهم . . . ونظرت اليه فى قلق ، وهو يقف على بعد خطوتين منها . وأخيرا فطن - فى ومضة خاطفة - الى ما يريده . . انه يريد أن ينالها ، وأن يلوذ بهذا من الدوار الذى يفقدها فيه بأكملها . . وما كان على كل منهما أن

يعرف صاحبه حين يستخدمان كل قواهما فى احتضان جسديهما بأذرعهما .
 واستدارت بغتة ، فقد دق الجرس . لم يحن بعد موعد مجيء كاتوف .
 فهل افتضح أمر الثورة؟ تلاشى فى عنف كل مدار بينهما من حديث ، وماعانيه
 من آلام ، وما أحباء ، وما أبغضاه . . ودق الجرس من جديد . فتناول مسدسه
 المدسوس تحت الوسادة ، واجتاز الحديقة ، وفتح الباب وهو يرتدى
 (البيجاما) : لم يكن كاتوف وانما كان « كلابيك » ببذلتة السموكنج دائما .
 ولم يبرح الحديقة .

ـ « ماذا وزألك ؟ »

ـ « أريد ـ قبل كل شيء ـ أن أعيد اليك وثيقتك : هاهى ذى . كل شيء
 على مايرام . . السفينة قد رحلت ، وستلقى مرساتها فى مقابل القنصلية
 الفرنسية ، قريبا من الضفة الأخرى للنهر » .
 ـ « وهل هناك أية متاعب ؟ »

ـ « لا تتفوه بكلمة . . الثقة القديمة ، والا ، لأمكن أن نتساءل كيف
 كان من الممكن أن يحدث ذلك . ففى هذه المسائل تكبر الثقة أيها الشاب
 بقدر ما تقل دواعيها . . . »
 ـ « تلميح ؟ »

وأشعل كلابيك لفافة تبغ ، ولم ير « كيو » غير ملفعة الحرير الأسود ،
 بقعة على وجه مبهم . . وذهب لاحضار محفظته . . وكانت ماى تنتظر . . ثم
 عاد كيو ودفع للبارون عمولته التى تم الاتفاق عليها . ووضع البارون الأوراق
 النقدية فى جيبه دون أن يعدها ، ثم قال :

ـ « ان الطيبة تجلب الحظ السعيد . وان قصة ليلتى يا صديقى ـ قصة
 أخلاقية رائعة : بدأت بالاحسان ، وختمت بالشراء . لا تتفوه بكلمة ! »
 ومال على أذن كيو ، رافعا سبابته :

ـ « فانتوماس يحييك » ، ثم دار على عقبيه ، وانصرف .

وكأنما كان « كيو » يخشى العودة الى الداخل ، فتعقبه ببصره وهو
 ينصرف وقد راح « الاسموكنج » يترنج بحذاء الحائط الأبيض ، وقال لنفسه :
 « انه فى الواقع يشبه فانتوماس فى هذه الرحلة . . هل خمن ، أو افترض
 أن . . . »

وتناهى الى كيو صوت سعال ، وسرعان ما عرف صاحب هذا الصوت فقد كان ينتظره : انه كاتوف . الكل يسرعون هذه الليلة .

كان كاتوف يسير فى وسط الطريق ، وربما كان ذلك لكى تصعب رؤيته . غير أن كيو خمن سترته أكثر من أن يراها ، وهناك فى الظلمة ، كانت أنفه المشرعة فى الهواء ، وقد أحس خاصة بتأرجح ذراعيه . واتجه صوبه ، وسأله كما سأل كلاييك من قبل : « ماذا وراءك ؟ »

— « كل شىء على ما يرام ، والسفينة ؟ »

— « فى محاذاة القنصلية الفرنسية ، بعيدة عن رصيف الميناء . . فى بحر نصف ساعة » .

— « ان الزورق البخارى والرجال على بعد أربعمئة متر من ذلك المكان . . هيا بنا » .

— « والملابس ؟ »

— « لا تشغل بالك بها . ان الرجال على أهبة الاستعداد تماما » .

ودخل المنزل ، وارتدى ملابسه فى لحظة قصيرة : سروال وصديرى من الصوف ، وحذاء من المطاط (فربما أرغمته الظروف على التسلق) . وصار على أهبة الاستعداد . . . ومدت اليه ماى شفتيها ، وكانت نفس كيو تريد تقبليها . . أما فمه — فلا ، وكأنما قد احتفظ هذا الفم — فى استقلال — بشىء من الحقد . . . وأخيرا ، قبلها ، قبله مرتبكة . فنظرت اليه فى حزن بجفنين مسبلين ، وما لبثت عيناها المليئتان بالظلال أن أصبحتا معبرتين تعبيرا قويا حين سيطرت على عضلات وجهها . . ورحل .

سار مرة أخرى الى جانب كاتوف ، ومع ذلك ، لم يستطع أن يتخاض من التفكير فيها . « لقد بدت لى منذ لحظة مجنونة أو عمياء . . فما كنت أستطيع ان أتعرف عليها . اننى لا أعرفها الا بمقدار ما أحبها . والا فى اتجاه حبنى لها ؛ وصدق أبى حين قال اننا لا نملك من شخص ما سوى ما استطعنا أن نغيره فيه . . . وماذا بعد ؟ » وغاص فى قرارة نفسه ، كما يغوص فى ذلك الزقاق الذى أخذت عتمته تشتد شيئا فشيئا ، حتى لم تعد عوازل أسلاك البرق تلمع على صفحة السماء . وعاوده القلق ، وتذكر الاسطوانات ! « اننا

نسمع صوت الآخرين بأذاننا ، ونسمع صوت أنفسنا بواسطة حلقنا « أجل . .
وحياتنا أيضا نسمعها عن طريق الحلق ، أما حياة الآخرين ؟ . . . كانت
هناك الوحدة قبل كل شيء - الوحدة الثابتة وراء حشد الفنانين ، كالليل
البدائي العظيم الذى يكمن وراء هذه الليلة الكثيفة الواطئة التى تتربص تحتها
المدينة الموحشة الحافلة بالأمل والبغض . « فأنا ، بالنسبة لنفسى ، للحديث
الذى يسمعه الحلق ، من أكون ؟ ضرب من التوكيد المطلق ، التوكيد صادر
عن مجنون ، توتر أعظم من توتر الباقين جميعا . أما بالنسبة للآخرين ، فلست
الا ما فعلته « ولم يكن - بالنسبة لمأى وحدها - ما قام بفعله ، لقد كان -
بالنسبة لها وحدها - شيئا آخر غير تاريخ حياته . ولم يكن العناق الذى
يبقى على العاشقين ملتصقين أحدهما بالآخر فى مواجهة الوحدة . . لم يكن
هذا العناق يحمل الى الرجل فيه أية معونة ، وانما كان يحملها الى المجنون
القابع فى نفسه ، الى الوحش الفريد ، المفضل على كل شيء ، والذى يكونه
كل انسان بالنسبة الى ذاته ، ويعتز به فى أعماق فؤاده . ومنذ أن توفيت
والدته ، أصبحت مأى هى الشخص الوحيد الذى لا ينظر اليه باعتباره كيو
جيسور ، وانما الشريك الحميم « وانها لشركة مختارة ، مكتسبة يرضى بها
الطرفان ، بهذا حدث كيو نفسه ، وهو فى حالة من الاتفاق العجيب مع
الليل ، وكان فكره لم يعد خليقا بأن يعيش فى النور . « الناس ليسوا
أشباهى ، بل هم أولئك الذين ينظرون ويحكمون على ، انما أشباهى أولئك
الذين يحبوننى ، ولا ينظرون الى ، يحبوننى على الرغم من كل شيء ، يحبوننى
على الرغم من السقوط ، والخساسة ، والخيانة . . يحبوننى أنا نفسى ،
لا ما صنعتته ، أو ما سأصنعه أولئك الذين يحبوننى الى المدى الذى أحب فيه
نفسى . . حتى ولو أشرف بى هذا الحب على الانتحار ، بما فى ذلك الانتحار . .
انها وحدها التى أشاطرها هذا الحب الممزق أو غير الممزق ، كما يشترك
الآخرون معا فى الاحساس بأطفالهم المرضى والذين يمكن أن يموتوا . . . »
لم تكن هذه هى السعادة بكل تأكيد ، وانما كان شبيها بدائيا يتمشى مع
الظلمات ، ويشيع فى أوصاله دفئا ينتهى بعناق ساكن ، كما يلاصق الخد
الخد . . . الشيء الوحيد فى نفسه الذى يعد قويا كالموت .

وعلى أسقف المنازل ، كانت ثمة أطياف قد اتخذت أماكنها .

الساعة الرابعة صباحا

فرك چيسور العجوز قطعة الورق المهلهلة التى كتب عليها « تشن » اسمه بالقلم الرصاص ، ووضعها فى جيب ردائه المنزلى . كان فى لهفة الى رؤية تلميذه القديم ثانية . وألقى نظرة أخرى على محدثه ، وكان شيخا صينيا له رأس مثقف من أعضاء « جمعية الهند » ، ويرتدى الثوب الفضفاض ، واتجه صوب الباب بخطوات قصيرة رافعا سبابته ، ومتحدثا بالانجليزية : « من المستحسن أن تخضع المرأة خضوعا مطلقا ، وأن يوجد التسرى ، ونظام البغاء . »

« اننى سأواصل نشر مقالاتى . ولأن أجدادنا كانوا يفكرون على هذا النحو ، فقد وجدت هذه اللوحات الجميلة (وأشار بعينيه الى العنقاء الزرقاء بدون أن يحرك وجهه ، وكأنه يغمز اليها) التى تفخر بها ، وأفخر بها أنا أيضا . انما تخضع المرأة للرجل ، كما يخضع الرجل للدولة ، غير أن خدعة الرجل أخف وطأة من خدمة الدولة . فهل نعيش نحن لأنفسنا ؟ اننا لسنا شيئا . وانما نعيش للدولة فى الوقت الحاضر ، ومن أجل الموتى الأجداد عبر الأحقاب المتتابة . . . »

ألن يرحل ؟ هذا الرجل المتشبهت بـماضيه - حتى فى الوقت الحاضر (أفلا تكفى صفارات السفن الحربية ملء هذا الليل ؟) انه فى مواجهة الصين التى أغرقها طوفان من الدماء كتمائيله البرونزية أثناء تقديم القرابين ، قد اكنسب شاعرية بعض المجانين . الموتى الأجداد . هياكل عظمية لا حصر لها فى ثياب موشاة ، ضائعة فى أعماق الزمن فى اجتماعات صامتة : وفى مواجهته ، تشن ، ومائتا ألف من عمال النسيج ، وجمهور الكادحين الساحق . خضوع النساء ؟ لقد كانت « ماى » تروى كل ليلة قصص انتحار الفتيات المخطوبات . . . ورحل الشيخ ، رافعا سبابته : « النظام ، ياسيد چيسور . . » ، قال ذلك بعد أن حياه - واثبا برأسه وكتفيه - تحية أخيرة .

وما أن تناهى الى سمعه صوت اغلاق الباب ، حتى نادى على تشن ، وعاد معه الى قاعة العنقاوات .

أخذ « تشن » يذرع الحجرة جيئة وذهابا . وفى كل مرة كان يعبر امام الأريكة التى جلس عليها چيسور ، كانت صفحة وجهه الجانبية تذكر چيسور

« بصقر مصرى من البرونز كان قد احتفظ « كيو » بصورته حبا لتشن ، « بسبب ما بينهما من تشابه » . وكان چيسور على حق ، رغم ما تعبر عنه هاتان الشفتان الغليظتان من طيبة . وناجى چيسور نفسه قائلا : « وبالأجمال ، انه أشبه بصقر غرس فى قلبه الايمان القديس فرانسوا الأسيسى » .

ووقف « تشن » ازاءه وقال : « أنا الذى قتلت ثان - ين - تا » .

لقد لح فى نظرة چيسور شيئا يكاد أن يكون حنانا . وكان يزدري الحنان ، بل ويخاف منه . وكانت رأسه الغائصة بين كتفيه ، والتي تجعلها عشيته تميل الى الأمام ، وعظمة أنفه المقوسة قد أبرزتا التشابه بين ملامحه وملامح الصقر ، على الرغم من جسده المكتنز ، بل ان عينيه الضيقتين ، اللتين تخلصان تقريبا من الأهداب ، تذكر المرء بطائر من الطيور .

— « أعن هذا أتيت لتحدثنى ؟ »

— « أجل » .

— « وهل يعلم كيو بهذا ؟ »

— « نعم » .

وأمعن « چيسور » فى التفكير . ومادام لا يريد أن يجيب بأحكام سابقة تتعارف عليها الناس ، فليس فى استطاعته الا أن يؤيده فيما فعل . ومع ذلك ، فقد كان يجد مشقة فى هذا التأييد ، وناجى نفسه قائلا : « لقد مهرمت » .

وانقطع « تشن » عن المشى وقال وهو يتفرس أخيرا فى وجه چيسور : « اننى وحيد وحدة غير عادية » .

وانتاب « چيسور » شىء من الاضطراب . ولم يكن تعلق « تشن » به هو موضع دهشته . فقد ظل أعواما طويلة أستاذة بالمعنى الصينى للكلمة — أى أقل من أبيه ، وأكثر من امه ، والحق انه منذ وفاة والديه ، كان چيسور هو الشخص الوحيد الذى يحتاج اليه تشن ، بيد أن الشىء الذى لم يفهمه ، هو أن تشن الذى التقى هذه الليلة — بلا شك — بقومه من الارهابيين ، مادام « قد التقى بكيو — كان يبدو بعيدا عنهم كل البعد » .

وسأله : « وماذا عن الآخرين ؟ »

ولاحوا مرة أخرى على صفحة ذاكرته ، وهم جالسون فى مؤخرة حانوت

تاجر الاسطوانات ، غارقين فى الظلام ، أو خارجين منه وفقا لتأرجح المصباح .
بينما كان الجدد يغنى .

– « انهم لا يعلمون » .

– « لا يعلمون أنك أنت الذى فعلت ذلك ؟ »

– « انهم يعلمون ذلك : تغير أن هذا لا أهمية له على الاطلاق » .

ولاذ بالصمت مرة أخرى . وتحاشى چيسور أن يستجوبه ، وأخيرا
استأنف تشن حديثه قائلا : « .. انهم لا يعلمون أن هذه هى المرة الأولى » .

وأحس چيسور على حين غرة أنه فهم . وأدرك تشن ذلك فقال :

– « كلا ... انك لم تفهم » .

وكان يتكلم الفرنسية بلهجة يؤكد فيها حلقه الكلمات ذات المقطع الأنفى
الواحد ، ويدهشك أن تمتزج ببعض العبارات الجارية التى أخذها عن كيو .
وكان ذراعه الأيمن ممدود بالغريزة الى جانبه ، فأحس من جديد بالجسد
المطعون الذى ردت له الملة المرنة الى الخنجر . ولم يكن لذلك أية دلالة ، فلسوف
يعيد الكرة ، ولكنه كان يلتمس – فى أثناء ذلك – ملاذا يثوب اليه . وقد
كان تشن يعرف أن « كيو » هو الشخص الوحيد الذى يحمل له « چيسور »
تلك العاطفة العميقة التى لا تحتاج الى أى تفسير . وكيف يمكن أن يشرح
ما يعتمل فى نفسه ؟

– « انك لم تقتل من قبل أى انسان ، أليس كذلك ؟ »

– « انك لتعرف » .

وكان هذا الأمر يبدو جليا فى نظر « تشن » ، ولكنه كان يرتاب اليوم فى
مثل هذه الأمور الجلية . ومع ذلك ، فقد بدا له – فجأة – أن شيئا ما ينقص
چيسور .. ورفع عينيه . وكان هذا يصعد فيه بصره ، وقد بدا شعره
الأبيض أطول مما هو حقيقة بسبب تحرك رأسه الى الوراء ، وأدهشه عجزه
عن التلويح بيديه أثناء الحديث . وكان هذا راجعا الى جرحه الذى لم يخبره
« تشن » بشيء عنه ، ولم يكن ذلك لأنه يتألم منه (فقد قام بتطهيره أحد
رفاقه المرضى) ولكنه كان يعوقه عن الحركة . وكان « چيسور » يلف بين

أصابه لفافة تبغ وهمية كما هي عادته دائما حين يستغرق في التفكير :

ـ « ربما .. »

وتوقف عن الكلام ، وقد سدّد عينيه الصافيتين المستقرتين في قناع فارس حليق من فرسان المعبد . . . وانتظر تشن ، وواصل جيسور حديثه في لهجة تكاد تكون وحشية :

ـ « لا أعتقد أن مجرد ذكر جريمة قتل كاف لأن يشيع الاضطراب في نفسك على هذا النحو » .

وحاول تشن أن يقنع نفسه ، بأن جيسور لا يدري تماما ما يقول ، غير أن « جيسور » أصاب في الصميم . وجلس « تشن » وهو ينظر الى قدميه ، ثم قال : « لا أعتقد .. أنا أيضا ، ان مجرد الذكرى كافية .. ثمة شيء آخر ، هو جوهر الموضوع .. وليتني أعرف ما هو » .

لأنه يريد أن يعرف هذا الشيء ، أقبل لزيارته ؟

وسأله جيسور : « أول امرأة ضاجعتها ، كانت عاهر .. طبعاً ؟ »

فأجابه « تشن » في شيء من الحقد : « اننى رجل صينى » .

وحدث جيسور نفسه قائلاً : « كلا » .. ان تشن لم يكن صينياً اللهم الا فيما يتعلق بالناحية الجنسية فيه . فقد أثبت المهاجرون الذين تغص بهم شنغهاى من جميع البلاد .. أثبتوا لجيسور أنهم حين يحاولون الانفصال عن أمتهم فانهم يفعلون ذلك بطريقة قومية ، غير أن تشن لم يعد ينتمى الى الصين حتى فى طريقة تخليه عنها : ذلك أن حرية كاملة قد أسلمته الى فكره تسليماً تاماً .

وسأله جيسور : « وبماذا أحسست بعد ذلك ؟ »

فأطبق تشن أصابعه وقال :

ـ « بالزهو » .

ـ « لأنك رجل ؟ »

ـ « لأننى لست امرأة » .

ولم يعد صوته معبراً عن الحقد ، وانما عن احتقار معقد .

واستطرد قائلاً : « أظن أنك تريد أن تقول : انه كان يجب أن اشعر
بنفسي .. منفصلاً عنهم ؟ »

وحافظ چيسور على صمته .

— « .. أجل ، أحسست بذلك احساساً رهيباً .. وانت على حق في حديثك.
عن النساء . وربما كان المرء يحتقر من يقتله احتقاراً شديداً .. وان يكن.
ذلك أقل من احتقاره للآخرين .. »

وبحث چيسور عن المعنى ، دون أن يتأكد من أنه قد فطن اليه . فسأله :

— « تقصد احتقاره لأولئك الذين لا يقتلون ؟ »

— « أجل .. لأولئك الذين لا يقتلون .. صغار البراغيث . »

وجعل يذرع الحجرة من جديد ، وكانت الكلمتان الأخيرتان قد سقطتا ،
وكانهما عبء أزيح عن صدره ، واتسع الصمت حولهما .. وبدأ چيسور يشعر
بدوره — دون أن يكون ذلك مبعثاً لحزنه — بالانفصال الذي تحدث عنه تشن .
وتذكر بغتة أن « تشن » قد ذكر له مرة أنه يفزع من صرير الحيوانات .

— « ألم ينتابك الفزع من منظر الدماء ؟ »

— « بلى .. ولكنه لم يكن الفزع (فحسب) » .

قال هذه الجملة وهو يبتعد عن چيسور ، ولكنه ، التفت اليه على حين
غرة ، وسأله — وهو يتأمل العنقاء ، وكأنه يحسّدق مباشرة في عيني.
چيسور :

— « وبعد ؟ اننى أعرف كيف أعاملهن حين يردن الاستمرار في امتلاكك .

أن تعيش معهن .. فهل ينطبق هذا على الموت ؟ »

واستطرد قائلاً في مرارة أشد ، دون أن يحول عينيه عن العنقاء :

— « أهذا معاشره أيضاً ؟ »

وكانت طبيعة ذكاء چيسور تدفعه دائماً الى المسارعة في معونة محدثيه ،
وكان يحب تشن ، ولكنه بدأ يرى الموقف رؤية واضحة : ان العمل في جماعات.
الهجوم لم يعد كافياً بالنسبة لهذا الشاب : فقد أضحي الارهاب بالنسبة
اليه غواية مستبدة .

قال وهو يلف دائماً تلك اللفافة الوهمية ، وقد مال رأسه الى الامام وكأنه

ينظر الى السجادة ، وخصلة من شعره الأبيض ترف على أنفه النحيف . . قال :
مجتهدا فى اعطاء صوته رنة من اللامبالاة :

ـ « أتظن أنك لن تخرج أبدا من هذا المأزق . . . »

ولكنه لم يلبث أن فقد السيطرة على أعصابه ، فختتم عبارته مستهزئا :
ـ « وخوفك من . . هذا . . القلق . هو الذى دفعك الى الاحتماء بى . »
صمت . وأخيرا قال تشن من بين أسنانه : « قلق ؟ كلا . . أيكونه
القدر ؟ »

صمت مرة أخرى . وأحس چيسور أنه لا يستطيع الاتيان بأية حركة ،
وأنه لا يمكنه أن يتناول يده . كما كان يفعل من قبل ، واستقر رأيه هو
الآخر ، فقال بصوت مكدود ، وكأنه اكتسب فجأة عادة القلق :

ـ « اذن ، فلا بد من التفكير فى هذا القدر ، ودفعه الى أقصى غايته . . واذا
أردت أن تعاشره . . . »
ـ « سأقتل حالا . »

وتساءل چيسور : أليس هذا هو ما يريده بالذات ؟ انه لا يطمع فى أى
مجد ، أو أية سعادة . لقد كان قادرا على الانتصار ، ولكنه لا يملك القدرة
على الحياة فى انتصاره ، فما هذا الذى يسعى اليه ان لم يكن الموت ؟ ليس
من شك أنه يريد أن يضيف عليه المعنى الذى يضيفه الآخرون على الحياة .
الموت فى أسمى صورة ممكنة . نفس طموح ، واضحة الادراك ، منفصلة الى
حد ما عن الناس أو لعلها من المرض بحيث تحتقر موضوعات طموحها جميعا ،
بل طموحها نفسه ؟

ـ « اذا كنت تريد أن تعاشر . . هذا القدر ، فليس أمامك غير سهيل
واحد لذلك ، هو أن تنقله الى سواك . »

وسأله « تشن » ، وهو يصر على أسنانه دائما : « ومن هو الجدير
بذلك ؟ »

وثقلت وطأة الجو أكثر فأكثر ، وكأن كل ما استحضرتة هذه العبارة من
قتل ، كان حاضرا . . ولم يعد « چيسور » قادرا على أن يقول شيئا : اذ اتخذت
كل كلمة رنيننا مزيفا ، طائشا ، سخيفا .

قال تشن : « شكرا . . » وانحنى أمامه بنصفه الأعلى كله . على الطريقة

الصينية (وهذا ما لم يفعله قط) . وكأنه قد آنر ألا يلمسه . وانصرف .
وعاد « چيسور » الى مجلسه ، وشرع يلف اللفافة الوهمية من جديد .
ولأول مرة ألقى نفسه وجها لوجه لا ازاء الكفاح - وانما أمام الدماء . وتذكر
كيو كما هي عادته دائما . ان كيو كان خليقا بأن يجد هذا الكون الذى يتحرك
فيه تشن خانقا للأنفاس . . ولكن ، أكان هذا شيئا مؤكدا ؟ ان « تشن »
يمقت الصيد أيضا كما يفزع من منظر الدماء . . كل هذا كان من قبل .
وعند هذا المدى من الأغوار ، ماذا يعرف عن ابنه ؟ حين لا يستطيع حبه ان يقوم
بأى دور ، وحين لا يستطيع أن يسترجع كثيرا من الذكريات . كان يعرف
حقا أنه قد انقطع عن معرفة كيو . وهزه شوق شديد الى رؤيته . . رغبة
شبيهة برغبتنا فى رؤية أمواتنا للمرة الأخيرة . . . وكان يعلم أنه قد رحل .

أين ؟ ان حضور « تشن » ما زال يشيع الحياة فى الحجرة . لقد ارتدى
« تشن » فى عالم الجريمة ، ولن يخرج منه أبدا ، وانه ليدخل حياة الارهاب -
يما جبل عليه من عناد - وكأنه يدخل سجننا . ولن تنقضى سنوات عشر حتى
يؤخذ - ليعذب أو ليقتل ، وسيعيش حتى ذلك الحين ، كما يعيش انسان
ممسوس عنيد ، فى عالم التصميم والموت . لقد كان يحيا من أجل أفكاره . .
والآن ، هذه الأفكار هى التى ستقتله .

وكان هذا ما يتألم بسبه چيسور ، فأن ينغمس كيو فى القتل . . هذا
هو دوره . . وان لم يكن الأمر كذلك ، سيان : ان ما يفعله كيو يبرر نفسه .
ولكنه كان مفزعا بهذا الاحساس المفاجيء ، بيقينه من حتمية القتل . وبمفعولها
السام ، فى الوقت الذى يدرك فيه قلة حيلته ازاء هذا المفعول . ويشعر
بأنه لم يستجب للمعونة التى طلبها « تشن » كما ينبغى أن تكون الاستجابة .
وبالوحدة التى تحيط بجريمة القتل - وبأن كيو قد ابتعد عنه ، نتيجة لهذا
القلق . ولأول مرة ارتبطت تلك العبارة التى كان يرددها فى كثير من الأحيان
« لا سبيل الى معرفة الكائنات » - ارتبطت فى ذهنه بوجه ابنه .

أكان يعرف تشن حقا ؟ انه ما كان يعتقد قط أن الذكريات تسمح بفهم
الانسان . هناك التربية الأولى التى تلقاها تشن ، وكانت هذه التربية دينية .
وحين بدأ يهتم بهذا المراهق اليتيم الذى قتل أباه أثناء نهب مدينة كالجان -
والذى كانت وقاحته وقاحة صامتة ، كان تشن قد تخرج من الكلية اللوثرية
حيث كان تلميذا لمدرس مثقف مصاب بداء الصدر تحول الى قسيس فى سن

متأخرة ، وكان يكافح في صبر - وهو في سن الخمسين للتغلب - بأعمال البر والاحسان - على حيرة دينية شديدة . وكان الخجل من الجسد ، ذلك الخجل الذى كان مصدر عذاب القديس أغسطين - قد استبد بهذا الراعى - الخجل من الجسد الساقط الذى لا بد من الحياة فيه مع المسيح ، وكذلك الفزع من مدينة الصين الخاضعة للطقوس التى تحيط به ، والتى جعلت نداء الحياة الدينية الصحيحة أشد الحاحا . . واستطاع هذا الراعى - بما يجيش فى نفسه من قلق - أن يصل فى نهاية الأمر الى تفسير للوثر كان يطلع عليه جيسور من حين الى آخر : « لا حياة الا فى الله ، غير أن الانسان - بارتكابه للخطيئة ، قد بلغ درجة من السقوط ، وتدنس دنسا لا شفاء منه بحيث أصبح الوصول الى الله ضربا من التدنيس . ولهذا جاء السيد المسيح ، وكان صلبه تكفيرا أبديا » . تبقى بعد ذلك مسألة الفضل الالهى ، أى الحب اللامحدود أو الخوف وفقا لقوة الأمل أو ضعفه ، وكان هذا الخوف خطيئة جديدة . ويبقى الاحسان أيضا ، غير أن الاحسان لا يكفى دائما لاستيعاب القلق .

وكان الراعى متعلقا بـ « تشن » ، ولم يخطر له أن عم تشن المتولى لأمره لم يبعث به الى الارساليات الا لكى يتعلم الانجليزية والفرنسية ، وأنه قد حذره من تعاليمها ، ومن فكرة الجحيم بوجه خاص ، تلك الفكرة التى كان يشك فيها هذا الكونفوشيوسى . أما الطفل الذى التقى بالمسيح ولم يلتق بالشيطان أو بالله ، والذى علمته تجربة الراعى أن الناس لا يهتدون مطلقا الا عن طريق وسطاء - فقد استسلم للحب بتلك الشدة التى يأخذ بها نفسه فى كل شئ . ولكن احترامه لأستاذه - وهو الشئ الوحيد الذى غرسته الصين فى نفسه غرسا قويا - بلغ به أن يدرك القلق الذى استبد بالراعى - على الرغم من الحب الذى يدعو اليه - هذا القلق يدا لـ « تشن » جحيما أشد هولا واقناعا من ذلك الجحيم الذى حاولوا تحصينه ضده .

وعاد عمه . فهاله التغير الذى أصاب ابن أخيه ، ومع ذلك أظهر شيئا من الرضا الرقيق ، وبعث بأشجار صغيرة من حجر اليشب والبللور الى مدير المدرسة والى الراعى ، والى غيرهم وما كادت تنقضى ثمانية أيام ، حتى استدعى « تشن » الى منزله ، وفى نهاية الأسبوع التالى ، أرسله الى جامعة بكين .

وحاول جيسور - وهو يلف سيجارته الوهمية دائما بين ركبتيه ، وقد فغر فاه فى ذهول المستغرق فى التفكير - أن يتذكر المراهق الذى كانه « تشن »

فى تلك الأيام الخوالى • ولكن ، كيف يفصله أو يعزله عما صار اليه الآن ؟
 « اننى أفكر فى روحه الدينية لأن كيو لم تكن له هذه الروح قط ، ولأن كل
 اختلاف عميق بينهما فى هذه اللحظة يبعث فى نفسى شيئا من الارتياح • •
 لماذا أشعر بأننى أعرفه خيرا مما أعرف ابنى ؟ » ذلك لأنه يرى بصورة أوضح
 فى حالة « تشن » الجوانب التى استطاع أن يغيره فيها : وهذا التغيير
 الرئيسى - الذى هو من صنعه - كان دقيقا ، محدودا ، وهو لا يعرف شيئا فى
 الناس أفضل مما حمله اليهم • ومنذ أن أبصر « تشن » أدرك للوهلة الأولى
 أن هذا المراهق لا يستطيع أن يعيش بأيدولوجية لا تتحول مباشرة الى
 أفعال • ولما كانت فلسفته تخلو من فكرة الاحسان ، فإن الحياة الدينية لم
 تكن تستطيع أن تقوده الا الى التأمل أو الى الحياة الباطنة ، ولكنه كان يمقت
 التأمل ، ولا يحلم الا بأداء رسالة دينية لا تتلاءم مطلقا مع خلوه من الاحسان •
 وكان ينبغى لكى يعيش ، أن يتحرر أولا من نزعته المسيحية (ويبدو من بعض
 أحاديثه الخاصة أن معرفته بالعاهرات والطلبة قد مكنت تشن من التغلب
 على الخطيئة الوحيدة التى كانت أقوى من ارادته دائما ، وهى الاستمناء ،
 والتغلب معها على الاحساس المتكرر دائما بالقلق والسقوط) • وحين عارض
 أستاذه الجديد نزعته المسيحية لا بالحجج المنطقية وانما بصور أخرى
 للعظمة ، تسرب الايمان من بين أصابع تشن شيئا فشيئا ، دون أن تصيبه
 أية أزمة • ولما كان هذا الايمان يفصله عن الصين ، ويعزله عن العالم بدلا
 من أن يخضعه للعالم ، فقد فهم خلال چيسور أن كل شئ قد مضى على نحو
 يجعل هذه الفترة من حياته مدخلا الى معنى البطولة : فماذا يصنع امرؤ
 بنفسه ، ان لم يكن ثمة وجود لله أو للمسيح ؟

وهنا كان « چيسور » يشعر أن ابنه قد عاد اليه ، لا مباليا بالمسيحية ،
 وان تكن تربيته اليابانية (عاش كيو فى اليابان منذ أن كان فى الثمانية
 من عمره حتى بلغ السابعة عشرة) قد دفعته الى الاعتقاد بأنه ينبغى ألا تفكر
 فى الأفكار ، بل أن نحياها • وقد اختار « كيو » الفعل بصورة جدية مدبرة ،
 كما يختار غيره من الشبان الجيش أو البحرية : وكان قد ترك والده ، وعاش
 فى كانتون وتينتسين ، حياة المناورات ، واختلط بالعمال الكادحين ممن
 يجرون العربات لتنظيم النقابات • أما تشن ، الذى أخذ عمه رهينة ، دون
 أن يستطيع دفع فديته ، وبالتالى أعدم بعد الاستيلاء على سواتاو - فقد وجد

نفسه مفلسا ، حائزا على دبلومات لا قيمة لها ، فى مواجهة أربعة وعشرين عاما من عمره ، ووجهها لوجه أمام الصين • اشتغل سائق سيارة نقل مادامت طرق الشمال خطرة ، ثم مساعدا كيميائيا ، ثم لا شئ على الاطلاق • كان كل شئ يدفعه الى العمل السياسى : الأمل فى عالم مختلف ، امكانية الحصول على الطعام ولو فى بؤس (كان تشن متقشفا بطبيعته ، وربما كان ذلك بدافع من كبريائه) ، ارضاء أحقادهم ، وتفكيره ، وشخصيته • • فضلا عن ذلك فقد كان العمل السياسى يبت فى عزلته معنى • أما بالنسبة لكيو فقد كان كل شئ أبسط من ذلك • فاحساسه البطولى كان بالنسبة اليه بمثابة نظام يفرضه على نفسه ، لا تبريرا للحياة • ولم يكن « كيو » قلقا : فحياته لها معناها الذى يعرفه ، وهو اعطاء كل انسان من أولئك الذين تقتلهم المجاعة فى هذه اللحظة بالذات كالوباء البطىء ، الشعور بكرامته • انه ينتمى اليهم ، وأعداؤهم هم بعينهم أعداؤه • ولم يحاول « كيو » وهو المولد المنبوذ المحتقر من البيض ، ومن البيضاوات على وجه الخصوص – أن يخلبهم ، بل لقد بحث عن قومه ، ووجدهم « لا كرامة ، ولا حياة حقيقية لانسان يكبح اثنتى عشرة ساعة فى اليوم دون أن يعرف لأى غرض يكبح » • فلا بد من أن يتخذ هذا العمل معنى ، وأن يصبح وطنيا • أما المسائفة الفردية فلم يكن لها وجود بالنسبة لـ « كيو » الا فى حياته الشخصية •

كان « چيسور » يعلم هذا كله • « ومع ذلك فلو دخل كيو ، وأخبرنى كما أخبرنى تشن منذ لحظة : « أنا الذى قتلت ثانج – ين – تا » ، لو قال هذا لدار فى نفسى : « اننى كنت أعرف ذلك » • ان كل ما هو ممكن فيه يتجاوب مع نفسى بقوة الى درجة أن كل ما يقوله لى ، أعتقد « أننى كنت أعرفه » ونظر عبر النافذة الى الليل الساكن غير المكترث • « ولكن ، لو كنت أعرف حقا ، لا على تلك الصورة الغامضة المروعة ، لأنقذته » يا له من تأكيد مؤلم ، لا يريد أن يصدقه •

انه لم يستخدم فكره منذ انصراف كيو – الا لتبرير حركة ابنه ، تلك الحركة الهزيلة التى بدأت فى مكان ما (لم يكن يعرف فى كثير من الأحيان – خلال ثلاثة أشهر – أين تجرى تلك الحركة) ، فى الصين الوسطى ، أو فى مقاطعات الجنوب • واذا كان الطلاب الحائرون قد شعروا بأن هذا العقل

يسارع الى نجدتهم بكل تلك الحرارة والنفاز ، فان الأمر لم يكن حينذاك كما يعتقد حمقى بكين ، من أنه كان يجد لذة فى مشاركة الطلاب حياتهم التى تفصله عنها سنه ، وانما تفسير ذلك أنه كان يجد فى كل دراما من تلك التى قد تحدث للطلاب ، شيئا يمكن أن يقع لابنه . وحين كان يبين لطلابه - كانوا كلهم تقريبا من الطبقة البرجوازية الصغيرة - انهم مجبرون على الانضمام اما للرؤساء العسكريين أو للبروليتاريا (العمال) ، وحين كان يقول لهؤلاء الذين اختاروا فعلا : ان « الماركسية ليست مذهباً ، ولكنها ارادة . . انها بالنسبة للبروليتاريا أو أنصارها - الذين هم أنتم - ارادة لمعرفة الذات ، وللإحساس بوضعهم الذى يعيشون فيه ، وللانتصار وفقا لهذا الوعى ، ولا ينبغي أن تكونوا ماركسيين لكى تكونوا على حق - وانما لكى تنتصروا دون خيانة لأنفسكم » ، انما كان يوجه الى كيو هذا الحديث ، ويدافع عنه . واذا كان يعرف أن نفس « كيو » الصارمة لم تكن هى التى تجاوبه حين كان يجد حجرتة - عقب هذه المحاضرات ، ملأى بالزهور البيضاء التى حملها الطلاب وفقا للتقاليد الصينية - فانه كان يعرف على الأقل أن تلك الأيدي التى تتدرب على الاغتيال وهى تحمل اليه فى نفس الوقت زهور الكاميليا ، سوف تصافح غدا يد ابنه الذى سيكون فى حاجة اليها . وهذا هو سبب انجذابه الى قوة الشخصية ، وسبب ارتباطه بـ « تشن » . ولكنه حين أحب « تشن » ، أكان يتنبأ بتلك الليلة المطيرة التى أتى اليه فيها الشاب - قبل أن تنجمد دماء ضحيته ، ليقول له : « لم أكن أشعر بالفزع فحسب . . . ؟ »

ونفض ، ثم فتح درج المنضدة التى يضع فيها صينية الأفيون ، فوق مجموعة من الصبار الصغير وتحت الصينية ، كانت هناك صورة : صورة « كيو » - سحبها ، ثم نظر اليها دون أن يفكر فى شيء واضح ، اذ كان مستغرقا - استغرقا تشوبه المرارة - فى يقينه بأنه هناك فى العالم الذى يوشك أن يلججه ، لم يعد يعرف أحد أحدا ، بل ان حضور كيو نفسه الذى طالما تمناه منذ لحظة ، لم يغير من الموقف شيئا ، اللهم الا أن يجعل فراقهما أشد يأسا ، وكأنه حضور أصدقاء نعانقهم فى الحلم بعد أن طواهم الموت منذ أعوام . وظل محتفظا بالصورة بين أصابعه : كانت دافئة ، كراحة اليد . فتركها تسقط مرة أخرى فى الدرج ، وسحب الصينية ، وأطفأ نور الكهرباء ، وأشعل المصباح .

غليونان . وكان فى سالف الأيام حين يبدأ نهمه فى الارتواء ينظر الى الناس نظرة عطف ، ويرى العالم زاخرا بامكانيات لا نهائية . أما الآن ، فلم تعد الامكانيات تجد - فى قرارة نفسه - متسعا : فقد بلغ الستين من عمره وأصبحت ذكرياته مليئة بالقبور . ولم يعد احساسه الرهف بالفن الصينى ، وبتلك الصور المزرقة التى يلقي عليها مصباحه ضوءا خافتا ، وبكل حضارة الصين الموحية التى تحيط به . . . تلك الحضارة التى استطاع أن ينتفع بها انتفاعا بديعا قبل ثلاثين عاما مضت - لم يعد احساسه بالسعادة غير غطاء رقيق يستيقظ تحته القلق ووسواس الموت - كالكلاب المتلهفة التى تضطرب فى نهاية نومها .

ومع ذلك ، أخذ فكره يتسكع حول العالم ، وحول الناس ، تصاحبه عاطفة نهمة لم يطفئها تقدم السن . ولقد كان مقتنعا منذ زمن طويل ، بأن فى كل انسان - وفيه هو على الأخص - يكمن مريض بالاضطهاد . وكان يعتقد قديما - فى احدى مراحل تطوره الغابرة - أنه سيصبح بطلا . كلا - ان هذه القرة ، هذا الخيال الشائر الكامن فى أغوار نفسه (طالما قال لنفسه ، لو أصبحت مجنونا ، لبقيت هذه القوة وحدها منى) كانت على استعداد للتشكل بجميع الأشكال مثل النور . وتذكر - كما تذكر كيو من قبل ، وربما لنفس الأسباب - الاسطوانات التى حدثه عنها ، وكان يفكر فيها على نحو ما كان يفكر فيها كيو تقريبا ، لأن طرائق تفكير كيو كانت نابعة من طرائق تفكيره . وكما أن كيو لم يتعرف على صوته لأنه سمعه عن طريق حلقة ، فكذلك كان وعى چيسور بنفسه لا يمكن أن يرد بلاشك ، الى الوعى الذى يستطيع أن يكتسبه عن شخص آخر ، لأنه ليس مكتسبا بنفس الوسائل . ولم يكن لحواسه دخل فى ذلك . وكان يشعر أنه قد اقتحم بماله من وعى دخيل - مجالا ينتمى اليه أكثر من سواه ، وأنه يملك فى قلق - عزلة محرمة على غيره من الناس ، لن يلاحق به فيها أحد . وأحس فى لحظة خاطفة - بأن « هذا » هو ما سيفلت من الموت . . . وارتجفت يده التى كانت تعد كرية جديدة من الأفيون رجفة خفيفة . هذه العزلة التامة . لا يستطيع حتى حبه لـ « كيو » أن ينجيه منها ، ولكنه ان لم يكن يستطيع الهروب فى شخص آخر ، فانه يعرف طريقا آخر للخلاص : الأفيون .

خمس كريات • انه منذ سنوات يقف عند هذا القدر ، رغم ما يجد في ذلك من عناء ، ومن ألم في بعض الأحيان • وقام بتنظيف غليونيه ، وظل يده يصعد من الحائط الى السقف • وأزاح المصباح بضعة سنتيمترات ، ففقد الظل ملامحه ، وكذلك فقدت الأشياء قسماؤها ، وعلى الرغم من اشتغالها لم تتغير ، فانها لم تعد متميزة عنه ، بل انضمت اليه في أعماق عالم مألوف . حيث يمزج بين الأشياء كلها عدم اكتراث رقيق - عالم أصدق من العالم الآخر لأنه أكثر دواما ، وأشبه بنفسه ، محل ثقة كالصدقة ، متساعدا دائما ، مستعدا دائما : أشكال وذكريات ، وأفكار • • كانت كلها تغوص في بطن نحو كون متحرر • وتذكر أصيل يوم من أيام سبتمبر ، هناك خلع لون السماء الرمادي البديع على مياه البحيرة بياض اللبن ، وهي تروح في فجوات حقول واسعة من أزهار البشنين الحريرية ، وبدا له العالم بأسره ، ابتداء من الطنف المتأكلة في ذلك الجناح المهجور ، حتى الأفق الرائع الحزين - بدا له العالم وقد تغلغلت فيه كآبة مهيبة • وثمة راهب بوذي قد اتكأ على حافة ذلك الجناح دون أن يحرك جرسه الصغير ، تاركا محرابه للغبار ، ولعطر الأخشاب الشذية التي كانت تحترق ، وكان الفلاحون الذين يجمعون بذور البشنين ينزلقون على صفحة الماء بزورقهم دون أن يحدثوا صوتا ، وعلى مقربة من الزهور الأخيرة ، تولد من دفعة الزورق خطان طويلان من الماء ، لم يلبثا أن تبددا في الماء الرمادي بلا مبالاة • وفي نفسه أيضا تبددت أفكار ، كانت تضم بين ثناياها شقاء العالم ، ولكنه شقاء يخلو من المرارة ، شقاء حوله الأفيون الى صفاء علوى • وأخذ چيسور يتأمل وحدته ، مغمض العينين ، محمولا على أجنحة ثابتة : وحشة تتصل بالملأ الالهى ، بينما يتسع الى ما لانهاية هذا الأخدود من الطمأنينة الذي يغطي في رفق أعماق الموت •

* *

الرابعة والنصف صباحا

نزل الرجال واحدا وحدا في زى جنود الحكومة ، واضعين معاطفهم الواقية من المطر على ظهورهم ، الى الزورق البخارى الذى يتأرجح وفقا لحركة نهر « اليانج تسي » •

قال كيو لكاتوف : « ان اثنين من البحارة ينتميان الى الحزب ، ولا بد

« من سؤالهم ، فهما يعرفان بلاشك مكان الأسلحة » . وكان الزى العسكرى لا يغير الا قليلا من منظر كاتوف ، اذا استثنينا الحذاء ذا الرقبة الطويلة ، كما كانت سترته العسكرية غير محكمة الأزرار كالسترة الأخرى . غير أن القبعة الجديدة التى لم يألّفها والتى وضعت على رأسه فى وقار ، قد أضفت عليه شيئا من البلاهة . وحدث كيو نفسه قائلا : « يا له من تركيب مدهش ، قبعة ضابط صينى على أنف بهذا الشكل ! » وكانت الظلمة ما برحت -جائمة ...

وقال كيو : « ضع قلنسوة معطفك الواقى من المطر » .

وغادر الرصيف الزورق البخارى وانطلق أخيرا فى مغامرته الليلية ، ولم يلبث أن اختفى وراء إحدى السفن الصينية . وتقاطعت كالسيوف تلك الأضواء الكاشفة الصادرة عن الطرادات والتى تكتسح فى هبوطها من السماء كل ما يعج به الميناء من اضطراب ..

ولم يحول « كاتوف » الواقف فى مقدمة الزورق عينيه عن السفينة « شان - تونج » التى بدت وكأنها تقترب شيئا فشيئا . وبينما استولت على حواسه رائحة الماء العطن والسّمك والدخان المنبعث من الميناء (فقد كان قريبا جدا من سطح الماء) التى طغت رويدا رويدا على رائحة الفحم السائدة فى رصيف الميناء استولت على روحه مرة أخرى تلك الذكرى التى يهيب بها قربه من كل معركة . فى الجبهة اللتوانية ، أسر « البيض » كتيبة ، وكان الرجال الذين جردوا من سلاحهم يقفون صفوفًا متراسة فى السهل الجليدى المتراعى الأطراف الذى يكاد لا يبين فى ضوء الفجر المائل الى الاخضرار . « - فليخرج الشيوعيون من الصفوف ! » وكانوا يعرفون أن هذا معناه الموت . وتقدم خارج الصفوف ثلثا الكتيبة . « اخلعوا أقمصتكم » ، « احفروا الحفرة » .. وصدعوا بما أمروا به ، فى ببطء ، اذ كانت الأرض متجمدة . وكان الحراس البيض ، يقبض كل منهم على مسدس فى كل من يديه (فقد كان من الممكن استعمال الفتوس كأسلحة) ، ينتظرون على اليمين وعلى اليسار وقد استبد بهم القلق ونفذ صبرهم ، بينما كانت منطقة الوسط خالية بسبب المدافع الرشاشة منصوبة نحو الأسرى . وكان الصمت بلا حدود ، متراصيا

كهذا الجليد الذى لا تبلغ العين مداه • كانت قطع الأرض المتجمدة هى وحدها التى تتساقط محدثة صوتا مكتوما تتزايد سرعته شيئا فشيئا : فعلى الرغم من الموت الذى ينتظرهم - اذا انتهوا من هذا العمل ، فقد كانوا يسرعون فى عملهم ليظفروا بشيء من الدفء • وبدأ كثير منهم يعطسون • « - كفى • توقفوا ! » واستداروا الى الخلف • وهناك ، فيما وراء رفاقهم ، حشد نساء وأطفال وشيوخ القرية ، قبل أن يرتدوا ثيابهم كاملة ، وقد تافعوا بالاعطية • حشدوا ليشاهدوا هذه العبرة ، وهم يهزون رؤوسهم ، وكأنهم يحاولون جاهدين ألا ينظروا أمامهم ، غير أن القلق يجتذبهم • « اخلعوا سراويلكم ! » ذلك أن الملابس العسكرية كانت نادرة • وتردد الأسرى ، بسبب وجود النساء • « - اخلعوا سراويلكم ! » • وظهرت الجروح ، واحدا واحدا ، معصوبة بأسمال بالية : ذلك أن المدافع الرشاشة قد أطلقت فى مستوى منخفض فأصيب الجميع بجراح فى سيقانهم ، وكان أغلبهم يطرون سراويلهم ، ولو أنهم ألقوا بمعاطفهم العسكرية جانبا ، واصطفوا من جديد ، أمام حافة الحفرة هذه المرة فى مواجهة المدافع الرشاشة ، واضحين فوق الجليد : هذه أجساد وأقمصة داخلية بيضاء • وطفقوا يعطسون بلا توقف ، من شدة البرد ، بعضهم اثر بعض ، وكانت هذه العطسات عميقة انسانية فى ذلك الفجر الذى شهد اعدادهم الى درجة أن الجنود الذين يمسون بالمدافع الرشاشة انتظروا بدلا من اطلاق مدافعهم • انتظروا حتى تخف ضجة الحياة • وأخيرا ، استقر عزمهم • وفى مساء اليوم التالى ، استولى الحمر على القرية ، وأنقذ سبعة عشر جريحا لم تكن اصابتهم قاتلة ، ومنهم كاتوف • هذه الأشباح التى انعكست فى وضوح على جليد الفجر المائل الى الاخضرار ، هذه الأشباح الشفافة التى تهزها تلك العطسات التشنجية فى مواجهة المدافع الرشاشة ، كانت تصاحبه فى المطر ، وفى ذلك الليل الصينى ازاء ظل السفينة « شان - تونج » •

وكان الزورق البخارى يتقدم باستمرار وفى حركة قوية كافية لان تجعل طيف السفينة المنخفض المضطرب يبدو متأرجحا فى بطء على صفحة النهر ، وكانت السفينة تكاد تخلو من الأضواء ولهذا لم يكن من الممكن تمييزها الا بوصفها كتلة أشد ظلاما من السماء المفتوحة - لا مجال للشك فى أن « شان - تونج » محاطة بالحراسة •

والتقى كشاف منبعث من أحد الطرادات بالزورق البخارى ، تعقبه برهة ، ثم تحول عنه . وسار الزورق فى انحناء عميقة ، واتجه صوب السفينة من المؤخرة ، منحرفا الى يمينها قليلا ، وكأنه متجه الى السفينة المجاورة . كان الرجال جميعا يرتدون معاطف البحارة الواقية من المطر ، وقد تدلت قلنسواتهم على ظهورهم . وكانت أوامر سلطات الميناء تقضى بأن تنزل كل سفينة سلم الركاب ، فنظر كاتوف الى سلم « شان - تونج » من خلال نظارته المكبرة التى أخفاها فى معطفه : كان معلقا على بعد متر من سطح الماء ، تضيؤه ثلاثة مصابيح خافتة . اذا طلب القبطان المال - الذى لا يملكون منه شيئا - قبل أن يأذن لهم بالصعود الى سطح السفينة ، فان على الرجال حينئذ أن يقفزوا واحدا وراء الآخر من الزورق البخارى ، وقد يتعذر ابقاء الزورق تحت سلم السفينة . أما اذا حاول أصحاب السفينة أن يسحبوا سلمها فانه يستطيع أن يطلق النار على من يقومون بهذه العملية : فليس تحت البكرات الجرارة ، ما يصد الرصاص عنهم . غير أن السفينة يمكن أن تعلن حالة الدفاع .

وانحرف الزورق البخارى ٩٠ درجة ، واتجه صوب « شان - تونج » فحمل عليها التيار الذى يشتد فى هذه الساعة بالذات ، وكانت السفينة التى بدت مرتفعة ارتفاعا كبيرا فى هذه اللحظة (وكانوا عند أقدامها) - تلوح وكأنها تنطلق فى الليل بأقصى سرعتها ، أشبه بشبح سفينة . وترك سائق الزورق البخارى للمحرك أقصى قوته : فبدت « شان - تونج » كأنما تبطئ من سرعتها ، وتتوقف عن الحركة ، ثم تتراجع . واقترب من سلم السفينة ، وهناك أمسك به كاتوف ، وفى وثبة واحدة ، صعد اليه .

وسأله الرجل الواقف على مدخل السلم : « التصريح ؟ »

سلمه « كاتوف » التصريح - فناوله الرجل الى شخص آخر ، وظل فى مكانه قابضا على مسدسه . كان لابد اذن من أن يتعرف القبطان على وثيقته الخاصة : وقد رجح أن الأمر كذلك ، لأن القبطان قد تعرف الوثيقة من قبل ، حين أوصلها اليه كلابيك . وفى هذه الأثناء ، كان الزورق البخارى المظلم الواقف عند قدم السلم ، يصعد ويهبط مع النهر .

وعاد الرسول قائلا : « تستطيع أن تصعد » ، فلم يتحرك كاتوف من

مكانه ، وغادر الزورق البخارى رجل من رجاله يحمل على كتفيه شارة الملازم (وكان هو الوحيد الذى يتكلم الانجليزية) ، وصعد ، ثم سار فى أعقاب الملاح الرسول الذى قاده الى القبطان .

وكان القبطان ، وهو نرويجى حليق الوجه ، منتفخ الأوداج - ينتظره فى قمرة وراء مكتبه . وخرج الرسول .

قال الملازم بالانجليزية : « لقد جئنا لاستلام الأسلحة . »

فحملق فيه القبطان مذهولا . دون أن يجيب . . . ذلك أن القواد هم الذين دفعوا ثمن الأسلحة دائما ، وقد تم التفاوض سرا على هذه الصفقة بواسطة ملحق احدى القنصليات . حتى كان ارسال الوسيط « تانج - ين - تا » ، وذلك كله نظير نسبة عادلة . فاذا لم يتمسكوا بالتزاماتهم تجاه المستوردين السريين ، فمن يقوم حينئذ بتمويلهم ؟ واكنه ، ما دام لا يتعامل الا مع حكومة شنغهاي ، فانه يستطيع أن يحاول انقاذ أسلحته .

- « جميل ! . . . هذا هو المفتاح . »

وفتش متظاهرا بالهدوء فى جيب صدره الداخلى ، وعلى حين غرة ، سحب منه مسدسه وصوبه الى صدر الملازم الذى لم يكن يفصله عنه سوى المنضدة . وفى هذه اللحظة نفسها سمع خلفه صوتا يقول : « ارفع بديك ! » وكان كاتوف يصوب اليه مسدسه من النافذة المفتوحة المطلة على الدهليز . ولم يفهم القبطان شيئا ، اذ كان « كاتوف » يرتدى بزة بيضاء ، ولكن لم يسعه فى هذه اللحظة الا الاستسلام ، فقد كانت حياته أغلى عنده من صناديق الأسلحة . قال لنفسه : « انها رحلة خاضعة للمكسب والخسارة » . ولسوف يرى ما يمكن أن يحاوله مع بحارته ، فوضع المسدس ، الذى تناوله الملازم .

ودخل « كاتوف » ثم قام بتفتيشه : ولم يكن القبطان يحمل سلاحا آخر .

قال كاتوف بالانجليزية : « ما فائدة أن تكون لك كل تلك المسدسات على ظهر السفينة ، دون أن تحمل أنت نفسك غير مسدس واحد . » ودخل وراءه ستة من رجاله واحدا اثر الآخر فى صمت . وكانت خطوة كاتوف الثقيلة وهيئته الضخمة ، وأنفه المشرعة ، وشعره الأشقر الفاتح . . . كل هذه

الملاح كانت تدل على أنه روسي . . . أو لعله اسكتلندي ؟ ولكن ، هذه اللهجة . .

ـ « ولكنك لست من موظفي الحكومة . . أليس كذلك ؟ »
ـ « لا شأن لك بذلك . »

وحملوا مساعد القبطان ، مربوطا كما ينبغي من رأسه وقدميه ، بعد أن باغتوه أثناء نومه . وقيد الرجال القبطان ، وبقي اثنان منهم لحراسته ، ونزل الباقون مع كاتوف . وقادهم البحاران المنتميان الى الحزب الى المكان الذي خبئت فيه الأسلحة ، وكان الاحتياط الوحيد الذي اتخذه مستوردو « ماكاو » هو أنهم كتبوا على الصناديق هذه العبارة : « قطع منفصلة » . وشرع الرجال في انزال الشحنة . ولم يجدوا في ذلك أية صعوبة بعد أن خفضوا السلم ، إذ كانت الصناديق صغيرة الحجم . وما أن وضع آخر صندوق في الزورق البخاري حتى ذهب كاتوف لافساد مركز اللاسلكي في السفينة ، ثم دخل حيث يوجد القبطان وقال له : « إذا كنت متعجلا في النزول الى البر فاني أُنذرك بأنك سوف تلقى مصرعك عند أول منعطف في الشوارع . . نعمت مساء . »

محض خيلاء ، غير أن الحبال التي كانت تحز في أذرع الأسرى ، كانت تضفي عليه قوة .

وعاد الثوار ، يصحبهم البحاران اللذان أرشداهم الى الزورق البخاري ، الذي انفصل عن السلم ، واتجه صوب الرصيف ، في خط مستقيم هذه المرة . وبينما كان الزورق يعلو ويهبط بفعل الأمواج ، شرع الرجال يستبدلون ثيابهم في غبطة يشوبها ضرب من القلق ، فما زال الخطر ماثلا ، حتى يبلغوا الشاطئ .

وهناك ، كانت تنتظرهم سيارة نقل ، يجلس فيها « كيو » الى جانب السائق .

ـ « ماذا حدث ؟ »

ـ « لا شيء . . . انها مهمة يمكن أن يقوم بها مبتدئون . »

وما أن انتهى نقل الصناديق ، حتي انطلقت السيارة تحمل كيو وكاتوف

وأربعة من الرجال ، احتفظ أحدهم بزيه العسكرى ، بينما تفرق الآخرون .
 وقطعت السيارة شوارع المدينة الصينية فى جلبة شديدة . وكانت
 جوانبها القريبة من الاطارات مزينة بصفائح البنزين ، وعند كل « مركز »
 هام سواء أكان حانوتا أم كهفا أم شقة كانت السيارة تتوقف برهة ، لينزل
 منها صندوق ، قد وضع كيو على أحد جوانبه مذكرة مرقومة تتضمن تعليماته
 الخاصة بتوزيع الأسلحة ، وكان لابد من توزيع بعضها على منظمات الكفاح
 الثانوية . ولم تكن المدة التى تقفها السيارة تزيد عن خمس دقائق ، ومع ذلك
 كان لابد أن تمر على أكثر من عشرين مركزا .

وما كانوا يخشون شيئا سوى الخيانة ؛ ذلك أن هذه السيارة ذات
 الجلبة الشديدة والتى يقودها سائق فى زى الجيش الحكومى ، لم تكن تنير
 أية رية . وصادفوا فى طريقهم دورية من الجنود ، فقال كيو لنفسه : « لقد
 أصبحت بائع اللبن الذى يقوم بجولته المعتادة » .

وأشرق الفجر .

الجزء الثاني

الساعة الحادية عشرة صباحا

ناجى فيرال نفسه قائلا : « الأمر على غير ما يرام » . كان يقود سيارته بحذاء رصيف الميناء ، وكانت سيارته هي الوحيدة التى تحمل ماركة «قوازان» الفرنسية فى شنغهاى ، اذ لم يكن من المستساغ أن يستخدم رئيس الغرفة التجارية الفرنسية سياراة أمريكية . وعلى اليمين ، تحت الرايات العمودية المغطاة بالشعارات : « يوم العمل لا يزيد عن اثنى عشرة ساعة » « لا عمل للأطفال دون سن الثامنة » . تحت هذه الرايات كان آلاف من عمال النسيج ، واقفين ، أو جالسين القرفصاء ، أو راقلين على الرصيف فى فوضى شاملة . وجاوزت السيارة جماعة من النسوة احتشدن تحت شعار « حق الجلوس للعاملات » . وكانت الترسانة نفسها خالية ، اذ انضم عمال التعدين أيضا الى الاضراب . وعلى اليسار ، آلاف من الملاحين فى أسماهم الزرقاء ينتظرون دون أن يحملوا أعلاما ، وقد جلسوا القرفصاء على طول النهر . كان جمهور المتظاهرين يمتد على جانب الرصيف حتى يتلاشى فى أعماق الشوارع المتعامدة عليه ، وعلى شاطئ النهر احتشدت الجموع حتى لم يعد من الممكن رؤية مياه النهر . واجتازت السيارة الرصيف، ودخلت «شارع الجمهوريتين» ، ولكنها لم تستطع أن تتقدم بعد أن اشتبكت الآن فى حركة الجموع الصينية التى اندفعت من كل الشوارع لاجئة الى منطقة الامتيازات الفرنسية . وكما يسبق الجواد جوادا آخر برأسه أو برقبتة أو بجزء من صدره ، كانت الجماهير تطفئ على السيارة فى ببطء ، ولكن باستمرار . وازدحم الطريق بعربات اليد ذات العجلة الواحدة تطل منها رعوس أطفال متدلية بين أوان خزفية ، وعجلات بكينية ، وعربات أطفال ، وجياد صغيرة لغزيرة الشعر ، وعربات تجرها أذرع الآدميين ، وسيارات نقل تحمل ستين شخصاً ، ومراتب ضخمة تضم أثاث منزل بأكمله ، وقد برزت منها أرجل المناضد ، وعمالقة يحملون بأذرعهم الممدودة الى أقصى ما تستطيع والتى يتدلى منها قفص فيه عصفور أسحم - يحملون نسوة صغيرات يحملن أطفالهن خلف ظهورهن . واستطاع السائق أن ينحرف أخيراً ، فدخل شوارع غاصة بالناس ، ولكن صوت آلة التنبيه كان يزيح الجماهير على بعد أمتار أمام السيارة . وأخيراً وصل الى المباني الضخمة التى يقيم فيها البوليس الفرنسى .

وصعد « فيرال » درجات السلم ركضا . وعلى الرغم من شعره المرسى الى الوراء ، وحلته الفاقعة اللون التى تكاد تكون حلة رياضية ، وقميصه المصنوع من الحرير الرمادى ، فقد كان وجهه يحتفظ بشئ من ملامح جيل ١٩٠٠ ، حين كان شابا . وكان يسخر من الناس الذين « يتنكرون على هيئة رؤساء الصناعة » ويجعل من ذلك مبررا لكى يتنكر هو على هيئة دبلوماسى : ولم يكن قد تخلى عن شئ سوى المونوكل . وكان شاربه المدلى الذى وخطه الشيب ، والذى يبدو أنه يطيل التجاعيد التى تحيط بشفتيه ، يضيف على صورة وجهه الجانبية وحشية مرهفة ؛ وكانت قوته تتبدى فى التوافق بين أنفه المعقوف وذقنه البارزة التى لم يحلقها بعناية هذا الصباح ؛ فقد كان موظفو خدمات توزيع المياه مضربين ، والصابون لا يذوب جيدا فى الماء الطباشيرى الذى جلبه الجمالون . . واختفى وسط موجة من التحيات .

وفى مؤخرة مكتب « مارسىال » مدير البوليس ، وقف مخبر صينى هرقل الجثة ، يسأل قائلا : « أهذا هو كل شئ يا سيدى الرئيس ؟ »

فأجابه مارسىال موليا له ظهره : « حاولوا أيضا أن تفوضوا تنظيمات النقابة ، وخلصونى من ذلك العمل الملتوى . انكم لا تستحقون الا الركل بالأقدام ، فنصف رجالكم خونة ملاعين . وأنا لا أدفع لك ما أدفع لكى تقوم بالترفيه عن ثوريين لا يجرون على الافصاح عن حقيقتهم . فليس البوليس مصنعا لتزويد الناس بما يشبه براءتهم . تخلص من كل العملاء انذين يتعاونون مع الكومنتانج ، دون أن تكون فى حاجة الى أن آمرك بذلك وحاول أن تفهم ، بدلا من أن تنظر الى فى بلاهة . ولو أننى كنت أجهل نفسية رجالى كما تجهل أنت نفسية رجالك . . لكان فى ذلك دمارى ! »

— « سيدى ال . . . »

— « انتهى الأمر . . مفهوم — انصراف ، وليكن ذلك بأسرع ما يمكن . . صباح الخير يا سيد فيرال . »

واستدار ناحيته : كانت له سحنة عسكرية ، وقسمات ضخمة ومنظمة لا شخصية وأقل دلالة من كتفيه .

— « صباح الخير يا مارسىال . . ما أخبارك ؟ »

« الحكومة مضطرة - للمحافظة على السكك الحديدية - الى تعبئة آلاف الرجال .. فليس من الممكن الصمود - كما تعلم - أمام شعب بأكمله ، الا بالاعتماد على بوليس مثل بوليسنا . والشئ الوحيد الذى تستطيع الحكومة الاعتماد عليه ، هو القطار المشحون بالأسلحة وما يحمله من مرشدين من الروس البيض ... فالأمر جد خطير . »

« أقلية ولكنها تضم أغلبية من الحمقى .. أنت على حق فى ذلك . »
 « ان كل شئ يتوقف على ما يدور فى جبهة القتال .. أما هنا ، فسيحاولون اشعال نار الثورة .. وربما ارتدت هذه المحاولة الى نحرهم .. لأنهم لا يكادون يملكون أية أسلحة . »

ولم يكن « فيرال » يستطيع الا أن يصغى وينتظر ، وهذا أبغض شئ الى نفسه فى العالم . ولم تكن المفاوضات التى اشترك فيها رؤساء الهيئات الانجلو - سكسونية واليابانية ، من أمثاله ، ومن بعض القنصليات ، مع الوسطاء الذين تغص بهم الفنادق الكبرى فى منطقة الامتيازات .. لم تكن هذه المفاوضات قد أسفرت عن نتيجة حاسمة وربما طرأ بعد الظهر ..

وكان على الكومنتانج - اذا وقعت شنغهاى فى أيدي جيش الثورة - أن يختار أخيرا بين الديموقراطية والشيوعية . انما الديموقراطيات تقدم دائما زبائن طيبين ، ويستطيع أى مجتمع أن يحصل على منافع دون أن يلجأ بالضرورة الى معاهدات .. وعلى العكس من ذلك ، اذا أخذت المندنية بالنظام السوفيتى فسوف ينهار الاتحاد الفرنسى الآسيوى ، ومعه التجارة الفرنسية فى شنغهاى . وكان فيرال يعتقد أن الدول الكبرى سوف تتخلى عن مواطنيها ، كما فعلت انجلترا فى هانكاو . ولهذا كان هدفه المباشر هو ألا تسقط المدينة قبل وصول الجيش ، حتى لا يتمكن الشيوعيون من العمل وحدهم .

« كم عدد الجنود مارسيال ، بالاضافة الى القطار المسلح ؟ »

« ألفا من رجال البوليس ، وفصيلة من المدفعية ، يا سيد فيرال . »

« وكم عدد الثوار الذين يستطيعون أن يفعلوا غير مجرد الشرثرة ؟ »

« المسلحون منهم ، عدة مئات على أكثر تقدير ... اما الآخرون فلا أظن أنهم يستحقون عناء الحديث عنهم . انهم لا يعرفون استخدام البندقية نظرا

لعدم وجود نظام الخدمة العسكرية هنا ، لا تنسى ذلك . وقد كان هؤلاء الثوار - فى فبراير - ألفين أو ثلاثة آلاف - اذا حسبنا الشيوعيين . . وليس من شك أن عددهم الآن زاد قليلا . »

ولكن . . . لم يكن جيش الحكومة قد تحطم فى فبراير .

واستأنف مارسيل حديثه قائلا : « وكم منهم سيستمر فى تعذيب الشيوعيين ؟ غير أن هذا كله ، لا يفيدنا كثيرا يا سيد فيرال . . فلا بد من معرفة نفسية الزعماء . . أما نفسية الرجال ، فانى ملم بها . . . ذلك أن الرجل الصينى . . . »

وكان من النادر أن ينظر فيرال الى مدير البوليس كما يفعل فى هذه اللحظة وهذه النظرة كفيلة بأسكاته . نظرة لا تعبر عن الاحقار والغضب كما تعبر عن لحكم : فلم يقل بصوته القاطع ، الآلى الى حد ما : « هل سيستمر هذا طويلا ؟ » ، وانما أفصح عن ذلك بنظراته . ولم يكن يستطيع أن يحتمل أن يعزو مارسيل الى حصافته المعلومات التى استقاها من جواسيسه .

ولو تجاسر مارسيل لأجابه : « وماذا يعنىك من هذا كله ؟ » غير أنه كان خاضعا تمام الخضوع لفيرال ، وكانت علاقاته به قائمة على الأوامر التى لا يستطيع الا أن يصدع بها ، بل كان يشعر من الناحية الانسانية ، أن فيرال أقوى منه أيضا ، ولكنه لم يكن يستطيع احتمال هذه الاستهانة الوقحة ، وتلك الطريقة التى تحيله الى مستوى الآلة ، وتنكر وجوده حين يريد أن يتكلم باعتباره فردا ، لا مجرد ناقل للمعلومات . لقد تحدث اليه مبعوثو البرلمان عن أعمال فيرال - قبل سقوطه - فى لجان مجلس النواب . كان فيرال فى الجلسات يطلق العنان لخصاله - وهى التى تعطى لخطبه وضوحها وقوتها - الى الحد الذى جعل بغض زملائه له يتزايد عاما بعد عام ، فقد كانت له موهبة فريدة فى انكار وجودهم . وبينما كان نائب مثل « جوريس » أو « بريان » يضيف عليهم حياة شخصية طالما حرموا منها ، ويوحى اليهم بأنه يخاطب كلا منهم بالذات ، وبأنه يحاول اقناعهم ، واشراكهم أو توحيدهم فى تجربة مشتركة عن الحياة والناس ، كان فيرال يواجههم بصرح من الوقائع ، ويختم خطبته بقوله : « وازاء هذه الظروف ، فلا مندوحة أيها السادة من اعتبار هذا

باطلا . . . » فهو اما أن يرغمهم على الأخذ برأيه ، أو يندحر في هذه المحاولة .
ولاحظ مارسيل أن « فيرال » لم يتغير قيد شعرة .

وسأله فيرال : « وهل بلغك شيء من هانكاو ؟ »

— « تلقينا معلومات هذه الليلة . . هناك ٢٢٠,٠٠٠ عامل بلا عمل ، أى
ما يكفى لتشكيل جيش أحمر جديد . . . »

وكانت بضائع ثلاث من الشركات التى يشرف عليها فيرال قد تسرب اليها
الفساد ، بعد أن ظلت ملقاة على رصيف الميناء الفخم طيلة أسابيع ، دون أن
يقبل الجمالون الصينيون القيام بنقلها .

— « وما أنباء الاتصالات بين الشيوعيين وتشانج كاي - شيك ؟ »

وأجابه مارسيل : « هذه هى خطبته الأخيرة . . ولكننى - كما تعلم -
قلما أومن بما يقال فى الخطب . . . »

— « أما أنا فأومن بالخطب . . بما قيل فى هذه الخطبة على الأقل . . .
ما علينا . »

ودق جرس التليفون ، وتناول مارسيل السماعة ، وقال : « انها لك
يا سيد فيرال ! »

— « آلو ؟ آلو ، نعم . »

— [٥٧]

— « انه يقدم لك حبلا لتشنق نفسك به . . انه يعارض فى التدخل
وهذا أمر مسلم به . والمسألة هى أن نعرف هل من الأفضل أن نتهمه بالشذوذ
الجنسى ، أو بأنه مرتش . . هذا كل ما فى الأمر . »

— [٥٨]

— « وبالطبع انه ليس هذا ولا ذاك . وبالإضافة الى ذلك ، لا أحب أن
يعتقد أحد أعوانى أننى قادر على مهاجمة رجل بسبب شذوذ جنسى يتصف به
حقا . . أتظننى رجل أخلاق ؟ الى اللقاء . »

ولم يكن مارسيل يجرؤ على أن يسأله عن شيء . وكان يبدو له أن امتناع
فيرال عن احاطته بخططه ، وما يتوقعه من مفاوضات مع أنشط أعضاء الغرفة

التجارية ، الدولية ، ومع رؤساء الهيئات التجارية الصينية الكبرى . . كان يبدو له ذلك عملاً سهيلاً وطائشاً في وقت واحد . ومع ذلك ، إذا كان مما يثير سخط مدير البوليس أن يجهل ما يفعله ، فإن أشد من ذلك إثارة لسخطه أن يفقد منصبه . وكان فيرال الذي ولد في الجمهورية كما يولد في اجتماع عائلي ، والذي تزدحم ذاكرته بوجوه شخصيات طيبة كرينان وبرتلو وفيكاتور هيجو ، ابن المستشار القانوني العظيم والحاصل على درجة الأستاذية في لتاريخ وهو في سن السابعة والعشرين ، والمشرف على أول كتاب جماعي عن تاريخ فرنسا العام وهو في التاسعة والعشرين ، والنائب الصغير جداً (الذي استغل وجوده في عصر وصل فيه بوانكاريه وبارتو إلى الوزارة قبل أن يبلنا سن الأربعين) ، ورئيس اتحاد الشركات الفرنسي الآسيوي . . كان فيرال هذا يحظى - على الرغم من سقوطه السياسي - بقرة ومكانة تعادلان على الأقل قوة ومكانة قنصل فرنسا العام الذي كان فضلاً عن ذلك صديقاً له . ولهذا كان مدير البوليس يظهر له وداً يتسم بالاحترام . وناولته الخطبة التي جاء فيها :

« لقد أنفقت ثمانية عشر مليوناً من القروش لاغير ، واستوليت على ست مقاطعات في خمسة شهور ، فليبحث الساخطون ، إذا راق لهم ذلك ، عن قائد آخر ينفق القليل ويحصل على الكثير مثلي . . . »

قال فيرال : « من البين ، أن مسألة المال سوف تحل بالاستيلاء على شنغهاي ، فسوف تعطيه الجمارك ثلاثة ملايين من القروش شهرياً . . أي ما يكفي تقريباً لسد العجز الذي يحدثه الجيش . . . »

- « أجل . . ولكن يقال : ان موسكو قد أمرت مبعوثيها السياسيين بأن يسمحوا بهزيمة قواتهم أمام شنغهاي . . ويمكن أن تنتهي الثورة هنا نهاية سيئة . . . »

- « ولماذا أصدرت موسكو هذه الأوامر ؟ »

- « للاحاق الهزيمة بتشانج - كاي - شيك ، وتحطيم مكانته ، واستبداله بقائد شيوعي ينسب اليه شرف الاستيلاء على شنغهاي . ويكاد يكون مؤكداً أن الحملة على شنغهاي قد تقررت دون موافقة لجنة هانكاو المركزية . ويؤكد الجواسيس أنفسهم أن هبة أركان الجيش الأحمر تعارض هذا النظام . . »

وبدا الاهتمام على فيرال ، وان لم يكن مقتنعا . وواصل قراءة الخطبة :
 « وعلى الرغم من خروج عدد كبير من أعضائها ، فان اللجنة المركزية
 التنفيذية فى هانكاو تعد نفسها - وهى فى هذه الحال من النقص - السلطة
 العليا فى حزب الكومنتانج . . وأنا أعلم أن صن - يات - سن قد سمح
 للمشيوعيين بأن يتعاونوا مع الحزب ، فلم أرتكب أى عمل ضدهم ، بل أعجبت
 بروحهم فى كثير من الأحيان . ولكنهم بدلا من أن يقنعوا بالتعاون ، يريدون
 أن يفرضوا الآن أنفسهم سادة للحزب، وأن يتحكموا فيه بالعنف والوقاحة . .
 ولقد حذرتهم بأننى سأعارض هذه الادعاءات المسرفة التى تجاوزت حدود
 الاتفاق الذى سمح لهم بدخول الحزب . . . »

وهكذا أصبح استخدام - تشانج - كاي - شيك أمرا ممكنا . فلم تعد
 للحكومة الحالية أية « دلالة » ، الا بما تملكه من قوة (وستفقدتها بهزيمة
 الجيش) ، وبما يبثه الشيوعيون المنضمون الى الجيش من رعب فى قلوب
 البورجوازيين . ولم يعد يهتم ببقائها سوى نفر قليل من الناس . أما وراء
 تشانج ، فقد كان يقف جيش ظافر ، والبورجوازية الصينية الصغيرة كلها .

وتساءل فيرال بصوت مرتفع . : « أهنأك شىء آخر ؟ »

- « كلا . . يا سيد فيرال . »

- « شكرا . »

والتقى فى نزوله من السلم بحسناء كستنائية الشعر ترتدى تايرا
 رشيقا ، وتتخذ ملامحها هيئة قناع رائع لا يفصح عن أى تعبير . كانت روسية
 من القوقاز يقال انها تقوم بدور عشيقة مارسيال اذا اقتضت المناسبات .
 وجال فى خاطره : « كم يطيب لى أن أرى وجهك ، أنت ، حين تستمتعين ! »
 - « معذرة يا سيدتى . »

وتجاوزها ، وهو ينحنى لها ، ثم استقل سيارته التى بدأت تغوص وسط
 الحشود ، ضد التيار هذه المرة . وكانت آلة التنبيه تهدر دون جدوى ،
 عاجزة حيال خروج هذه الجحافل ، وازاء ذلك الغليان الأولى الذى تثيره الغزوات
 أمامها . ووسط صفار الباعة وهم أشبه بالموازين تدلت كفتاها فى الهواء ،
 واضطربت محاورها ، وبين الهوادج والعربات الجديدة بأباطرة أسرة تانج ،

وبين السجزة ، والأقفاص ، أخذ فيرال يتقدم وسط عيون جعلها القلق تنظر الى الداخل : • لو لم يكن بد من أن تنتهى حياته العفيلية ، فلتنته اذن وسط هذا الضجيج ، وبين هذا اليأس المدعور الذى يرتطم بنوافذ سيارته ! وعلى نحو ما يتأمل معنى حياته ، لو كان جريحا ، دنعه الخطر الذى يهدد مشروعاته الى أن يتأملها ، والى أن يحس بموطن الضعف فى نفسه • ولم يكن قد اختار هذا الصراع بمحض ارادته ، وانما أجبر على الاهتمام بمصالحه الصينية لكى يجد منافذ جديدة لانتاجه فى الهند الصينية ، فكان يقوم هنا بدور المنتظر ، متجها ببصره صوب ما يجرى فى فرنسا ، ولكن لم يعد فى وسعه أن ينتظر أكثر من ذلك •

كان ضعفه الأعظم يرجع الى غياب الدولة • ذلك أن التوسع فى مثل هذه المشروعات الكبيرة أمر لا ينفصل عن الحكومات • وقد كان منذ شبابه - حين لم يكن الا نائبا فى البرلمان - يعمل دائما للدولة ، فقد كان رئيسا لجمعية الطاقة الكهربائية والأجهزة التى كانت تنتج المواد الكهربائية للدولة الفرنسية. ثم قام بعد ذلك بالاشراف على اعادة انشاء ميناء بيونس - ايرس - ولما كان نزيها •• تلك النزاهة الأبية التى ترفض تناول أية عمولة ، ولكنها تتلقى التكاليفات ، فقد كان ينتظر أن تمده المستعمرات الآسيوية بالاموال التى احتاج اليها عقب سقوطه ، ذلك أنه لم يكن يريد أن يقامر من جديد ، بل أن يغير قواعد اللعب • وقد استطاع بالاستناد على مركز أخيه الشخصى الذى كان يشغل منصبا أهم من منصبه هو كمدير للحركة العامة للخزانة ، وبقائه رئيسا لجماعة قوية من الممولين الفرنسيين • استطاع فيرال أن يقنع حكومة الهند الصينية بانفاق أربعمائة مليون فرنك على المرافق العامة - ولم يغضب خصومه أنفسهم من امداده بالوسائل التى تمكنه من الخروج من فرنسا • وما كانت الجمهورية تستطيع أن تحول بين شقيق أحد كبار موظفيها وبين تنفيذ برنامجه الذى يهدف الى نشر المدنية فى البلاد الآسيوية • وكان التنفيذ ممتازا وباعثا على الدهشة فى تلك البلاد التى تسود فيها المدجنات دون أى اكتراث • وكان فيرال حسن التصرف ، والعمل النافع لا يضيع أبدا ، وانتقلت الجماعة الى تصنيع الهند الصينية • وظهرت تدريجيا : مؤسستان للتسليف (العقارى والزراعى) ، وأربع شركات زراعية : المطاط والنباتات الاستوائية ، والقطن ، والسكر ، تشرف بنفسها على تحويل مواردها

الأولية مباشرة الى منتجات مصنوعة ، وثلاث شركات للتعدين : الفحم والفوسفات ، ومناجم الذهب ، وجمعية ملحقة « لاستغلال الملاحات » ، وخمس شركات صناعية : الاضاءة والطاقة ، وانكهرباء ، والزجاج ، والورق ، والطباعة ، وثلاث شركات للنقل : صنادل السفن ، والمقطورات ، والترام . وفي المركز ، تسود شركة الأشغال العامة ، كملكة على هذه الشركات جميعا ، أو كأم أو قابلة لهذه الشركات الشقيقات العاكفة على النزاع فيما بينها والعيش بروابط النفع المحرمة ، وقد استطاعت هذه الشركة أن تفوز بحقوق انشاء الخط الحديدي في أنام الوسطى ، وهو الخط الذي يخترق - ومن كان يستطيع أن يصدق هذا ؟ - الشطر الأكبر من مناطق امتيازات جماعة فيرال . . . وكان نائب رئيس مجلس الادارة يقول « لا بأس بسير الأمور » لفيرال الذي يصمت وقد استغرقه الاشتغال بتكديس ملايينه حتى تصبح سلما يرتقيه ليشرف على باريس من أعلاه .

ولو وجد مشروع لانشاء شركة صينية جديدة في كل جيب من جيوبه ، فانه لم يكن يفكر الا في باريس . أن يعود الى باريس ، وقد بلغ درجة من الشراء تؤهله لشراء وكالة هافاس أو على الأقل للتفاوض معها ، واستئناف لعبة السياسة ، ثم الوصول في حذر الى كرسى الوزارة ، واستغلال الاتحاد بين الوزارة وبين رأى عام يشتره بالمال ، ضد البرلمان . هنا تكمن القوة . بيد أن الأمر لم يكن يتعلق اليوم بأحلامه ، ذلك أن تشعب مشروعاته في الهند الصينية قد شغل جماعته كلها في التغلغل التجارى في حوض نهر يانج - تسي ، وهما هو تشانج - كاي - شسيك يزحف على شنغهاي بجيش الثورة . . . وضغطت الحشود التي أخذت تتكاثر أكثر فأكثر على أبواب سيارته . ما من شركة في الصين يملكها أو يشرف عليها الاتحاد الفرنسى الآسيوى قد سلمت من التأثير بهذه الثورة : فشركات الانشاءات الملاحية في هونج كونج قد تأثرت بعدم استقرار الملاحه ، وكذلك سائر الشركات الأخرى ، المرافق العامة ، الانشاءات ، الكهرباء ، التأمينات ، البنوك ، كلها تأثرت بالحرب وبالخطر الشيوعى . وما تستورده هذه الشركات من سلع بقى في مخازنه في هونج كونج أو شنغهاي ، وما تصدره بقى في مخازن هانكاو ، وأحيانا على رصيف الميناء .

وتوقفت السيارة . وأعلن السكون - والجمهور الصينى يعد من أشبه

الجماهير صخباً - نهاية العالم ... ثم طلقة مدفع • هل اقترب الجيش الثورى بهذه الدرجة ؟ كلا ، انه مدفع الظهر • وأفسح الجمهور طريقاً للسيارة ، غير أن السيارة لم تتحرك من مكانها • وأمسك فيرال بأنبوبه الصوت • لا جواب : لقد اختفى السائق ، والخدام أيضا •

ولبت ساكنا مذهولاً فى تلك السيارة الثابتة التى أهدقت بها الجموع بكل ثقلها من كل جانب • وخرج صاحب أقرب حانوت ، حاملاً على كتفه مصراعاً ضخماً • واستدار على عقبه ، فأوشك أن يحطم نوافذ السيارة ، وأوصد حانوته • وعلى اليمين ، وعلى اليسار ، وفى مواجهته ، أصحاب حوانيت أخرى ، وعمال يخرجون حاملين مصاريع كتب عليها شعارات فوق أكتافهم • وهكذا بدأ الإضراب العام •

ولم يكن هذا الإضراب شبيهاً بإضراب هونج كونج ، الذى أخذ يتسع فى ببطء اتساعاً ملحماً حزيناً : بل كان مناورة يقوم بها الجيش • ومد بصره الى أقصى مداه ، فلم يلمح حانوتاً مفتوحاً • يجب أن يرحل بأسرع ما يمكنه ، فنزل من السيارة ، ونادى على مركبة ، فلم يرد عليه صاحبها الصينى ، الذى كان يجرى بأقصى سرعته ليحتمى داخل مخزن المركبات ، وألقى نفسه وحيداً فى الشارع مع سيارته المهجورة ، وكانت الحشود قد انحسر مداه ، وتدفعت من جديد صوب الأرصفة • وحدث فيرال نفسه قائلاً : « انهم يخشون المدافع الرشاشة » وكف الأطفال عن اللعب ، وأخذوا يتسللون بين سيقان الناس التى تعج بها الأرصفة • وكان السكون نابضاً بحياة بعيدة ، وقريبة جداً فى الوقت نفسه ، كسكون الغابة الزاخرة بالحشرات ، ودوت صفارة إحدى السفن الحربية ، وسرعان ما ابتلعها الصمت • وسار فيرال متجهاً الى منزله بكل ما يستطيع من سرعة ، وقد وضع يديه فى جيبه ، ودفع منكبيه وذقنه الى الأمام • استأنفت صفارتان معا ، من مقام أعلى ، ذلك الصغير الذى تبدد منذ لحظة ، وكان حيواناً هائلاً يلفه هذا الصمت قد أعلن عن مقدمه على هذا النحو • لقد كانت المدينة بأسرها مشرقة بتريق •

الساعة الواحدة بعد الظهر

قال تشن : « .. الا خمس دقائق » .

وكان أفراد جماعته ينتظرون . انهم جميعا من عمال النسيج ، وقد ارتدوا ثيابا مضموعة من قماش أزرق سميك ، وكان هو يرتدى زيهم .. كانوا جميعا حليقي الوجوه ، نحاف الأجسام ، أقوياء البنية : وكان الموت قد اصطفاهم ، قبل أن يختارهم تشن . وأمسك اثنان منهم بالبنادق تحت أذرعهم ، وقد نكست فوهاتها نحو الأرض . وحمل سبعة منهم مسدسات من السفينة « شان - تونج » ، وحمل آخر ، قنبلة يدوية ، بينما أخفى آخرون قنابل يدوية أخرى في جيوبهم . وكان ثلاثون آخرون يقبضون على سكاكين ، وعلى هراوات ، وحرايب ، وثمانية أو عشرة بلا أي سلاح ، جلسوا القرفصاء بالقرب من حزمة من الخرق المهلهلة ، وصفائح البنزين وبكرات من الأسلاك . وفحص شاب منهم مسامير ذات رؤوس كبيرة أخرجها من أحد الأكياس : « لابد أنها أعلى من ارتفاع حدوة الحصان » .. « بلاط المعجزات » (١) ، ولكن تحت ثوب من الحقد والتصميم .

لم يكن هو واحدا منهم ، على الرغم من جريمة القتل ، وعلى الرغم من وجوده بينهم . ولو مات اليوم ، لمات وحيدا . ذلك أن الأمر بالنسبة اليهم بسيط غاية في البساطة ، فهو يحاربون من أجل لقمة العيش ، وفي سبيل كرامتهم .. أما هو .. فما كان يعرف أن يتحدث اليهم ، اللهم الا عن ألهم وكفاحهم المشترك . ولكنه يعلم على الأقل أن الكفاح هو أقوى الروابط .. وها هو الكفاح قد بدأ .

وانتصبوا واقفين ، وقد وضعوا الأكياس على ظهورهم ، وأمسكوا بالصفائح في أيديهم ، وتأبطوا الأسلاك الحديدية . وكان المطر لم يأخذ بعد في الانسكاب ، والحزن المخيم على هذا الشارع الخالي الذي عبره كلب في قفزتين ، وكأنه تنبأ بغريزته بما يدور في الخفاء - حزنا عميقا كالصمت ..

(١) « بلاط المعجزات » La Cour des Miracles مكان في باريس كان يعيش فيه الشحاذون والخارجون على القانون في القرون الوسطى .

ودوت طلقات خمس من البنادق فى شارع مجاور : ثلاث طلقات معا ، ثم طلقة تتلوها أخرى . قال تشن : « هى ذى البداية » . وساد الصمت ثانية ولكنه بدا مختلفا عما كان عليه . ملأه وقع سنابك خيل ، مضيت تقترب شيئا فشيئا . وكما يمزق السماء وميض من البرق عقب انطلاق الرعد (ودون أن يشاهدوا شيئا حتى الآن) ، عج الشارع فجأة بضجة امتزجت فيها الصيحات المتشابكة ، وطلقات البنادق ، وصهيل الجياد النائرة ، وسقوط الأجسام على الأرض ، وبيننا اختنقت تلك الصيحات اختناقا مكتوما تحت وطأة الصمت الذى لا سبيل الى فثائه ، ارتفعت صرخة أشبه بنباح كلب يحتضر ، ولكنها انقطعت بغتة : رجل تجز رقبتة .

وبلغوا جريا بعد بضعة دقائق شارعاً أكثر أهمية . كانت الحوانيت جميعاً مغلقة . وعلى الأرض رقدت ثلاث جثث ، وفوق أسلاك البرق لاحت سماء قلقة تعبرها سحب سوداء ، وفى أقصى الشارع ، أقبل ما يقرب من عشرين فارساً (والفرسان نادرون فى شنغهاى) ، واستداروا فى تردد دون أن يشاهدوا الثوار الملتصقين بالجدران ، ومعهم أدواتهم ، وهم يراقبون حركات الجياد المترددة . ولم يفكر « تشن » فى الهجوم عليهم ، اذ كان رجاله يفتقرون الى الأسلحة . وانعطف الفرسان الى اليمين ، وأخيراً وصلوا الى مركز البوليس . ودخل الحراس فى هدوء وراء تشن .

كان رجال البوليس يلعبون الورق ، وقد وضعت بنادقهم ومسدساتهم على خشبية السلاح . وفتح الصول المشرف عليهم ، نافذة ، وصاح فى فناء شديد الظلمة :

« أنتم يا من تسمعوننى جميعاً ، أنتم شهود على العنف الذى يرتكب ضدنا . وها أنتم ترون أننا مرغمون ظلماً وعدواناً على الخضوع للقوة ! »
وهم بأن يغلق النافذة مرة أخرى ، غير أن « تشن » أبقى عليها مفتوحة ، وأطل منها فلم يجد أحداً فى الفناء . بهذه الصورة أنقذ رجال البوليس ماء وجههم ، وجاءت هذه الحركة المسرحية فى الوقت المناسب . وكان « تشن » يفهم مواطنيه : فما دام هذا الرجل قد « قام بالدور » ، فلن يفعل شيئا بعد ذلك . ووزع تشن الأسلحة وانصرف الثوار ، وقد تسلحوا جميعاً هذه المرة : ولم تعد ثمة جدوى من احتلال مراكز صغيرة للبوليس مجردة من السلاح . وتردد رجال البوليس ، ونهض ثلاثة منهم وهموا بالانضمام الى الثوار ،

(فلعلهم سيخرجون الى النهب ٠٠) ، ووجد « تشن » مشقة في التخلص منهم ، أما الآخرون فقد جمعوا أوراق اللعب ، واستأنفوا اللعب ٠

قال أحدهم : « لو أنهم انتصروا ، فربما تقاضينا مرتباتنا هذا الشهر ؟ »

فأجاب الصول وهو يوزع أوراق اللعب : « ربما ٠٠٠ »

— « ولكن اذا هزموا ، ربما قيل عنا اننا خائنون ؟ »

— « وماذا كنا نستطيع أن نفعل ؟ لقد خضعنا للقوة ٠ ونحن نشهد جميعا بأننا لم نخن أحدا ٠ »

وأخذوا يتأملون موقفهم ، وقد غاصت رؤوسهم بين أكتافهم ، كطيور الغاق (١) اذا استغرقها الفكر ٠

قال أحدهم : « لسنا مسئولين ٠ »

وصدقوا جميعا على قوله ذاك ، ليواصلوا لعبهم في حانوت مجاور ، لم يستطع صاحبه أن يطردهم ، ولم يبق وسط مركز البوليس غير كومة وحيدة من ملابس الشرطة ٠

* *

اتجه « تشن » يتعاوره السرور والحذر — صوب أحد المراكز الرئيسية ، وحدث نفسه قائلا : « كل شيء على ما يرام ، غير أن هؤلاء يؤساء مثلنا تقريبا ٠٠٠ » أما الروس البيض وجنود القطار المسلح فسيقاتلون ٠٠ وكذلك الضباط ٠ وكانت طلقات بعيدة ، مكتومة كأن السماء الواطئة قد أضعفت من قوتها ، تلطم الهواء متجهة صوب مركز المدينة ٠

وعند مفرق الطرق ، تردد الرجال لحظة — وكانوا جميعا مسلحين الآن حتى حملة الصفائح — وأخذوا يدورون بأعينهم باحثين ٠ وكانت الطرادات والبواخر التي لا تستطيع تفريغ بضائعها ترسل سحباً كثيفة من الدخان ، لا تلبث الريح الثقيلة أن تبددها في اتجاه مسير الثوار ، وكأن السماء تشترك في الثورة ٠ وكان المركز الجديد فندقا قديما مشيئاً من الطوب الأحمر ،

(١) طائر مائي ٠

ومؤلفا من طابقين ، وعلى كل جانب من جانبي الباب وقف حارس يمسك ببندقية مشرعة الحربة . وكان تشن يعلم أن البوليس الخاص قد أخذ أهبطه منذ ثلاثة أيام ، وأن رجاله قد حطمتهم حالة التربص المستمرة . وكان في هذا المركز عدد من الضباط ، وما يقرب من خمسين جنديا يحملون مسدسات الموزر ، ويتقاضون مرتبات حسنة ، وعشرة من الشرطة . يجب أن أعيش ، أن أعيش ولو الأيام الثمانية القادمة على الأقل ! وتوقف « تشن » عند منعطف الشارع . ان الأسلحة موجودة بلا شك على مشاجبها في الدور الأرضي ، في الحجرة القائمة على اليمين ، حجرة الحراسة التي تسبق مكتب الضابط ، وإلى هذه الحجرة قد دخل تشن واثنان من رجاله عدة مرات خلال هذا الأسبوع . واختار تشن عشرة من رجاله بلا بنادق ، وجعلهم يخفون مسدساتهم بين قمصانهم ، وتقدم معهم . وما أن اجتازوا ناصية الشارع ، حتى لمحهم الحارسان وهم يقتربون ، بيد أنهما لارتيا بهما في كل شيء ، لم يعودا يرتابان في شيء ، ذلك أن مندوبي العمال كانوا يأتون كثيرا ليتفاوضوا مع الضابط النوبتجي ، يحملون إليه الرشاوى ، وهي عملية كانت تستدعي وجود كثير من الضمانات والأشخاص .

قال تشن : « جئنا من أجل الملازم شواي - ثون . »

وبينا كان ثمانية من الرجال يمرون ، تسلل الاثنان الأخيران منهم كأنما قد دفعهما الزحام بين الحارسان والجدار . وما أن وصل الأوائل إلى الدهليز حتى أحس الحارسان بفوهات المسدسات في جنوبهم . وتركوا الرجال يجردونهما من أسلحتهما ، فعلى الرغم من أنهما كانا يتقاضيان مرتبات أكبر من مرتبات زملائهما ، إلا أنه لم تكن كافية للمجازفة بروحيهما . وأقبل أربعة من رجال تشن لم يتضموا إلى الجماعة الأولى ، وانما كانوا يتظاهرون بالسير في الشارع ، فقادوهما بحذاء الحائط . ولم يكن ثمة شيء يبين من النوافذ .

ومن الدهليز أبصر « تشن » القوائم الخشبية عامرة بالبنادق . ولم يكن في حجرة الحراسة غير ستة من رجال الشرطة المسلحين بالغدارات الآلية ، وكانوا يضعون هذه الأسلحة حول خصورهم في قراب مغلقة . ووثب « تشن » أمام القوائم الخشبية وقد سدد مسدسه إلى الإمام .

ولو أوتى رجال البوليس شيئاً من العزم ، اذن لباء الهجوم بالفشل .
وعلى الرغم من معرفة « تشن » بهذه الأماكن الا أن الوقت لم يتسع له لكي
يشير على كل رجل من رجاله بالشخص الذى يجب أن يقوم بتهديده ، وكان
من الممكن أن يطلق النار واحد أو اثنان من رجال الشرطة . غير أن الجميع
رفعوا أيديهم . وسرعان ما انتزعت منهم أسلحتهم . ودخل فريق آخر من
رجال تشن ، فبدأ توزيع جديد للأسلحة .

وقال تشن لنفسه : « يوجد فى هذه اللحظة مائتا فريق يتصرفون مثلنا
فى المدينة . فاذا واتاهم مثل هذا الحظ . . . » وما كاد يأخذ البندقية الثالثة
حتى تناهت الى سمعه من السلم جلبة شخص متعجل يصعد السلم ركضاً .
وخرج . وفى هذه اللحظة التى اجتاز فيها الباب ، انطلقت رصاصة من
الطابق الأول . ولم يحدث شئ بعدها . كان أحد الضباط قد شاهد الشوار
وهو يهبط فأطلق النار من اسلم ، ثم انسحب على التوالى الى « البسطة » .
وأوشك القتال أن يبدأ .

وكان هناك باب وسط ردهة الطابق الأول يشرف على درجات السلم .
فهل يبحث مندوبا عن رجاله ليتفاوض على الطريقة الآسيوية ؟ وكان « تشن »
يمقت كل ما رسب فى نفسه من الحس الصينى السليم . غير أن محاولة
الاستيلاء على السلم بطريق الهجوم كان معناها الانتحار ؛ فليس من شك أن
رجال البوليس يملكون قنابل يدوية . وكانت تعليمات اللجنة العسكرية
التي تلقاها « كيو » الى جميع الفرق تقضى فى حالة الفشل الجزئى بأشغال
النار واحتلال المنازل المجاورة ، وطلب المعونة من الفرق الخاصة . ولم يكن
ثمة مفر من تنفيذ هذه التعليمات الآن .

— « اشعلوا النار ! »

وساؤل الرجال الذين يحملون الصفائح أن يسكبوا البنزين على الأرض
وكانهم يسكبون الماء من دلو ، غير أن الفتحات الضيقة لم تكن تسمح الا بانسكاب
دفعات صغيرة هينة . وكان ينبغي أن يسكبوه متمهلين على الأثاث ، وعلى
طول الجدران ونظر « تشن » من النافذة : « فشاهد فى مواجهته حوانيت مغلقة ،
ونوافذ ضيقة تشرف على مدخل المركز ، وفوقها صقوف المنازل الصينية البالية
المحدودة ، والسكون اللانهائى الذى تنتشره سماء رمادية لا يخططها دخان

• • سماء أليفة واطئة تحنو على الشوارع المقفر • ان كل صراع عبث لا طائل وواءه ، ولا يمكن أن يصمد شيء في وجه الحياة ، وثاب الى نفسه في اللحظة المناسبة ليرى زجاج النافذة ومصراعيها لتداعى محدنا دويا بالموريا ممتزجا بضجيج طلقة مدفع ؛ لقد كانت النار تطلق عليهم من الخارج •

طلقة مدفع أخرى • كانوا الآن محصورين في تلك الحجرة التي انسكب فيها البنزين بين رجال البوليس المتأهبين المسيطرين على الطابق الأرضي ، والمهاجرين الجدد الذين لا يرونهم ، واستلقى رجال تشن جميعا على بطونهم ، بينما قيد الأسرى من رجال البوليس في أحد الأركان • لو انفجرت قنبلة يدوية ، لاحترقوا جميعا • وغمغم أحد الرجال الراقدين ، وهو يشير بأصبعه ناحية : كان على أحد السقوف هـداف ، وفي الشمال الأقصى من النافذة تسللت كتف في المؤخرة في مجال البصر ، وظهرت أكتاف أخرى في حذر • كانوا ثوارا من رجالهم •

حدث تشن نفسه قائلا : « هؤلاء الحمقى يطلقون النار قبل أن يرسلوا طلقة من طلائعهم • » وكانت في جيبه راية الكومنتانج الزرقاء فأخرجها ، وهرول الى الدهليز • وفي اللحظة التي خرج فيها تلقى على حقويه ضربة غاضبة مكتومة في آن واحد ، وفي الوقت نفسه نفذت فرقة هائلة من سمعه حتى بطنه • وقذف بذراعيه الى الوراء ، بكل قوته كي يحتفظ بتوازنه ، ولكنه وجد نفسه مطروحا على الأرض ، وقد أوشك أن يفقد وعيه • • لا حس ولا حركة ، ثم سقط جسم معدني ، واقتحمت الدهليز تأوهات يصحبها الدخان • ونهض : لم يكن قد جرح ، ووارب - وهو يعرج - الباب الذي فتحه الانفجار الغامض ، ومد الراية في الخارج ، بذراعه اليسرى ، في المكان الخالي وهو يتوقع أن تخترق راحته رصاصة بين لحظة وأخرى • ولكن ، كلا ، ها هم يصيحون صيحات الفرخ • ومنعه الدخان الذي يخرج بطيئا من النافذة من أن يرى الثوار الواقفين على اليسار ، غير أن الثوار الذين يقفون على اليمين كانوا ينادونه •

وكاد الانفجار الثاني أن يطرحه على الأرض مرة أخرى • وكان رجال الشرطة المحاصرون يقذفون من نوافذ الطابق الأول بالقنابل اليدوية (كيف استطاعوا أن يفتحوا نوافذهم دون أن يصابوا من الشوارع ؟) وكان الانفجار

الاول الذى ألقاه على الأرض ، قد حدث أمام الدار ، ودخلت الشظايا عن طريق الباب المفتوح والنافذة وكأنها انفجرت داخل حجرة الحراسة نفسها ، وأما رجاله الذين لم يلقوا مصرعهم ، فقد أفرغهم الانفجار الى درجة أنهم قفزوا الى الخارج ، لا يكاد الدخان يحميهم . وأصاب النيران التى يطلقها رجال البوليس من النوافذ ، اثنين منهم ، فسقطا وبسط الشارع ، وقد انثنت ركبهما على صدريهما كأنهما أرنبان متكوران ، وسقط ثالث بوجهه فى بقعة حمراء ، فبدا وكأنه ينزف من أنفه . وتعرف المتطوعون على زملائهم ، غير أن الحركة التى صدرت عن بعضهم حين نادوا على « تشن » قد أفهمت الضباط أن شخصا سيخرج ، فألقوا بقنبلتهم اليدوية الثانية ، فانفجرت فى الشارع ، على يسار تشن : وهكذا حماء الجدار .

ومن الفناء ، أخذ يتفحص حجرة الحرس ، وعاد الدخان الى الهبوط من السقف ، فى حركة منحنية بطيئة . وكانت هناك أجسام ملقاة على الأرض ، والتأوهات تنبعث من الأرض فتملأ جو الحجرة ، كالنباح . وفى ركن الحجرة ، كان أسير طارت ساقه يصرخ فى زملائه طالبا منهم أن يكفوا عن اطلاق النار . وكان يبدو أن صرخاته اللاهثة تثقب الدخان الذى استمر على الرغم من العذاب السائد فى انتشاره المنحنى لا يبالي بشيء ، وكأنه قد مرئى . لم يكن هذا الرجل الذى يعوى بعد أن فقد ساقه . . لم يكن يستطيع أن يظل « مربوطا » ، فهذا محال . ومع ذلك ، ألن تنفجر بين لحظة أو أخرى قنبلة يدوية جديدة ؟ وقال تشن لنفسه : « هذا شيء لا يخصنى . . فهو عدوى . » ولكن . . هذا الثقب فى الجسم بدلا من الساق . . وصاحبه مربوط !! ان العاطفة التى يعانىها « تشن » كانت أقوى كثيرا من الشفقة : لقد كان هو نفسه هذا الشخص المربوط . « لو انفجرت القنبلة اليدوية فى الخارج ، فسوف أنطرح على بطنى ، وإذا تدرجتم الى هنا ، فيجب أن أقذفها فورا . » . . حينئذ ستكون فرصة نجاتى واحدا على عشرين . ماذا يخصنى من هذا كله ؟ ماذا يخصنى من هذا كله ؟ « أن أقتل ، هذا شيء قليل الأهمية وانما كان مصدر قلقه أن يصاب فى بطنه ، غير أن هذا أخف وطأة من منظر هذا الرجل المعذب المربوط ، هذا العجز الانسانى فى أثناء الألم . ودون أن يملك من أمره شيئا ، اندفع صوب الرجل ، وقد شهر سكينه ليقطع الحبال ، وطن الأسير أنه يهم بقتله ، فأراد أن يصرخ ، غير أن صوته أصيب بضعف

مفاجيء ، فخرج من قمه فحيحا . تحسسه تشن - وقد استبد به الذعر -
بيده اليسرى فالتصقت بها ثيابه الملطخة بالدماء اللزجة ، دون أن يستطيع
فى الوقت نفسه أن يحول عينيه عن النافذة المكسورة التى يمكن أن تسقط
منها القنبلة اليدوية . وأحس « تشن » أخيرا بلمس الجبال ، فأدخل السكين
تحتها ، وقطع . . . وكف الرجل عن الصراخ : لعله مات ، أو لعله فقد وعيه .
وعاد « تشن » الى الدهليز ، مسددا بهره دائما على النافذة المحطمة ،
وأدهشه التغير الذى طرأ على رائحة المكان ، وأدرك كذلك أن أنات الجرحى
قد تغيرت هى أيضا فتحوّلت الى عواء : وفى الحجرة بدأت بقايا الأثاث
المشربة بالبنزين - وقد أشعلتها القنابل اليدوية - فى الاحتراق .

لم يكن هناك ماء . وعلى هذا سيتحول الجرحى (لم يعد يحسب الآن
حسابا للأسرى ، وإنما كان همه متجها الى رجاله) قبل أن يستولى الثوار
على المركز الى عظام محترقة . الخروج ، الخروج ! ولكن لا بد من التفكير أولا
حتى يقوم بأقل ما يمكن من الحركات . وعلى الرغم من أنه كان يرتجف ،
الا أن نفسه التى سيطرت عليها فكرة الفرار لم تكن مفتقرة تماما الى البصيرة :
يجب أن يتجه الى اليسار ليحتمى بالرواق . وفتح الباب بيده اليمنى ، وهو
يشير بيسراه إشارة الصمت . ولم يكن أعداؤه الموجودون فى الطابق العلوى
يستطيعون رؤيته ، وإنما يستطيعون أن يستدلوا على حركاته من تصرفات
الثوار وحدها . وشعر أن نظرات رجاله جميعا مسددة على هذا الباب المفتوح ،
وعلى شبخه المكور ، الذى يبدو أزرق اللون على خلفية الدهليز الداكنة .
وشرع يتسلل الى اليسار ، فلتصق بالجدار ، وقد شبك ذراعيه على صدره
كالصليب ، وأمسك بيده اليمنى ، وطفق يتقدم خطوة خطوة ، ناظرا الى
النوافذ القائمة فوق رأسه : وكانت احداها محصنة ضد الرصاص بلوح من
الصلب أشبه بالمظلة . ولهذا كان الثوار يطلقون الرصاص على النوافذ دون
جدوى : أما القنابل اليدوية فكانت تلقى من تحت تلك المظلة وقال تشن
لنفسه اذا حاولوا أن يقذفوا بقنبلة يدوية ، فسوف أراها ، كما سألمح
الذراع التى لا بد أن تمتد تحت المظلة لتلقى بالقنبلة فاذا لمحتها ، فلا بد أن
أصيدها كاللفافة ، وان ألقى بها الى أبعد مكان ممكن . . . ولم يتوقف
عن تسلله المنحرف : « لن أستطيع أن أقذف بها بعيدا بما فيه الكفاية ،
فألقى حفنة من الشظايا فى أحشائي . . » واستمر فى تقدمه . وأدرك من

رائحة الاحتراق الشديدة ، ومن انتهاء الحائط الذى يستند اليه انتهاء مفاجئ خلفه (ما كان يلتفت وراءه) ، أدرك أنه يمر أمام نافذة الطابق الأرضى .
 « اذا أمسكت بالقنبلة اليدوية ، فسألقها على حجرة الحرس قبل أن تنفجر .
 وبوجود الحائط السميكة خلفى بعد أن اجتاز النافذة .. سوف أنجو . »
 وما أهمية ألا تكون غرفة الحرس خالية ، أو أن يكون بها ذلك الرجل الذى قطع حباله - أو الجرحى من رجاله أنفسهم ! ولم يتبين الثوار ، ولو من الفجوات الموجودة فى الدخان ، اذ لم يكن يستطيع أن يحول عينيه عن المظلة : ولكنه كان يشعر دائما بالنظرات التى تتبعه : وعلى الرغم من الرصاص المنهمر على النوافذ والذى كان يضايق رجال الشرطة ، فقد أدهشه أنهم لا يدركون أن شيئاً ما يحدث . وخطر له فجأة أنهم لا يملكون غير قليل من القنابل اليدوية ، ولهذا فانهم يترقبون اللحظة المناسبة قبل أن يقدفوا بها .
 وعلى التو ، كان هذه الفكرة قد طرأت على عقولهم فى هذه اللحظة نفسها ، ظهرت رأس تحت المظلة ، لا يراها الثوار ، ولكنه يراها هو . وفى حركة خاطفة ، تخلى عن وضع الراقص على الحبل ، وأطلق النار ، ثم وثب الى الأمام فاحتجى بالباب وانشال الرصاص من النوافذ وانفجرت قنبلة يدوية فى الموضع الذى تركه منذ لحظة : وكان رجل البوليس الذى أخطأه حين أطلق النار قد تردد قبل أن يمد يده التى تمسك بالقنبلة تحت الظلة خوفاً من رصاصة ثانية . وتلقى « تشن » ضربة فى ذراعه اليسرى : كان مجرد اندفاع للهواء أثر على الجرح الذى أحدثه بالخنجر قبل أن يغتال تانج - ين - تا . ونزف هذا الجرح من جديد ، ولكنه لم يعد يؤلمه . وضغط على الضمادة بمنديل ، ثم لحق بالثوار عن طريق الألفية .

وكان المدبرون للهجوم مجتمعين فى ممر حالك الظلمة .

« أما كنتم تستطيعون ارسال رجال استطلاع .. ؟ »

ونظر رئيس الجماعة . tchon . وهو صينى ضخيم حليق ، يرتدى ثوبا قصيرا الأكمام جدا . نظر الى هذا الطيف المقرب ، وعز حاجبيه ببعد مستسلما ثم أجاب فى بساطة :

« لقد اتصلت تليفونيا ، ونحن ننتظر الآن سيارة مصفحة . »

« لقد استولينا على نصف مراكز الشرطة . »

ـ « ولا شئ أكثر من ذلك ؟ »

ـ « هذه بداية طيبة جدا . »

وكانت الانفجارات البعيدة التى تصل الى أسماعهم ، هى الانفجارات التى يحدثها رجالهم الذين يتقاطرون صوب محطة الشمال .

وكان « تشن » يلهث، وكأنه أخرج من الماء وسط يوم عاصف . واستند على الجدار الذى كان يحميهم جميعا ، وأخذ يسترد أنفاسه شيئا فشيئا ، وهو يفكر فى الأسير الذى قطع أغلاله . « كان ينبغى أن أترك هذا الرجل وشأنه ، فلماذا أقطع حباله ، ما دامت هذه الفعلة لن تغير من أمره شيئا ؟ » وهل يستطيع الآن بعد هذا كله أن يرى هذا الرجل الذى كان يتخبط فى قيوده ، وقد بترت ساقه ؟ وتذكر « تان - ين - تا » حين أحس بجرحه . كم كان أحق طيلة تلك الليلة ، وطيلة ذلك الصبح ! لا شئ أبسط من القتل !

وفى مركز انشطة ، كان الحطام يحترق تماما ، والجرحى يتأوهون دائما عند اقتراب ألسنة اللهب . وكانت صرخاتهم المتكررة المستمرة ترن نى ذلك الممر المنخفض ، وقد زادها قربا بشكل غريب ابتعاد الانفجارات ، وصفارات السفن ، وكل ما تشيعه الحرب من ضجيج لا يلبث أن يبدده الهواء الكثيب . واقترب صوت صليل معدنى بعيد ، حتى طغى على كل شئ . . . لقد وصلت سيارة النقل . . . وكان قد تم تصفيحها أثناء الليل بصورة رديئة ، اذ كانت جميع الصفائح غير مستقرة تماما فى أماكنها . وانقطع هذا الصرير بعد استخدام « الفرامل » فتناهت الصرخات الى الأسماع مرة أخرى .

وعرض « تشن » وهو الوحيد الذى كان قد اقتحم المركز - الموقف على رئيس فريق النجدة ، وكان طالبا سابقا بالكلية الحربية بـ « وامپو » . وكان « تشن » يفضل على هذا الفريق المكون من الشسباب البورجوازي ، إحدى جماعات كاتوف . واذا كان لم يستطع أمام هؤلاء الرفاق الذى لقوا مصرعهم وسط الشارع وقد انكمشوا على أنفسهم أن يعبر الهوة التى تفصله عنهم ، فقد كان يعرف أنه يمقت البورجوازية الصينية دائما وأبدا ، وكانت البروليتاريا هى معقد آماله .

وكان الضابط يعرف مهمته ، فقال : « لا جدوى من السيارة ، فليس لها ولو مجرد سقف • ويكفى أن يقذفوا بقنبلة يدوية داخلها لكى يتحطم كل شيء غير أننى أتيت بقنابل يدوية أيضا • » وكان رجال تشن الذى يحملون قنابل يدوية قابعين فى غرفة الحرس ، فهل قتلوا ؟ أما رجال الفريق الثانى فلم يستطيعوا أن يحصلوا على قنابل •

— « فلنحاول السيطرة عليهم من فوق • »

فقال تشن : « اتفقنا • »

ونظر اليه الضابط فى حلق : انه لم يسأله رأيه ، ولكنه لم يقل شيئا • وأخذ الاثنان يفحصان المركز : الضابط الذى تدل عليه سيجنته العسكرية رغم زيه المدنى ، بشعره القصير وشاربه القصير ، وببترته التى يضبطها بحزام يتدلى منه مسدس ، وتشن بجسمه المكتنز الربعة وقميصه الأزرق • ومن يمين الباب ، كان دخان النيران التى تقترب من أجسام زملائهم الجرحى ، يخرج فى انتظام آلى ، وفى ايقاع أشبه بإيقاع الصرخات التى جعلها انتظامها طفولية ، بعد أن انتزع منها طابعها الوحشى • وعلى اليسار ، لم يكن شيء • وكانت نوافذ الطابق الثانى قد أسدلت عليها مصاريعها • • • ومن حين الى آخر كان أحد المهاجمين يطلق النار على احدى النوافذ ، فتتكس على الرصيف كمية أخرى من الحطام فوق بقايا الجبس والطوب والأخشاب حيث تلمع قطع من الزجاج على الرغم من ذلك اليوم الأغبر • ولم يعد المركز يطلق النار الا حين يغادر أحد الثوار مخبأه •

وسأل تشن من جديد : « ما حال الأقسام الأخرى ؟ »

— « لقد تم الاستيلاء على جميع المراكز تقريبا • • وسقط المركز الرئيسى بطريق الهجوم المفاجئ فى الساعة الواحدة والنصف ، وهناك وضعنا أيدينا على ثمانمائة بندقية ونستطيع الآن أن نرسل امدادات ضد المراكز التى ما زالت تبدى شبيها من المقاومة • • انكم ثالث فريق نهرع لنجدته • أما أعداؤنا ، فقد انقطعت عنهم المعونة ، اذ حاصرنا الثكنات ، ومحطة الجنوب ، والترسانة • ولكن يجب أن نحسم الأمر هنا • لأننا نحتاج الى أكبر عدد ممكن من الرجال للهجوم ويبقى بعد ذلك القطار المسلح • »

وكانت فكرة قيام مائتي جماعة بعمل شبيه بما تقوم به جماعته تبعث الحماس فى نفس « تشن » ، وترعجه فى آن واحد . فعلى الرغم من طلبات الرصاص التى كان النسيم الواهن يحملها من كافة أرجاء المدينة ، كان العنف يوحى اليه باحساس العمل المنعزل .

وأخذ رجل دراجة من السيارة ، وركبها ، ومضى . وتعرف عليه تشن فى اللحظة التى امتطى فيها الدراجة . . انه « ما » أحد محركى الثورة الرئيسيين ، وقد رحل ليطلع اللجنة العسكرية على الموقف . وكان « ما » عاملا من عمال الطباعة قد نذر حياته كلها - منذ أن كان فى الثانية عشرة من عمره ، لانشاء اتحادات لعمال الطباعة فى كل مكان ، على أمل تجميع عمال الطباعة الصينيين قاطبة ، وتعقبته الحكومة ، وحكم عليه بالاعدام ، وتمكن من الفرار ، دون أن يكف قط عن تنظيم حركته . وانطلقت صيحات الفرح ، فى الوقت الذى تعرف عليه تشن ، تعرف عليه بقية الثوار ، فأخذوا يهللون له . وتطلع اليهم . ان العالم الذى يعده هؤلاء الرجال معا ، انما يقضى عليه كما يقضى على عالم أعدائه . . فماذا عسى « تشن » أن يفعل فى مصنع المستقبل المحتجب وراء ثيابهم الزرقاء ؟

ووزع الضابط القنابل اليدوية ، ودلف عشرة من الرجال عن طريق أسطح المنازل ليحتلوا مكانا يطل على سطح المركز . وكان لابد لهزيمة رجال البوليس من استخدام أساليبهم نفسها ، وادخال المتفجرات عن طريق النوافذ . وهذه النوافذ تسيطر على الشارع لا على سقف المركز ؛ ولم تكن هناك سوى نافذة واحدة تحميها ظلة . وتقدم الثوار قفزا من سطح الى سطح . ولم يدخل المركز أى تعديل على اتجاه تصويب النيران . ولعل المحتضرين وحدهم هم الذين كانوا يستطيعون التنبؤ بهذا الاقتراب ، اذ تحولت الصرخات فجأة فصارت تأوهات خافتة لا تكاد تبينها الأذن ، لقد أصبحت الآن صرخات مكتومة لرجال أقرب الى البكم . وبلغت أطراف الثوار ذروة سقف المركز المنحدر ، ثم هبطت رويدا رويدا ، ولم يعد « تشن » يتبينها بوضوح بعد أن لم تعد صفحة السماء وراءها . وترددت آهة صادرة من خلق امرأة تلد ، فطغت على الأنات التى لم تلبث أن اتصلت كأنها الصدى . ثم انقطعت .

وعلى الرغم من الضجة ، فان انقطاع الصرخات المفاجيء كان له وقع

الصمت المخيف : هل بلغت النيران الجرحى ؟ وتبادل « تشن » والضابط النظرات ، ثم أغمضا أعينهما حتى يتمكننا من الانصات . لا شيء . وفتح كل منهما عينيه ، فالتقى بنظرة الآخر الصامتة .

ومد أحد الرجال وكان يستند على ديكور بارز في السقف - مد ذراعه الخالية فوق الشارع ، وقذف بقنبلته اليدوية صوب نافذة الطابق الثاني التى يعلوها ، ولكن القنبلة وصلت الى مكان منخفض جدا ، فانفجرت على الرصيف . . . فقذف بقنبلة أخرى ، فدخلت الى الحجرة التى يوجد بها الجرحى . وانطلقت الصرخات من النافذة المصابة . . . ولم تكن شبيهة بالصرخات التى انطلقت منذ لحظة ، وانما عواء متهدج يسبق الموت ، أو هي طفرة من الألم لم تستنفذ بعد . وألقى الرجل بقنبلته اليدوية الثالثة ، فأخطأ النافذة مرة أخرى .

كان هذا الرجل واحدا من الرجال الذين أتت بهم سيارة النقل . . . وكان قد تراجع فى براعة الى الخلف ، خوفا من أن تصيبه الشظايا وانحنى من جديد ، وقد رفع ذراعه المنتهية بقنبلة رابعة . وهبط خلفه أحد رجال تشن . ولم تنخفض ذراعه وانما انجرف جسمه كله كأنه كرة هائلة . ودوى انفجار شديد على الرصيف . وعلى الرغم من الدخان ظهرت على الجدار بقعة من الدماء طولها حوالى متر . وانجلى الدخان ، فبدأ الجدار ملطخا بالدم واللحم . كان الثائر الثانى قد فقد توازنه ، فانزلق كله على طول السقف ، واكتسح حينئذ الشائر الأول ، وسقط الاثنان على قنبلتيهما المنزوعتي السدادتين .

وعلى الجانب الأيسر من السطح ، وصل فى حذر رجال من الفريقين ، فريق الكومنتانج البورجوازي ، وفريق العمال الشيوعيين . وكانوا قد توقفوا حين حدث ذلك السقوط ، ولكنهما استأنفا النزول من جديد ، ذلك أن اتحاد حركة فبراير كلفهم ثمنا باهظا من التعذيب ، وبذلك لم تكن الثورة تفتقر الى رجال حزموا أمرهم على الكفاح . وتقدم من اليمين ، رجال آخرون ، وهنا صاح تشن من أسفل قائلا : « تماسكوا كالسلسلة ! » وأخذ الثوار القريبون من المركز يرددون صيحته . وأمسك الرجال أيدي بعضهم البعض ، وأحاط أعلاهم بقوة حلقة راسيخة زين بها السطح - بذراعه اليسرى .

واستأنفوا لقاء القنابل اليدوية ، ولم يعد المحاصرون من رجال البوليس يستطيعون الرد عليهم .

وفى خمس دقائق ، نفذت ثلاث قنابل يدوية الى داخل المركز عن طريق نافذتين مقصودتين ، ودمرت قنبلة أخرى الظلة التى كانت تحمى إحدى النوافذ ، وكانت النافذة الوسطى وحدها هى التى أفلتت من القنابل . صاح طالب الحربية السابق : « النوافذ الوسطى ! » ونظر اليه تشن ، ان هذا الرجل يشعر بمتعة فى اصدار الأوامر وكأنه يمارس رياضة مثالية . ولم يكن يهتم بحماية نفسه ، انه شجاع بلاشك ، ولكنه لم يكن مرتبطا برجاله . . . أما « تشن » فقد كان مرتبطا برجاله ، وان يكن ارتباطا غير كاف .

وترك طالب الحربية السابق ، واجتاز الشارع خارج المنطقة التى يطلق عليها المحاصرون النيران . وبلغ سطح المركز . وبدأ الرجل المستند الى الدعامة يتخاذل : « فعل « تشن » مكانه . وعلى الرغم من ذراعه الجريئة التى أحاط بها تلك الدعامة المشيدة من الأسمنت والجص ، ويده اليمنى التى يمسك بها أول رجل فى السلسلة ، على الرغم من ذلك ، فانه لم يستطع أن يفلت من احساسه بالعزلة . وكان ثقل الرجال الثلاثة الذين ينزلقون معلقا بذراعه ، ونافذا الى صدره كأنه قضيب حاجز وكانت انفجارات القنابل اليدوية تتوالى داخل المركز الذى انقطع عن اطلاق النار . وقال تشن لنفسه : « ان المخزن من تحت السقف يحمينا ، غير أن هذه الحماية من تستمر طويلا ، فسوف يتدمر السطح . » وعلى الرغم من اقتراب الموت منه ذلك الاقتراب الحميم ، وعلى الرغم من ذلك الثقل الأخوى الذى يكاد يشطره شطرين ، فانه لم يكن منهم . « هل معنى ذلك أن الدم نفسه عبث فى عبث ؟ »

وكان طالب الحربية السابق ينظر اليه من أسفل دون أن يفهم شيئا ، وعرض أحد الرجال الذين صعدوا خلف « تشن » ، أن يحل محله .

— « فليكن . . . وسأقذف بنفسى . »

سلمه هذه السلسلة من الأجسام . وفى عضلاته المكدودة تمشى يأس لا حدود له . كان وجهه الذى يشبه وجه البوم بعينيه الضيقتين ، دتوترا بما كنا تمام السكون ، وأحس بدمعة تسيل على حافة أنفه ، فانتابه الدهول ،

وناجى نفسه قائلا : « هذا من تأثير النوبة العصبية » وأخرج قنبلة يدوية من جيبه ، وشرع فى النزول مستندا الى أذرع الرجال المتشابكة فى السلسلة ولكنه بعد عنف المجهود الذى لابد قد بذله لتدعيم الصف ، بدا له أن ذراعيه قد لانتا وأنهما لا تطيعانه . وكانت السلسلة ترتكز على (الديكور) الذى ينتهى به السطح على الجانبين . وحين وصل « تشن » الى قاع السطح ، ترك ذراع الشخص الذى كان يقذف بالقنابل ، وتعلق بساقه ، ثم بالمزrab، وهبط عن طريق الأنبوبة العمودية : لقد كان بعيدا عن النافذة بحيث لا يستطيع لمسها ، ولكنه كان قريبا بحيث يستطيع أن يرمى بقنبلته . ولم يعد رفاقه يتحركون . وفوق الطابق الأرضى أتاح له نتوء فى الجدار أن يقف لحظة . وأدهشه أن جرحه لا يؤلمه الا ذلك الألم الهين . وأخذ يزن فى يده قنبلته الأولى وقد فتحها ، وهو يمسك بيده اليسرى أحد الخطافات التى تثبت المزrab فى الجدار وقال لنفسه : « اذا سقطت هذه القنبلة فى الشارع تحتى فساكون من الهالكين . » وقذف بها بأقصى قوة يسمح بها وضعه : فنفذت وانفجرت فى الداخل .

وهناك فى أسفل المركز ، استؤنف إطلاق النار .

ومن باب المركز الذى بقى مفتوحا ، ألقى رجال البوليس - الذين طردوا من الحجرة الأخيرة - بأنفسهم وهم يطلقون النار جزافا كالعميان المدعورين . ومن الأسطح ، والأروقة ، والنوافذ ، كان الثوار يطلقون بنادقهم . وأخذت الأجسام تتساقط الواحد اثر الآخر ، عديدة عند الباب ، متناثرة فى الأماكن الأخرى .

وتوقف إطلاق النار ، وهبط « تشن » وهو معلق بالمزrab ، دون أن يرى قدميه ، وقفز فوق إحدى الجثث .

ودخل طالب الحربية السابق الى المركز ، وتبعه « تشن » وهو يسحب من جيبه القنبلة التى لم يقذف بها بعد . وفى كل خطوة ، كان وعيه يزداد حدة بانقطاع أنين الجرحى . لم تعد حجرة الحرس تضم غير أموات . أما الجرحى فقد احترقت أجسادهم . وفى الطابق الأول ، كان مزيد من القتلى ، وبعض الجرحى .

قال الضابط : « والآن ، هيا بنا الى محطة الجنوب ، ولناخذ البنادق كلها
فربما احتاجت اليها فرق أخرى . »

ونقلت الأسلحة الى سيارة النقل . وحين تم جمعها كلها ، قفز الرجال الى
السيارة ، وظلوا واقفين ، متكئين ، أو جالسين على غطاء السيارة ، أو
ملتصقين بالسلم ، أو متعلقين بالمؤخرة . أما الباقون ، فقد شرعوا فى السير
بخطوة رياضية عن طريق الأزقة . وبدت بقعة الدم الكبيرة التى خلفوها
وراءهم ، بلا تفسير وسط الشارع المهجور ، واختفت السيارة فى منعطف
الشارع ، وقد تكدس فيها الرجال وأخذت تققع قعقة الصفيح ، متجهة
صوب الثكنات ومحطة الجنوب .

وكان لابد أن تتوقف : ذلك أن الشارع كان مسدودا بأربعة جياذ مقتولة،
وثلاث جثث منزوعة السلاح ، وكانت هذه الجثث هى جثث الفرسان الذين
شاهدتهم « تشن » فى مطلع النهار : فقد وصلت السيارة المصفحة الأولى فى
الوقت المناسب . وعلى الأرض تناثر زجاج النوافذ ، ولكن لم يكن ثمة انسان،
اللهم الا شيخ صينى ذو لحية مدببة يئن ويتوجع . وما أن اقترب منه تشن ،
حتى قال بلهجة واضحة : «

— « هذا أمر جائز ، ومحزن جدا . أربعة ! أربعة ! أربعة ! وا أسفاه ! »

فقال تشن : « ثلاثة فحسب . »

— « أربعة ، وا أسفاه ! »

ونظر تشن من جديد : لم يكن هناك غير ثلاث جثث ، واحدة ترقد على
جنبها كأنما ألقيت فى مهب الريح ، واثنان منكفئتان على بطنهما ، بين المنازل
الميتة كذلك ، تحت سماء ثقيلة الوطأة .

قال الشيخ فى لهجة يمتزج فيها الاحتقار بالخوف : « انما أتحدث عن
الجياذ » وقبض « تشن » على مسدسه .

— « أما أنا ، فأتحدث عن الرجال . هل تملك أحد هذه الجياذ ؟ »

لم يكن من شك أنها أخذت من أصحابها هذا الصباح .

— « كلا . . . ولكنى كنت جوديا . . . والحيوانات ، اننى أعرفها جيدا . . .

أربعة قتلت ! دونما سبب على الإطلاق ! »

وتدخل السائق في الحديث :

« دونما سبب ؟ »

فقال تشن : « لا داعى لاضاعة الوقت »

وساعده اثنان من الرجال على ازاحة الخيول . ومرت السيارة . وفي اقصى الشارع ، أرسل تشن - الذى كان يجلس على أحد سلاسل العربة - بصره الى الوراء ، كان الحوذى العجوز ما زال قابعا بين الجثث ، يتأوه بلاشك . وقد بدا كالشبح الأسود فى الشارع الرمادى .

الساعة الخامسة

« لقد سقطت محطة الجنوب »

ووضع « فيرال » سماعة التلفون مكانها ، وبينما كان يعطى مواعيد (كان شطر من الغرفة التجارية الدولية معارضا لكل تدخل ، ولكنه كان يسيطر فى الوقت نفسه على أكبر صحيفة فى شنغهاى) ، كانت أنباء تقدم الثورة تبلغه نبأ وراء الآخر . وكان يريد أن يتصل تليفونيا على انفراد ، فعاد الى حجرة مكتبه حيث كان مارسىال الذى وصل لتوه يناقش مبعوث تشانج - كاي - شيك : وكان هذا المبعوث قد رفض مقابلة رئيس البوليس سواء فى ادارة الأمن أو فى منزله . وقبل أن يفتح الباب سمع فيرال هذا القول على الرغم من الضجة التى يحدثها اطلاق النيران :

« أنا ، كما تفهم ، ماذا أمثل هنا ؟ المصالح الفرنسية ... »

فأجابه الرجل الصينى فى لهجة من الالحاح المتراخى : « ولكن أية معونة أستطيع أن أعد بها ؟ ان القنصل العام نفسه أخبرنى بأن انتظر منكم تعليمات محددة . لأنكم تعرفون بلادنا وشعبها .. معرفة جيدة جدا »

ورن جرس التلفون فى الاستديو .

وقال مارسىال : « لقد سقط المجلس البلدى » ثم غير لهجته وقال :

« لا أقول انه ليست لدى خبرة نفسية معينة بهذه البلاد ، وبالناس

بوجه عام . علم النفس والفعل ، هذان هما مهنتى ، وعليهما ... »

« غير أن أولئك الأفراد خطرون بالنسبة لبلادكم ، كما هم خطرون

بالنسبة لبلادنا . . . بل انهم خطرون على سلام المدينة . . . ماذا لو آتتهم النجاءوا
- كما يفعلون دائما - الى منطقة الامتيازات ؟ ان البوليس الدولى . . .

وحدث فيرال نفسه قاتلاً وهو يدخل « ها نحن أولاء . . . انه يريد ان
يعرف ما اذا كان مارسيل فى حالة قطع العلاقات . سيسمح للزعماء
الشيوعيين بالالتجاء الينا . »

- « . . . قد وعدنا بكل رعايته . . . فماذا سيفعل البوليس الفرتنى ؟ »
- « سندبر الأمر . . . ولكن ، التفت فقط الى هايلى : لا نريد فضائح مع
النساء البيض ، باستثناء الروسيات ، فلدى فيما يتعلق بهذا الأمر تعليمات
مشددة . ولكننى أصرح لك ، بأنها ليست رسمية . . . ليست رسمية . »

وفى الاستديو العصرى الذى علقت على جدرانها لوحات من رسم بيكاسو
فى مرحلته الوردية ، وتخطيط لمنظر غرامى بريشة فراجونار ، كان المتحدثان
يقفان كل على جانب من جانبى تمثال ضخم من الحجر الأسود للاله « كوانين »
يرجع تاريخه الى أسرة تانج ، أشار بشرائه كلاييك ، بينما كان « جيسور »
يعتقد أنه زائف . وكان الرجل الصينى ، وهو كولونيل شاب ، مقوس
الأنف ، يرتدى الملابس المدنية ، وقد زر سترته من أعلاها الى أسفلها - كان
ينظر الى مارسيل مبتسما ورأسه مائل الى الوراء .

- أشكرك باسم حزبى . . . ان الشيوعيين خونة أوغاد : فهم يخدعوننا
نحن حلفاءهم الأوفياء . وقد تم الاتفاق على أن نتعاون معا ، على أن تطرح
المسألة الاجتماعية حين يتم توحيد الصين . ومع ذلك فانهم يثيرون هذه
المسألة الآن . انهم لا يحترمون ما بيننا من اتفاق ، وهم لا يعملون من أجل
الصين ، وانما من أجل السوفيت . وأولئك القتل الذين فقدهم الجيش ،
لم يقتلوا من أجل السوفيت ، بل فى سبيل الصين . ان الشيوعيين قادرون
على اقتراف كل شئ ، ولهذا ينبغى أن اسألك ، يا سيدى المدير ، هل يعارض
البوليس الفرنسى فى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لسلامة الجنرال الشخصية ؟

وكان من الواضح أنه طلب نفس الخدمة من البوليس الدولى .

وأجاب مارسيل : « كلا . . . على الاطلاق . . . أرسل لى رئيس شرطتكم .
أما زال هو « كونييج » ؟ »

« أجلى ، انه هو دائما . أخبرني يا سيدى المدير : هل درست التاريخ الرومانى ؟ »

« بالطبع . »

وقال فيرال لنفسه : « فى مدرسة مسائية . »

ورن جرس التلفون من جديد ، فتناول مارسيل السماعة .

قال وهو يعيدها الى مكانها : « استولوا على الكبازى . فى خلال ربع ساعة ، ستكون الثورة قد احتلت المدينة . »

واستطرد الرجل الصينى وكأنه لم يسمع شيئا : « من رأى أن فساد الأخلاق هو سبب انهيار الامبراطورية الرومانية . ألا تعتقد أن تنظيما فنيا للدعارة ، تنظيما على الطراز الغربى كتنظيم البوليس مثلا - يكفى للقضاء على حكام هانكاو ، الذين لا يتساوون بالطبع مع حكام الامبراطورية الرومانية ؟ »

« انها فكرة . . ولكننى لا أظن أنه من الممكن تطبيقها . . ولا بد من ايمان الفكر . »

« لن يفهم الأوروبيون من الصين الا ما يشابههم . »

وساد الصمت . وكان فيرال يستمتع بهذه اللحظة . ان هذا الصينى يثير فضوله : هذه الرأس المائلة الى الوراء ، بما يكاد يرتسم عليها من ازدراء وهذا التحرج فى الوقت نفسه . . ودار فى ذهنه : « هانكيو تغرقها القطارات المحملة بالعاهرات . . وانه ليعرف الشيوعيين ! وقد يكون ملما بالاقتصاد السياسى . مدهش ! . . » وربما كان بعض السوفيت يناهبون فى المدينة ، بينما يحلم هذا الرجل بالعظاات والعبر التى يمكن أن يستخلصها من الامبراطورية الرومانية « ان چيسور على حق ، فهم يبحثون دائما عن الألعيب . »

ودق التلفون مرة أخرى .

وقال مارسيل : « الشكنات محاصرة . وامدادات الحكومة لاتصل اليها . »

وسأل فيرال : « محطة الشمال ؟ »

— « لم يستول عليها الثوار بعد . »

— « اذن تستطيع الحكومة أن تعيد بعض قواتها من الجبهة ؟ »

فقال الصينى : « ربما ، ياسيدى ، انها تسحب جنودها وتداباتها وتوجهها الى نانكين ، وتستطيع أن تبعث بها الى هنا ، كما يستطيع القطار المصفح أن يقاتل قتالا جديا . » واستطرد مارسيل قائلا :

— « أجل ، حول القطار والمحطة ، يستطيعون الصمود . ان كل ما يستولون عليه ينظمونه فى الحال وفقا لخططهم ، وليس من شك أن وراء الثورة روسا أو أوروبيين : والموظفون الثوار فى كل ادارة هم الذين يرشدون الثوار ، وهناك لجنة عسكرية تشرف على كل شئ . والبوليس كله قد جرد الآن من سلاحه . وللحمر مراكز للتجمع يوجه منها الجنود ضد الثكنات . »

قال الضابط : « للصينيين ملكة تنظيم عظيمة . »

— « وكيف يحمى تشانج - كاي - شيك ؟ »

— « ان سيارته تسبقها دائما سيارة حرسه الخاص ، كما أن لنا جواسيسنا . »

وأدرك فيرال أخيرا سبب هذا الوضع المتعالى الذى يتخذة رأس هذا الصينى ، والذى بدأ يضايقه (وكان يخيل اليه فى البداية دائما أن الضابط ينظر من فوق كتفى مارسيل الى تخطيط المنظر الغرامى) : لقد كانت غشاوة على عين الضابط اليمنى ترغمه على أن ينظر من أعلى الى أسفل .

وأجاب مارسيل : « هذا لا يكفى . ولا بد من ترتيب الأمور . وكلما أسرعنا كان ذلك أفضل . » والآن ، يجب أن أنصرف : فنحن بصدد انتخاب اللجنة التنفيذية التى ستتولى سلطة الحكومة . وهناك ، ربما أستطيع أن أصنع شيئا . كما أن أماننا أيضا مسألة انتخاب المحافظ ، وهو منصب لا يستهان به »

وبقى فيرال والضابط وحدهما . .

قال الصينى ورأسه مطوحة الى الوراء : « اذن نستطيع ياسيدى أن نعتمد عليك من الآن ؟ »

فأجاب فيرال : « ان ليو - تى - يو ينتظر . »

وكان ليو - تى - يو هو رئيس رابطة رجال البنوك فى شنغهاى، ورئيس شرف الغرفة التجارية الصينية ، كما كان على اتصال برؤساء المديجات جميعا، ولهذا فانه يستطيع أن يتصرف فى هذه المدينة الصينية التى بدأت تقع بلا شك فى أيدي الثوار - خيرا مما يستطيع فيرال أن يتصرف فى مناطق الامتيازات . وانحنى الضابط مستأذنا فى الانصراف . وصعد فيرال الى الطابق الأول . وهناك ، فى ركن من حجرة مكتب حديثة الطراز ، مزينة فى أركانها جميعا بتمائيل من العصور الصينية القديمة ، كان ليو - تى - يو - ينتظر حقا فى رداء من قماش أبيض سميك فوق صديرى بلا ياقة ، أبيض كشعره القصير ويداه ممسكتان بذراعى مقعده - المصنوعتين من أنابيب طليت بالنيكل . وكان وجهه كله مركزا فى فمه وفكيه ، وكأنه ضفدعة عجوز تتوثب نشاطا .

وظل فيرال واقفا :

- « أنت مصر على الخلاص من الشيوعيين . » ولم يكن يسأل ، وانما كان يؤكد . « ونحن أيضا ، كما يبدو ذلك بكل جلاء . » وبدأ يذرع الغرفة ، وقد ألقى بكتفيه الى الأمام . « ان تشانج - كاي - شيك متأهب للقطيعة . »

ولم يكن فيرال قد أبصر قط بالشك ماثلا على وجه رجل صينى . فهل يصدق هذا الرجل ؟ قدم اليه صندوقا زاسجائر . وكان هذا الصندوق منذ أن قرر الاقلاع عن التدخين ، مفتوحا دائما على مكتبه ، وكأن رؤيته باستمرار تقوى من عزيمته ، وتؤكد تصميمه .

- « ينبغى تقديم المساعدة لتشانج - كاي - شيك . وهذه بالنسبة لكم مسألة حياة أو موت . وليس من الممكن أن يستمر الموقف الحالى على ما هو عليه . ولقد بدأ الشيوعيون فى مؤخرة الجيش تنظيم نقابات الفلاحين فى الأرياف ، وسيكون أول قرار تنخذه هذه النقابات هو الغاء حق أصحاب القروض فى تحصيل قروضهم (لم يقل فيرال المرابين) والشطر الأكبر من

برعوس أموالكم موجود في الأرياف ، وأفضل ودائع مصارفكم انما تضمنها العقارات ومجالس السوفيت المؤلفة من الفلاحين ٠٠٠ »

— « لن يجرؤ الشيوعيون على انشاء مجالس (سوفيت) في الصين ٠ »
 — « لا داعى للتلاعب بالألفاظ يا سيد ليو ٠ فسواء أكانت نقابات أم مجالس فسوف تقوم المنظمات الشيوعية بتأمين الأرض ، ونزع صفة الشرعية عن القروض ٠ وهذان الاجراءان يقضيان على جوهر الضمانات التى بمقتضاها أمكنكم الحصول على قروض أجنبية ، وهى تزيد على مليار من الفرنكات ، اذا أدخلنا فى الاعتبار أصدقائى اليابانيين والأمريكيين ٠ ولا سبيل لضمان مثل هذا المبالغ على أساس تجارة راکدة ٠ وحتى دون أن نتحدث عن قروضنا ، فان هذين القرارين كافيان لنسف البنوك الصينية جميعا ٠٠ هذا شىء واضح كل البوضوح ٠ »

— « لن يسمح الكومنتانج بحدوث شىء من ذلك ٠ »

— « لا وجود لشىء اسمه الكومنتانج ، لا يوجد غير زوق وجر ٠ وقد تفاهموا حتى هذه اللحظة — تفاهما سيئا — لأن تشانج — كاي — تشيك ، لم يكن يملك شيئا من المال ٠ فاذا سقطت شنغهاى — غدا — فان تشانج — كاي — تشيك يستطيع تقريبا أن يدفع مرتبات جنوده من الرسوم الجمركية ، ومع ذلك لن يكون ذلك كافيا ٠٠٠ انه يعتمد علينا ٠ ولقد نادى الشيوعيون فى كل مكان بالاستيلاء على الأراضى ، ويقال انهم يحاولون ارجاء ذلك ، ولكن فات الأوان ، فقد أنصت الفلاحون الى خطبهم ، وهم ليسوا أعضاء فى حزبهم، ولهذا فسرف يفعلون ما يريدون ٠ »

— « لا شىء يمكن أن يقف الفلاحين سوى القوة ، وهذا ما أخبرت به القنصل العام لبريطانيا العظمى ٠ »

وحين خيل الى فيرال أن لهجة صوته قد انتقلت الى لهجة محدثه ، أحس بأنه قد كسبه الى جانبه ٠

— « لقد حاولوا فعلا الاستيلاء على الأراضى ، غير أن تشانج — كاي — تشيك مصر على ألا يسمح لهم بذلك ، فأصدر أوامره ألا تمس أية أراضى يملكها ضباط أو أقارب ضباط ٠٠ اذ يجب ٠٠٠ »

ـ « اننا جميعا أقارب لضباط » • وابتسم ليو ثم استطرد قائلاً : « وهل توجد فى الصين أرض ليس مالکها قريباً لأحد الضباط ؟ ... »

وكان فيرال محيطاً بصلات القرابة فى الأسرة الصينية •

ورن جرس التلفون مرة أخرى ، وقال فيرال :

ـ « لقد حوصرت الترسانة •• وتم الاستيلاء على المنشآت الحكومية جميعاً • سيصل جيش الثورة الى شنغهاى غدا ، فلا بد من حل المشكلة الآن •• افهمنى بوضوح ؟ فعلى أثر الدعاية الشيوعية ، انتزعت أراض عديدة من أصحابها ، وعلى تشانج - كاي - تشيك أن يقبل ذلك ، أو أن يصدر أوامره بإعدام من استولوا عليها رمياً بالرصاص • ولا يمكن أن تقبل حكومة هانكاو الحمراء مثل هذا الأمر • »

ـ « سيحاول كسب الوقت • »

ـ « أنت تعلم ما حل بأسهم الشركات الانجليزية عقب الاستيلاء على منطقة الامتيازات الانجليزية فى هانكاو ، كما تعلم ما سيؤول اليه موقفكم حين تنتزع الأراضى أيا كانت - انتزاعاً قانونياً - من أصحابها • وتشانج - كاي - تشيك يدرك ذلك ، ويقول : انه مرغم على أن يفصم علاقته بالشيوعيين » الآن ، فهل تريدون مساعدته فى ذلك • نعم أم لا ؟ »

وبصق « ليو » وقد غاصت رأسه بين كتفيه • وأغمض عينيه ، ثم فتحهما ، ونظر الى فيرال تلك النظرة الماكرة التى تلتقى بها فى عين المرابى العجوز أيا كانت جنسيته :

ـ « كم ؟ »

ـ « خمسون مليوناً من الدولارات • »

وبصق من جديد :

ـ « لنا وحدنا ؟ »

ـ « أجل • »

وأغمض عينيه ثانية • وكان القطار المصفح يطلق مدافعه بين حين وآخر فيطغى صوته على ضجة اطلاق البنادق المتقطعة •

وحتى لو استقر عزم أصدقاء « ليو » على العمل ، فلا مندوحة أيضا عن النضال ، وإذا لم يستقر عزمهم ، فإن الشيوعية ستنتصر - بلا شك - في الصين . وحدث فيرال نفسه قائلًا في زهو يخالطه شيء من الحماس واللامبالاة : « ها هي ذى لحظة من اللحظات التي يتغير فيها مصير العالم . . » ولم يحول نظره عن محدثه ، وكان يبدو أن الشيخ - بعينه المغضتين - قد استسلم للنوم ، غير أن عروقه الزرق المجدولة المنتشرة في ظهر يديه كانت تختلج كالأعصاب . وقال فيرال لنفسه : « لابد من حجة فردية أيضا » ، ثم قال مخاطبا الشيخ الصيني :

- « ان تشانج - كاي - تشيك - لن يسمح بتجريد ضباطه من أملاكهم ، كما أن الشيوعيين قد قرروا اغتياله ، وانه ليعرف ذلك . »

وكانت هذه الشائعة منتشرة منذ أيام ، غير أن فيرال لم يصدقها .

سأل ليو : « كم من الزمن قد تبقى لنا ؟ » ، ثم أردف على الفور ، وقد أغمض إحدى عينيه ، وفتح الأخرى ، وكأن شطر وجهه الأيمن يعبر عن المكر ، وشطر وجهه الأيسر يعبر عن الخجل :

- « وهل أنت واثق من أنه لن يأخذ الأموال دون أن يقوم بتنفيذ وعوده ؟ »

- « هناك أموالنا أيضا ، والأمر ليس مجرد وعود . ذلك أنه لا يستطيع أن يتصرف خلاف ذلك . وافهمني جيدا : ليس لأنك تدفع له ، ينبغي أن يحطم الشيوعيين ، ولكن لأنه ينبغي أن يحطم الشيوعيين ، فأنت تدفع له . »

- « سأذهب للاجتماع بأصدقائي . »

وكان « فيرال » يعرف كيف يتم تدبير الأمور في الصين ، ويعرف نفوذ الرجل الذي يتكلم .

- « وما هي النصيحة التي ستشير بها عليهم ؟ »

- « ان من الممكن أن يهزم تشانج - كاي - شيك على أيدي أهالي هانكيو . فهناك مائتي ألف عامل بلا عمل . »

- « ان هزيمته محققة اذا لم نمد له يد المعونة . . . »

— « خمسون مليوناً .. هذا .. كثير .. »

وسدد أخيراً عينيه إلى وجه فيرال .

— « أقل مما تجدون أنفسكم مرغبين على إعطائه لحكومة شيوعية . »

ودق التلفون .

واستطرد فيرال : « لقد عزل القطار المصفح . وحتى إذا أرادت الحكومة

أن ترسل قوات من الجبهة ، فإنها لم تعد تستطيع ذلك . »

ومد يده .

وصافحه ليو ، ثم غادر الحجرة . ومن النافذة العريضة أنتفى تلوح منها
أسمال السحاب ، شاهد « فيرال » السيارة وهي تبتعد ، وقد طغى صسوت
المحرك لحظة على ضجة الرصاص . حتى في حالة انتصاره ، قد ترغمه ظروف
مشروعاته على طلب المساعدة من الحكومة الفرنسية ، وهو طلب طالما رفضته ،
بل رفضته لتوها بالنسبة لبنك الصين الصناعي ، ولكنه أصبح اليوم من الأشخاص
الذين يملكون مصير شنغهاي في أيديهم . وإن القوى الاقتصادية كلها ،
والقنصليات كلها تقريباً تلعب مثله نفس اللعبة . وسيدفع ليو الثمن . وكان
القطار المصفح يطلق نيرانه بلا انقطاع . أجل ، لأول مرة أصبح للجانب الآخر
تنظيم يخضع له . وكم كان يود أن يعرف شخصيات أولئك الذين يوجهون
هذا التنظيم ! وأن يتمكن من إعدامهم كذلك !

وتلاشى مساء الحرب في ظلمة الليل . وبدأت الأصواء تنبعث من طوابق
المنازل الأرضية ، وأهاب النهر الخفى — كما يفعل دائماً — ببقايا الحياة التي
ما زالت أنفاسها تتردد في المدينة . . . كان هذا النهر قادماً من هانكيو .
إن « ليو » على حق ، وفيرال يعلم ذلك : هناك مكنى الخطر ، وهناك يتكون
الجيش الأحمر ، وهناك يسيطر الشيوعيون . ومنذ أن أخذت القوات الثورية
تكتسح الشماليين أمامها ككاسحة الثلوج ، بدأت العناصر اليسارية جميعاً
تحلم بأرض الميعاد هذه : ذلك أن وطن الثورة كان يلوح في الظلال الخضراء
لثلك المسابك والترسانات ، حتى قبل أن يستولوا عليها . والآن ، وقد
أصبحت الثورة تملك هذه المسابك والترسانات ، أخذ هؤلاء المشاة الشُّعبيّة

الذين يبتلعهم الضباب اللزج حيث يزداد عدد المصابيح شيئا فشيئا . أخذوا يتقدمون في اتجاه النهر ، وكأنهم قد أتوا جميعا من هانكيو أيضا بأفواههم التي ارتسمت عليها الهزائم أشبه بنبوءات يدفعها صوبه الليل المتجهم .

* *

الساعة الحادية عشرة . ومنذ انصراف ليو ، قبل العشاء وبعده ، توافد عليه رؤساء المدجات ، ورجال البنوك ، ومديرو شركات التأمين والنقل النهري ، وبعض المستوردين ، ورؤساء صناعة النسيج . وكانوا جميعا يعتمدون بصورة أو بأخرى على جماعة فيرال أو على جماعة من الجماعات الأجنبية التي ربطت سياستها بسياسة الاتحاد الفرنسي الآسيوي : أما فيرال نفسه فلم يكن يعتمد الا على « ليو » . وقد كانت شنغهاي هي قلب الصين الحى الذى ينبض بكل ما يجعلها تحيا . حتى من أعماق الريف - ومعظم أصحاب الأراضي يعتمدون على البنوك - كانت شرايين الدماء تصب كالقنوات فى العاصمة حيث يتقرر مصير الصين . واستمر اطلاق النيران . . والآن ، لابد من الانتظار .

وفى الحجرة المجاورة ، كانت « فاليرى » نائمة . ومع أنها قد أصبحت عشيقته منذ أسبوع ، الا أنه لم يتظاهر بحبها قط ، ولو أنه فعل ، لابتسمت ابتسامتها الماكرة الوقحة . ولم تبج له هى أيضا بشئ ، ربما لنفس السبب . وكانت العقبات التى نسجت منها حياته الحاضرة تدفعها الى المجون ، لا الى الحب . وكان يعلم أنه تخطى الشباب ، وأخذ يحاول اقناع نفسه بأن سمعته الأسطورية يمكن أن تسد فى مجال العشق مكان الشباب . كان « فيرال » ، وكان خبيرا بالنساء الى درجة أنه لم يكن يؤمن بكلمة واحدة مما يقال عنهن . وتذكر فيرال صديقا من أصدقائه ، كان ذكيا معتل الصحة ومع ذلك فقد كان يحسده على كثرة عشيقاته . وذات يوم سأل فاليرى عن تفسير لهذا التناقض ، فأجابته قائلة : « لا يوجد فى الرجل ما هو أشد جاذبية من الجمع بين القوة والضعف » . ولما كان مقتنعا بأن أحدا من الناس لا تفسره حياته ، فقد احتفظ بهذه الجملة فى ذاكرته أكثر من كل ما أفضت به اليه عن حياتها .

ولم تكن هذه الحائكة الشبية تنظر الى الأمور من وجهة النظر المسالية فحسب (أو أنها لم تصل بعد الى هذه النظرة على الأقل) . وكانت تؤكد أن العشق يتألف عند الكثيرات من التجرد من ثيابهن أمام رجل مختار ، وأنهن لا يستمتعن استمتاعا كاملا سوى مرة واحدة . فهل كانت تفكر فى نفسها

لقد كانت هذه هي المرة الثالثة التي ضاجعته فيها . وقد فطن فيها الى ضرب من الكبرياء شبيه بكبريائه . « للرجال أسفارهم ، وللنساء عشاقهن » هذا ما قالته البارحة . أكان يعجبها ، كما يعجب غيرها من النساء - بالتقابل القائم بين شدته وألوان المجاملة التي يظهرها لها ؟ ولم يكن يجهل أنه سيقامر بكبريائه في هذه اللعبة . . كبريائه التي هي جوهر حياته . ولم يكن هذا الموقف خاليا من الخطر في حالة عشيقة تردد دائما : « ما من رجل يستطيع أن يتكلم عن المرأة يا عزيزي ، لأنه ما من رجل يدرك أن كل زينة جديدة ، وكل ثوب جديد ، وكل عشيق جديد ، يوحى بروح جديدة . . . » وكان قولها ذاك تصاحبه الابتسامة المناسبة .

ودخل الحجرة . . كانت راقدة ، وقد انسدل شعرها في تجويف ذراع غاية في الاستدارة ، ونظرت اليه باسمة .

ومنحته هذه الابتسامة الحياة العاتية والمستسلمة في الوقت نفسه ، الحياة التي نهبها اللذة . وكان التعبير الذي يرتسم على محياها ، أثناء استرخائها ، تعبيرا عن الحزن الرقيق ، وتذكر فيرال انه قال لها في أول مرة رآها ان لها وجها حائرا . . وجها يناسب ما في عينيها الرماديتين من عذوبة . ولكن ، ما أن تظهر خلاعتها في الميدان ، حتى تبدو ابتسامتها التي تنفرج عنها شففتها نصف انفراجة على هيئة قوس في الطرفين أكثر منها في الوسط - تبدو موافقة بصورة غير متوقعة مع شعرها القصير المتموج الكثيف ، ومع عينيها اللتين تظهران حينئذ أقل حنانا ، بحيث تضيء عليها ، رغم انتظام قسماتها انتظاما دقيقا ذلك التعبير المعقد الذي تتخذه قطعة في وضع الاسترخاء وكان فيرال يحب الحيوانات - شأنه في ذلك شأن جميع الرجال الذين يأنفون من التكيف مع غيرهم من الناس - ويحب القطة بوجه خاص .

وخلع ملابسه في الحمام . وكان الصباح الكهربائي محطما ، فبدت أدوات الزينة مائلة الى الاحمرار ، يضيئها وهج الحرائق المشتعلة . وأطل من النافذة : كان في الطريق جمهور يتحرك ، ملايين من الأسماك تضطرب تحت موجة من الماء الأسود ، وخيل اليه فجأة أن روح هذا الحشد قد غادرت كما يغادر الفكر النائم الذين يحلمون ، وأنها أخذت تضطرم بنشاط مرح في السنة الذهب العارمة التي تضيء أطراف الأبنية .

و حين عاد ، كانت فاليرى تحلم ، وقد غاضت الابتسامة من شفيتها • ألم يكن يريد الا أن يحظى بحب تلك المرأة ذات الابتسامة التى تفصلها عنه هذه المرأة غير ذات الابتسامة وكأنها امرأة غريبة ؟ وكان القطار المصفح يطلق نيرانه بين دقيقة وأخرى وكأنه يحتفل بانتصاره ، انه ما برح فى أيدي رجال الحكومة ، وكذلك الثكنات والترسانة والكنيسة الروسية •

وسألته : « هل رأيت مسيو دى كلاييك يا عزيزى مرة أخرى ؟ »

وكانت المستعمرة الفرنسية فى شنغهاي بأسرها تعرف كلاييك ، وقد التقت به فاليرى فى حفلة للعشاء منذ يومين ، فسحرتها تهويماته •

— « أجل • وقد كلفته بأن يشتري لى بعض لوحات (كاما) الملونة • »

— « وهل يوجد منها فى حوانيت العاديات ؟ »

— « طبعا لا • ولكن « كاما » سيعود من أوروبا ، وسيمر من هنا فى ظرف أسبوعين • وقد كان كلاييك مرهقا ، فلم يقص غير حكايتين جميلتين : حكاية عن لص صينى ، أطلق سراحه لما أظهره من براعة فى الدخول من ثقب على هيئة القيثارة فى محل الرهونات الذى حاول سرقة ، وهذه القصة : كان السيد العظيم « فضيلة » يربى الأرانب منذ عشرين عاما ، وعلى أحد جانبي الجمرى الداخلى يقوم منزله ، وعلى الجانب الآخر عيش الأرانب • واستبدل رجال الجمارك بمجموعة أخرى ، فنسوا أن يخطرأ الموظفين الجدد باجتيازه اليومى للجمرك • وحين وصل ، حاملا سلته المليئة بالبرسيم استوقفه رجال الجمرى قائلين : دعنا نلق نظرة على ما فى سلتك • » ، وتحت البرسيم ، كانت توجد ساعات وسلاسل ذهبية ، ومصابيح كهربائية ، وآلات تصوير — أهذا ما تقدمه لأرانبك من طعام ؟ »

— « أجل ياسيدى مدير الجمارك » ثم (بلهجة من يهدد الأرانب المذكورة)

« وان لم يعجبهم هذا الطعام فلن يحصلوا على شئ سواه • »

قالت : « هذه قصة علمية • • ولقد فهمت الآن كل شئ • من هناك اذن تأتى تلك الأجراس والطبول الصغيرة المصنوعة على هيئة الأرانب • وكل تلك الحيوانات الصغيرة البديعة التى تحيا حياة سعيدة فى القمر ، وفى الأماكن الشبيهة بذلك ، ولكنها تحيا حياة تعسة فى حجرات الأطفال • • •

وانه لظلم صارخ هذا الذى يروى فى تلك القصة الحزينة عن « الفضيلة الشهيرة » وسوف تحنّج الصحف الثورية كثيرا على ما أعتقد : انك تستطيع أن تكون على يقين من أن هذه الأرانب تأكل هذه الأشياء حقا . »

— « هل قرأت يا عزيزتى (أليس فى بلاد العجائب) ؟ »

كان يحتقر النساء اللواتى لا يستطيع الاستغناء عنهن ، بما يكفى لتدليلهن بقوله « يا عزيزتى . »

— « وهل تشك فى ذلك ؟ اننى أحفظها عن ظهر قلب . . »

— « ان ابتسامتك تجعلنى أفكر فى طيف القطعة الذى لا يتجسد مطلقا ، والذى لا نرى منه غير ابتسامة القطعة الساحرة تلك ، طافية فى الهواء . آه ! لماذا يريد ذكاء المرأة أن يختار دائما مجالا غير المجال الذى خلق له ؟ »

— « وما هو هذا المجال يا عزيزى ؟ »

— « فتنة الفهم . . بكل تأكيد . »

واستغرقت فى التفكير .

— « ان ما يسميه الرجال بهذا الاسم ، هو خضوع الروح ، فانتم لا تعترفون لدى المرأة الا بالذكاء الذى يؤيدكم . . وهذا شيء مريح الى أبعد حد . . . »

— « الاستسلام من جانب المرأة ، والامتلاك من جانب الرجل ، هما الوسيلتان الوحيدتان اللتان يملكهما البشر لفهم أى شيء . . . »

— « ألا تعتقد يا عزيزى ان النساء لا يستسلمن أبدا (أو تقريبا) ، وأن الرجال لا يملكون شيئا ؟ انها لعبة . » انا أعتقد أننى أملكها ، ومن ثم فهى تعتقد أنها مملوكة . . ولكن هل هذا صحيح ؟ ان ما أريد أن أقوله سيء للغاية . ولكن ألا تعتقد أن هذه هى حكاية السدادة التى خيل اليها أنها أهم من الزجاجة ؟ »

وكان التحرر من التقاليد عند امرأة — يجذب فيرال اليها ، أما حرية العقل فكانت تفضيه . وأحس أنه مثلهف على بعث العاطفة الوحيدة التى تمنحه السيطرة على المرأة : الخجل المسيحى ، والشكران على الخجل الذى تعانيه . ولم تتكهن بما يدور فى نفسه ، ولكنها تكهنت بأنه ينفصل عنها ،

ولما كانت تتأثر من ناحية أخرى برغبته ، ويروق لها اثبات أنها تستطيع أن تستولى عليه وفق ارادتها ، فقد نظرت إليه ، منفرجة الثغر (ما دام يحب ابتسامتها . . .) نظرة اغراء ، وهى على ثقة أنه ككل الرجال سيفسر هذه الرغبة فى اغرائه على أنها استسلام له . .

وسعى اليها فى السرير - وأضفت مداعباته على فاليرى تعبيرا مستغلقا ود لو رآه يتبدل . واستحضر التعبير الآخر فى عاطفة قوية بحيث لم يكن بد من الأمل فى أن تثبته اللذة على وجه فاليرى ، معتقدا أنه يحطم بذلك قناعا اتخذ هذا الوجه ، وأن أعماق ما فيها ، وأشد ما فيها استسارارا هو بالضرورة ما يفضلها فيها : ولم يكن قد ضاجعها الا فى الظلام ، ولكنه ما كاد يبعد بيده ما بين ساقها فى لطف حتى اطفأت النور . . فأضاءه من جديد .

وكان يتحسس زر الكهرباء فى صمت ، فخیل اليها أنه لمسه مصادفة ، فأطفأته ثانية ، ولكنه أضاءه على الفور مرة أخرى . ولما كانت أعصابها مرهفة جدا ، فقد أحست بأنها توشك على الضحك والغضب فى آن واحد . ولكنها التقت بنظرته . وكان قد أزاح زر الكهرباء بعيدا ، فتأكدت أنه يريد أن يستمد أقصى متعته من التحول الحسى الذى يطرأ على ملامحها . وكانت تعرف أن الشهوة الجنسية لم تكن مسيطرة عليها حقا الا فى بداية علاقتها، وفيما كان ينتظرها من مفاجأة ، وحين شعرت بأنها لن تجد الزر الكهربائى، استولى عليها الدفء الذى تعده ، وتمشى فى جذعها حتى حلمتى ثدييها ، ثم الى شفتيها اللتين خنت من نظرة فيرال اليهما ، أنها قد انتفتختا انتفاخا غير محسوس . وآثرت هذا الدفء ، وقد ضمته اليها ، وغاصت على متن نبضات طويلة بعيدا عن شاطئ كانت تعلم أنها ستقذف عليه بعد لحظات ، يصحبها ذلك التصميم بأنها لن تغفر له تصرفه .

ونامت فاليرى . وكان التنفس المنتظم وارتخاء النوم قد جعل شفتيها تنتفخان انتفاخا لطيفا ، وأضفيا عليها ذلك التعبير الضائع الذى تمنحه المتعة . وناجى فيرال نفسه قائلا : « كائن انسانى . . حياة فردية منعزلة مثل حياتى . . » ونخيل أنه هى ، وأنه قد سكن جسدها ، ليشعر مكانها بهذه المتعة التى لا يستطيع أن يعانيتها الا بوصفها اذلالا ، وتخيل نفسه وقد أذلت هذه اللذة السليبية ، هذا الجنس الأثوى . « ههنا حق ، فانها تمارس

وظيفتها الجنسية ، كما أمارسها أنا تماما ، لا أكثر ولا أقل . . . انها تشعر وكأنها ملتحى للشبهوات والحزن والكبرياء . . . وكأنها مصير . . . هذا أمر واضح . . . ولكنها لم تكن تشعر بذلك فى هذه اللحظة : ذلك أن النوم وشفتيها قد أسلماها الى حسية كاملة ، وكأنها قد قبلت التنازل عن كيائها الحى الحر ، لكى تصبح هذا التعبير عن العرفان بالجميل لما حققته من انتصار جسدى . واستولى عليها ذلك الصمت العظيم الذى يخيم على الليل الصينى ، بما ينبعث منه . من رائحة الكافور وأوراق الشجر ، والذى يرقد هو أيضا حتى المحيط الهادى . . . استولى عليها ، خارج الزمان . ما من سفينة تطلق صفارتها ، وما من طلقة بندقية . انها لا تحمل معها فى نومها ذكريات أو آمالا تند عن سطوته : انها ليست شيئا سوى القطب الآخر من متعته . انها لم تعرف الحياة أبدا ، لم تكن صبية صغيرة أبدا .

.. وأنطلق المدفع من جديد : وعاود القطار المصفح اطلاق نيرانه .

الساعة الرابعة مساء من اليوم التالى

أخذ كيو يراقب القطار المصفح من حانون للساعات ، تحول الى مركز للاسعاف . وعلى بعد مائتى متر الى الأمام والى الخلف ، كان الثوار قد نسفوا القضبان الحديدية ، كما حطموا المزلقان . ومن القطار الذى يسد الشارع - كأنه جثة لا حراك بها - لم يكن كيو يلمح سوى عربات ، عربية مغلقة كأنها عربية الحيوانات ، وأخرى محطمة كأنما سحقها خزان بنزين ، وقد برز من برج صغير فيها مدفع صغير . ولم يكن يظهر أى رجال ، سواء أكانوا المحصورين المختفين خلف نوافذهم المحكمة الاطلاق ، أو من المهاجمين الذين تسللوا الى المنازل المشرفة على الخط الحديدى . ووراء كيو ، استمر اطلاق النار دون انقطاع ، ناحية الكنيسة الروسية ، وناحية « المطبعة التجارية » . وكان الجنود الذين لا يعارضون فى تسليم سلاحهم آمنين ، أما الآخرون فكانوا على وشك أن يلقوا حتفهم . لقد تسلحت الآن جميع وحدات الثوار ، بينما لاذت القوات الحكومية التى تحطمت جبهتها بالفراخ نحو نانكين بواسطة القطارات المخربة ، ومن خلال طرقات مليئة بالبرك الموحلة ، وفى جو عاصف مطير . وكان مقدرا أن يصل جيش الكومنتانج الى شنغهاى بعد بضع ساعات : وكان الرسل الذين يحملون البرقيات يتعاقبون من لحظة الى أخرى .

ودخل « تشن » وهو ما برج مرتديا زى العمال ، وجلس الى جانب كيو ،
ثم نظر الى القطار . وكان رجاله يتولون الحراسة بدورهم خلف أحد
المتاريس - على بعد مائة متر من هذا المكان ، دون أن تكون لديهم أوامر
بالهجوم .

وتحرك مدفع القطار الذي كانوا يرونه من جانبه . وانزلت أمامه أذبال
من الدخان هي الرمح الأخير من الحريق الذي خمد ، وكأنها سحب شديدة
الانخفاض .

قال تشن : « لا أظن أنه ما زال لديهم الكثير من الذخيرة . »
وبرز المدفع من البرج كأنه منظار المرصد ، وتحرك حركة محاذرة ، وعلى
الرغم من الدروع التي تحميه ، فان التردد الذي شاب حركته جعلته
يبدو هشاً .

وقال كيو : « ما أن تصل مدافعنا حتى . . . »

وتوقف ذلك الذي ينظران اليه عن الحركة ، وأطلق النار . وانهمر سيل
من الرصاص على الدرع ، ردا على هذه القذيفة . ولاحت في السماء الرمادية
البيضاء ومضة من الشمس فوق القطار مباشرة . وحمل رسول بعض الوثائق
الى كيو .

وقال هذا الأخير : « لم نحصل على أغلبية في اللجنة . »

وكان مجلس المندوبين الذي انعقد سرا بدعوة من حزب الكومنتانج - قبل
نشوب الثورة ، قد انتخب لجنة مركزية مؤلفة من ستة وعشرين عضوا ،
بينهم خمسة عشر عضوا من الشيوعيين ، غير أن هذه اللجنة بدورها قد
انتخبت الآن لجنة تنفيذية ستقوم بتشكيل الحكومة البلدية . وفي هذه
اللجنة كانت تتركز السلطة الفعالة ، ولكن الشيوعيين لم يعودوا أغلبية
فيها .

ودخل رسول ثان - بالزى العسكرى ، وتوقفت عند عتبة الباب .

- « تم الاستيلاء على الترسانة . »

وسأله كيو : « والدبايات ؟ »

— « مضت الى نانكين . »

— « وهل أنت من الجيش ؟ »

وكان هذا الرسول جنديا من الفرقة الأولى التى تضم أكبر عدد من الشيوعيين . ووجه اليه كيو عددا من الأسئلة . وكانت تشوب اجابات الجندى لهجة مريرة : فالقوم يتساءلون ما فائدة الدولية الشيوعية ؟ لقد أعطى كل شىء لبورجوازية الكومنتانج ، وكان أقارب الجنود ، وجلهم من الفلاحين — مرغمين على المساهمة فى نفقات الحرب الباهظة ، فى الوقت الذى لم تكن الأعباء المفروضة على البورجوازية تتجاوز حد الاعتدال . واذا أراد هؤلاء الفلاحون أن يستولوا على الأراضي ، منعتهم عن ذلك الأوامر العليا . وقد طاف بخواطر الجنود الشيوعيين أن الاستيلاء على شنغهاى خليق بأن يغير هذا كله ، أما ، هذا الجندى ، فلم يكن واثقا من ذلك كل الثقة . ولما كان على احاطة بجانب واحد من الموضوع ، فانه كان يسوق حججا واهية ، وان كان من اليسير استخلاص حجج أقوى منها . وأجابه كيو : بأنه سيتم انشاء الحرس الأحمر ، وميليشيا العمال فى شنغهاى ، فهناك أكثر من مائتى ألف عاطل فى هانكيو . وكان الاثنان يكفان بين حين وآخر عن الحديث ليرهما السمع .

قال الجندى : « هانكيو . . . انى أعلم أن هناك هانكيو . . . »

وكان يبدو أن صوتيهما المكتومين باقياں حولهما ، وقد احتفظ بهما الجو المرتعش وكأنه يترقب هو أيضا صوت المدفع . وكان كل منهما يفكر فى « هانكيو » « أكثر المدن تصنيعا فى الصين بأسرها » ، هناك كانوا يقومون بتنظيم جيش أحمر جديد ، وفى هذه اللحظة بالدات كانت فرق العمال، هناك تتدرب على استخدام البنادق . . .

وكان تشن ينظر الى حاملى البرقيات دون أن يتفوه بشىء ، وقد باعد ما بين ساقيه ، ووضع قبضتيه فوق ركبته ، وفغر فاه . واستطرد كيو قائلا : « كل شىء يتوقف على من سيكون محافظ شنغهاى . فاذا كان من رجالنا ، لم تعد ثمة أهمية للأغلبية . . . واذا كان من اليمين . . . »

وألقى « تشن » نظرة على الساعة • وكانت ساعات الحائط ، وعددها ثلاثون على الأقل في هذا الجانوت - منها الدائر ومنها المتوقفت - تشير الى أوقات مختلفة • وتلاحقت طلقات من الرصاص سريعة كالسبيل المنهمر • وتردد « تشن » في النظر الى الخارج ، اذ لم يكن يستطيع أن يحول عينيه عن هذا الكون الذي ينبض بحركة الساعات دون اكتراث بالثورة المندلعة في الخارج • وانتزعته من هذا السحر حركة الرسل الذين رحلوا • وحزم أمره أخيرا على أن ينظر في ساعة يده •

- « الساعة الرابعة •• من الممكن أن نعرف ••• »

وقام بتشغيل تليفون الميدان ، ثم أعاد السماع في غضب والتفت ناحية « كيو » قائلا :

- « المحافظ من اليمينيين • »

فأجاب كيو في لهجة أشبه بالسؤال منها بالجواب : « توسيع الثورة في البداية ، ثم العمل على تعميقها • ويبدو أن خطة الدولية هي التخلي عن السلطة هنا للبرجوازية • مؤقتا •• سيسرقوننا • ولقد تحدثت الى رسل من الجبهة ، فعلمت أن كل حركة عمالية ممنوعة في المؤخرة • وقد أطلق تشانج - كاي - شيك النار على المضربين بعد أن اتخذ بعض الاحتياطات • »

وتسلل شعاع من الشمس • وفي السماء أخذت البقعة الزرقاء المضيئة في الاتساع • وامتلا الشارع بضوء الشمس • وعلى الرغم من طلقات الرصاص المتوالية ، فقد بدا القطار المصفح في هذا النور - مهجورا • وأطلق النار من جديد • وكان « كيو » و « تشن » يراقبان هذه المرة في انتباه أقل : فلربما كان العدو أقرب اليهم من ذلك بين صفوفهم ، وألقى كيو نظرة مضطربة على الرصيف الذي أخذ يلمع تحت أشعة الشمس العابرة ، وقد استبد به قلق شديد • وامتد أمامه ظل عظيم ، ورفع رأسه فاذا أمامه : كاتوف • واستطرد كيو قائلا : « وفي ظل أسبوعين ، ستمنع حكومة الكومنتانج تشكيل فرق الهجوم • لقد قابلت لتوى ضباطا زرق ، أرسلوا من الجبهة للتعرف على نوايانا ، والتلميح لنا في خبث بأنه من الأفضل أن يحتفظوا هم بالأسلحة ، لا أن نحتفظ بها نحن • فاذا جردوا الحرس العمالي من سلاحه ، فانهم سوف يسيطرون في هذه الحالة على البوليس وعلى اللجنة وعلى المحافظ ،

وعلى الجيش ، وعلى الأسلحة • وكأننا قمنا بالثورة من أجل هذا • يجب أن نخرج من الكومنتانج • وأن نعزل الحزب الشيوعي ، بل أن نمنحه السلطة إذا كان ذلك ممكنا • وليست المسألة مسألة تدمير المؤامرات ، وإنما التفكير جديا في البروليتاريا ، في كل ما نفعل • فبماذا يجب أن نشير عليهم ؟ »

وتأمل تشن قدميه الدقيقتين القدرتين العاريتين في نعله •

– « العمال على حق في القيام بالاضراب • ونحن نأمرهم بالعودة الى العمل : والفلاحون يريدون الاستيلاء على الأراضي ، وهم على حق في ذلك أيضا ، ونحن نمنعهم من ذلك • »

ولم تكن لهجته تبرز الألفاظ الطويلة •

واستطرد كيو قائلا : « ان أوامرنا هي نفس أوامر الزرق ، مع مزيد من الوعود • غير أن الزرق يمنحون البورجوازيين ما يعدونهم به ، على حين لا نمنح نحن العمال ما نعدهم به • »

قال تشن دون أن يرفع رأسه : « كفى • لابد أولا من اغتيال تشانج – كاي – شيك • »

واستمع اليه كاتوف صامتا ، ثم قال أخيرا :

– « هذا عمل من أعمال المستقبل ، أما في الوقت الحاضر ، فنبحن نقتل رجالنا • أجل • ومع ذلك ، فلست واثقا من اقتناعي برأيك يا كيو • ففي بداية الثورة ، عندما كنت ثوريا اشتراكيا ، كنا جميعا ضد خطة لينين في أوكرانيا • فقد ألقى انطونوف قوميسار تلك المنطقة – القبض على أصحاب المناجم ، وحكم عليهم بعشرة أعوام من الأشغال الشاقة بتهمة التخريب • • دون محاكمة • وهناك لينين ، على مسئوليته الخاصة بوصفه قوميسار التشيكا Tchéka واعترضنا جميعا على ذلك • فأنت تعلم أن أصحاب المناجم مستغلون حقيقيون ، وكثير منا كانوا قد دخلوا هذه المناجم دخول المذنبين ، ولهذا كنا نعتقد أن من الواجب أن نتوخى العدل معهم على وجه أخص – لنكون أسوة • ومع ذلك ، فلو قد أطلقنا سراحهم ، لما فهمت البروليتاريا شيئا • كان لينين على حق • كانت العدالة الى جانبنا ، ومع ذلك كان لينين على حق • وقد كنا

أيضاً ضد السلطات الاستثنائية الممنوحة للـ « تشيكا » • ولابد من الانتباه •
والشعار الحال شعار جيد : « توسيع الثورة ، ثم تعميقها • واسم يقل لينين
على الفور : « السلطة كلها للسوفيت • »

ـ « ولكنه لم يقل قط : السلطة كلها للمنشفيك (الأقلية) • وما من
موقف يمكن أن يرغمنا على إعطاء الأسلحة للزرق •• ما من موقف يستطيع
أن يرغمنا على تسليم أسلحتنا للزرق •• ما من موقف على الإطلاق ، لأن هذا
معناه حينئذ أن الثورة قد ضاعت ، ولا محال أمامنا إلا ••• »

ودخل في هذه اللحظة صابط من ضباط الكومنتانج ، وكان قصير القامة ،
متصلب الحركات كأنه ياباني ، وتبادلوا التحية ، ثم قال :
ـ « سيصل الجيش إلى هنا بعد نصف ساعة •• اننا نفتقر إلى الأسلحة •
فبكم منها يمكن أن تزودنا ؟ »

وأخذ « تشن » يذرع الغرفة جيئة وذهاباً •• بينما انتظر « كاتوف » •
قال كيو : « يجب أن تظل ميليشيا العمال مسلحة • »
فأجاب الضابط : « ان طلبى هذا قد وافقت عليه حكومة هانكيو • »
وابتسم كيو ، وتشن •
فاستأنف الضابط كلامه قائلاً : « أرجو أن تتأكدوا من ذلك بأنفسكم • »
ولجأ كيو إلى التلفون •
واندفع « تشن » قائلاً فى غضب بارد : « وحتى لو كان الأمر ••• »
وصاح كيو : « مفهوم ! »

وأخذ ينصت ، بينما أمسك كاتوف بالسماعة الثانية • ثم وضع كل
منهما سماعته •

قال كيو : « حسن ، غير أن الرجال ما زالوا فى مراكزهم • »
فقال الضابط : « ستصل المدفعية إلى هناك توا • وبينتتهى من هذه
الأمور •• »

وأشار الى القطار المصفح ، القابع بلا حراك تحت أشعة الشمس .
 - « .. بأنفسنا . هل تستطيعون تزويد الجنود بالأسلحة مساء غد ؟ »
 اننا فى حاجة ماسة اليها .. وسنواصل الزحف على نانكين .
 - « أشك فى أنه من الممكن الحصول على أكثر من نصف الأسلحة . »
 - « لماذا ؟ »

- « لأن الشيوعيين لن يوافقوا جميعا على تسليم أسلحتهم . »
 - « حتى بعد صدور الأوامر من هانكيو ؟ »
 - « حتى بعد صدور الأوامر من موسكو . أو على الأقل ، لن يكون ذلك
 فورا . »
 وأحسوا بما يعتمل فى نفس الضابط من حنق ، وان لم يظهر على وجهه
 شيء منه .

قال : « فكروا فيما يمكن أن تفعلوا .. وسأبعث بواحد من رجالى حوالى
 الساعة السابعة . »
 وانصرف .

وسأل كيو كاتوف : « هل من رأيك أن نقوم بتسليم الأسلحة ؟ »
 - « اننى أحاول أن أفهم .. ويجب قبل كل شيء الذهاب الى هانكيو .
 ماذا تريد الدولية ؟ أولا : استخدام جيش الكومنتانج لتوحيد الصين ، ثم
 تطوير الثورة بالدعاية وما شاكل ذلك ، بحيث تتحول من تلقاء نفسها من
 ثورة ديموقراطية الى ثورة اشتراكية . »

قال تشن : « يجب اغتيال تشانج - كاي - شيك . »
 فأجاب كيو : « ان تشانج - كاي - شيك لن يسمح لنا بالذهاب الى هذا
 الحد . انه لا يستطيع . وهو لا يستطيع أن يحافظ على قوته هنا بالاستناد
 على الجمارك وعلى اسهامات البورجوازية ، والبورجوازية لا تدفع بلا مقابل :
 فلا بد أن يرد اليها نظير أموالها بعض شيوعيين قتلى . »

قال تشن : « هذا كله مجرد هراء . »
 فقال كاتوف : « دعنا فى سلام . هل تعتقد أنك ستحاول اغتيال تشانج

— كاي — شيك دون موافقة اللجنة المركزية أو على الأقل دون موافقة مندوب
١١.ولية ؟ »

وملأت السكون شيئا فشيئا — جلبة بعيدة .

وسأل تشن كيو : « هل أنت ذاهب الى هانكيو ؟ »

— « بكل تأكيد . »

وظف « تشن » يذرع الحجرة جيئة وذهابا ، بينما استمرت البندولات
والوقاويق فى عملها المنتظم .

وأخيرا استطرد قائلا : « ان ما قلته غاية فى البساطة . . انه الشيء
الجوهري . . الشيء الوحيد الذى يجب عمله . . أنبئهم بقدمى . »

— « ألا تنتظر ؟ »

وكان كيو يعرف أن تشن اذا تردد بدلا من أن يجيب ، فليس ذلك معناه
أن كاتوف قد أقنعه ، بل معناه أن الأوامر الحالية التى أصدرتها الدويلة
لا ترضى عاطفته العميقة التى جعلت منه ثوريا ، واذا وافق عليها بحكم الخضوع
للنظام فانه لن يستطيع التصرف . وتأمل كيو — وهو واقف تحت ساعات
الحائط تلك — هذا الجسم المعادى الذى ضحى بنفسه وبالأخرين من أجل
الثورة ، والذى قد تعيده الثورة الى وحدته ، مع ذكريات اغتيالاته . كان
معه وضده فى الوقت نفسه ، ولهذا لم يكن يستطيع أن ينضم اليه ، أو
ينفصل عنه . لقد جمعت بينهما أخوة السلاح ، وفى اللحظة التى كان ينظر
فيها الى هذا القطار المسلح الذى قد يهاجمانه معا ، شعر بما يمكن أن يحدث
بينهما من قطيعة ، كما يحس بتهديد نوبة وشيكة الوقوع لصديق مصاب
بالصرع أو مجنون فى اللحظة التى يكون فيها عقله أصفى ما يكون .

وواصل « تشن » سيره ، وهز رأسه كأنه يحتج ، ثم قال أخيرا :
« لا بأس » وهو يهز كتفيه ، وكأنما أجاب على هذا النحو لكى يرضى فى كيو
رغبة صبيانية ما .

وعادت الضجة ، أقوى مما كانت ، ولكنها كانت مختلطة الى حد أنهم

أرهفوا أذانهم كل الارهاف ليتبينوا ما تنطوي عليه . كان يبدو أنها تصعد من باطن الأرض . قال كيو : « كلا . . . انها صيحات » .

واقتربت هذه الصيحات ، وأصبحت أكثر تحديدا .

وتساءل كاتوف : « أتراهم يستولون على الكنيسة الروسية ؟ »

وكان عدد كبير من جنود الحكومة معتصما بها . غير أن الصيحات اقتربت كأنها متجهة من الضواحي صوب مركز المدينة . . وأخذت تشتد ، ومع ذلك كان من المحال تمييز الهتافات . وألقى « كاتوف » نظرة صوب القطار المصفح .

ـ « هل وصلت اليهم الامدادات ؟ »

واقتربت الصيحات أكثر فأكثر ، ولكنها ما برحت غير واضحة الكلمات ، وكأنما ثمة نباً خطير ينتقل من جمهور الى آخر . ونازعت هذه الضجة ضجة أخرى ، حتى حلت محلها ، وأصبح من الممكن تمييزها أخيرا : انها الأرض تهتز اهتزازا منتظما تحت وقع خطوات الجنود .

قال كاتوف : « الجيش . . انهم جنودنا ـ »

وكان على صواب بلاريب . وكانت هذه الصيحات هي صيحات التهليل ، ولم يكن من المستحيل تمييزها عن صيحات الفزع ، وكان ما سمعه كيو يقترب على هذا النحو هو أصوات الجماهير التي جرفها الطوفان أمامه . وتحولت دقات الأقدام الى هدير ، ثم عادت من جديد ، كان الجنود قد توقفوا عن المسير ، ثم استأنفوا سيرهم فى اتجاه آخر .

قال كيو : « لقد أخطرونا بأن القطار المصفح موجود هنا . »

ولم يكن من شك أن الجنود القابعين فى القطار كانوا أقل تمييزا للصيحات منهم ، ولكنهم كانوا أكثر تمييزا لوقع الأقدام نتيجة لتأثر الألواح المعدنية بها ، وجودة توصيلها لها .

وباغتت الرجال الثلاثة ضجة هائلة : اذ انطلقت النيران من كل مدفع رشاش ، ومن كل بندقية ، بالقطار . وكان « كاتوف » قد خدم فى أحد القطارات المصفحة بسيبيريا ، فدفعه خياله دفعا الى أن يتابع عذاب الاحتضار الذى يعانىه هذا القطار . لقد أصدر ضباطه أوامره بطلاق النار بلا انقطاع،

وماذا كانوا يستطيعون أن يفعلوا وهم محاصرين فى أبراجهم الصغيرة وقد أمسكوا التلفون بيد ، والمسدس باليد الأخرى ؟ ولا ريب أن كل جندي قد تكهن بما تعنيه هذه الدقات • أتراهم يستعدون للموت معا ، أم تراهم ينقضون بعضهم على البعض الآخر فى تلك الخواصة الهائلة التى لن تصعد الى السطح أبدا ؟

وأصيب انقطاع نفسه بحانة من الهلع الغاضب ، فكان يبدو عليه وهو يطلق نيرانه من كل مكان ، ويهتز بما انتابه من هياج ، كأنه يريد أن يخرج عن غضبانه ، وكأن الهياج اليأس الذى استبد بالرجال الذين يحميهم قد انتقل الى هذه الدرع الأسيرة التى راحت تتخبط هى أيضا فى سبيل التحرر . ولم يكن ما يسحر « كاتوف » فى هذا التحرر هو تلك النشوة القتالية التى استولت على جنود القطار ، وانما كانت رعشة الغضب التى تمسك بمحاولات هؤلاء الرجال اليائسة كأنها قميص المجانين : وحرك ذراعه الى الأمام لكى يثبت لنفسه أنه لم يصب بالشلل • وانقطعت الضجة بعد ثلاثين ثانية • وطغى على الهزة المكتومة التى أحدثتها خطوات الجنود ، وعلى دقات الساعات التى تملأ الحانوت • • طغى على هذا كله هزيم الأسلحة الثقيلة : انها مدفعية جيش الثورة •

وراء كل لوح معدنى ، كان جندي فى القطار يصغى الى هذه الضجة كأنها صوت الموت نفسه •

الجزء الثالث

كانت « هانكيو » جد قريبة : وكانت حركة السنبان (*) تغطي صفحة النهر أو تكاد ، ومداخل الترسانة البحرية تنفصل شيئا فشيئا عن رابية قائمة فى ذلك المكان ، بعد أن حجبها عن الأنظار الدخان الهائل المنبعث منها ، وظهرت المدينة أخيرا من خلال النور المتسربل بالزرقاء فى إحدى امسيات الربيع ، ظهرت بصفافها ذات الأعمدة من خلال الشجرات المننورة فى الأمامية الأولى الواضحة السوداء المؤلفة من سفن الحرب التى تملكها أمم الغرب . وقد ظل كيو يذرع النهر ستة أيام دون أن يظفر بأية أنباء من شنغهاى .

وعند قدم السفينة ، أطلق زورق بخارى صفارته . وكانت أوراق كيو جاهزة ، اذ كان قد اعتاد على الأعمال السرية ، ولم ينتقل الى مقدمة السفينة الا على سبيل الحيلة .

وسأل أحد العمال الميكانيكيين : « ماذا يريدون ؟ »

— « انهم يريدون أن يعرفوا ما اذا كنا نحمل أرزا أو فحما . . فكلهما ممنوع . »

— « وبأية سلطة ؟ »

— « انها مجرد تعلقة . فلو أننا كنا نحمل فحما ، لما قالوا شيئا ، كل ما فى الأمر أنهم يجردون الزورق من سلاحه عند الميناء . وقد أصبح من المحال تمرين المدينة . »

وهناك ، كانت المداخل ، والروافع ، والأحواض : حلفاء الثورة . غير أن شنغهاى قد لقنت كيو ما يعنيه الميناء الزاخر بالنشاط ، أما هذا الميناء الذى يراه الآن ، فلم يكن مليئا الا بالقوارب وزوارق الطوربيد . وتنساول نظارته المعظمة : فلمح سفينة تجارية . . ثم سفينة ثانية ، فثالثة . . وعدد آخر منها . . وكان زورقه يقترب من الشاطئ ، محاذيا أوشانج ، وكان عليه أن يستقل قاربا (المعدية) للذهاب الى هانكيو .

(*) ضرب من السفن الصغيرة المنتشرة فى الصين واليابان (المرجم) .

وهبط من الزورق البخارى . . وعلى الرصيف كان أحد الضباط يراقب عملية الارسءاء . وتسءاءل كىسو : « لماذا يوجد هءذا العدد الضئىل من السفن ؟ »

ـ « لقد أمرتها شركاء الملاحة جمىعا بالرحىل ، خوفا من استىلاء الحكومة عىلها . »

وكان كل من فى شنغهاى ، يعءقد أن أوامر الاسنىلاء قد صدرت منذ زمن طوىل .

ـ « متى تتحرك المعدىة ؟ »

ـ « كل نصف ساءة . »

كان عىله أن ىنتظر عشرين دقىقة فأخذ ىتجول دونما هدف . وكانت مصابىح الغاز مضاءة فى أعماق الحوانىت : وهنا وهناك ارتفعت ظلال الأشجار وقرون المنازل الى الجهة الغربىة من صفحة السماء حىث انبعث ضوء مجهول المصدر ، وكأنه ىنبع من رقة الهواء نفسها ، ولا ىتبدد فى طمأنىنة اللىل الا على علو شاهق . وعلى الرغم من انتشار الجنود وعمال النقاىات كان الأطباء وعلى لافتاتهم صور الضفادع ـ وتجار الأعشاب (العطارون) والأمساخ ، والكتبه العمومىون ، والسحرة ، والمنجمون ، وقارئو الغىب . . كان هؤلاء جمىعا ىمارسون أسرار مهنهم فى ذلك الضوء العكر الذى لا تبىن فىه بقع الدماء . والظلال تتلاشى على الأرض ، بدلا من أن تمتد سابجة فى اشعاع ضارب الى الزرقة . وأخذ الوهج الآخر لهذا المساء الفرىء الذى تجرى أحداثه بعىدا جدا ، فى مكان ما من العالمىن ، والذى انعكس ضوءه على الأرض لىغمرها . . أخذ هذا الوهج الآخر ىلمع لمعانا خافنا فى مؤخرة قوس قنطرة هائل ىعلوه معبد صىنى قرضته أشجار اللباب التى اسود لونها . وفىما وراء ذلك ، كانت فصىلة من الجنود قد غاصت فى اللىل الذى تراكم ضبابا على سطح النهر ، وراء جلبة الأجراس الصغىرة ، والفونوغرافات ، وهبط « كىسو » هو أىضا حتى وصل الى فناء ملىء بالأحجار الضخمة ، هى أحجار الأسوار التى أزیلت علامة على تحریر الصىن . وكانت « المعدىة » قرىبة جدا .

وانقضت ربع ساعة فوق النهر ، فى النظر الى المدينة وهى تتوغل فى
نبش المساء . وأخيرا ، ها هى ذى هانكيو .

وكانت عربات « الريكشو » تنتظر على الرصيف ، غير أن القلق الذى
استبد بكيو كان من العنف بحيث لم يكن يطيق البقاء بلا حركة ، فأثر المشى :
هذه هى منطقة الامتيازات البريطانية التى جلبت عنها انجلترا فى يناير الماضى ،
وهذه هى البنوك الدولية الكبيرة قد أوصدت أبوابها ، وإن كانت مهجورة
« .. يا له من شعور غريب هذا القلق : يشعر المرء من نبضات قلبه ، بأنه
يتنفس تنفسا عسيرا ، وكأنه يتنفس بقلبه ... » وأصبح القلق أقوى من
صفاء ذهنه . وعند منعطف أحد الشوارع ، وفى فجوة رسمتها حديقة مليئة
بالأشجار المزدهرة الرمادية فى عتمة المساء ، ظهرت مداخل المصانع الغربية .
ولكن لم يكن ينبعث منها دخان .. وكانت مداخل الترسانة البحرية هى
وحدها التى تعمل بين المداخل التى رآها جميعا . أمن الممكن أن تكون « هانكيو »
- تلك المدينة التى ينتظر منها الشيوعيون فى العالم كله خلاص الصين -
قد أعلنت الاضراب العام ؟ إن الترسانة تعمل فهل يمكن على الأقل الاعتماد
على الجيش الأحمر ؟ ولم يعد يجرؤ على الجرى . وإذا لم تكن هانكيو على
الحالة التى يعتقدونها كل منهم ، لكان معنى ذلك الموت لرفقائه جميعا فى
شنغهاى ... ولماى ... وله هو نفسه .

وأخيرا ، هنا وفد منظمة الشيوعية الدولية .

كانت « الفيللا » مضاعة كلها ، وكان « كيو » يعلم أن « بورودين » يعمل
فى الطابق الأعلى ، أما فى الطابق الأرضى فكانت آلات المطبعة تعمل بملء
قوتها فى ضجيج أشبه بضجيج مروحة هائلة قد أصيبت بخلل .

وتفحص أحد الحراس كيو الذى كان يرتدى صدارا رماديا ذا رقبة
سميكة . واعتقد الحارس أنه يابانى فأشار إليه بأصبعه أن يتجه الى الساعى
المكلف بمرافقة الأجانب ، وحينئذ التقت عيناه بالأوراق التى مدها كيو إليه ،
فقاده عبر المدخل المزدهم الى قسم الشيوعية الدولية الموكلة بأمر شنغهاى .
وكان كيو لا يعلم عن السكرتير الذى استقبله الا أنه الشخص الذى نظم
الثورات الأولى فى فنلندا ، انه رفيق ، يبسط يمناه من فوق مكتبه ليصافحه
مقدما نفسه باسم : فولوجين ، وكان يبدو بدينا ، أشبه بالمرأة الناضجة

منه بالرجل . أكان ذلك راجعا الى دقة قسماته المرفهة النظرة في آن واحد، والشرقية الى حد ما رغم بياض بشرته ؟ أم الى خصلات شعره الطويلة التي تكاد تكون رمادية ، والمقصوصة لكي تلقى الى الوراء ، ولكنها تتهدل على وجنتيه كأنها عصابات مشدودة ؟

قال كيو : « ان زمام الأمور يفلت منا في شنغهاي . »

وأغضبته هذه الجملة التي نطق بها : ذلك أن تفكيره يسبقه ، ومع ذلك فان جلته تعبر عما كان سيقوله فيما بعد : فاذا لم تستطع هانكيو أن تزود الفرق بالمعونة التي تنتظرها ، يصبح اللقاء السلاح انتحارا .

ودس « فولوجين » يديه في كمي سترته الكاكي ، وحنى رأسه الى الامام، وهو متكئ على مقعده ذي المسندين .

وغمغم قائلا : « مرة أخرى ! ... »

— « أولا ، ماذا يجري هنا ؟ »

— « استمر : كيف يفلت منا زمام الأمور في شنغهاي ؟ »

— « ولكن لماذا .. لماذا لا تعمل المصانع هنا ؟ »

— « مهلا . من يحتاج من الرفاق ؟ »

— « أعضاء فرق القتال . والارهابيون أيضا . »

— « لا أهمية للارهابيين .. أما الآخرون ... »

ونظر الى كيو ثم قال :

— « ماذا يريدون ؟ »

— « الخروج من الكومنتانج ، وانشاء حزب شيوعي مستقل ، ومنح

السلطة للنقابات ، وعدم اللقاء السلاح على وجه الخصوص ، فوق كل شيء . »

«

— « دائما ، نفس الشيء . »

ونهض فولوجين ، وصوب بصره عبر النافذة الى النهر والتلال دون أن

يظهر على وجهه أدنى تعبير : ولم يكن يضيف الحياة على هذا الوجه المتحجر سوى توتر ثابت شبيه بالتوتر الذي نلمحه على وجوه المتجولين أثناء النوم . وكان قصير القامة ، غير أن ظهره البدين بدانة بطنه ، جعله يبدو كالأحديب تقريبا .

— « استمع الى . فلنفترض اننا خرجنا من الكومنتانج ، فماذا سنفعل ؟ »
 — « أولا ، سنبدأ بتكوين ميليشيا لكل نقابة ، ولكل اتحاد للعمال . »
 — « ومن أين لنا بالأسلحة ؟ الترسانة هنا بين أيدي الجنرالات . » وتشانج
 — كاي — شيك يسيطر الآن على ترسانة شنغهاي . وقد انقطعت المواصلات بيننا وبين منغوليا ، ومن ثم ، لا نستطيع الحصول على أسلحة روسية . »
 — « لقد استولينا على ترسانة شنغهاي . »

— « وجيش الثورة وراءكم . لا أمامكم . ومن هؤلاء الذين سوف نقوم بتسليحهم هنا ؟ حوالى عشرة آلاف عامل . بالإضافة الى النواة الشيوعية (للجيش الحديدى) : أى عشرة آلاف أخرى . ولكل جندي عشر رصاصات ! وضدهم أكثر من ٧٥٠٠٠ جندي ، فى هذه المدينة وحدها . دون أن نذكر أخيرا . جنود تشانج — كاي — شيك ، أو غيرهم . وانهم يشعرون بالسعادة كل السعادة فى التحالف ضدنا عند أول اجراء شيوعى حقيقى . وبماذا أنمون جنودنا ؟ »

— « ألا توجد مسابك ، ومصانع ؟ »

— « لم تعد المواد الخام تصل الى هنا . »

واستطرد قولوجين ، واقفا بلا حراك أمام منافذة ، وقد اختفت صفحة وجهه الجانبية تحت خصلات شعره ، ومن وراءه غسق الليل :

— « ليست هانكيو عاصمة العمال ، ولكنها عاصمة العاطلين . ولا وجود للأسلحة ، وربما كان ذلك أفضل . ثمة لحظات أفكر فيها قائلاً لنفسي : لو أننا سلحناهم ، لأطلقوا علينا نيرانهم . ومع ذلك ، هناك كل أولئك الذين يعملون خمسة عشر ساعة يوميا دون أن يلحوا فى المطالبة بحقوقهم ، لأنى (ثورتنا فى خطر) »

واستغرق كيو في التفكير ، كما نغوص في الحلم ، الى أعماق أبعد غورا .

رواصل فولوجين حديثه قائلا : « القوة ليست في أيدينا ، وانما في أيدي قواد (الكومنتانج اليسارى) كما يقولون . وهم لن يقبلوا السوفيت بأكثر مما يقبلهم تشانج - كاي - شيك . هذا شيء مؤكد . اننا نستطيع أن ننتفع بهم ، هذا كل ما فى الأمر . على أن نكون منهم فى غاية الحذر . »

لو أن « هانكيو » مجرد ديكور ملطخ بالدماء ! . . . ولم يجرؤ كيو على التفكير أبعد من ذلك . وقال لنفسه : « يجب أن أرى بوسوز . وأنا خارج من هنا » وكان بوسوز هو صديقه الوحيد الذى يستطيع أن يشق به فى هانكيو « - يجب أن أرى بوسوز . . . »

قال فولوجين : « لا تفغر فاك على هذا النحو . . . كالمخبول . . . فالعالم يعتقد أن هانكيو شيوعية ، وهذا أفضل ، لأنه يشرف دعايتنا ، ولكنه ليس سببا فى أن يكون ذلك حقيقيا . »

- « ما هى التعليمات الحالية ؟ »

- « تدعيم النواة الشيوعية فى الجيش الحديدي . فنحن نستطيع أن نرجح كفة من الميزان على الأخرى ، ولكننا لسنا قوة بأنفسنا . والقواد الذين يحاربون معنا هنا ، يبغضون السوفيت والشيوعيين كما يبغضهم تشانج - كاي - شيك . هذا ما أعلمه ، وأراه ، بالايجاز . . . كل يوم . وأقل محاولة لتطبيق الشيوعية ستجعلهم ينقلبون علينا . كما أنها تسوقهم بالطبع الى التحالف مع تشانج . والشئ الوحيد الذى نستطيع أن نفعله هو أن نحطم تشانج باستخدامنا لهم . ثم أن نحطم فنج - يو - شيانج بنفس الطريقة اذا لزم الأمر ، كما حطمنا من قبل القواد الذين حاربناهم حتى الآن باستخدام تشانج ، وذلك لأن الدعاية تجلب اليها من الأعوان مثل ما يجلبه النصر لهم . وهكذا فنحن نصعد معهم ، ولهذا السبب كان كسب الوقت هو الأمر الجوهرى . ومن تستطيع الثورة أن تحافظ فى نهاية الأمر - على شكلها الديموقراطى ، اذ يجب أن تتحول - بطبيعتها نفسها - الى الصورة الاشتراكية ، وينبغي أن نتركها لتصبح هذا التحول ، وأن نولدها ولادة

طبيعية ، لا أن ندفعها الى الاجهاض ؛ »

— « أجل — غير أن الماركسية تنطوى على معنى انجبرية ، وعلى اثار الارادة فى وقت واحد . وفى كل مرة تتقدم الجبرية على الارادة ، ارتاب فى الأمر . »

— « ان برنامجا شيوعيا خالصا يطبق اليوم ، سيؤدى مباشرة الى اتحاد جميع القواد ضدنا . مائتا ألف من الرجال ضد عشرين ألفا . ولهذا يجب أن تنفقوا فى شنغهاى مع تشانج — كاي — شيك . فان لم تكن ثمة وسيلة لمثل هذا الاتفاق . . فمن الخير اللقاء السلاح . »

— « وعلى هذا الأساس ، كان من الخطأ قيام ثورة أكتوبر : كم كان عدد البلاشفة حينذاك ؟ »

— « ان اتخاذ كلمة « السلام » شعارا لنا ، جعلنا نظفر بتأييد الجماهير . »

— « ثمت شعارات أخرى . »

— « لم يحن أوانها . وما هى تلك الشعارات ؟ »

— « القضاء التام المباشر على الايجارات الزراعية وعلى القروض . واعلان الثورة الزراعية بلا حيل أو تحفظات . »

وكانت الأيام الستة التى قضاهما « كيو » فى الملاحاة على صفحة النهر قد أكدت له ما ذهب اليه تفكيره : ففى تلك المدن الموحلة القائمة عند ملتقى الأنهار منذ آلاف السنين ، كان الفقراء على استعداد لاتباع الفلاح ، أو العامل على النساء .

قال فولوجين : « ان الفلاح يتبع غيره دائما . . سواء أكان هذا الغير عاملا أم بورجوازيا . . فانه يتبع الآخرين على كل حال . »

— « عفوا . . ان حركة الفلاحين لا يمكن أن « تدوم » الا باستنادها على المدن ، ولا يمكن أن تكون اذا قامت وحدها — سوى مجرد عبث . . هذا أمر مفروغ منه . ولكن ينبغى ألا نعزلها عن البروليتاريا : والقاء القروض ما هو الا شعار للكفاح ، الشعار الوحيد الذى يمكن أن يعبىء الفلاحين . »

قل فولوجين : « وأخيرا توزيع الأراضى عليهم . »

— « وان شئت مزيدا من الراقعية : فان كثيرا من الفلاحين الفقراء جدا هم فى الواقع من الملاك ، ولكنهم يكدحون من أجل المرابى . هذا شئ يعلمه الجميع . وينبغى من ناحية أخرى — أن نقوم فى شئهاى بتدريب جراس النفايات العمالية بأسرع ما يمكن ، وألا نسمح بتجريدهم من السلاح بأية ذريعة كانت ، وأن نجعل منهم « قوتنا » فى مواجهة تشانج — كاي — شيك . »

— « ما أن يعرف هذا الشعار ، حتى نكون من الهالكين . »

— « وسنكون من الهالكين على أية حال . فالشعارات الشيوعية تشق طريقها ، حتى لو تخليتنا عنها ، اذ تكفى بضعة خطب لكى يطمع الفلاحون فى امتلاك الأراضى ، ولكن الخطب لن تكفى لكى يتنازلوا عن هذا الطمع ، والا كان علينا أن نقبل الاشتراك فى عملية القمع التى تقوم بها قوات تشانج — كاي — شيك ، أهذا يرضيك ؟ أى أن نتورط « نهائيا » ، والا فلا بد من أن يسحقونا ، أرادوا ذلك أم لم يريدوه . »

— « انهم متفقون جميعا فى موسكر على أنه لابد من الانفصال عنهم فى النهاية . . ولكن على ألا يكون ذلك مبكرا على هذا النحو . »

— « فاذا كان المراد خداعهم قبل كل شئ ، فلا تلقوا السلاح . . لأن إلقاء السلاح معناه تسليم الرفاق . »

— « لو أنهم اتبعوا التعليمات ، لما استطاع تشانج أن يحرك ساكنا . »

— « سواء اتبعوها أم لم يتبعوها ، فهذا لا يغير من الأمر شيئا . فاللجنة وكاتوف وأنا ، قد قمنا بتنظيم الحرس العمالى ، فاذا أردتم أن تحلوه ، فسوف تعتقد البروليتاريا كلها فى شئهاى أن هذا عمل من أعمال الخيانة . »

— « اذن ، دعوا هذه الحركة تخمد . »

— « ان نقابات العمال تنظم فى كل مكان من تلقاء نفسها فى الأحياء الفقيرة . فهل ستمنعون انشاء النقابات باسم « الدولية » ؟ »

وعاد فولوجين الى النافذة ، وخفض رأسه على صدره ، فبرزت لها ذقن ثانية . . وكان الليل قد هبط مليئا بالنجوم ، الشئ ما برحت شاحبة .

— « القطيعة معناها هزيمة مؤكدة ، ذلك أن موسكو لن تقبل الآن

انشقاقنا على الكومنانج • والحزب الشيوعي الصيني أميل الى الاتفاق من
«موسكو •»

— « فى الجهات العليا فحسب : أما بين صفوف الشعب ، فالرفاق لن
يلقوا الأسلحة كلها ، حتى لو أمرتهم بذلك • وفى هذه الحالة تضحون بنا ،
دون أن تبعثوا الاطمئنان فى نفس تشانج — كاي — شيك • ويستطيع
بورودين أن ينبئ «موسكو بذلك •»

— « موسكو تعرف هذا : وقد صدر الأمر بتسليم الأسلحة أول أمس •»

واستولى الذهول على « كيو » ، فلم يستطع أن يرد من توه •

— « وهل سلمت الأقسام الأسلحة ؟ »

— « نصفها • على أكثر تقدير •• »

« أول أمس •• بينما كان يفكر أو ينام على ظهر المركب •• لقد كان
يعلم هو أيضا أن موسكو سوف تنميك بسياستها • وفجأة ، أضفى الموقف
قيمة غامضة على مشروع تشن :

— « نمة شئ آخر — وربما لم يكن شيئا جديدا — أن تشن — تا — ايل ،

أحد رفاقنا ، يريد اغتيال تشانج • »

— « آه •• هذا اذن هو السبب ! »

— « ماذا ؟ »

— « لقد بعث الى برسالة ، يطلب فيها أن يرانى أثناء وجودك • »

وتناول رسالة موضوعة على المنضدة • ولم يكن « كيو » قد لاحظ يديه
الشبيهتين بأيدي الكهنة ، وسأل كيو نفسه : « لماذا لم يظهر هذه الرسالة
على التو ؟ »

— « •• مسألة خطيرة (وكان فولوجين يقرأ الرسالة) • انهم يقولون

جميعا : انها مسألة خطيرة •• »

— « أهو موجود هنا ؟ »

— « أما كان مقدرا أن يأتى ؟ انهم جميعا سواء • فهم يغيرون رأيهم دائما

تقريبا • انه هنا منذ حوالى ساعتين أو ثلاث : لابد أن زورك قد أوقف
كثيرا •• »

واتصل بالهاتفون لكي يأتي تشن . ولم يكن يحب الحديث مع الارهابيين الذين يعتقد أنهم ضيق الأفق ، مغرورون ، محرومون من الحس السياسي .

قال : « كانت الأمور أسوأ من ذلك في لندجراد ، حين كان يودبنتش على أبواب المدينة ، ومع ذلك فقد اجتزنا المأزق في نهاية الأمر . »

ودخل تشن ، وكان يرتدى صدارا صوفيا هو أيضا ، ومر أمام كيو ، ثم جلس قبالة فولجين . وكانت جلبة المطبعة هي وحدها التي تملأ السكون وفي النافذة الكبيرة المتعامدة على المكتب ، كان الليل الذي اكتمل الآن يفصل بين وجهي الرجلين . أما « تشن » الذي أسند مرفقيه على المكتب ، ووضع ذقنه بين كفيه ، فقد جلس ثابتا ، متوترا - بلا حراك . وقال كيو لنفسه وهو يتأمل : « في أقصى التوتر الذي يرتسم على وجه انسان ما يجعله يبدو لا انسانيا . . أهذا لأننا نشعر في سر باتصالنا عن طريق مواطن ضعفنا ؟ . » وما أن انتضت دهشته ، حتى رأى أنه من المحتمل أن يكون تشن ها هنا ، وأن يأتي ليؤكد بنفسه (اذ لم يكن يظن أنه جاء للمناقشة) القرار الذي اتخذه . وفي الجانب الآخر من الليل المزدحم بالنجوم ، كان فولجين منتصبا ، وقد تهدلت خصلات شعره على وجهه ، وشبك يديه على صدره ، منتظرا هو الآخر .

وسأله تشن وهو يشير برأسه الى كيو : « هل أنباك ؟ »

فأجاب فولجين : « أنت تعرف رأى « الدولية » في الأعمال الارهابية ، ولا أريد أن ألقى عليك خطبة في هذه المسألة ؟ »

- « الحالة التي نحن بصدها حالة خاصة . . ذلك أن تشانج - كاي - شيك هو « وحده » المحبوب ، القادر على توحيد البورچوازية ضدنا . فهل تعارض في هذا الاغتيال . . أجب بنعم أو لا ؟ »

وكان طيلة حديثه ساكنا لا يتحرك ، مسندا مرفقيه الى المكتب ، وذقنه بين راحتيه . وكان كيو يعلم أن المناقشة غير ذات جدوى بالنسبة لتشن ، على الرغم من مجيئه . . فالتدبير هو وحده الذي يجعله على وفاق مع نفسه . - « ليس « الدولية » أن تقر هذا المشروع » . وكان فولجين يتحدث .

«بلهجة من يلقي البديهيّات : « ومع ذلك ، اذا أخذنا بوجهة نظرك نفسها (ولم يتحرك تشن قط) فهل أحسنت اختيار اللحظة التي تقوم فيها بهذا العمل ؟ »

– « وهل تفضل الانتظار حتى يغتال تشانج رجالنا ؟ »

– « انه لا يصدر الا قرارات ولا شيء أكثر من ذلك . ولا تنسى أن ابنه خي موسكو . وأخيرا فان بعض ضباط « جالن » الروس لم يستطيعوا مغادرة أركان حربهم ، وسيتعرضون للتعذيب اذا قتل . ولن يوافق « جالن » أو هيئة أركان الحرب الحمراء على . . . »

وقال كيو لنفسه : « اذن فقد نوقشت المسألة حتى هنا . » وكان ثمة شيء قليل الاقناع يزعجه في هذه المناقشة : فقد وجد فولوجين أشد اصرارا – بشكل غريب – حين يأمر باعادة الأسلحة منه حين يتحدث عن اغتيال تشانج – كاي – شيك .

قال تشن : « اذا قاموا بتعذيب الضباط الروس ، فهذا ما لا بد أن يحدث . وأنا أيضا ، سأعرض للتعذيب . . وهذا شيء لا أهمية له . لأن ملايين الصينيين يساوون خمسة عشر ضابطا روسيا . فليكن ، وسينخلي تشانج عن ابنه . »

– « وماذا تعرف عن هذا الأمر ؟ »

– « وأنت ؟ وأنت لن تجرؤ بلا شك على اغتياله . »

فقال كيو : « ليس من شك أنه يحب ابنه أقل من حبه لنفسه . واذا لم يحاول أن يسحقنا فسيكون من الهالكين . واذا لم يكبح جماح الفلاحين ، فسوف يتخلى عنه ضباطه أنفسهم . ولهذا أخشى اذن أن يتخلى عن ابنه ، بعد أن يحصل على عدة وعود من القناصل الأوروبيين ، أو على بعض الاجراءات المضحكة الأخرى . والبورچوازية الصغيرة كلها التي تحاول يا فولوجين أن تضمها الى صفوفنا ستتبعه في اليوم التالي لقيامه بتجريدنا من السلاح . . . »

« انها ستكون في جانب القوة . . اني أعرفها . »

– « ليس حتما . . ثم أن هناك مدنا أخرى غير شنغهاي . »

« أنت تقول انكم تموتون من الجوع هنا » فاذا سقطت شنغهاي ،
 فمن الذى سيتولى تمرينكم ؟ « فن - يو - شيانج » يعزلكم عن منغوليا ، كما
 أنه سيخونكم اذا سحقنا . ومن ثم لن يصلكم شيء عن طريق نهر يانجتسى ،
 أو من روسيا . أتظن أن الفلاحين الذين تعدهم بتنفيذ برنامج الكومنتانج
 (تخفيض ٢٥٪ من ايجارات الأتيان . . دون التواء . . أجل دون التواء !)
 على استعداد للموت جوعا فى سبيل اطعام الجيش الأحمر ؟ انكم لتضعون
 أنفسكم بين أيدي الكومنتانج أكثر مما أنتم فعلا . ان محاولة الدخول الآن
 فى صراع ضد تشانج ، بشعارات ثورية حقيقية ، وبالاتماد على الفلاحين
 وعلى البروليتاريا فى شنغهاي . . مخاطرة ، ولكنها ليست شيئا محالا . ان
 الفرقة الأولى تكاد أن تكون شيوعية كلها ابتداء من قائدها حتى آخر رجل
 فيها ، وستحارب الى جانبنا . وأنت تقول اننا قد احتفظنا بنصف الأسلحة . .
 واذا لم نحاول هذه المحاولة ، فهذا معناه أن ننتظر ذبحنا بكل هدوء . »

« الكومنتانج موجود . . ولسنا نحن الذين صنعناه . . انه قائم ،
 بل أقوى منا ، مؤقتا . ونستطيع أن نغزوه من القاعدة اذا أدخلنا فيه جميع
 العناصر الشيوعية التى نملكها . فالغالبية العظمى من أعضائه متطرفون . »
 « وأنت تعرف أيضا كما أعرف أن العدد فى ديمقراطية ما لا يساوى
 شيئا ضد الجهاز القيادى . »

« سنثبت انه من الممكن استخدام الكومنتانج ، باستخدامه فعلا .
 لا بمجرد المناقشة . ونحن لم نكف عن استخدامه منذ عامين . . كل شهر ،
 وكل يوم . »

« كلما قبلتم أهدافه ، ولكنكم لم تستخدموه ولو مرة واحدة حين
 كانت المسألة تتعلق بقبوله لأهدافكم . لقد سقتموه الى قبول الهدايا التى
 كان يتحرق شوقا اليها : الضباط ، والمتطوعين ، والمال ، والدعاية .
 أما وجود السوفييت فى الجيش ، والنقابات الزراعية ، فهذه مسألة أخرى . »

« وماذا عن استبعاد العناصر المعادية للشيوعية ؟ »

« لم يكن تشانج - كاي - شيك يملك شنغهاي حينذاك . »

« كنا نستطيع - قبل شهر مضى - أن نحصل من اللجنة المركزية

للكومنتانج على قرار يجعله خارجا غلى القانون . »

– « بعد أن يكون قد سحقنا • وهل يغضب هؤلاء القادة فى اللجنة المركزية لقنل المناضلين الشيوعيين ؟ هذا مزيد من الكسب لهم ! ألا تعتقد حقا أن سيطرة فكرة الحتميات الاقتصادية تمنع الحزب الشيوعى الصينى – وربما موسكو أيضا – من رؤية الضرورة الأولية الواقعة تحت أنوفنا ؟ »
– « هذه انتهازية • »

– « ربما كانت كذلك • وإذا تمشيننا مع منطق تفكيرك ، لكان من الواجب على لينين ألا يتخذ من تقسيم الأراضى شعارا له (فقد كان هذا الشعار يمثل حينذاك البرنامج الاشتراكى التورى أكثر من تمثيله لبرنامج البلاشفة ، وكان تقسيم الأراضى يعنى تكوين الملكيات الصغيرة ، وعلى ذلك ، كان ينبغى عليه ، ألا يأمر بالتقسيم ، بل بإنشاء النظام الجماعى المباشر ، أى تكوين المزارع الجماعية (sovkhozes) وحين نجح ، استطعتم أن تدركوا أنها كانت مسألة تكنيك ، وكذلك ، ما نحتاج اليه هو التكنيك ! وانكم لبسبيل فقدان السيطرة على الجماهير ••• »

– « وهل تتخيل أن لينين قد حافظ عليها من فبراير الى أكتوبر ! »
– « كان يفقدها فى لحظات معينة ••• ولكنه كان دائما يسير فى اتجاهها • أما أنتم ، وشعاراتكم ، فانها ضد التيار • ان خيوط سياستكم لا تتلاحم ، وانما يسير كل منها دائما فى اتجاه متباعد عن الخيوط الأخرى •• ولكى تؤثر على الجماهير – كما تزعمون – لابد أولا من الحصول على السلطة • وهذه ليست حالتكم • »

قال تشن : « المسألة لا تحتاج الى هذا كله • » ونهض •
واستطرد كيو قائلا : « لن تستطيعوا كبح جماح حركة الفلاحين • ونحن الشيوعيين ، نعطى للجماهير – حاليا – تعليمات لا يمكن أن ينظروا اليها الا باعتبارها خيانات • وهل تعتقد أن الجماهير ستفهم شعاراتكم الداعية الى الانتظار ؟ »

– « وحتى لو كنت حمالا فى ميناء شنغهاى ، فانى أعتقد أن طاعة الحزب هى المرقف المنطقى الوحيد الذى يمكن أن يتخذه – فى نهاية الأمر – المكافح الشيوعى ، وأنه لابد من تسليم الأسلحة جميعا • »
ونفض تشن قائلا : « ان المرء لا يقتل اطاعة للأوامر ، كما أنه لا يقتل

صدوعا بالأمر . . . اللهم سوى الجبناء . »

وهز قولوجين كتفيه .

– « ومع ذلك ، ينبغي ألا ننظر الى الاغتيال على أنه الطريق الرئيسى المؤدى الى الحقيقة السياسية . »

وانصرف تشن .

قال كيو مخاطبا العمال : « كلا . . لم نكن نأكل فى ذلك العهد ، وأنا أول اجتماع لها تقسيم الأراضى فورا ، والغاء القروض . »

فأجاب قولوجين وهو يبتسم لأول مرة : « ولن توافق اللجنة على هذين الاقتراحين . »

وكان تشن ينتظر فى الخارج ، وهو كتلة من الظل على الرصيف ، ولحق به كيو بعد أن حصل على عنوان صديقه بوسوز الذى كان مكلفا بإدارة الميناء .

وقال تشن : « انصت . . . »

كانت رجفات آلة المطبعة المنتظمة المضبوطة كأنها محرك البخارة تنفذ فيهما من أخص أقدامها الى قمة رأسيهما ، منتقلة اليهما من خلال الأرض . . وفى المدينة النائمة ، سهرت المفوضية بنوافذها المضاءة جميعا ، تجتازها من حين الى آخر جذوع سود لبعض الأشخاص . وسار الاثنان ، وأمامهما ظلاهما المتشابهان : نفس القامة ، ونفس صورة ياقة الصدر التى تحيط بالرقبة . وكانت الأكواخ المبنية من القش التى يلمحها المرء فى أفق الشوارع ، بأطرافها التى توحى بالمظهر ، تتبدد فى أعماق الليل الهادئ الذى يكاد أن يكون مهيبا ، وفى رائحة السمك والدهون المحترقة . ولن يستطع كيو أن يتخلص من اهتزاز هذه الآلات الذى ينتقل الى عضلاته خلال الأرض وكأن هذه الآلات التى تصنع الحقيقة قد انضمت فى نفسه الى ترددات قولوجين وتأكيده . ولم يكن « كيو » قد انقطع – أثناء تجواله فى النهر – عن الشعور بتهافت معلوماته ، وبصعوبة تأسيس فعله ، اذا لم يستمر فى اطاعة تعليمات « الدولية » طاعة بسيطة عمياء . غير أن « الدولية » كانت مخطئة ،

اذ لم يعد كسب الوقت ممكنا ، وقد بلغت الدعاية الشيوعية الجماهير كالطوفان ، لأنها كانت دعايتهم • وأيا كان الحذر الذي تصطنعه موسكو فان هذا الطوفان لن يتوقف ، وتشانج يعلم ذلك ، ولا بد أن يسحق الشيوعيين من الآن • هنا كان اليقين الوحيد • وربما كان من الممكن أن تسلك الثورة مسلكا آخر ، غير أن الأوان قد فات ، وسيستولى الفلاحون الشيوعيون على الأراضي ، وسيطالب العمال الشيوعيون بنظام آخر للعمل ، ولن يقاتل الجنود الشيوعيون الا اذا أدركوا لماذا يقاتلون سواء أرضيت موسكو أم لم ترض • وتستطيع موسكو وعواصم الغرب المعادية أن تنظم هناك في الظلام أهواءها المتعارضة في محاولة لأن تجعل منها علما • أما الثورة فهي حبل في شهرها الأخير ، ولا بد من أن تضع أو تموت • وأحس كيو في وقت واحد ، بقرب تشن منه فهو رفيق الليل ، وبشعور عظيم من التبعية يتغلغل في نفسه ، وقلق من أنه ليس سوى انسان ، ليس سوى ذاته • وتذكر أولئك المسلمين الصينيين الذين شاهدتهم في ليال شبهية بهذه الليلة ، ساجدين في سهوب الاستبس التي تفوح منها رائحة الخزامى المحترقة وهم يرددون تلك الأناشيد التي تمزق منذ آلاف السنين ، الانسان المعذب الذي يعلم أنه سيموت • ماذا أتى به الى هانكيو ؟ لكى يطلع « الدولية » على الموقف في شنغهاي • والدولية قد عقدت عزمها كما عقد هو عزمه • وكان ما استمع اليه - فضلا عن مناقشات فولوجين - هو صمت المصانع ، ولهفة المدينة التي تموت في زينة من المجد الثورى ، ولكنها تموت رغم ذلك • وكان من الممكن أن يوصى بهذه الجثة للموجة الثورية القادمة ، بدلا من تركها تتحلل في ألوان من المكر والخداع • ولم يكن من شك في أنهم هالكون جميعا ، غير أن الشيء الجوهرى هو ألا يكون هلاكهم عبثا • وقد كان على يقين من أن « تشن » يرتبط به هو أيضا في هذه اللحظة برابطة الصداقة التي تربط بين سجينين •

قال تشن : « عجباً للمرء لا يعرف ! اذا كان الأمر يتعلق باغتيال تشانج - كاي - شيك ، فاني أعرف • وأعتقد ، أن الأمر على هذا النحو وبالنسبة لهذا الفولجين ، وبدلا من أن تتعلق المسألة بالاغتيال ، فانها في حالته تتعلق بالطاعة • وحين يحيا الناس كما نحيا نحن ، فلا بد لهم من اليقين • انما تنفيذ الأوامر بالنسبة اليه ، هو على ما أعتقد بكل يقين - كالاغتيال بالنسبة

لى • يجب أن يكون ثمة شيء يقينى • • يجب • »

ولزم الصمت ، ولكنه لم يلبث أن استطرد قائلا :

— « أتحلم كثيرا ؟ »

— « كلا • • أو على الأقل لا أتذكر أحلامى كثيرا • »

— « اننى أحلم كل ليلة تقريبا • • وهناك أيضا أحلام اليقظة • • وحين أترك لى العنان ، ألمح فى بعض الأحيان ظل قط على الأرض : وانه لأفزع من أى شيء حقيقى • • • ولكن ، لا يوجد شيء أسوأ من الأحلام • »

— « أسوأ من أى شيء حقيقى ؟ • • »

— « لست من أولئك الأشخاص الذين يخزهم تأنيب الضمير • • وليس الشيء العسير فى جريمة القتل ، هو عملية القتل نفسها ، وانما هو عدم السقوط ، وأن يكون المرء أقوى • • • مما يدور فى نفسه فى تلك اللحظة • »

هل تخفى كلماته شيئا من المرارة ؟ ما كانت تنم عن ذلك نبرة صوته ، كما أن كيو لم يكن يتبين ملامحه • • وهناك فى وحشة الطريق ، تبددت ضجة مكتومة منبعثة من سيارة بعيدة ، مع الريح التى تركت وراءها أريج الكروم لنختلط بروائح الليل المشبعة بالكافور •

— « • • • وليت الأمر مقصور على ذلك • • • كلا • • فهناك ما هو أسوأ • • »

الحيوانات • • »

وظفق تشن يكرر هذه العبارة : « حيوانات • • من جنس الأخطبوط بوجه خاص • • وانى لأتذكرها دائما • »

وأحس كيو — على الرغم من رحابة الليل — أنه قريب منهما فى حجرة مغلقة •

— « وهل بدأ ذلك منذ زمن بعيد ؟ »

— « بعيد جدا • • أبعد مما أتذكر • • ولكنه أصبح أقل الماما بى فى الفترة الأخيرة • • ولم أعد أتذكر الا • • هذه الأشياء • • اننى أمقت التذكر بوجه عام • • وهذا ما لا يحدث لى ، فان حياتى ليست فى الماضى ، انها تمتد أمامى • • »

وساد انصمت بينهما .

— « . . . والشئ الوحيد الذى أخاف منه . . . أخاف منه ، هو أن أنام . . .
وهأنذا أنام كل يوم . »

ودقت الساعة العاشرة . وهناك فى أعماق الليل ، كان تمة أناس
يتنافشون ، نقاشا صينيا فى عبارات قصيرة أشبه بنباح الكلاب .
— « . . . أو أن أصبح مجنونا : تلك الحيوانات الأخطبوطية ، بالليل
والنهار . . حياة بأكملها . والمجانين لا ينتحرون قط ، على ما يظهر . .
مطلقا . . »

— « وهل يغير القتل من أحلامك ؟ »

— « لم أعد أعرف . . . سأخبرك فيما بعد ، يا تشانج . »

وكان « كيو » قد وطن نفسه على أن يحيا حياته الخاصة ، وأن يعيش
بين أناس يعلمون أن حياتهم مهددة فى كل يوم : ولهذا لم تكن الشجاعة
تدهشه . غير أن هذه كانت المرة الأولى التى يلتقى فيها بانغراء الموت ، مجسما
فى هذا الصديق الذى لا يكاد يراه ، والذى يتحدث بصوت شارد ، وكأن
عباراته مستوحاة من قوة الليل نفسها التى أوحى اليه بالقلق ، ومن ذلك
الطابع الحميم الطاغى الذى يتسم به القلق ، والصمت ، والتعب . . بيد
أن شيئا من التغير قد طرأ الآن على صوته .

— « هل تفكر فى هذا الأمر . . بقلق ؟ »

— « كلا . ولكن بـ . . . »

وتردد ، ثم قال :

— « اننى أبحث عن كلمة أقوى من الفرح ، فلا أجد ، حتى فى اللغة
الصينية . انه شئ أشبه بالتهدة التامة . . نوع من . . كيف أعبر لك عن
ذلك ؟ . . من . . شئ لا أعرفه . لا يوجد سوى شئ واحد أعمق من ذلك . .
انه يأخذ المرء بعيدا عن نفسه ، ليضعه قريبا من . . . هل تعرف الأفيون ؟ »
— « لا أكاد أعرفه . »

— « من الصعب اذن أن أشرح لك ما يدور فى نفسى . . انه أقرب الى

« ما تسمونه ... النشوة • أجل ... ولكنها نشوة كثيفة • • عميقة ...
تخار من الخفة • • نشوة تتجه الى • الى أسفل • »
- « وهل هناك فكرة تعطيك هذا الشعور ؟ »
- « أجل • فكرة موتى الخاص • »

انه ما برح يتحدث بهذا الصوت الشارد • وقال كيو لنفسه : « سينتهى
به الأمر الى الانتحار • » وكان قد استمع الى والده بما فيه الكفاية ليعلم أن
من يبحث عن المطلق بهذا الحماس ، لن يجده الا فى الاحساس • تعطشى
الى المطلق ، وتعطشى الى الخلود ، وبالتالي خوف من الموت : وقد كان ينبغي
أن يكون تشن جباناً ، ولكنه يشعر - ككل متصوف - أن مطلقه لا يمكن
بلوغه الا فى « اللحظة » • ومن هنا كان احتقاره - بلا شك - لكل ما لا يؤدى
به الى اللحظة النى تربطه بنفسه فى حالة من الامتلاك الذى يبعث الدوار •
ومن هذه الصورة الانسانية التى لا يكاد يتبينها كيو ، تنبع قوة عمياء تسيطر
عليها ، انها المادة - غير ذات الشكل - التى تصنع منها الحتمية • وقد كان
فى هذا الرفيق الصامت الذى يجتر رؤاه المألوفة المفزعة شىء من الجنون ،
ولكن كان فيه أيضاً شىء مقدس - ذلك الشىء المقدس الذى يوجد دائماً فى
حضرة اللانسانى • لعله لا يريد اغتيال تشانج الا ليقتل نفسه • وأحس
« كيو » وهو يسعى فى الظلام الى رؤية هذا الوجه الحاد ذى الشفتين الطيبتين
- أحس فى نفسه باختلاجة ذلك القلق البدائى الذى يلقي بـ « تشن » الى
حيوانات النوم الأخطبوطية والى الموت فى آن واحد •

وقال كيو متمهلاً : « يعتقد أبى أن الانسان فى قرارة نفسه عبارة عن
قلق ، وعن وعى بمصيره الحتمى الخاص ، ومن هذا تتولد المخاوف جميعاً ،
حتى الخوف من الموت • • غير أن الأفيون يخلص الانسان من هذه المخاوف ،
وهذا هو معناه • »

- « الرعب كان دائماً فى الذات • ولا يحتاج الأمر الى أكثر من التفتيش
بعمق كاف : ولحسن الحظ ، يستطيع الانسان أن يعمل : واذا كانت موسكو
تؤيدنى ، فالأمر يستوى لدى ، واذا كانت لا تؤيدنى ، فإن أبسط شىء هو أن
أتجاهل عدم التأيد هذا • سأرحل الآن ، وأنت ، هل تريد البقاء ؟ »

– « أريد أن أرى بوسوز ، قبل كل شيء . وأما انت فلن تستطيع الرحيل : لأنك لم تحصل على تأشيرة الخروج . »

– « انى راحل ، بكل تأكيد . »

– « كيف ؟ »

– « لا أعرف . . . ولكننى سأرحل . . . انى على يقين من ذلك . كان « ينبغي » على أن أقتل « تنج – ين – تا » ، والآن ينبغي أن أرحل . . . وسأرحل . بكل تأكيد . »

والواقع أن كيو كان يشعر بأن ارادة « تشن » تلعب دورا ضئيلا جدا فى مجرى الحوادث . ولو أن القدر كان يحيا فى مكان ما ، لكان هناك الى جواره فى تلك اللينة .

– « هل تعتقد أنه من المهم أن تكون « أنت » الذى يدبر اغتيال تشانج؟ »

– « كلا . . . ومع ذلك ، فأنا لا أريد أن يرتكب غيرى هذا العمل . »

– « لأنك لا تثق بأحد ؟ »

– « لأننى لا أحب أن يقبل الآخرون النساء اللواتى أحبهن . »

وبعثت هذه العبارة فى نفس « كيو » كل العذاب الذى نسيه : وأحس فجأة أنه منفصل عن تشن . وكانا قد بلغا النهر . وقطع تشن حبل أحد القوارب الراسية وابتعد عن الشاطئ . وسرعان ما غاب عن بصر « كيو » الذى لم يعد يسمع سوى صوت ارتطام المجاديف المنتظم يدفع بالماء دفعا خفيفا الى ضفة النهر . لقد عرف كثيرا من الارهابيين ، وكانوا لا يطرحون أية أسئلة ، وانما كانوا يؤلفون جزءا من جماعة : حشرات قاتلة ، تستمد العيش من ارتباطها الوثيق بعش زناير ضيق . أما تشن . . . واتجه كيو صوب ادارة الميناء ، مواصلا التفكير دون أن يغير من سرعة خطاه . « سيوقف قاربه منذ البداية . . . »

ووصل الى أبنية ضخمة يحرسها الجيش ، وتكاد تكون خالية اذا قيسبت بمبانى « الدولية » . وفى الممرات ، كان الجنود نائمين أو يلعبون الورق . ووجد صديقه دون عناء . وكانت له رأس مستديرة كالتفاحة ،

سوجه تماؤه بشور حمر ، وشارب رمادى شبيه بشوارب الغاليين ، ويرتدى حلة كاكية اللون - وكان « بوسوز » عاملا قديما ونقايبا فوضويا فى مدينة « لاشوديفون » ثم رحل الى روسيا عقب الحرب ، وأصبح من البلاشفة . وكان كيو قد تعرف عليه فى بكين ، وأولاه ثقته . وتصافحا فى هدوء : ففى هانكيو ، كان أى شبح من الأموات يعد زائرا طبيعيا .

قال أحد الجنود : « لقد وصل عمال التفريغ هناك . »
- « أرسلهم . »

وخرج الجندى ، والتفت « بوسوز » الى كيو :
- « ألاحظ يا عزيزى أننى لا أفعل شيئا ؟ كنا نتوقع أن تعبر الميناء ثلاثمائة سفينة : وهنا أقل من عشر . . . »

كان الميناء هامدا تحت النوافذ المفتوحة : لا صفارات ، ولا شيء سوى ارتطام الماء المستمر بالضفاف والركائز . وعبر وهج عظيم شاحب اللون جذران الحجر : انها كشافات زوارق المدفعية البعيدة تمسح هذا الشطر من النهر . وأعقب ذلك جلبة أحدثها وقع خطوات .

وسحب بوسوز مسدسه من غمده ، ووضع فوق مكتبه ، وقال موجها حديثه الى كيو : « لقد هاجموا الحرس الأحمر بقضبان من الحديد . »
- « الحرس الأحمر مسلح . »

- « لم يكن الخطر يا عزيزى فى التغلب على الحراس ، وانما كان الخطر فى أن ينضم الحراس اليهم . »

وعاد ضوء المنارة ملقيا بظلالهما الضخمة على الحائط الخلفى الأبيض ، ثم غاب فى حنايا الليل فى اللحظة التى دخل فيها عمال التفريغ : أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة . وكانوا يرتدون حلل العمل الزرقاء ، بينما تعرى أحدهم حتى خصره . وفى أيديهم قيود حديدية . وجوه مختلفة ، تكاد لا تظهر فى الظلام ، وان ارتسم عليها جميعا حقد عنيف ، يحرسهم اثنان من الصينيين ، فى جنب كل منهما عذارة من طراز ناجان . ووقف عمال التفريغ ملتصقين

كانهم كتلة واحدة • أجل ، كان الحققد مائلا في عيونهم ، والخوف أيضا •
قال « بوسوز » باللغة الصينية : « انما الحراس الحمر من فئة العمال • »
صمت •

– « واذا كانوا قد تحولوا الى حراس ، فذلك من أجل الثورة ، لا من
أجلهم هم • »

وقال أحد العمال : « ولكي يأكلوا أيضا • »
– « من العدل أن تذهب الاطعمة الى أولئك الذين يحاربون • ماذا تريدنا
أن نفعل بها ؟ أن نراهن بها في لعب الورق ؟ »
– « اعطاؤها للجميع • »

– « لا يوجد منها الا ما يكفي البعض فحسب – ولقد عازمت الحكومة
على أن تولى البروليتاريا أعظم رعاية ممكنة ، حتى ولو أخطأوا • ولئن قتل
الحرس الأحمر في كل مكان ، فسوف يستولى قواد الجيش والأجانب على
السلطة كسابق عهدهم ، وهذا ما تعلمونه جيدا • • فماذا بكم اذن ؟ هل
هذا هو ما تريدونه ؟ »

– « كنا نأكل • • • في ذلك العهد • »

قال كيو مخاطبا العمال : « كلا • • لم نكن نأكل في ذلك العهد ، وأنا
أعرف ذلك ، لأننى كنت من عمال الشحن • واذا كان لابد من الموت جوعا ،
فليكن ذلك في سبيل أن نصبح آدميين • »

واتسع بياض تلك العيون التى انعكس فيها الضوء الخافت – اتساعا
غير ملحوظ ، وكانوا يودون أن يجتثوا ذلك الشخص الذى يشبه اليابانيين
فى مظهره بصداره الصوفى ، والذى يتحدث بلهجة أهل الشمال ، ومع ذلك
يدعى أنه من العمال الكادحين •

أجاب أحدهم بصوت واهن : « مجرد وعود • »

وقال آخر : « أجل • • • ولنا الحق على الأخص فى أن نضرب عن العمل ،
وأن نموت جوعا • ان أخى جندى فى الجيش فلماذا طردوا من فرقته أولئك

الذين طلبوا تشكيل نقابات للجنود ؟ »

وارتفعت لهجة الصوت .

وهنا تساءل بروسوز : « وهل تعتقدون أن الثورة الروسية تمت في يوم واحد ؟ »

— « لقد أنجز الروس ما أرادوه . »

لم تكن تمة جدوى من المناقشة : وأصبح الأمر الواجب هو تعرف مدى خطورة هذا التمرد .

— « ان مهاجمة الحرس الأحمر تعد عملا معاديا للثورة ، جزاؤه الموت . وأنتم تعلمون ذلك . »
وانقضت برهة .

— « واذا أطلقنا سراحكم ، فماذا أنتم صانعون ؟ »

وتبادلوا النظرات . لم يكن الظلام يسمح برؤية التعبير المرتسم على وجوههم . وعلى الرغم من الغدارات ، والقيود الحديدية ، فقد أحس « كيو » بأن جو المساومة الصيني الذي التقى به كثيرا أثناء الثورة — أحس بأن هذا الجو آخذ في التهيؤ .

فسأل أحد الأسرى : « هل تمنحوننا عملا ؟ »

— « اذا وجد . »

— « اذن ، في فترة الانتظار ، ان حال الحرس الأحمر بيننا وبين الطعام ، فسنهاجم الحرس الأحمر . اننى لم أكن قد أكلت منذ ثلاثة أيام . . شيئا على الإطلاق . »

وتساءل أحد أولئك الذين لم يتكلموا حتى الآن : « أمن الحق أن المساجين يأكلون في السجن ؟ »

— « سترى ذلك بنفسك . »

وضمضت « بوسوز » على الجرس دون أن يضيف شيئاً ، واصططح الخفر السجناء .

واستأنف بوسوز حديثه قائلاً باللغة الفرنسية هذه المرة : « هذا هو مصدر المتاعب : لقد بدأوا يعتقدون أننا نطعمهم في السجن كما نطعم الديكة . »

— « لماذا لم تحاول بذل المزيد من الجهد في اقناعهم ، ما دمت قد طلبت احضارهم ؟ »

فهرز « بوسوز » كتفيه هزة شخص مرهق وقال :

— « لقد طلبت احضارهم لأنني آمل دائماً — يا عزيزي — في أن يقولوا لي شيئاً آخر . ومع ذلك ، فهناك الآخرون ، أولئك الذين يعملون خمس عشرة ساعة وست عشرة ساعة يومياً دون أن يقدموا مطلباً واحداً . وسيواصلون هذا العمل حتى تصبح عظمثنين . . . وليحدث بعد ذلك ما يحدث . »

وأدهش كيو هذا التعبير السويسري ، وابتسم كيو ، فلمعت أسنانه في الضوء الشاحب تحت حاجز شاربته المشعث ، كما لمعت منذ لحظة عيون عمال التفريغ .

— « انك محظوظ في احتفاظك بمثل هذه الأسنان رغم الحياة التي يحيها الناس في المعركة . »

— « كلا . . . يا عزيزي . . . مطلقاً ، فهذا « طقم » وضعته في تشانج — تشا . . . ويبدو أن أطباء الأسنان لم يتأثروا أقل تأثر بالثورة . وأنت ؟ هل أنت مندوب ؟ وماذا تصنع هنا بحق الجحيم ؟ »

وشرح له كيو الأمر ، دون أن يشير إلى تشن . وأصغى إليه « بوسوز » ، وقلقه يشتد شيئاً فشيئاً .

— « كل هذا ممكن يا عزيزي ، كما أنه بالإضافة إلى ذلك خسارة كبيرة . لقد اشتغلت في صناعة الساعات خمسة عشر عاماً : وأعرف معنى اعتماد بعض التروس على بعضها الآخر . فإذا لم يؤمن المرء « بالدولية » ، فأولى به ألا يكون عضواً في الحزب . »

— « ان نصف أعضاء الدولية يجبذون تكوين مجالس السوفيت هنا . »

— « هناك سياسة عامة توجهنا ، ولا بد من اتباعها . »

— « وتسليم الأسلحة . ان سياسة تؤدي بنا الى اطلاق النار على البروليتاريا هي قطعا سياسة فاسدة . وحين يستولى الفلاحون على الأراضي ، عمسوف يدبر القواد الأمر بحيث يشركون عددا من القوات الشيوعية في اتحاد حركتهم ، أجب بكلا أو نعم : هل تقبل اطلاق النار على الفلاحين ؟ »

— « يا عزيزي . نحن لسنا كاملين : سأطلق النار في الهواء ، وهذا ما لا بد سيفعله بقية الرفاق . واني لأوثر ألا يحدث ذلك ، غير أنه ليس الشيء الرئيسي . »

— « أفهم ، أيها العجوز ، ذلك أشبه برؤيتي لشخص يصوب اليك مسدسه في الوقت الذي نتجادل فيه عن خطورة رصاص المسدس . ان تشايج — كاي — شيك — لا يستطيع سوى ابادتنا . وسيكون الأمر على هذا النحو فيما بعد بالنسبة للقواد الموجودين هنا . أعني « حلفاءنا » وسيكونون منطقيين . اننا — أنفسنا للمجزرة ، دون أن نحافظ حتى على كرامة الحزب التي نصحبها كل يوم الى مأخور ، مع حزمة من القواد ، وكأن هذا هو مكانها . . . »

— « لئن تصرف كل حسب هواه . . لانهار كل شيء . ولو نجحت الدولية » فسنتهتف قائلين : مرحى ! ولن نكون حينذاك منطقيين . ولكن اذا وضعنا العراقيل في طريقها ، فسوف تفشل بكل تأكيد ، والمهم هو أن تنجح . . . أما فيما يتعلق باصدار الأوامر الى الشيوعيين ليطلقوا النار على الفلاحين ، فاني أعرف أن هذا ما يقال ، ولكن هل أنت على يقين من أنه قد حدث ؟ انك لم تشاهد ذلك بنفسك ، وعلى الرغم من كل شيء — وأنا أعلم أنك لا تفعل ذلك متعمدا . . ومع ذلك . . فان هذا لا يتلاءم مع نظريتك ، أن تعتقد أن هذا قد حدث . . »

— « يكفي أن يقال فيما بيننا . فليس هذا وقت القيام بتحقيقات لاستغرق سنة أشهر . »

وفيم الجدل ؟ ان كيو لا يريد اقناع بوسوز ، ولكنه يريد اقناع الرفاق في شنتهاي ، وليس من شك في أنهم مقتنعون الآن ، كما تأكد عزمه هو حتى شنتهاي ، وليس من شك في أنهم مقتنعون الآن ، كما تأكد عزمه هو

بزيارة « هانكيو » نفسها ، وبالمشهد الذي رآه منذ لحظة . ولم تكن به غير
:رغبة واحدة : هي أن يرحل .

ودخل صف ضابط صيني ، وكانت ملامح وجهه كلها ممطوطة ، وجسده
-منحنيا انحناءة خفيفة الى الأمام ، وكأنه تمثال من العاج من تلك التماثيل
التي تتخذ انحناءات المادة المنجوتة منها .

— « لقد ألقوا القبض على رجل كان يبحر خلسة . »

وكف كيو عن التنفس .

— « وهو يدعى أنه تلقى منك تصريحاً بمغادرة هانكيو . . انه تاجر اسمه
-دونج تيون . »

والتقط كيو أنفاسه مرة أخرى .

قال بوسوز : « لم أعط أى تصريح . . فهذا ليس من شأنى . أرسله
الى البوليس . »

وكان الأثرياء الذين يلقي القبض عليهم يدعون أنهم أقارب بعض الموظفين
ويسعون أحيانا الى مقابلة الموظف المذكور على انفراد ، ليعرضوا عليه مبلغا
من المال . وهذا التصرف أحكم من أن يعدموا دون أن يحاولوا شيئا .
— « انتظر ! »

وسحب بوسوز قائمة من مذكرته ، وتمتم ببعض الأسماء .

— « حسن . . ان اسمه هناك . . فى القائمة . . فليصرف البوليس
معه ! »

وخرج صف الضابط ، وبقيت القائمة — وهى ورقة مقطوعة من كراسة —
على « النشافة » وكان « كيو » يفكر دائما فى « تشن » .

قال بوسوز : « انها قائمة الأشخاص المطلوبين . » وكان بوسوز قد لمح
نظرة كيو المثبتة على الورقة . « والأسماء الأخيرة قد أضيفت بالتلفون قبل
رحيل السفن — وحين ترحل البواخر . . . »

– « هل أستطيع أن ألقى عليها نظرة ؟ »

وناوله بوسوز القائمة : كانت تضم أربعة عشر اسماً • ولم يكن تشن من بينها • وكان من المستحيل ألا يفهم قولوجين أن « تشن » سيحاول مغادرة هانكيو بأسرع ما يمكن • ومع ذلك ، فإن تسجيل رحيله باعتباره شيئاً ممكناً لا يزيد عن كونه مجرد احتياط بسيط • وقال كيولى لنفسه : « ان الدولية لا تريد أن تأخذ على عاتقها مسئولية اغتيال تشانج – كاي – شيك ، ولكنها ربما قبلت دون يأس وقوع هذا الشر • • ألهذا السبب كانت اجابات قولوجين تبدو غير قاطعة ؟ • • »

وأعاد القائمة الى بوسوز •

لقد قال تشن « سأرحل » • وقد كان من اليسير تفسير هذا الرحيل ، غير أن التفسير لم يكن كافياً • ان وصول تشن غير المتوقع ، وتحفظات قولوجين ، والقائمة • • كل هذا يستطيع أن يفهمه كيولى ، بيد أن كل حركة من حركات تشن كانت تقربه من جديد الى جريمة القتل ، وكان يبدو أن الأشياء نفسها انما يسوقها قدره • ثمة فراشات تحوم حول المصباح الصغير • « لعل تشن هو الآخر فراشة تفرز ضوءها الخاص بها ، والذي فى شعاعه سوف تحترق • • وربما كان الانسان نفسه • • » ألا نستطيع أن نرى أبداً سوى قدر الآخرين ؟ ألم يكن هو أيضاً كالفراشة يتعجل الآن الرحيل الى شغهاى ، ولمساعدة الأقسام بأى ثمن ؟ وعاد الضابط ، فأتاح له ذلك أن يفارق بوسوز •

ووجد طمأنينة الليل مرة أخرى ، لا يقطعها صفيح باخرة ، لا شيء سوى خرير الماء • وعلى طول الشاطئ ، وعلى مقربة من مصابيح الشارع التى تطن حولها الحشرات ، رقد العمال كمن أصابهم الطاعون • وهنا وهناك على الأرصفة تنائرت اعلانات صغيرة حمراء مستديرة كأغطية المجارى ، وقد كتبت عليها جميعاً هذه الكلمة : « المجاعة » • وأحس بنفس الاحساس الذى ساوره مع تشن منذ لحظة ، بأنه فى هذه الليلة ذاتها ، وفى الصين بأسرها ، وعبر الغرب حتى منتصف أوروبا ، قد بات رجال يترددون مثل تردده ، يمزقهم نفس العذاب بين الخضوع للنظام ، أو تذييع أهلهم • لقد كان أولئك العمال الذين احتجوا لا يفهمون • وحتى لو أنهم فهموا ، كيف يمكن لهم أن يختاروا ؟

التصحية ، هنا ، في هذه المدينة التي ينتظر الغرب منها قدر أربعمئة مليون
من الناس - وربما أسفر فيها قدره أيضا - هذه المدينة النائلة على ضفاف
النهر نوما قلقا كنوم رجل جائع - المدينة الفارقة في العجز والبؤس
والحق ؟

الجزء الرابع

١١ أبريل

منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر

كان كلاييك بمفرده تقريبا فى مشرب فندق « جروسفنونور » الصغير -
بخشبه الجوزى اللامع ، وزجاجاته ، ونيكاته ، وراياته - وقد جعل يدير
منفضة للسجاير على سبائته الممدودة . ودخل الكونت « شبييلفسكى » الذى
كان كلاييك ينتظره ، وطوى هذا الأخير ورقة كان يقدم عليها لكل صديق
من أصدقائه هدية وهمية :

- « كيف تجرى أمورك فى هذه القرية المشمسة الصغيرة يا صديقى
العزیز ؟ »

- « ليست على ما يرام . ولكنها ربما سارت سيرا حسنا فى نهاية
الشهر . انى أوزع موادا غذائية ، وأودعها لدى الأوروبيين وحدهم ،
بالطبع . »

وعلى الرغم من ثيابه البيض البسيطة جدا ، فان أنف شبييلفسكى المعقوف
النحيف وجبهته الصلعاء ، وشعره الرمادى المشط الى الوراء ، ووجنتيه
البارزتين .. كانت تضىفى عليه دائما مظهر المتنكر فى صورة نسر . وكان
« المونوكل » يبرز هذه الصورة الكاريكاتورية .

- « المسألة كما ترى يا عزيزى - هى أن يجد المرء بالطبع حوالى عشرين
ألفا من الفرنكات .. وبهذه المبلغ ، يستطيع أن يجعل لنفسه مكانا محترما
جدا فى تجارة المواد الغذائية . »

- « هذا هو الكلام الذى أحب أن أسمعه يا عزيزى . انت لا تريد
مكانا صغيرا ، بل تريد مكانا « محترما » فى تجارة الأغذية ؟ مرحى ... »
- « لم أكن أعرف أنك .. ضيق الأفق الى هذا الحد .. »

ونظر « كلاييك » الى النسر بطرف عينه ، دون أن ينسى أنه بطل قديم
فى لعبة الشيش براكوفى بقسم صغار الضباط .
- « أنا ؟ ضيق الأفق ! تصور ، لو أننى كنت أملك هذا المبلغ من المال ،

اذن لاستخدمته في تقليد موظف هولندي كبير من سومطرة كان يمر كل عام في عودته الى زهور السوسن التي يزرعها في بلاده - كان يمر على شاطئ بلاد العرب ، وقد خطر له حينذاك خاطر (حدث هذا حوالي سنة ١٨٦٠) وهو أن ينهب كنوز مكة . وكان يبدو له أن هذه الكنوز نفيسة ، وأنها مطعمة كلها بالذهب ، ومخبأة في كهوف سوداء واسعة ، هناك حيث يلقي بها الحجاج دائما وأبدا . انما في مثل هذه الكهوف ، أود ان أعيش . . أنا . . وأخيرا ، ورث عاشق السوسن ميراثا ورحل الى جزر الهند الغربية ليجمع عصابة من القراصنة يغزو بها مكة على حين غرة ، بعد أن سلحهم بأسلحة حديثة ، وبنادق تطلق رصاصتين في المرة الواحدة ، وحراب يمكن تركيبها وتفكيكها . . الخ . . . وأخذهم الى ظهر السفينة - لا تنبس بكلمة ! - وصحبهم الى تلك الجهة . . . »

ووضع سيابته على شفتيه ، مستمتعا بالفضول الذي استولى على الرجل البولندي وقد بدا أشبه بالتواطؤ .

- « حسن . لقد تمردوا عليه ، وذبحوه بكل دقة ، واستخدموا السفينة في قرصنة خلت من أية دعاية ، في بحر ما . هذه قصة حقيقية ، وفضلا عن ذلك ، فانها قصة أخلاقية . ولكنني أقول لك . . اذا كنت تعتمد على في الحصول على العشرين ألفا من الفرنكات . . فأنت مجنون . . مجنون . أما اذا كنت تريد أن أتوسط بينك وبين كبار الشخصيات أو شيئا من هذا القبيل ، فلا مانع لدى . ومن ناحية أخرى ، مادام لا بد أن أدفع لأي شخص آخر . ولكن في الوقت الذي تحترق فيه البيوت ، لا يهتم الناس أدنى اهتمام بالأفيون والكوكايين . »

وعاد من جديد الى ادارة منفضة السجائر فوق سبابته .

وقال شبيلفسكى : « لقد تحدثت اليك عن ذلك ، لأنني اذا كنت أريد أن أنجح ، فمن الواجب على بالطبع أن أتحدث الى كل من اعرفه . وكان من الأفضل على الأقل أن أنتظر . ولكنني أردت أن اسدي اليك خدمة ، عندما رجوتك أن تقدم لي هذه الخمر (وهي خمر مقلدة) . واليك هذه الخدمة : غادر شينغهاي غدا . »

قال كلابيك بصوت آخذ فى الارتفاع : « آه • آه • آه » وتردد فى الخارج كالصدى نغير سيارة يرجع جملة من الأنغام « لأن ؟ »

— « لسبب وجيه جدا ••• لأن بوليسى — كما تقول — يؤدى واجبه فى كفاءة •• ارحل عن هذا المكان • »

وكان كلابيك يعرف أنه لن يستطيع الاصرار • وتساءل لحظة فيما بينه وبين نفسه : ألا يمكن أن تكون هذه مناورة •• للحصول على العشرين ألفاً من الفرنكات ؟ ولكن ••• يا له من جنون !

— « ولابد من أن أرحل غدا ؟ »

وتأمل المشرب ، وأجهزة خلط الكوكتيل ، والقضيب النيكلى ، وكأنه يتأمل أشياء قديمة عزيزة على النفس •

— « على أكثر تقدير •• ولكنك لن ترحل •• هذا ما أراه •• وعلى أية حال ، فقد كان من واجبي أن أحذرك • »

وأحس كلابيك بعرفان متردد للجميل (وهذا التردد لا يرجع الى ارتياحه بقدر ما يرجى الى طبيعة النصيحة التى أسديت اليه ، والى جهله بما يتهدده •) واستطرد الرجل البولندى قائلاً : ألدى من الحظ أكثر مما كنت أعتقد ؟

وأمسك بذراعه : « ارحل •• ثمة حادث وقع لسفينة ••• »

— « ولكن ، ليس لى دخل فى هذا الموضوع • »

— « ارحل • »

— « هل تستطيع أن تقول لى ان الأب چيسور مشبوه ؟ »

— « لا أظن •• الأولى أن يكون چيسور الابن • ارحل • »

كان من الجلى أن البولندى قد استقى معلوماته من مصدر وثيق •

ووضع كلابيك راحته على يد البولندى •

— « يؤسفنى أشد الأسف أننى لا أملك من المال ما تحتاج اليه فى بقالتك ، يا عزيزى : وربما كنت تحاول انقاذ حياتى ••• ولكننى ما زلت •

تُملك بضعة أنقاض ، تمثالين أو ثلاثة .. خذها . »

— « كلا ... »

— « لماذا ؟ »

— « كلا ... »

— « آه ... لا كلمة ؟ فليكن . ومع ذلك أحب أن أعلم لماذا لا تريد أن تأخذ تماثيلي ؟ »

وحلق فيه شبيلفسكى .

— « بالنسبة لمن يعيش مثلى ، كيف يمكن الاقدام على هذا الشيء .. على هذه المهنة ، اذا لم يعوض نفسه أحيانا ؟ »

— « اننى أشك فى وجود كثير من المهن التى لا ترغب أصحابها على طلب شيء من التعويض ... »

— « أجل ... فأنت لا تستطيع أن تتصور — مثلا — الى أى حد قد ساءت حراسة المحلات التجارية . »

وما العلاقة بين هذا وذاك ؟ أوشك كلابيك أن يوجه هذا السؤال . ولكنه كان يعرف بخبرته أن الجمل المرسل على هذا النحو طريفة دائما ، كما كان يريد فضلا عن ذلك أن يؤدى أية خدمة لمحدثه حتى ولو كان ذلك بأن يدعه يتكلم . ومع كل هذا كان يشعر بالخرج الى حد الارتباك .

— « وهل أنت تراقب المحلات ؟ »

وكان « كلابيك » ينظر الى البوليس بوصفه خليطا من عصابات التلاعب وابتزاز أموال الناس ، وهيئة مكلفة بفرض الاتاوات الخفية على الأفيون ودور الميسر . وقد كان رجال البوليس الذى تعامل معهم (وعلى الأخص شبيلفسكى) أعداء وشركاء فى الوقت نفسه . ولكنه كان يشمئز ويخشى من افشاء المعلومات الى البوليس . غير أن شبيلفسكى أجاب :

— « أراقبها ؟ كلا ... ليس تماما .. وانما العكس هو الذى يحدث . »

— « وكيف . غنائم فردية ؟ »

— « الأمر لا يحدث الا بالنسبة للعب الأطفال .. أفاهم أنت ؟ فلست أملك الآن ما يكفي من المال لشراء لعب لطفلي الصغير .. وهذا أمر شاق على النفس .. والحقيقة أنني لا أحب هذا الطفل الا حين أقدم له شيئا يبعث السرور في نفسه .. ولا أستطيع أن أفعل ذلك الا بهذه الطريقة .. وهذا شيء صعب للغاية . »

— « ولهذا ، أرجو أن تأخذ تماثيلي .. لا تأخذها كلها ، ان شئت . »

— « أرجوك .. أرجوك .. اننى أذهب اذن الى الحوانيت وأقول .. (وألقى برأسه الى الخلف ، وشد عضلات جبهته ووجنته اليسرى حول مونوكله دون أن تبدو عليه السخرية) اننى مخترع ، ومنشئ بالطبع .. وأريد أن أشاهد نماذجكم . » ويتركوننى أتفرج . فأخذ نموذجاً .. لا أكثر .. وأحيانا يراقبوننى ، ولكن هذا شيء نادر . »

— « ولكن ماذا تفعل لو أنهم اكتشفوا أمرك ؟ »

وأخرج محفظته من جيبه ، وفتحها نصف فتحة أمام كلاييك لتبدو بطاقته البوليسية ، ثم أغلقها ، وأشار بيده إشارة مغمضة فى الغموض :
— « اننى أملك المال أحيانا .. فمن الممكن أن أطاردا انا ايضا .. ولكن .. كل شيء يحدث .. »

وكانت دهشة « كلاييك » بالغة ، حين اكتشف فى نفسه على حين غرة رجلاً جاداً ، له وزنه ، وعلى الأخص لأنه لم يكن يحكم على نفسه مطلقاً بأنه مسئول عن تصرفاته .

وحدث نفسه قائلاً : « ينبغي أن أحذر چيسور الابن . »

الساعة الواحدة

كان تشن يسير قدما ، على طول الرصيف ، وقد تأبط حقيبة جلدية ملتقيا فى طريقه ببعض الأوروبيين الذين يعرف وجوههم ، واحدا اثر واحد : ففي مثل هذه الساعة كان الجميع تقريبا يذهبون لاحتساء الخمر ، والتلاقي بمشرب نادى شنفهاى ، أو بالفنادق المجاورة . وأحس بيد توضع على كتفه —

من الخلف - برفق . فأوشك أن يقفز من مكانه ، وتحسس جيبه الداخلى الذى كان يخفى فيه مسدسه .

- « لقد انقضى زمن طويل منذ أن التقينا يا تشن . هل تريد . . »

واستدار ، فرأى الراعى سميتسون ، أستاذه الأول . وتعرف فى الحال على وجهه الأمريكى الوسيم الذى تشوبه الملامح الهندية الى حد ما . وقد خط عليه الزمن أسطوره .

- « . . أن نسير معا ؟ »

- « نعم . »

وكان « تشن » يؤثر أن يسير فى صحبة رجل أبيض ، لكى يكون أشد «طمئنانا» ، ولكى يرضى نزعة التهكم فى نفسه : اذ كان يحمل قنبلة فى حافظته الجلدية . وكانت سترته المتأنقة التى يرتديها هذا الصباح تضيف عليه هيئة رجل مقيد الفكر ، وأكمل حضور هذا الرفيق التنكر الذى يرمى اليه - فضلا عن ذلك ، وبسبب نوع من التطير الغامض ، لم يكن يريد أن يجرح شعور الراعى . فقد أخذ يحسب عدد العربات برهة من الزمن هذا الصباح لكى يستطلع (حسبما كان العدد زوجيا أو فرديا) هل تراه سيصيب التوفيق : وكانت الاجابة مشجعة . ولكنه كان ساخطا على نفسه ، فلماذا لا يتحدث الى « سميتسون » ، ليتخلص من هذا السخط ؟

ولم يفت الراعى أن يلمح هذه الحالة ، ولكنه لم يدرك أسبابها فقال :

- « أنت تتألم ، يا تشن ؟ »

- « كلا . »

انه ما برج يحتفظ لأستاذه القديم بشيء من الحب ، ولكنه كان حبا لا يخلو من حقد .

ووضع الشيخ ذراعه تحت ذراع تشن :

- « اننى أصلى كل يوم من أجلك يا تشن . ماذا وجدت عوضا عن الايمان الذى هجرته ؟ »

وكان ينظر اليه في حب عميق ، لا ينطوي مع ذلك على شيء من حقد
الابوة ، وكأنه يريد أن يكون معه على قدم المساواة . وتردد تشن :

– « ... لست من أولئك الناس الذين تهتم بأمرهم السعادة .. »
– « ثمة أشياء أخرى غير السعادة .. يا تشن ، هناك السلام ، - وأحيانا
الحب .. »

– « كلا .. لا وجود لهما بالنسبة لي .. »

– « انهما للجميع .. »

وأغمض الراعي عينيه ، وأحس تشن وكأنه يمسك تحت إبطه بذراع
رجل أعمى .

– « اننى لا أبحث عن السلام .. وانما أبحث عن .. العكس .. »

فنظر اليه « سميتسون » ، دون أن يكف عن المسير :

– « حاذر من الغرور .. »

– « من قال لك اننى لم أجد ايماني ؟ »

– « وأى ايمان سنياسى عساه أن يتحمل مسئولية ما يعانيه العالم من
عذاب ؟ »

– « اننى أفضل أن أقتل من هذا العذاب على ان أؤدى عنه حسابا .. ان
تبرة صوتك مفعمة بـ .. بالانسانية ، وأنا لا أحب الانسانية التى قواها
تأمل العذاب .. »

– « وهل أنت على ثقة من أن هناك انسانية أخرى .. يا تشن ؟ »

– « انتظر .. هذا شيء من الحسير شرحه .. هناك على الأقل انسانية
لا تتألف من هذا فحسب .. »

– « أى ايمان سنياسى يستطيع أن يبيد الموت ؟ .. »

ولم تكن لهجة الراعى لهجة استفهام ، بل كانت لهجة حزن . وتذكر
تشن حديثه مع چيسور ، الذى لم يره منذ ذلك الحين . لقد وضع چيسور
ذكاءه فى خدمته ، لا فى خدمة الله .

— « قلت لك اننى لا أبحث عن السلام . »

— « السلام . . »

وأخلد الراعى الى الصمت . . وظلا سائرين .

واستطرد الراعى أخيرا : « يا صغيرى . . كل منا لا يعرف سوى ألمه الخاص . »

وكان ذراعه يضبط على ذراع تشن . « ألا تعتقد أن الحياة الدينية الحققة ليست الا ايمانا جديدا نعتنقه كل يوم ؟ . . »

وكان الاثنان ينظران الى الرصيف ، ولا يبدو أنهما على أى اتصال الا عن طريق ذراعيهما .

— « كل يوم » . . أعاد الراعى هذه العبارة فى قوة مكثودة ، وكأن أقواله ليست الا صدى فكرة مهيمنة . ولم يجب تشن . هذا الرجل يتحدث عن نفسه ويقول الحقيقة . . انه مثله أيضا ، يحيا فكرته ، ولم يكن مجرد قربنة منفوخة . تحت ذراعه اليسرى الحافظة والقنبلة ، وتحت ذراعه اليمنى ، هذه الذراع المضمومة : « ايمان جديد نعتنقه كل يوم . . » هذه الثقة التى بلغت حد التناجى بالأسرار قد أضفت على الراعى عمقا مباغتة مؤثرا . وكان تشن سريع الاستجابة لكل قلق ، لأنه كان قريبا كل القرب من جريمة القتل التى أزمع ارتكابها .

— « سأصلى كل ليلة — يا تشن — لكى ينزع الله الغرور من نفسك (اننى أصلى بالليل على الأخص ، لأنه أنسب للصلاة) . فاذا منحك التواضع ، كنت من الناجين . وها أنذا الآن أجد نظرتك وأتابعها . . تلك النظرة التى كانت تند عنى منذ برهة . . . »

ولم يتواصل « تشن » مع هذا الراعى بتأثير أقواله ، بل بتأثير ما يعانى من عذاب : وهذه الجملة الأخيرة — التى تشبه جملة الصياد الذى يحس بما اقتنصته شبابه من أسماك أثارت فى نفسه غضبا أخذ يشتد فى عناء دون أن يطرد من نفسه تماما ما ألم به من شفقة عابرة . ولم يعد يفهم مشاعره . قال : « اصنع الى جيذا . . . بعد ساعتين ، سأقتل . »

وسدد نظرتة - هذه المرة - فى عينى رفيقه • ورفع الى وجهه - دونما سبب - يده اليمنى التى كانت ترتجف ، وتشبث بقلابة سترته الأنيقة :
- « أتفهم دائماً ما تعنيه نظرتى ؟ »

كلا • • لقد كان وحيدا • • وحيدا مرة أخرى • وتخلت يده عن سترته ، وتعلق بقلابة سترة الراعى ، وكأنه يريد أن يهزه • فوضع هذا الأخير راحته على راحة تشن • وبقياً على هذه الحال ، بلا حراك ، وكأنهما يتأهبان للنزال ، وتوقف أحد المارة • كان رجلاً من البيض ، ظن أن هناك مشاجرة •

قال الراعى بصوت خافت : « هذه أكذوبة شنيعة ! »

وسقطت ذراع تشن الى جانبه ، ولم يكن يستطيع حتى أن يضحك ، فصرخ فى وجه الشخص المار : « أكذوبة • » فهز المار كتفيه ، ومضى فى طريقه • ودار تشن برمته على عقبه ، وانصرف مسرعاً كأنه يجرى •

ووجد رفيقيه أخيراً على بعد ميل أو يزيد • وكانت هيهتهما تبعث على الاقتناع بقبعتهما المشقوقتين ، وثيابهما التى تشبه ثياب الموظفين ، والتى اختاراهما ليبررا الحافظتين اللتين حملاهما ، وتحتوى أحدهما على قنبلة ، والثانية على قنابل يدوية صغيرة • أما « سوين » ذو الأنف المعقوف ، الصينى الذى يشبه الهنود الحمر ، فكان مستغرقاً فى التفكير ، بحيث لم يكن ينظر الى أى شىء ، وأما « پى » ، فلم يلحظ تشن من قبل أن له وجهاً يشبه وجه الفتى المراهق الى هذا الحد • وربما ساعدت نظارته المستديرة المصنوعة من البلاستيك على تصغير سنه • وشرعوا فى المسير حتى بلغوا شارع الجمهوريتين ، وكانت الحوانيت جميعاً مفتوحة ، فعادت الحياة الى هذا الشارع تحت سماء ملبدة بالغيوم •

وكان من المتوقع أن تصل سيارة « تشانج - كاي - شيك » الى الشارع عن طريق درب ضيق متعامد عليه وأن تخفف من سرعتها لكى تنعطف • وكان عليهم أن يرونها آتية ، وأن يقذفوا بالقنبلة حين تبطئ • وكانت السيارة تمر كل يوم بين الساعة الواحدة والواحدة والربع ، فقد كان الجنرال يتناول غداءه فى الموعد الذى يتناول فيه الأوروبيين غداءهم • وهكذا كان ينبغى على من سيراقتب الصغير أن يشير الى الاثنين الآخرين فى اللحظة التى

يلمح فيها السيارة ، وسيعينه في هذه المهمة وجود تاجر من تجار العاديات ، يقوم حانوته في مواجهة الشارع تماما ، هذا ان لم يكن الرجل من العاملين لحساب الشرطة . وأراد « تشن » أن يقوم شخصا بمهمة المراقبة . فوضع « پى » فى الشارع ، على مقربة من المكان الذى تنتهى فيه السيارة من منحناها قبل أن تستأنف سرعتها ، أما « سوين » فوضعه فى مكان أبعد قليلا . وأما هو ، فكان عليه أن يشير اليهما ، وأن يلقي القنبلة الأولى . فاذا لم تقف السيارة ، سواء أصيبت أم لم تصب ، فعلى الآخرين أن يقذفوا قنابلهما بدورهما . فاذا توقفت ، كان عليهما أن يتجها نحوها ، ذلك أن الشارع أضيق من أن يتيح لها الدوران . وهنا كان الفشل ممكنا : لأنهما لو أخطأ الهدف ، فسيطلق الحراس الذين يحفون بالسيارة نيرانهم لكى يذودوا عنها كل من يحاول الاقتراب .

وكان على « تشن » أن يفترق الآن عن رفاقه . فمن المؤكد أن المخبيرين منبثون بين الجمهور على طول الطريق الذى تسلكه السيارة . ودلف « پى » الى مشرب صينى صغير يستطيع أن يلتقط منه اشارة تشن ، وعلى مسافة أبعد ، كان « سوين » ينتظر خروج « پى » . ومن المحتمل أن يقتل واحد من الثلاثة على الأقل ، وانه « تشن » بلا شك . ولم يجرؤ أحدهم على أن يقول شيئا لصاحبه ، وانما افترقوا دون أن يتصافحوا .

ودخل « تشن » حانوت تاجر العاديات ، وطلب منه أن يريه بعض التحف البرونزية ، الصغيرة التى تم العثور عليها فى الحفائر . فأخرج التاجر من أحد الأدراج حفنة كبيرة من الصناديق الصغيرة المكسوة بالساتان البنفسجى ، وأفرغ محتوياتها من المكعبات على المنضدة ثم شرع فى ترتيبها . ولم يكن التاجر من أهالى شنغهاى ، وانما كان صينيا من الشمال ، أو من التركستان : اذ كان شاربه ولحيته الخفيفان - المنتشران على الرغم من ذلك - وعيناه المشقوقتان ، تنم عن أنه مسلم من الطبقة الوضيعة ، وكذلك فمه المتزلف ، ولا كذلك بقية ملامح وجهه الخالية من العظام التى تشبه وجه كبش مفرطح الأنف . ان من يشى برجل يعترض الجنرال حاملا قنبلة ، يتلقى مبلغا كبيرا من المال ، ويحظى بمكانة عظيمة بين قومه . وربما كان هذا البورچوازي الثرى واحدا من أنصار تشانج - كاي - شيك الأوفياء .

« وسأل تشن قائلاً : « هل قضيت وقتاً طويلاً في شنغهاي ؟ »

من يكون هذا العميل الغريب ؟ ان ارتباكك ، وتوتره ، وعدم تطلعه الى التحف التي يعرضها عليه ، امارات تبعث على القلق . وربما لم يكن هذا الشاب معتاداً على ارتداء الثياب الأوروبية . غير أن شفتي تشن الغليظتين ، على الرغم من منظر وجهه الجانبي الحاد ، تبعثان على التعاطف . لعله ابن فلاح غنى من المناطق الداخلية ؟ غير أن الفلاحين الأغنياء لا يجمعون التحف البرونزية القديمة . فهل جاء يشتريها لشخص أوروبي ؟ ولكنه ليس خادماً ، كما أنه ليس تاجراً - وإذا كان هاوياً ، فلماذا ينظر الى الأشياء التي أعرضها عليه نظرة خالية من الحب : انما يبدو عليه أنه يفكر في شيء آخر ..

ذلك أن « تشن » كان يراقب الطريق فعلاً . ومن هذا الحانوت ، كان يستطيع أن يرى على بعد مائتين من الأمتار . كم من الوقت يستطيع أن يتتبع فيه السيارة بعينه ؟ ولكن ، كيف يحسب وهذا الرجل الأبله يراقبه في فضول ؟ ينبغي عليه أن يجيب ، قبل أي شيء آخر ، فان بقاءه صامتاً على هذا النحو أمر يتسم بالغباء ، قال :

« كنت أعيش في المناطق الداخلية ، وطردت منها بسبب الحرب . »

وهم الآخر بتوجيه سؤال جديد . . وأحس تشن أنه يستريب فيه . وكان التاجر يسأل نفسه الآن : لعله لص جاء يفحص متجره الآن لكي ينهبه عند أول انتشار للفوضى ، ومع ذلك ، فان هذا الشاب لا يود رؤية أجمل التحف ، وانما يكتفى بالتحف البرونزية ، أو تماثيل الثعالب ذات الأثمان المعتدلة . ان اليابانيين يحبون الثعالب غير أن الطارق ليس يابانياً . لابد من مواصلة استجوابه بمهارة .

« لاشك أنك تعيش في « هوي » ؟ والحياة - على ما يقال - قد أصبحت شاقة في الأقاليم الوسطى . »

وسأل تشن نفسه : ألا يحسن به أن يتظاهر بالصمم ؟ ولكنه لم يجرؤ على ذلك ، خوفاً من أن يبدو أغرب مما كان .

فأجاب قائلاً : « لم أعد أقطن هناك . » وكانت لهجته ، وتركيب جملة

حتى باللغة الصينية - تتسم بشيء من الإيجاز : فقد كان يعبر مباشرة عن فكره ، دون استعمال الأساليب التقليدية .. وخطر له أن يلجأ إلى المساومة . فسأل التاجر وهو يشير بأصبعه إلى رأس ثعلب يوجد بكثرة في المقابر :

- « كم ثمنه ؟ »

- « خمسة عشر دولارا . »

- « ثمانية دولارات تبدو لي ثمنا معقولا . . . »

- « لمثل هذه التحفة ؟ كيف يمكن أن يخطر لك ذلك ؟ لقد دفعت فيها عشرة . . . وحدد مكسبي فيها بنفسك . »

وبدلاً من أن يجيب ، أرسل « تشن » بصره إلى « پي » الجالس إلى منضدة صغيرة في ذلك المشرب المفتوح ، وقد أخذت الأضواء تتراقص على زجاج نظارته . ولم يكن « پي » يراه بلاشك ، بسبب الواجهة الزجاجية لحانوت العاديات ، ولكنه يستطيع أن يراه حين يخرج من هذا الحانوت .

قال أخيراً وكأنه يعبر عن قرار اتخذه بعد تأمل طويل : « لا أستطيع أن أدفع أكثر من تسعة دولارات . . . وأكون بذلك خاسراً . »

كانت الصيغ المحفوظة في هذا المجال أشبه بالطقوس ، ولهذا فقد كانت تجري على لسانه دون عناء .

أجاب تاجر العاديات : « إنها أول صفقة لي اليوم . وربما كان ينبغي على أن أقبل خسارة دولار ، لأن اتمام أول صفقة فأل حسن يجلب الرزق . . . »

الشارع مقفر .. وثمة عربية من عربات « الريكشو » تجتازه على بعد ، تتلوها عربية أخرى .. وخرج رجلان ، وكلب ، ودراجة .. انعطف الرجلان يمينا ، واجتازت العربية الشارع .. الطريق مقفر مرة أخرى ، بقي الكلب وحده ..

- « ألا تستطيع أن تدفع - مع ذلك - تسعة دولارات ونصف ؟ »

- « للأعراب عن استلطافي اياك . »

نعلب آخر من الخزف • ومساومة جديدة • وكان « تشن » يوحى بمزيد
 من الثقة بعد أن اشترى القطعة الأولى ، واكتسب بذلك حق التروى : انه
 يقدر الآن الثمن الذى سيعرضه ، والذى يعادل بالتدقيق قيمة السلعة ،
 وأصبح من الواجب ألا يزعج تأمله الجليل شئ • « السيارة تتقدم فى هذا
 الشارع بسرعة أربعين كيلو مترا فى الساعة ، أى أكثر من كيلو متر كل
 دقيقتين • سأراها برهة تقل عن دقيقة •• هذا قليل • وينبغى على « پى »
 ألا تتحول عيناه عن هذا الباب ••• » ولم تمر أية عربة فى هذا الشارع ،
 انهم الا بضع دراجات •• وأخذ يساوم على محرك حزام (توكه) من حجر
 اليشب ، فرفض الثمن الذى عرضه التاجر ، وقال انه سيعود الى هذه
 المناقشة فيما بعد • وحمل أحد المساعدين الشئ ، وابتاع « تشن » رأس
 نعلب صغير من البيللور لم يطلب لقاءها التاجر سوى ثلاثة دولارات • ومع
 ذلك لم تختف رغبة صاحب الحانوت تمام الاختفاء •
 - « ان لدى قطعا أخرى نغاية فى الجمال والأصالة ، وثمانية جميلة
 جدا ••• ولكنها تحف عظيمة القيمة ، ولهذا لا أحتفظ بها فى متجرى ••
 ويمكن أن نتفق على موعد ••• »

ولم يقل تشن شيئا •

- « ••• » واذا اقتضى الأمر ، أستطيع أن أرسل أحد مساعدى للاتيان
 بها ••• »

- « أنا لا أهتم بالنقطع الثمينة •• فليست للأسف ، من الأثرياء • »

انه ليس لصا اذن ، فهو لا يطلب حتى أن يراها • وعرض عليه التاجر
 مرة أخرى محرك الحزام المصنوع من حجر اليشب ، فى ترفق من يعرض
 مومياء هشة - ولكن على الرغم من الأقوال التى راحت تمر لفظا لفظا بين
 شفثيه المخمليتين الهلاميتين ، وعلى الرغم من عينيه الشهوانيتين ، فقد ظل
 « زبونه » غير مبال ، متباعدا •• ومع ذلك ، فقد كان هو الذى اختار هذا
 المحرك • انما المساومة تعاون •• كالحب ؛ ولكن التاجر كان يمارس الحب
 مع لرح من الخشب • لماذا يشتري هذا الرجل ما يشتريه ؟ وفجأة ، نحن
 السبب : انه واحد من أولئك الثشبان المساكين الذين استسلموا استسلاما
 صبيانيا لغواية المومسات اليابانيات فى « تشاى » فهن يعبدن الثعالب •

وهذا « الزبون » يبتاعها من أجل خادمة أو فتاة من فتيات الجيشا الزائفات، وإذا كان لا يبالي بما يشتريه ، فذلك لأنه لا يشتريه لنفسه (لم يكف تشن عن تصور وصول السيارة ، والسرعة التي يجب أن يفتح بها حافظته ، ليتنزع القبلة ، ويقذف بها) • بيد أن فتيات الجيشا لا يحببن الأشياء التي توجد في الحفريات ••• ربما خرجن على هذه القاعدة اذا تعلق الأمر بالشعالب الصغيرة ؟ ولقد اشترى الشاب أيضا تحفة من البللور ، وأخرى من الخزف •••

وبقيت اللعب الصغيرة الأحجام - مفتوحة ومغلقة - مرصوفة على المنضدة • وكان المساعدان ينظران ، وقد استندا على مرفقيهما • أما أحدهما - وكان حدنا - فقد اتكأ على حافظة تشن ، واذ راح يبدل في وقفته ساقا بالأخرى ، فقد سحب الحافظة خارج المنضدة • وكانت القبلة في الجزء الأيمن ، على بعد ثلاثة سنتيمترات من الحافة •

ولم يستطع تشن أن يبدى حراكا •• وأخيرا ، مد ذراعه ، وأعاد الحافظة إليه ، دون أدنى عناء • ان أحدا من هؤلاء الناس لم يراوده الشعور بالموت ، أو بفشل مؤامرة اغتيال •• لا لشيء ، مجرد حافظة يؤرجحها موظف في متجر ، ثم يجذبها صاحبها إليه • وفجأة ، بدا كل شيء يسيرا يسرا غير مألوف في نظر تشن •• ولم يعد للأشياء •• بل للأفعال نفسها أي وجود ، وأصبحت جميعا مجرد أحلام تضغط علينا لاننا نحن الذين نمنحها هذه القوة ، ولكننا نستطيع أيضا انكارها •• وفي هذه اللحظة ، سمع صوت نفير سيارة : تشانج - كاي - شيك •

وحمل حافظته ، كما يحمل سلاحا ، ودفع ثمن ما اشتراه ، وألقى بالربطتين الصغيرتين في جيبه ، وخرج •

وتبعه التاجر ، وقد أمسك بيده محبك الحزام الذي رفض تشن شراءه : - « انها تحف من حجر اليشب تحبها السيدات اليابانيات بوجه خاص • »

ألا يريد هذا الأحمق أن يتركه وشأنه •

- « سأعود • »

وأى تاجر لا يعرف معنى هذه العبارة ؟ وبدأ لتشن أن السيارة تقترب
أسرع من المعتاد ، تتقدمها سيارة فورد تحمل الحرس .

— « اذهب ! »

وأقبلت السيارة كأنها تنقض عليهم ، وهى تهز المخبرين المتعلقين
بجنبها . ومرت السيارة الفورد . وتوقف تشن ، ثم فتح حافظته ، ووضع
يده على القنبلة الملفوفة فى جريدة . ودس التاجر — وهو يبتسم — محبك
الحزام داخل الجيب الخالى من الحافظة المفتوحة — وكان أبعد الجيوب اليه .
وبهذه الحركة عاق ذراعى تشن عن الحركة :

— « ادفع ما تريد . »

— « اغرب عنى . »

وأذهلته هذه الصرخة ، فنظر الى « تشن » فاغر الفم هو أيضا .
— « ألسنت مريضا ؟ » ولم يعد تشن يرى شيئا ، وأحس بأنه على وشك
الانغماء : ومرت السيارة .

ولم يستطع أن يتخلص من حركة التاجر فى الوقت المناسب . وقال
هذا لنفسه : « هذا الزبون سيصاب بالانغماء » ، وهم بسنده وبحركة واحدة ،
ضرب تشن الذراعين الممدودتين أمامه ، وانطلق الى الأمام . وأوقف الألم
التاجر ، وكان « تشن » يعدو تقريبا .

وصاح التاجر : « محبكى ! محبكى ! »

ذلك أن محبك الحزام كان فى الحافظة دائما . ولم يفهم ذلك تشن ، اذ
كانت كل عضلة فيه ، وكل عصب مرهف من أعصابه ، ينتظر انفجارا يملأ
الشارع ليتبدد متثاقلا تحت السماء الواطئة . ولكن ، لا شيء . انعطفت
السيارة ، بل لقد اجتازت « سوين » الآن بلا أدنى شك . وما برح ذلك
التاجر الغبى فى مكانه . لم يعد ثمة خطر ، ما دام لم يتم أى شيء . ماذا
فعل الآخرون ؟ وشرع « تشن » يعدو وصرخ التاجر : « اللص ! » وظهر تجارا
آخرون . وفهم تشن . وود من غضبه أن يهرب بهذا المحبك ، وأن يرمى به
فى أى مكان . غير أن حتى آخرين اقتربوا منه ، فألقى به فى وجه التاجر ،

ولكنه لاحظ أنه لم يغلق الحافظة ، وكانت مفتوحة ، منذ أن مرت السيارة ،
 نهبا لعيني ذلك المأفون ، ولعيون المارة ، والقنبلة ظاهرة بعد أن انزلق من
 عليها الورق الذي كان يغطيها . وأخيرا ، أغلق الحافظة في حذر (وكان
 هذا هو كل ما يستطيع أن يفعله ليمنع نفسه من خبطها) ، وكان يناضل
 للسيطرة على أعصابه . وعاد التاجر بأسرع ما يستطيع الى حانوته .
 واستأنف « تشن » سيره .

قال مخاطبا « بي » عندما لحق به : « ماذا فعلت ؟ »

— « وأنت ؟ »

وتبادلا النظر لاهئين ، وكلاهما يريد أن يستمع — أولا — الى الآخر .
 ورآهما « سوين » — الذي اقترب منهما — على هذه الحال من الجمود الملىء
 بالتردد وعدم الاستقرار ، وقد سقطت ظلالهما على المنازل الغائمة . وكان
 النور القوي على الرغم من وجود السحب — يظهر في وضوح المنظر الجانبي
 لوجه تشن الشبيه بالضيق ، ورأس « بي » المستديرة ، ويعزل هذين
 الشخصين اللذين ترتجف أيديهما ، المنصوبين على ظليهما القصيرين في
 ذلك الوقت من بعد الظهر بين سايبة مهمومة قلقة . وكان ثلاثتهم يحملون
 حرافطهم دائما ، ولهذا لم يكن من الحكمة أن يبقوا في مكانهم طويلا .
 أما المطاعم فلم تكن مأمونة . . . لقد اجتمعوا وافترقوا في هذا الشارع فعلا
 أكثر من اللازم . لماذا ؟ لم يحدث شيء . . .
 قال تشن : « فلنذهب لدى همليش ! »
 وساروا في الأزقة .

وتساءل سوين : « ماذا حدث ؟ »

فشرح له « تشن » الأمر . أما « بي » فقد ارتبك حين رأى أن تشن لم
 يغادر بمفرده حانوت العاديات ، وكان قد توجه الى الموضع المتفق عليه لالقاء
 القنبلة ، على بعد بضعة أمتار من الناصية . والقاعدة المتبعة في شنغهاي هي
 قيادة السيارة على اليسار . وكانت السيارة تنعطف في العادة انعطافا حادا ،
 وكان « بي » واقفا على الرصيف الأيسر لالقاء القنبلة عن كثر . غير أن
 السيارة كانت منطلقة بسرعة ، اذ لم يكن ثمة عربات في شارع الجمهوريتين

...فى هذه اللحظة ، ودارت فى المنعطف دورة واسعة وصلت فيها الى الرصيف الآخر ، ووجد « پى » نفسه بعيدا عنها ، تحول بينه وبينها عربة من عربات « الريكشو » .

قال تشن : « فلتذهب عربة الريكشو الى الجحيم ، فهناك آلاف من الكادحين الآخرين الذين لا يستطيعون أن يعيشوا الا من موت تشانج - كاي - شيك » .
- « كنت سأخطيء الهدف » .

أما « سوين » فلم يلق قنابله ، لأن احجام رفيقيه جعله يظن أن الجنرال لم يكن موجودا فى السيارة .

وتقدموا فى سيرهم صامتين بين جدران جعلتها السماء المصفرة المثقلة بالضباب حائلة اللون ، غارقين فى عزلة بائسة تحوطها النفائات تحت أقدامهم ، والأسلاك التلغرافية فوق رؤوسهم .

قال تشن بصوت خفيض : « ما زالت القنابل سليمة .. فلنحاول مرة أخرى » .

غير أن رفيقيه كانا محطمين ، ذلك أن من يفشل مرة فى الانتحار لا يعاود الكرة الا نادرا . وتوتر أعصابهما - الذى بلغ أقصاه - قد هبط الآن .
وكلما تقديما فى طريقهما حل اليأس مكان الدهول .

قال سرين : « انها غلطتى » .

وردد پى : « انها غلطتى » .

قال تشن نافذ الصبر : « كفى » واستغرق فى التفكير ، مواصلا هذا السير الكئيب . ينبغى ألا تكون المحاولة الثانية بنفس الطريقة . لقد كانت هذه الخطة رديئة ، غير أنه قد كان من العسير تخيل خطة أخرى .. فقد ظن أن .. ووصلوا الى همليش .

* *

وترامى الى همليش - فى مؤخرة حانوته - صوت يتحدث باللغة الصينية ، وصوتان آخران يردان عليه . واسترعت انتباهه نبرة الأصوات ،

وايقاعها الذى يشوبه القلق . فقال لنفسه : « بالأمس فقط لمحت شخصين يتسكعان هنا وكأنهما يعانيان من بواسير شديدة ، ولم يكونا بكل تأكيد يتسكعان لمجرد الاستمتاع . . » وكان من العسير عليه أن ينصت فى وضوح: فى الطابق العلوى كان الطفل يبكى بلا انقطاع . غير أن الأصوات سكنت ، ودلت الظلال القصيرة السارية على الرصيف على أن هناك ثلاثة أجسام . البوليس ؟ ونهض همليش ، وهو يفكر فى قلة الخوف الذى يستثيره فى نفوس المداهمين أنفه الأפטس وكتفاه البارزان الى الأمام وكأنه ملاكم مضروب ، ومشى نحو الباب . وقبل أن تصل يده الى جيبه ، تعرف تشن ، فمد اليه يده ، بدلا من أن يسحب مسدسه .

قال تشن : « فلنذهب الى مؤخرة الحانوت . »

وسار الثلاثة أمام همليش الذى أخذ يتفحصهم . ان كلا منهم يمسك حافظة ، وكلا منهم لا يمسكها فى اهمال ، بل يضغط عليها بعضلات ذراعه المتوترة .

قال تشن حالما أغلق الباب : « أصغ . . هل تستطيع أن تستضيفنا بضع ساعات ؟ نحن وما تضمه حوافظنا ؟ »

ـ « قنابل ؟ »

ـ « أجل . »

ـ « كلا . »

وفى الطابق العلوى ، واصل الطفل صياحه ، واستحالت صرخاته المؤلمة الى شهقات ، وأحيانا كانت تتحول الى نقيق ، وكأنه يبكى ليسرى عن نفسه ، وهو أمر أشد ايلاما ، وكانت الاسطوانات ، والمقاعد ، والجدران ، على حالها لم تتغير عن الليلة التى أتى فيها تشن عقب اغتياله « تانج - ين - تا » الى درجة أنه وهمليش قد تذكر هذه الليلة فى لحظة معا . ولم يقل « تشن » شيئا ، غير أن همليش تكهن بما يدور فى خلدته ، فاستأنف كلامه قائلا :

ـ « لا أستطيع أن أتحمل وجود قنابل هنا فى هذه اللحظة . فلو أنهم عثروا عليها هنا ، لقتلوا المرأة والطفل . »

ـ « فليكن .. هيا بنا لدى شيا »

و « شيا » هو تاجر المصاييح الذى زاره كيو فى الليلة السابقة على الثورة . « لن نجد فى هذا الوقت من النهار ، غير الصبى »

ـ « افهمنى يا تشن : الطفل مريض جدا ، والام ليست بخير .. »

وتطلع الى تشن ، مرتجف اليدين :

ـ « انك لا تستطيع أن تدرك يا تشن .. انك لا تستطيع أن تدرك

السعادة التى أنت فيها وأنت تنعم بحريتك ! .. »

ـ « بلى ، اننى أدركها »

وخرج الصينيون الثلاثة .

وناجى هملىش نفسه ساخطا : « لعنة الله ! لعنة الله ! لعنة الله ! ألا يمكن أن أوضع أبدا فى مكانه ؟ » وكان يلقي اللعنات فى نفسه بهدوء ، كأنه فى حالة استرخاء . وصعد السلم متمهلا صوب الغرفة . كانت امرأته الصينية جالسة ، وقد سددت بصرها على السرير ، ولم تلتفت اليه .

قال الصبى : « لقد كانت السيدة لطيفة اليوم .. فلم توجعنى تقريبا .. »

وكانت السيدة التى يتحدث عنها هى « ماى » . وتذكر هملىش ما قالته : « ماستوايديت .. يا صديقى المسكين ، ينبغى كسر العظام .. » ان هذا الصبى الذى لم يزل طفلا لم يكن يملك بعد من الحياة فى جسده الا ما يكفى لكى يجعله يتألم . وكان لابد من أن « تشرح له المسألة .. » أية مسألة ؟ انه من المفيد كسر عظام وجهه حتى لا يموت ، وحتى يكافأ بحياة ثمينة مرهفة كحياة أبيه ؟ وقد ظل يقول لنفسه طيلة عشرين عاما « يا لعهر الشباب ! » ترى كم سينقضى من الزمن قبل أن يقول : « يا لعهر الشيخوخة ؟ » وقبل أن ينقل الى هذا الصبى البائس هذين التعبيرين الكاملين عن الحياة ؟ فى الشهر السابق كانت القطة قد انزلت مخلب لها عن مكانه وكان لابد من الامساك بها الى أن يتم الطبيب البيطرى الصينى تثبيت المخلب فى مكانه ، فكانت القطة تن وثقاوم ، اذ لم تكن تدرك شيئا ، ولكنه أحس بأنها تعتقد أنها تعذب . ولم تكن القطة طفلا ، فلم تكن تقول : « انها لم توجعنى تقريبا .. » ونزل . واقتحمت رائحة الجثث التى تناهبتها الكلاب بلاشك ،

« الحانوت من الأزقة القريبة ، يصحبها شعاع حائر من أشعة الشمس .
فقال لنفسه : « ليس الألم هو ما ينقص هذا العالم » . »

ولم يغتفر لنفسه الرفض الذي تلقى به طلب تشن . وكان يعلم شأنه في ذلك شأن رجل اعترف بأسراره تحت ضغط التعذيب - أنه سيتصرف في المستقبل على النحو الذي تصرف به ، ومع ذلك فانه لا يغتفر لنفسه هذا التصرف . لقد خان شبابه ، وخان مطامحه وأحلامه . فكيف لا يخونهم ؟ « المهم هو أن يريد المرء ما يقدر عليه . . . » ولم يكن يريد ما لا يستطيعه ، وهو أن يقدم لتشن المأوى ، وأن يخرج معه . . . أجل . . . الخروج . التعويض بأي عنف كان ، بواسطة القنابل ، تلك الحياة القاسية التي تسممه منذ أن ولده ، بل التي تسمم أطفاله ، وأطفاله على الأخص . أما عذابه ، فكان من الممكن أن يتقبله : فقد اعتاد عليه . . . وأما عذاب أطفاله فهذا ما لا يستطيع أن يتحملة . « لقد أصبح ذكيا جدا منذ أن أصيب بالمرض » هذا ما قالتة ماي ، وكأنما كان ذلك عن طريق المصادفة .

ليته يخرج مع تشن ، ويتناول قبيلة من القنابل المخبأة في الحوائط ، ويلقيها . هذا هو المعقول ، بل الشيء الوحيد الذي له معنى في حياته الحاضرة . سبعة وثلاثون عاما . . . وربما بقيت أمامه في الحياة ثلاثون سنة أخرى . ولكن كيف يحيها ؟ أيعيش على هذه الاسطوانات الراقدة في المخزن والتي يتقاسم بؤسها مع لو - يو - شوين ، والتي لا تمكن الواحد أو الآخر من أن يعيش ، ثم ، حين ينحدر الى الشيخوخة . . . سبعة وثلاثون عاما ، الى أبعد ما تستطيع أن تعود به الذاكرة ، كما يقولون ، غير أن ذاكرته لا تستطيع أن تعود به الى شيء : فهي من أولها الى آخرها بؤس في بؤس .

كان تلميذا فاشلا في المدرسة ، يتغيب يوما كل يومين - وكانت أمه تدفعه الى أن يقوم بعملها لكي تستطيع أن تتعاطى الخمر في هدوء . في مصنع : فاعل ومشاغب ، فقد كان في الجيش ، محبوسا دائما . وفي الحرب ، استنشق الغازات السامة . . . لحساب من ؟ ولماذا ؟ أفي سبيل وطنه ؟ انه لم يكن بلجيكي ، بل كان بائسا . ولكن الجنود يأكلون في الحرب ، دون القيام بعمل كثير . ثم سرح من الجيش ، وأخيرا ، ذهب الى الهند الصينية على سطح سفينة . « الجو لا يسمح ها هنا بممارسة الحرف اليدوية . . »

ولكنه يسمح للمرء بأن يموت بالدوسنطاريا ، وعلى الأخص للأشخاص المعروفين .
بالشغب • ولقد أخفق في شنغهاي •• القنابل ، يا رحمة الله ، •• القنابل !

وكانت لديه زوجة ، وهي الشيء الوحيد الذي منحتة الحياة إياه ••
لقد بيعت باثني عشر دولارا • ولما هجرها الشاري لأنها لم تعد تعجبه ،
لجأت إليه مذعورة لكي تأكل وتنام • ولكنها لم تكن تنام في بداية الأمر ،
متوقعة منه أن يعاملها معاملة الأوروبيين الشريرة التي سمعت عنها دائما •
ولكنه كان طيبا معها ، فتخلصت شيئا فشيئا من ذعرها ، وأخذت تعتني به
أثناء مرضه ، وتعمل من أجله ، وتحتمل أزمات الحقد العاجز التي كانت
تفتابه • كانت متعلقة به تعلق الكلب الأعمى المضطهد ، وهي تظن في أعماق
نفسها أنه كلب أعمى مضطهد آخر • والآن ، قد أنجب طفلا • ماذا يستطيع
أن يصنع من أجله ؟ بالتأكيد أن يقوته • لم يبق له من القوة إلا ما يمكنه من
تعذيب الآخرين ، وفي العالم من الآلام ما يزيد على عدد نجوم السماء ، بيد
أن أشد هذه الآلام نكرا هو ذلك الألم الذي يستطيع أن يفرضه على زوجته ،
إذا مات وتركها وحدها • انه لأشبهه بجاره ذلك الروسي الجائع الذي كان
يعمل فاعلا في مصنع ، فانتحر ذات يوم لاشتداد بؤسه عليه ، ولم يكن من
زوجته التي جنت من الغضب إلا أن صفعت جثة الرجل الذي تركها مع أربعة
من الأطفال كانوا يقفون في أركان الغرفة • وقد سألها أحدهم : « لماذا
تتضاربان ؟ » أما زوجته وولده ، فانه يمنعهما من الموت •• وليس هذا
بالشيء القليل •• انه على كل حال أقل من لا شيء • ولو كان يملك شيئا
من المال يستطيع أن يتركه لهما ، اذن لكان حرا في قتل نفسه • وكان
العالم لم يكتف بأن عامله طيلة حياته تلك المعاملة القاسية التي تشبه الركل
في البطن ، فهو يضمن عليه بانكرامة الوحيدة التي يستطيع أن يملكها ••
ألا وهي موته • وراح يتنفس - مع ثورة كل شيء حي - فيستنشق بعمق ،
رغم تَعُودِهِ ، رائحة الجثث المنتنة التي تسوقها كل هبة ريح على أشعة
الشمس الساكنة ، فتنفذ الى صدره في رعب يشوبه الرضا ، وقد استولت
عليه ذكرى « تشن » وكأنه صديق يحتضر ، وهو يبحث - كما لو كانت
لذلك أهمية - عما يسيطر على نفسه : هو الخجل أم هي الأخوة أم هو الحسد
الضاري •

وغادر « تشن » ورفاقه الشارع الكبير مرة أخرى . ولم تكن الأزقة والحارات خاضعة لرقابة كافية ، لأن سيارة الجنرال لا تمر فيها . وحدث « تشن » نفسه قائلا وهو خافض الرأس ، ناظرا الى حذاءيه الوثيدين اللذين يتقدمان أمام ناظريه الواحد اثر الآخر : « يجب تغيير الخطة » . أمن الممكن عدم سيارة تشانج - كاي - شيك بسيارة أخرى قادمة من الاتجاه المضاد ؟ غير أن الجيش كان خليقا بالاستيلاء على كل سيارة . أما محاولة استخدام راية إحدى المفوضيات لحماية السيارة التي سوف يستخدمونها فأمر مشكوك فيه ، لأن البوليس يعرف سائقى الوزراء الأجانب . وإذا سددا الطريق بعربة من عربات الجر ؟ ان تشانج - كاي - شيك تسبقه دائما السيارة الفورد التي تقل حرسه الشخصى . وازاء هذا الاعتراض المريب ، سيطلق الحراس والبوليس المعلق على جانبي السيارة - الرصاص على كل من يحاول الاقتراب . وأصغى تشن : فقد كان رفاقه يتحدثون منذ لحظات .

قال پى : « سوف يتخلى كثير من القواد عن تشانج - كاي - شيك اذا علموا أنهم معرضون حقا للاغتيال . . فنحن وحدنا الذين نؤمن بما نفعل » . وقال سوين : « أجل . . . ان أبناء الذين أعدموا يصبحون ارهابيين ممتازين . » وكان الاثنان كذلك .

وأضاف پى : « أما بالنسبة للقواد الذين يبقون ، فحتى لو أنهم أقاموا الصين ضد مبادئنا ، فقد جعلوها دولة عظيمة ، لأنهم سيقومونها على دمائهم » . وهنا قال تشن وسوين فى صوت واحد : « كلا . » فكل منهما كان يعلم كيف ارتفع عدد الوطنيين فى صفوف الشيوعيين ، وبين المثقفين بوجه أخص . كان « پى » يكتب فى مجلات - سرعان ما تصدر - قصصا تشيع فيها مرارة راضية بأمرها فى أسى ، ومقالات استهل أحدثها بهذه العبارة : « وما دامت الامبريالية تعاني ضائقة ، فان الصين تفكر فى أن تهيب بأريحتها مرة أخيرة ، وأن تطلب منها أن تضع فى أنفها مكان الحلقة الذهبية حلقة من النيكل . . » وكان يعد من جهة أخرى ايدولوجية للارهاب . وقد كانت الشيوعية فى نظره - هى الوسيلة الحقيقية الوحيدة لحياء الصين .

قال سوين : « اننى لا أريد أن أصنع الصين . وانما أريد ان انقذ اهلى » . قال سوين : « اننى لا أريد أن أصنع الصين . وانما أريد ان انقذ اهلى » .

أقتل . . من أجلهم فحسب . . »
فأجابه تشن : « مادمنا نحاول اللقاء القنبلة ، لن تستقيم لنا الأمور . فما
أكثر فرص الاخفاق . . لابد اذن من الانتهاء من هذه العملية اليوم . »

قال پى : « ان تصرفنا على نحو آخر لن يكون أشد يسرا . »
- « ثمة وسيلة . »

وكانت السحب الواطئة النقيلة تتقدم فى اتجاه مسيرهم ، من تحت
الضوء المصفر وفى حركة المصائر المترددة ، المستبعدة معا . وأغمض « تشن »
عينه لكى يستغرق فى التفكير ، دون أن يتوقف عن السير قط ، وكان رفاقه
ينتظرون ، وهم ينظرون الى صورة وجهه الجانبية المقوسة التى تتقدم كالعادة
على طول الجدران .

- « ثمة وسيلة ، وأعتقد انه لا يوجد سواها : ينبغى ألا نلقى القنبلة ،
بل أن يرمى حاملها بنفسه معها تحت السيارة . »
واتصل المسير عبر أفنية خربة لم يعد يلعب فيها الأطفال . . وكان
الثلاثة غارقين فى التفكير .

وأخيرا وصلوا . . فقادهم مساعد « شيا » الى مؤخرة الحانوت ، وظلوا
واقفين وسط المصابيح ، وقد تأبطوا حوافظهم : وانتهى بهم الأمر الى وضعها
فى حذر ، وجلس « سوين » و « پى » القرفصاء على الطريقة الصينية .
- « لماذا تضحك يا تشن ؟ »

ولم يكن « تشن » يضحك ، بل يبتسم ، ابتسامة بعيدة عن السخرية
التي أضفأها عليها قلق « پى » . ونددهشته البالغة استولى عليه ضرب من
البشر ، وأصبح كل شئ بسيطا . وتبدد قلقه . وكان يعرف أى جزع يقلق
رفاقه ، على الرغم من شجاعتهم ، اذ أن اللقاء القنابل ، حتى ولو كان بأخطر
طريقة ، معناها المغامرة ، أما التصميم على الموت فكان شيئا آخر ، وربما كان
انعكس تماما . وشرع يذرع المكان جيئة وذهابا . ولم تكن مؤخرة الحانوت
مضاءة الا بنور النهار الذى ينفذ عبر المتجر . ولما كانت السماء رمادية ،
فقد ساد هناك ضوء ثقيل كالرصاص أشبه بالضوء الذى يسبق العواصف .

وفى تلك العتمة القذرة أخذت تلمع على بطون (الفوانيس) أشكال من الضوء ،
أشبه بعلامات استفهام مقلوبة ومتوازية • وكان ظل تشن المختلط اختلاطاً
لا يسمح له بأن يكون طيفاً - كان يتقدم فوق عيون الآخرين انقلقة •

- « كيو على حق • فان اشد ما نفتقر اليه هو احساس « الهاراكيري »
غير أن اليابانى الذى يقتل نفسه ، قد يصبح الها ، وهذه هى بداية الشعوذة •
كلا • ينبغى أن يسقط الدم على الناس - وأن يظل هناك • »

قال سوين : « اننى أؤثر أن أحاول النجاح - النجاح فى عدة محاولات
بدلاً من أن أقرر انقيام بمحاولة واحدة ، لأننى سأموت بسدها • »

ومع ذلك سرى تحت كلمات « تشن » تيار صادر من نبرتها أكثر من أن
يكون صادراً من معناها - وذلك حين عبر عن عاطفته باللغة الصينية ، فاتخذ
صوته قوة هائلة - تيار اجتذب سوين ، دون أن يعرف مصدر هذا
الانجذاب •

وأجاب تشن : « يجب أن ألقى بنفسى تحت السيارة • »

وتابعوه بنظراتهم ، دون أن يحركوا رقابهم ، بينما أخذ يبتعد ثم يقترب ،
أما هو ، فلم يعد ينظر اليهم • واصطدم بمصباح من المصابيح الموضوعة على
الأرض ، فاسترد توازنه عند الجدار • وسقط المصباح ، وتحطم وهو يرن •
بيد أنه لم يكن ثمة مجال للضحك • وبرز ظله الذى استعاد توازنه بروزا
مختلطا فوق رؤوسهم ، على الصفوف الأخيرة من المصابيح • وبدأ « سوين »
يفهم ما ينتظره منه تشن ، ومع ذلك قال بدافع من عدم الثقة بنفسه ، أو
دفاعاً ضد ما يتوقعه :

- « ماذا تريد ؟ »

ولاحظ تشن أنه لا يعرف ماذا يريد • وبدأ له أنه يناضل - لا ضد
سوين - ولكن ضد فكره الذى يفر منه ، وأخيراً قال :

- « ألا يضيع ذلك ؟ »

- « أتريد أن يتعهد « پى » وأن أتعهد أنا بتقليدك ؟ اهذا ما تريد ؟ »

– « ليس وعدا ما أنتظر .. انه حاجة »

وكانت الانعكاسات تتلاشى على المصابيح ، وأخذ نور النهار يضمحل في هذه الحجرة الخالية من النواند ، ولم يكن من شك أن السحب تتراكم في الخارج . وتذكر تشن جيسور : « حين يقترب المرء من الموت ، فان مثل هذه العاطفة تتطلع الى أن تنتقل الى غير ... وفجأة ، فهم ما تعنيه هذه الكلمات . كما فهم سوين أيضا :

– « أنت تريد أن تجعل من الارهاب نوعا من الدين ؟ »

وأخذ حماس « تشن » يتضخم ، وأصبحت الكلمات جميعا جوفاء لا معنى لها ، وأضعف من أن تستطيع التعبير عما يريد .

– « لا أعنى أن يكون دينا .. بل معنى الحياة .. والـ .. »

وأشار بيده اشارة تشنجية وكأنه يعجن ، وبدأ فكره لاهثا كالتنفس .
– « امتلاك الذات امتلاكا كاملا .. تاما .. مطلقا . الشيء الوحيد ..
الغرفة . التوقف عن البحث .. البحث كل الوقت عن أفكار وواجبات .
منذ ساعة لم أعد أشعر بما يثقل على نفسى .. أسمعون ؟ لا شيء . »

وكانت نشوته قد بلغت حدا لم يعد يحاول معه أن يقنعهم الا بأن يتحدث عن نفسه :

– « اننى أملك نفسى . ولكن دون أى تهديد أو قلق كما كان الحال دائما ، وأضغط عليها ، كما تضغط هذه اليد على اليد الأخرى – (وضغط على يده بكل قوته) ولكن هذا لا يكفي .. كما .. »

وتناول شظية من زجاج الصباح المحطم ، شظية كبيرة مثلثة الشكل ، مليئة بالانعكاسات .. وبضربة واحدة ، غرسها فى فخذه . وكان صوته المتهدج ممتلئا بثقة وحشية ، غير أنه كان يبدو مسيطرا على نشوته ، أكثر مما تسيطر نشوته عليه .. ولم يكن مجنونا بحال من الأحوال . وكان الاثنان الآخران يريان في مشقة ، ومع ذلك فقد كان ملء الحجرة . وبدأ «سوين» يشعر بالخوف :

– « اننى أقل منك ذكاء يا تشن ، ولكن .. بالنسبة لى أنا .. هذا

شيء لا يناسبنى • لقد شاهدت أبى معلقا من يديه ، وهو يضرب على بطنه بعضا من خيرزان ، لكى يعترف بالمكان الذى خبأ فيه سيده الأموال التى لا يملكها •• اننى أناضل من أجل قومى •• لا من أجل نفسى • «

– « من أجل أهلنا ، لا يمكنك أن تفعل أفضل من أن تقرر الموت •• ولا يمكن لتأثير أى انسان أن يقارن بتأثير الرجل الذى اختار هذا السبيل • ولو كنا قد قررنا ذلك ، لما أخفقنا فى اغتيال تشانج – كاي – شيك منذ لحظة •• وأنت تعرف ذلك • «

– « ربما كنت أنت فى حاجة الى ذلك •• لست أدري •• وكان يتخبط لتوضيح ما يريد أن يقول : « ولو كنت متفقا مع هذا الرأى – أتفهمنى ؟ – لبدأ لى أننى لا أقتل من أجل الجميع ، وانما •• «
– « وانما ؟ »

ولبت ضوء ذلك الأصيل الكدر ، مع أنه كاد يعتم تماما – هناك لا يريم، وكأنه باقى الى الأبد •
– « من أجلك • «

وأعادت رائحة البترول القوية الى ذاكرة تشن صفائح البنزين التى أشعلوا بها حريق مركز البوليس فى اليوم الأول من الثورة • غير أن كل شيء كان يغوص فى الماضى ، حتى سوين ، ما دام لا يريد أن يتبعه • ومع ذلك فإن الارادة الوحيدة التى كان فكره يتمثلها فى الحاضر دون أن تتحول الى عدم ، هى أن يخلق هؤلاء « القضاة » المقضى عليهم ، هذا الجنس من الأخذين بالتأثر • وكان مولد هذا الجنس يتم داخل نفسه كما تتم كل ولادة – فى حالة من التمزق والنشوة لا يستطيع أن يسيطر عليها • ولم يعد يحتمل أى محضر ، فنهض •

قال موجهها كلامه الى پي : « أنت يا من تكتب ، عليك بالشرح • «

وتناولوا حوافظهم ، ومسح پي نظارته ، ورفع تشن سرواله ، وربط قفذه بمنديل دون أن يغسل الجرح •• ولماذا يغسله ؟ ان الوقت لن يتاح له لكى يتلوث – قبل الخروج • وقال لنفسه فى شيء من القلق : « اننا نصنع دائما نفس الشيء » ، وكان يفكر فى السكين التى أغمدتها فى ذراعه •

قال : « سأرحل وحدي .. وسأكون وحدي كافيا هذا المساء . »
 فأجابه سوين : « سأحاول أن أضع خطة ما على الرغم من ذلك . »
 - « سيكون قد فات الأوان . »

وأمام الحانوت ، تقدم « تشن » خطوة متجها صوب اليسار ، وتبعه
 « بي » بينما ظل « سوين » بلا حراك .. ثم تقدم خطوة أخرى ، وتبعه « بي »
 أيضا . ولاحظ تشن أن هذا المراهق الذي يمسك نظارته بيده ، والذي
 يبدو وجهه الشبيه بوجه الأطفال دون نظارات أشد انسانية - لاحظ أنه
 يبكي في صمت .

- « الى أين تذهب ؟ »

- « آت معك . »

وتوقف تشن - لقد كان يعتقد دائما أنه يتبع رأى سوين ، فنبهه بإشارة
 من أصبعه الى أن هذا الأخير قد بقي أمام الباب .

فردد بي : « سأتي معك . »

كان يجاهد نفسه لكي لا يتفوه الا بأقل كلام ممكن ، وكان صوته غير
 بصوته ، وتفاحة آدم تهتز بسبب زفراته الصامتة .

- « لا . اليوم ، أشهد .. »

وغرز أصابعه في ذراع « بي »

وردد قائلا : « شهادة . »

وابتعد .. بينما بقي « بي » على الرصيف ، فاغر انقم ، وهو يمسح
 نظارته دائما فبدت هيئته مضحكة . انه لم يظن أبدا أن الانسان يمكن أن
 يكون وحيدا الى هذا الحد .

الساعة الثالثة

كان « كلابيك » يتوقع أن يجد كيو في منزله . ولكنه كان مخطئا : ففي
 الحجر الكبيرة كانت على السجادة رسومات أخذ يجمعها تلميذ من تلاميذ

چيسور يرتدى الكيمونو ، وكان چيسور يتحدث الى صهره : المصور
« كما » .

— « صباح الخير يا عزيزى . تعال بين أحضانى . »

وجلس فى هدوء .

— « من المؤسف ألا يكون ابنك موجودا . »

— « أتريد أن ننتظره ؟ »

— « فلنحاول . . اننى فى حاجة شيطانية الى رؤيته . ما هذه الصبارة الصغيرة الجديدة الموضوعة تحت منضدة الأفيون ؟ لقد أصبحت المجموعة جديرة بالاحترام ، بديعة . . يا صديقى العزيز . . بد . . ديدة . يجب أن أشتري واحدة منها . أين عثرت عليها ؟ »

— « انها هدية . . وقد أرسلت الى منذ أقل من ساعة . »

وطالع كلابيك الحروف الصينية المنقوشة على الحامل المسطح للنبات :
كلمة « الوفاء » بحروف ضخمة ، وثلاث كلمات صغيرة ، وتوقيع : « تشن -
تا - يل ايل . »

— « تشن - تا - ايل . . تشن » . - لا أعرفه . . يا نلخسارة . . انه
فتى خبير فى أنواع الصبار . »

وتذكر أنه يجب أن يرحل غدا . . ولا بد أن يحصل على نفقات الرحيل ،
لا أن يشتري صبارا . . ومن المحال أن يبيع التحف الفنية على عجل فى مدينة
محتلة عسكرية . . وقد كان أصدقاؤه فقراء ، ولن يسمح فيرال باقراضه
لو تقدم اليه بأية ذريعة . . وكان قد كلفه بأن يشتري نه بعض لوحات .
« كما » الملونة ، حين يصل المصور اليابانى . وهذا لا يعنى أكثر من بضعة
عشرات من الدولارات هى قيمة هذا التكليف . .

قال چيسور : « كان ينبغى أن يكون كيو هنا . . لقد أعطى مواعيد
كثيرة اليوم . . أليس كذلك ؟ . . »

فزجر كلابيك قائلا : « ربما كان من الأفضل أن يخلفها جميعا . »

ولم يجرؤ على أن يضيف شيئاً ، فقد كان يجهل ما يعرفه چيسور عن نشاط كيو . غير أن امتناع چيسور عن القاء أى سؤال كان بمثابة اهانة له :

« انك تعلم أن الأمر جد خطير . »

« ان كل ما يمس كيو خطير بالنسبة الى . »

« أليست لديك أية فكرة عن الوسائل التى يستطيع بها المرء أن يكسب أو أن يجد فوراً أربعمئة أو خمسمئة من الدولارات ؟ »

وابتسم چيسور فى حزن . وكان كلابيك يعرف أنه فقير ، وحتى لو قبل أن يبيع تحفه الفنية ، فانها ..

وقال البارون لنفسه : « فلنكسب اذن دراهمنا القليلة . » واقترب ، ونظر الى اللوحات المتناثرة على المتكأ . وعلى الرغم من أنه كان من رهافة الحس بحيث لا يحكم على الفن اليابانى التقليدى بمقارنته بسيزان أو بيكاسو ، فانه كان اليوم بغیضاً الى نفسه : ذلك أن السكينة فى الفن لا يكاد يتذوقها الأشخاص المطاردون . هذه مناظر النيران الضائعة فى الجبل ، وطرقات القرية التى تذيبها الأمطار ، وتحلىق طائر البشروش على الجليد ، وكل هذا العالم الذى فيه تمهد الكتابة للسعادة .. وتخيل كلابيك .. واأسفاه ! تخيل دون عناء ، الفراديس التى كان عليه أن يقف عند أبوابها ، ولكنه كان ساخطاً على وجودها .

قال : « ان أجمل امرأة فى العالم عارية ، منفعة ، ولكن مع حزام العفة .. انها لفيرال ، وليست لى أنا .. فلنعد الى ما تحت الأرض . »

وانتقى أربع لوحات ، وأملى عنوانه على تلميذ الرسام . قال چيسور : « مادمت تفكر فى فننا ، انما هذا الفن لا يؤدى نفس الغرض . »

« لماذا ترسم يا كاما - سان ؟ »

ونظر الأستاذ العجوز الى كلابيك فى فضول ، وقد سطع النور على رأسه الصلعاء ، وهو فى رداء الكيمونو كشميذه ، اذ يؤثر دائماً أن يكون بالروب بنى سامر ، وبهذا كان كلابيك هو وحده الذى يرتدى سروالا .

وترك التلميذ الرسم التخطيطي ، وترجم ثم أجاب :

- « يقول الأستاذ : اننى أرسم أولا من أجل زوجتى . . . لاننى أحبها . »

- « لم أسألك لمن ترسم ، وانما لماذا ترسم ؟ »

- « يقول الأستاذ : أن هذا أمر يصعب شرحه لك . ويقول : عندما ذهبت الى أوروبا ، شاهدت المتاحف . وكلما رسم مصوروكم تفاحا ، بل خطوطا لا تمثل أشياء ، فانهم يتحدثون عن أنفسهم . أما بالنسبة لى ، فالعالم هو المهم . »

وأضاف « كما » جملة أخرى ، وكان التعبير الذى ارتسم على وجهه يوشك أن يكون تعبيرا عذبا أشبه بتعبير المرأة العجوز المتساحمة .
- « والأستاذ يقول : ان التصوير عندنا هو ما يمكن أن يسمى عندكم بالاحسان . »

ودخل تلميذ آخر - يعمل طباحا - حاملا سلطانيات مليئة « بالنسائي » ثم انسحب .

- « ويقول الأستاذ انه اذا توقف عن الرسم بداله أنه قد أصبح أعمى . . بل أكثر من أعمى . . أصبح وحيدا . »

فقال البارون وقد فتح احدى عينيه وأغمض الأخرى ورفع سبابته :
« دقيقة واحدة . . اذا قال لك طبيب : « أنت مصاب بمرض لا علاج له ، وستموت فى ظرف ثلاثة شهور » فهل تواصل الرسم ؟ »

- « يقول الأستاذ انه لو علم أنه يوشك أن يموت ، فانه يعتقد أنه سيرسم أفضل ولكن على النحو نفسه . »
وتساءل چيسور : « ولماذا أفضل ؟ »

انه لا يكف عن التفكير فى كيو . وان ما قاله كلابيك حين دخوله يكفى لاقلاقه : ان السكنينة اليوم تكاد أن تكون اهانة .

وأجابه كما ، بينا أخذ چيسور يترجم بنفسه :

ـ « انه يقول : هناك ابتسامتان : ابتسامة زوجتى ، وابتسامة ابنتى ،
فيهما أفكر حينما أعتقد اننى لن أراهما بعد أبدا ، واذا ذاك سيزداد حبى
للحزن . ان العالم أشبه بحروفنا الأبجدية . ان ما تمثله الكلمة المرسومة
بالنسبة للزهرة ، تمثله الزهرة نفسها (وأشار الى احدى اللوحات) بالنسبة
لشئ ما . . كل شئ علامة . . والاتجاه من العلامة الى الشئ المدلول ، معناه
تعمق العالم ، والاتجاه صوب الله . انه يعتقد أن اقتراب الموت . . ولكن
انتظر . . . »

وسأل كاما من جديد ، ثم استأنف الترجمة :

ـ « أجل . . هذا صحيح . انه يعتقد ان اقتراب الموت ربما سمح له
بأن يضع فى الأشياء جميعا لونا من الشغف والحزن ، لكى تصبح جميع
الأشكال التى يرسمها علامات مفهومة ، وحتى يتكشف ما تعنيه ، وما تحجبه
أيضا . »

وكان يسرى فى كلابيك احساس بالعذاب ازاء كائن ينكر الألم ، فأصت
فى انتباه ، دون أن يتحول نظره عن وجه كاما الزاهد المتسامح ، بينما
چيسور يترجم ؛ لقد ضم مرفقيه الى جسمه وضم راحتيه ، وما أن يعبر وجه
كلابيك عن الفهم حتى يتخذ هيئة فرد حزين يرتجف من البرد .

قال چيسور : « لعلك لم تصغ السؤال صياغة سليمة جدا . »
وقال باللغة اليابانية جملة قصيرة جدا . . وكان « كاما » يرد حتى الآن
على الفور ، ولكنه أطل التفكير قبل أن يرد هذه المرة .

فسأله كلابيك بصوت هامس : « ما السؤال الذى وجهته اليه الآن ؟ »

ـ « ماذا يفعل لو أنباء الطبيب بأن زوجته ستموت بعد قليل . »

ـ « يقول الأستاذ : انه فى هذه الحالة لن يصدق الطبيب . »

وعاد التلميذ الطباخ وحمل السلطانية على صينية . . وكانت حلتة
الأوروبية ، وابتسامته ، وحركاته التى جعلها السرور أقرب الى المبالغة ،
بل حفاوته أيضا . . كان كل ما فيه يبدو غريبا حتى فى نظر چيسور نفسه .
وقال كاما بصوت هامس جملة لم يترجمها التلميذ الآخر .

قال جيسور : « هؤلاء الشبان لا يشربون الخمر مطلقا فى اليابان ، وقد استاء الأستاذ لأن تلميذه مخمور . »

وشردت نظرتة ، فقد فتح الباب الخارجى ، وتلا ذلك وقع أقدام . .
ولكنه لم يكن كيو . . وصارت نظرتة محدودة مرة أخرى ، واستقرت فى حزم
على عيني كاما :

– « واذا ماتت ؟ »

أكنّا من الممكن أن يتابع هذا الحوار مع شخص أوروبى؟ انما ينتمى هذا
المصور العجوز الى عالم آخر . وقبل أن يجيب ارتسمت على جفنيه – لا على
شفتيه – ابتسامة طويلة حزينة .

– « يستطيع المرء أن يتواصل حتى مع الموت . . وهذا أصعب الأشياء ،
ولكن ، قد يكون هذا هو معنى الحياة . . »

واستأذن فى الانصراف، وعاد الى حجرته يتبعه تلميذه ، وجلس كلاييك .

– « لا كلمة . . عظيم . . يا عزيزى . . ع . . عظيم . . لقد انصرف
كشبح مهذب جدا . هل تعلم ان الأشباح الشابة تفتقر الى التهذيب ، وأن
الأشباح الشيوخ يجدون أشد العناء فى تعليمها طريقة تخويف الناس ، ذلك
أن الأشباح الشابة تجهل كل لغة . . ولا تستطيع أن تقول الا ثرب –
ثرب . . وهذا . . . »

وتوقف عن الكلام . . مطرقة الباب مرة ثانية . وبدأت ترن فى هذا
السكون نغمات قيثاره لم تلبث أن انتظمت ، وأخذت تتساقط فى بطنه ،
وهى تفتتح فى هذا السقوط حتى بلغت النغمات الغليظة فاستقرت هناك
طويلا ، ثم تبددت أخيرا فى سكونة مهيبة .

– « ما هذا . . . معنى هذا ؟ »

– « انه يعزف على الشاميزان . وهو يعزفه دائما حين يكدره شئ . .
وهذا دفاعه عن نفسه حين يكون خارج اليابان . وقد قال لى بعد عودته من
أوريا : وأعرف الآن أننى أستطيع ان اجد فى اى مكان سكونى الباطنى . . . »

– « ادعاء ؟ »

كان كلابيك قد ألقى سؤاله وهو شارد الذهن ، اذ كان يصغى • ففى هذه الساعة التى ربما كانت حياته فيها مهددة بالخطر (وان يكن من النادر أن يهتم بنفسه اهتماما يكفى لكى يشعر بأنه مهدد حقا) أقلقته هو أيضا هذه النغمات الخائصة التى ردت الى نفسه ، والى حبه للموسيقى الذى عاش معه فى شبابه ، ذلك الشبَاب وكل ما تحطم معه من سعادة •

وقع أقدام مرة أخرى : لقد دخل كيوفعلا •

وصحب كيوفعلا كلابيك الى حجرته • • ولم يكن بها سوى متكأ ، ومقعد ، ومكتب وجدران بيض • • فكل ما فيها ينم عن تقشف مقصود • وكان الجو حارا • • فألقى كيوفعلا بسترته على المتكأ وظل بصدارة الصوفى •

قال كلابيك : « اليك هذا • • لقد أبلغونى بمعلومات سرية ، تخطيء لو أنك لم تحسب لها أعظم الحساب : اذا لم نرحل عن هذا المكان قبل مساء غد ، فنحن من الهالكين • »

— « من أى مصدر استقيت هذه المعلومات ؟ من البوليس ؟ »

— « مرحى • من العبث أن أقول لك : اننى لا أستطيع أن اخبرك بأكثر من ذلك • غير أن هذا أمر جدى • ان قصة الزورق قد عرفت • التزم الهدوء ، واهرب قبل تمان وأربعين ساعة • »

وكان كيوفعلا يوشك أن يقول : « لم يعد فى الأمر جريمة مادامنا قد انتصرنا » ولكنه ظل صامتا • ولشدة توقعه قمع حركة العمال ، لم يندهش • وأصبح الأمر أمر الانشقاق ، وهذا ما لم يكن كلابيك يستطيع أن يتكهن به ، واذا كانوا يطاردون كلابيك ، فذلك لأن الشيوعيين قد استولوا على « شان — تونج » ولأنهم يعتقدون أنه مرتبط بهم •

واستطرد كلابيك : « ماذا أنت صانع ؟ »

— « التفكير أولا • »

— « يا لها من فكرة ناقبة ! وهل لديك شيء من المال للهرب ؟ » فهز كيوفعلا كتفيه وهو يبتسم •

— « لا أنتوى الهرب • » ثم استأنف كلامه بعد برهة :

– « وليس معنى ذلك أن معلوماتك ليست على أكبر جانب من الأهمية بالنسبة لى . »

– « أليست لديك نية الهرب . أنت تفضل أن يقطعوا رقبتك ؟ »

– « ربما . ولكنك تريد الرحيل . . أنت ؟ »

– « ولماذا أبقي ؟ »

– « كم يلزمك ؟ »

– « ثلاثمائة ، أربعمائة . . »

– « ربما استطعت أن أعطى لك جزءا منها . اننى أود أن اساعدك . . ولا تعتقد أننى أتخيل بذلك رد الخدمة التى تسديها لى . . »

وابتسم كلايبك فى حزن . انه لم يخطيء فهم رقة كيو، ولكنه تأثر بها . .
وواصل كيو كلامه قائلا : « أين ستكون هذا المساء ؟ »

– « حيثما تشاء . »

– « كلا . »

– « فلنقل اذن فى « القط الأسود » . . اذ يجب أن أبحث عن أموالى القليلة بطرق شتى . »

– « فليكن . . فهذا المنتدى الليلي يقع فى منطقة الامتيازات ، ومن ثم لا وجود فيه للبوليس الصينى . وخطر الخطف هناك أقل منه هنا : اذ يوجد عدد كبير من الناس . . وسأمر هناك بين الساعة الحادية عشرة ، والحادية عشرة والنصف ، ولكننى لن أتأخر عن ذلك ، لأن لدى موعدا بعد ذلك . . »

وحول كلايبك نظرتة بعيدا .

– « . . مصمم على ألا أخلفه . . هل أنت واثق من أن « القط الأسود » لن يكون مغلقا ؟ »

– « جنون . انه سيكون مليئا بضباط تشانج – كاي – شسيك . . . وستكون حللهم الرسمية المظفرة معقودة أثناء الرقص بأجساد الغوانى كأجل ما تكون العقود . سأنتظر اذن وأنا أقأمل فى انتباه هذا المشهد المحتوم الى حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف . »

ـ « هل تعتقد أنك تستطيع الحصول على مزيد من المعلومات هذا المساء ؟ »

ـ « سأحاول . »

ـ « ولعلك تسدى لى بذلك خدمة عظيمة . . خدمة أعظم مما تستطيع أن تتصور . وهل ذكرونى بالاسم ؟ »

ـ « أجل . »

ـ « ووالدى ؟ »

ـ « كلا . . والا كنت قد أبلغته . . فلم يكن له شأن اطلاقا بمسألة شان - تونج . . »

وكان كيو يعلم أنه لا داعى للتفكير فى شان - تونج ، وانما ينبغى التفكير فيما يبيت من قمع الثورة . . وماى ؟ لقد كان دورها من قلة الأهمية بحيث لم يجد ثمة داع لان يسأل عنها كلاييك . أما بالنسبة لرفاقه ، فانه اذا كان مهددا ، فانهم بالتالى مهددون جميعا . .

ـ « شكرا . »

وعادا معا . وفى غرفة العنقاء كانت « ماى » تقول لچيسور :

ـ « هذا أمر صعب للغاية : فلو منح الاتحاد النسائى حق الطلاق للنسوة اللواتى تساء معاملتهن ، لترك أزواجهن الاتحاد الثورى ، واذا لم نمنحهن هذا الحق ، فانهن يفقدن كل ثقة بنا . . ولن يكن حينذاك على خطأ . . »

قال كير : « فيما يتعلق بالتنظيم أخشى ألا يكون الوقت مبكرا جدا أو قد فات أوانه . »

وانصرف كلاييك ، دون أن يسمع شيئا .

وقال لچيسور : « كن كريما كعادتك ، واعطنى صبارتك . »

ـ « اننى أحب الفتى الذى بعث بها الى . . ولك أن تأخذ أية واحدة سواها ، بكل سرور . »

وكانت صبارة صغيرة غزيرة الشعر .

— « لا فائدة اذن . »

— « الى لقاء قريب . »

— « الى لقاء . . . كلا . . . ربما . . . الى اللقاء يا عزيزى . . . الرجل الوحيد الذى لا وجود له فى شنغهاى . . . لا كلمة — الذى لا وجود له على الاطلاق ! — يحييك . »

• وخرج •

وكانت ماى وچيسور ينظران الى كيو فى قلق ، فشرح لهما الأمر على الفور :

— « لقد علم من البوليس أننى موجود فى القائمة ، فأشار على ألا أتحرك من هذا المكان ، الا للهروب قبل مضى يومين . . . ومن جهة أخرى ، أصبح قمع الثورة وشيكا . . . وقد غادرت المدينة آخر كتائب الفيلق الاول . »

وكان هذا هو الفيلق الوحيد الذى يستطيع الشيوعيون الاعتماد عليه . وكان « تشانج — كاي — شيك » يعرف ذلك ، فقد أمر قائده أن ينضم الى الجبهة بجنوده . . . فاقترح هذا الأخير على اللجنة المركزية الشيوعية أن تلقى القبض على تشانج — كاي — شيك وأشاروا عليه بأن يكسب الوقت ، وأن يتظاهر بالمرض — ولكنه سرعان ما وجد نفسه أمام انذار نهائى . ولما كان لا يجرؤ على القتال دون موافقة الحزب ، فقد غادر المدينة محاولا أن يترك بعض الجنود فقط ، والآن قد غادر هؤلاء المدينة بدورهم . »

واستطرد كيو قائلاً : « ولكنهم لم يبتعدوا كثيرا عن المدينة ، بل ان الفيلق نفسه يستطيع أن يعود ، لو احتفظنا بالمدينة فى أيدينا وقتا كافيا . »

وفتح الباب مرة أخرى ، وأطل أنف ، وقال صوت — كأنه صادر عن كهف : « البارون كلابيك لا وجود له . »

وأغلق الباب من جديد . وتساءل كيو :

— « ألم تصل أنباء عن هنكيو ؟ »

— « لا شيء . »

وكان كيو قد قام سرا منذ عودته بتنظيم فرق القتال ضد تشانج - كاي - شيك ، كما سبق أن نظمها ضد الشماليين . وكانت « الدولية » قد رفضت كل شعارات المعارضة ، ولكنها قبلت الاحتفاظ بفرق الهجوم الشيوعية . ومن فرق المجاهدين الجديدة كان كيو ورفاقه يريدون أن يصنعوا منظمى الجماهير التى أخذت تتجه كل يوم الآن نحو النقابات ، غير أن الخطب الرسمية التى كانت تصدر عن الحزب الشيوعى الصينى ، وكل ما تروجه الدعاية عن الاتحاد مع الكومنتانج ، كان يشل حركتهم ، ولم تؤيدها سوى اللجنة العسكرية وحدها . ولم يتم تسليم الأسلحة كلها ، غير أن تشانج - كاي - شيك - قد اشترط فى هذا اليوم بالذات تسليم الأسلحة التى ما زال الشيوعيون محتفظين بها . وأبرق كيو واللجنة العسكرية ببدء أخير الى هانكيو .

كان چيسور الشيخ قلقا ، لأنه كان متتبعا للأحداث هذه المرة . كان على يقين - شأنه فى ذلك شأن « كيو » - من أن تشانج - كاي - شيك سيحاول تحطيم الشيوعيين ، وكذلك كان يعتقد مثله أن اغتيال الجنرال سيصيب من الرجعية مقتلا . ولكنه كان يمقت طابع التآمر الذى تتسم به حركتهم الحالية . ذلك أن موت تشانج - كاي - شيك ، بل الاستيلاء على حكومة شنغهاى . . لن يؤدى الا الى المغامرة . وكان يحبذ ، مع بعض أعضاء « الدولية » الآخرين ، عودة الجيش الحديدى والجناح الشيوعى من الكومنتانج الى كانتون : فهناك يستطيع الشيوعيون بالاعتماد على مدينة ثورية وعلى ترسانة نشطة مجهزة - يستطيعون الاستقرار وانتظار اللحظة المناسبة للقيام بحملة جديدة على الشمال ، وهى اللحظة التى يعدها فى عمق رد الفعل الوشييك . وقد كان قواد هنكيو متعطشين الى غزو الأراضى ، ولكنهم لم يكونوا كذلك بالنسبة لجنوب الصين ، حيث النقابات المخلصة لهؤلاء الذين يمثلون ذكرى « صن - يات - سن » خليقة بأن ترغمهم على حرب عصابات دائمة وقليلة الجدوى . وبدلا من أن يقع على الجيش الأحمر واجب محاربة الشماليين ، ثم تشانج - كاي - شيك ، فان تشانج - كاي - شيك هو الذى سيتولى على هذا النحو مهمة محاربة الشماليين . وأيا كان العدو الذى سوف يلتقى به الجيش الأحمر بعد ذلك فى كانتون ، فانه لن يلقى الا عدوا قد ضعف . وكان چيسور يقول عن قواد الجيش : « ان الحمير مفتونة بجزرها بحيث أنها لن تقدم على عضنا اذا لم نضع أنفسنا بينها وبين

«الجزر ٠٠» ومع ذلك ، فقد كانت الغالبية العظمى من الحزب الشيوعي الصينى ، وربما موسكو أيضا - تصف هذا الرأى بأنه نزعة الى «التصفية» .

وكان كيو يعتقد - كما يعتقد والده - أن أفضل سياسة هي العودة الى كانتون . بل كان يود فضلا عن ذلك لو مهد بدعاية واسعة النطاق لهجرة العمال بأجمعهم (وهو لا يملكون شيئا يأسفون على فراقه) من شنغهاى الى كانتون . كانت خطة صعبة جدا ، ولكنها ليست مستحيلة : فاذا كان من الممكن ضمان أسواق المقاطعات الجنوبية ، فان جماهير العمال تستطيع أن تقوم بتصنيع كانتون تصنيعا سريعا . بيد أنها سياسية خطيرة بالنسبة لشنغهاى : ذلك أن عمال النسيج على حظ من الدربة ، أما تدريب عمال جدد فمعناه تكوين ثوريين جدد ، اللهم الا اذا رفعت الأجور ، ولا بد أن يقول فيرال : « ان هذا الافتراض مستبعد نظرا للحالة الحاضرة التى تعانيها الصناعات الصينية » . وهذا معاه تخريب شنغهاى لتعمير كانتون ، كما حدث فى هونج كونج سنة ١٩٢٥ . وهونج كونج على بعد خمس ساعات من كانتون ، أما شنغهاى فعلى بعد خمسة أيام . انه مشروع صعب ولعله أصعب من أن يجابهوا الموت ، ولكنه أقل غباء .

وكان مقتنعا - منذ عودته من هانكيو - أن الرجعية تستعد . ولو لم يخطره كلابيك ، فقد كان ينظر الى الموقف فى حالة هجوم جيش تشانج - كاي - شيك على الشيوعيين بأنه باعث على اليأس الى درجة أن كل حدث حتى ولو كان اغتيال الجنرال (أيا كانت العواقب) قد أصبح مفيدا . وان تم تسليح النقابات ، استطاعت أن تحاول فى جهد محاربة جيش غير منظم .

ودق جرس الباب مرة أخرى ، فجرى كيو الى الباب : انه ساعى البريد يحمل أخيرا رد هانكيو . ونظر اليه أبوه « وماى » عائدا ، دون أن يقولا شيئا .

قال : « أمر بدفن الأسلحة » .

وتحولت الرسالة الممزقة الى كرة موضوعة فى تجويف يده ، وتناول قطع الورق ، ونشرها على منضدة الأفيون ، وأخذ يقرب بينها ، ثم هز كتفيه ساخرا من صبيانيتها . لقد كان الأمر واضحا باخفاء الأسلحة أو دفنها .

ـ « يجب أن أذهب على الفور الى هناك . »

وكانت « هناك » تعنى « اللجنة المركزية » . كان لابد اذن من مغادرة مناطق الامتيازات . . وكان چيسور يعلم أنه لا يستطيع أن يقول شيئا . ربما كان ابنه ذاهبا لملاقاة الموت . . غير أنها لم تكن المرة الأولى . . فقد كانت هذه الطريقة هى التى تضى على حياته معناها . وعلى هذا لم يكن أمام چيسور الشيوخ الا أن يتألم ويصمت . وكان قد أخذ معلومات كلابيك مأخذ الجد . . ففى بكنين أنقذ كلابيك ذات مرة ذلك الألمانى الذى يشرف الآن على بوليس تشانج ـ كاي ـ شيك واسمه « كونيچ » بأن حذره من المذبحة التى سوف يذهب ضحيتها أصحاب القيادة ، وكان كونيچ أحدهم . ولم يكن چيسور يعرف « تشبيلفسكى » واذ التقت نظرة كيو بنظرته ، حاول أن يبتسم ، فحاول كيو أيضا أن يبتسم ، ولم تفرق نظراتهما فلقد كان الاثنان يعلمان أنهما يكذبان ، وان هذا الكذب ربما كان أرق اتصال روحى بينهما .

وعاد كيو الى حجرته ، حيث كان قد ترك سترته . . وكانت « ماى » ترتدى معطفها :

ـ « الى أى تذهبين ؟ »

ـ « معك ، يا كيو . »

ـ « ولماذا ؟ »

قال : « أسهل عليهم أن يتعرفونا معا من أن يتعرفونا منفصلين . »

ـ « كلا ، لماذا ؟ اذا استدلوا عليك ، فهذا نفس الشيء . . »

ـ « لن يكون لمخاطرتك أى نفع . »

ـ « وما نفعى هنا خلال هذا الوقت ؟ ان الرجال لا يعرفون ما يعنيه

« الانتظار . . »

فتقدم بضع خطوات ، ثم توقف ، واستدار اليها :

ـ « أصغى الى يا ماى : عندما كان الأمر يتعلق بحريتك . . اعترفت بها . »

وفهمت الام يقصد بهذا التلميح ؛ وشعرت بالخوف : وكانت قد نسيته

هذا الموضوع .. والواقع ، أنه أضاف بلهجة أشد اختناقاً :

- « .. وقد عرفت كيف تأخذينها .. والأمر يتعلق الآن بحريتي أنا . »
- « ولكن .. أى علاقة بين هذا وذاك يا كيو ؟ »
- « الاعتراف بحرية شخص آخر ، معناه تأييده ضد ألمه الخاص .
واننى أعرف ذلك بالتجربة . »
- « وهل أنا شخص آخر يا كيو ؟ »

والتزم الصمت من جديد ، أجل ، لقد كانت فى هذه اللحظة شخصاً
آخر . شىء ما قد تغير بينهما .

واستطردت قائلة : « اذن ، فلأننى قد .. أخيراً ، وبسبب ذلك ،
لا نستطيع الآن أن نواجه الخطر معا ؟ .. أمعن الفكر يا كيو .. يكاد المرء
يعتقد أن تصرفك هذا نوع من الانتقام .. »

- « ألا نستطيع ذلك الآن ، وأن نلتمس الخطر حين لا يجدى التماس
الخطر ، هذان أمران مختلفان . »

- « ولكن ، اذا كنت تحقد على الى هذا الحد ، فما كان عليك الا أن تتخذ
لك عشيقة .. ولكن كلا ؟ لماذا أقول ذلك ، انه ليس حقاً .. فأنا لم أتخذ
حبيباً وانما ضاجعت شخصاً ، وهذا شىء مختلف ، وأنت تعلم جيداً أنك
تستطيع أن تضاجع من تشاء .. »

فأجاب فى مرارة : « أنت تكفينى . »

وأدهشت ماى نظرتة ، التى امتزجت فيها العواطف جميعاً ، ولعل أشدها
اثارة على وجهه كان ذلك التعبير القلق الذى ينم عن لذة يجهلها هو نفسه .

واستأنف حديثه قائلاً : « ان مشاعرى فى هذه اللحظة هى نفسها منذ
أسبوعين .. ان ما أريده ليس ان أضاجع . ولم أقل أنك مخطئة ، وانما
قلت اننى أريد أن أرحل وحدي . والحرية التى تعرفينها فى هى حريتك ..
حرية أن تفعل ما يعجبك أنت . الحرية ليست تبادلاً .. ولكنها الحرية . »

- « هذا هجران .. »

صمت .

ـ « لماذا يقف شخصان متحابان أمام الموت ـ أى كيو ـ ان لم يكن ذلك لكى يواجهاه معا ؟ »

وخمنت أنه سيرحل دون مناقشة فحالت بينه وبين الباب .
قالت : « ما كان ينبغى أن تمنحنى هذه الحرية ، اذا كانت ستفرق بيننا الآن . »

ـ « انك لم تطلبها . »

ـ « لقد اعترفت بها الى أولا . »

وقال لنفسه : « كان ينبغى ألا تصدقيني . » وكان هذا حقا ، فلقد اعترف بحريتها دائما ، غير أن مناقشتها فى هذه اللحظة عن حقوقها أبعداها عنه أكثر فأكثر .

قالت فى مرارة : « ثمة حقوق لا تمنح الا لكى لا تستخدم . »

ـ « لو أن هذه الحقوق لم تمنح الا لكى تتعلقى بها فى هذه اللحظة ، فليس ذلك بالأمر السيء . »

وفرقت بينهما هذه اللحظة أكثر مما يفعل الموت : هذه الجفون ، وهذا الفم ، وهذان الخدان . . وموضع الملاطفات جميعا ظاهر على وجه ميتة ، وهاتان الوجنتان العاليتان ، وهذان الجفنان المسحوبان . . أصبحت جميعا تنتمى الى عالم غريب . وجراح الحب العميق تكفى لخلق حقد عنيف . فهل تتراجع وهى القريبة هذا القرب من الموت ـ هل تتراجع الى عتبة عالم العداوة هذا الذى اكتشفته ؟ قالت :

ـ « أنا لا أتعلق بشيء ـ أى كيو ، فلنقل اننى مخطئة ، أو كنت مخطئة ، اذا كان هذا هو ما تريده ، ولكن ، الآن وفى هذه اللحظة أريد أن أرحل معك فورا . . أرجوك . »

وظل صامتا .

فواصلت كلامها قائلة : « اذا كنت لا تحبنى ، فلي يهتك أن تتركنى أرحل معك . . فماذا اذن ؟ لماذا نعذب أنفسنا ؟ »

١ وأضافت وهى منهكة القوى : « وكان هذه هى اللحظة المناسبة للاختيار . »

وأحس كيو أن شياطين مألوفة له تتحرك داخل نفسه . وتبعث فيها التقزز . وود لو يضربها ، وأن يضربها فى حبها له بالذات . انها على حق : فلو أنه يحبها ، ماذا يهمه لو أنها ماتت ؟ ولعل ارغامها له على أن يفهم هذا المعنى فى هذه اللحظة . هو أشد ما كان يثير عداؤه لها .

أكانت تريد أن تبكى ؟ لقد أغمضت عينيها ، وبدأ ارتعاد كتفيها المستمر الصامت ، فى تناقضه مع قناع وجهها الجامد ، بدأ أبلغ تعبير عن الكرب الانسانى . ولم تعد ارادته وحدها هى التى تفرق بينهما ، بل كان يفرق بينهما الألم . ولكن ، اذا كان الألم يفرق فان مشهد الألم يقرب ، ولهذا فقد وجد نفسه منجذبا نحوها من جديد مدفوعا برؤية هذا الوجه الذى أخذت أهدا به ترتفع شيئا فشيئا ، وكأنها مأخوذة بالاعجاب . . . وفوق عينيها المغمضتين ، توقفت حركة الجبين ، وعلى حين بغتة استحال هذا الوجه المتوتر الذى ظل جفناه مسبلين . . . الى وجه امرأة فارقتها الحياة .

وكان كثير من التعبيرات التى تعترى وجه « ماى » لا تأثير له عليه ، فقد كان يألفها ، وكان يبدو له أنها تحاكي نفسها دائما ، ولكنه لم يشاهد قط قناع الموت هذا - الألم لا النوم - مرتسما على عينيها مغمضتين ، وكان الموت من القرب بحيث بث فى هذا الوهم قوة نذير الشؤم . وفتحت عينيها من جديد دون أن تنظر اليه ، وظلت نظرتها ضائعة على حائط الحجرة الأبيض ، ودون أن تتحرك عضلة واحدة من عضلاتها ، انسابت دمعة على طول أنفها وبقيت معلقة عند ركن فمها ، واشية بحياتها الخرساء ، الشاقبة كآلم الحيوان - عن ذلك القناع اللاانسانى ، الميت كما كان منذ لحظة .

- « افتح عينيك . »

وتطلعت اليه .

- « انهما مفتوحتان . »

- « لقد خيل الى أنك ميتة . »

- « ثم ماذا ؟ »

وهزت كتفها ، واستطردت قائلة بصوت ملىء بالتعب والأسى :

ـ « اذا كنت سأموت ، أنا ، فأننى أرى أنك تستطيع أن تموت .. »

وأدرك الآن ما العاطفة الحقيقية التى كانت تدفعه : لقد كان يريد أن يعزيها . ولكنه لم يكن يستطيع أن يعزيها الا بقبول رحيلها معه .

وكانت قد أغمضت عينيها ثانية ، فاحتضنها بين ذراعيه ، ولثم جفنيها ..

وحين افترق جسداهما سألته :

ـ « هل نحن راحلان ؟ »

ـ « كاد .. »

ولما كانت شديدة الاخلاص الى درجة لا تستطيع معها اخفاء غريزتها فقد رجعت الى رغباتها فى عناد القطة ، وهو عناد كثيرا ما أثار ثائرة كيو ..

وكانت قد تنحت عن الباب ، ولكنه لاحظ أنه لم يرد أن يجتاز الباب الا طوال ما كان واثقا من أنه لن يجتازه !

ـ « ماى .. هل سنفترق هكذا على حين بغتة ؟ »

ـ « وهل عشت كامرأة فى حاجة الى حماية الغير ؟ .. »

ووقف أحدهما فى مواجهة الآخر ، دون أن يجدا ما يقولانه ، ودون أن يقبلا فى الوقت نفسه هذا الصمت ، اذ كان كل منهما يعرف أن هذه اللحظة، التى تعد من أخطر لحظات حياتهما ، يفسدها الزمن الذى يمضى : ان مكان كيو لم يعد هنا ، بل فى اللجنة ، وكان نفاد الصبر كامنا تحت أفكاره جميعا .

وأومات له الى الباب بوجهها .

ونظر اليها ، ثم تناول رأسها بين يديه ، وضغط عليها برفق ، دون أن يقبلها ، وكأنه يستطيع أن يضع فى هذه الضغطة على الوجه كل ما تنطوى عليه حركات الحب الرجولية من رقة وعنف ممتزجين .. وأخيرا تباعدت يداه .

وأغلق البابان وراءه ، واستمرت « ماى » فى الانصات ، وكأنما تنتظر

أن يغلق باب آخر لاجود له • وكان فمها فاعرا متهدلا ، وهي « كرى من الأسى ،
يكتشف أنها حين أشارت إليه أن يرحل بمفرده ، فذلك لأنها كانت تعتقد
أنها قد أتت على هذا النحو بالحركة الأخيرة الوحيدة التى يمكن أن تقنعه
باصطحابها •

وما كاد كيو يخطو مائة خطوة حتى التقى بـ « كاتوف » •

ـ « أليس تشن هناك ؟ »

وأشار بأصبعه الى منزل كيو •

ـ « كلا • • »

ـ « ألا تعرف مطلقا أين يوجد ؟ »

ـ « كلا • • لماذا ؟ »

وكان كاتوف هادئا ، غير أن وجهه كان يدل على أنه يعانى من صداع • •

ـ « هناك عدد كبير من السيارات التى يستقلها تشانج - كاي - شيك ،
وتشن لا يعرف ذلك • فاما أن يكون البوليس قد أخطر بالمحاولة ، أو أنه
يرتاب فى الأمر • فاذا لم يحط تشن بهذه المسألة ، فسوف يخطئ السيارة
المنشودة ، ويلقى قنابله عبثا • • وها أنذا أجرى وراءه منذ مدة طويلة ، كما
ترى • • كان الموعد المقرر لالقاء القنابل هو الساعة الواحدة • • ولم يحدث
شئ ، والا كان الخبر قد بلغنا • »

ـ « كان مقدرا أن يقوم بهذه المحاولة فى شارع الجمهوريتين • • ولعل
أحكم ما نستطيع أن نفعله الآن ، هو أن نمر على همليش • »

وشرع كاتوف فى المسير على الفور •

وسأله كيو فى اللحظة التى استدار فيها : « أما زلت تحتفظ
بالسيانور ؟ »

ـ « أجل • • »

وكان كل منهما ، وكذلك كثير من الزعماء الثوريين الآخرين - يحملون
السيانور فى محبك (توك) الحزام المسطح الذى يفتح كما يفتح الصندوق .

ولم يخلص الفراق « كيو » من شعوره بالحزن .. بل على العكس، كانت ماى أقوى فى هذا الشارع المهجور ، بعد أن رضخت له .. منها حين كانت تعارضه وجها لوجه . ودخل المدينة الصينية - ولم يفته أن يلحظ ذلك - ولكن فى شىء من عدم الاكتراث . « هل عشت كامرأة فى حاجة الى حماية الغير ؟ .. » بأى حق فرض حمايته السخيفة على امرأة وافقت حتى على رحيله ؟ وفى سبيل أى مبدأ يهجرها ؟ أواثق هو من أن فعلته هذه لا تشوبها الرغبة فى الانتقام ؟ لاشك أن « ماى » ما زالت جالسة على السرير ، وقد حطمها الألم الذى يتجاوز كل تحليل نفسى ..

وعاد على أعقابها ركضا .

كانت حجرة العنقاوات خالية ، وقد خرج والده .. أما ماى فلم تغادر الحجرة . وقبل أن يفتح الباب ، توقف ، وقد طغى عليه شعور بما ينطوى عليه الموت من اخاء ، مكتشفا الى أى حد يظل الجسد شيئا تافها - مع ما فيه من اغراء - ازاء هذا التواصل . وأدرك الآن أن تقبلنا سياق الشخص الذى نحبه الى الموت ، ربما كان هو الصورة الكاملة للحب ، الصورة التى لا يمكن تجاوزها .

وفتح الباب .

فألقت بمعطفها فى عجلة على كتفها ، وتبعته دون أن تقول شيئا .

الساعة الثالثة والنصف .

ظل همليش وقتا طويلا ينظر الى اسطواناته التى لا يجد لها شاريا .. وطرق الباب وفقا للإشارة المتفق عليها ، ففتح الباب ، ووجد أمامه كاتوف .

- « هل رأيت تشن ؟ »

فزجر همليش قائلا : « أيها الندم المتجول ! »

- « ماذا تقول ؟ »

- « لا شىء . أجل ، رأيت حوالى الساعة الواحدة أو الثانية .. هل

يعنيك هذا ؟ »

- « اننى فى حجة ماسة الى رؤيته • ماذا قال ؟ »
 ومن حجرة أخرى ، تناهت الى أسماعهما صرخة الطفل ، وأعقبتهما أقوال
 مختلطة من الأم التي تجتهد فى تهدئته •
- « لقد جاء مع زميلين آخرين ، أحدهما سوين ، أما الآخر فلا أعرفه •
 انه يضع على عينيه نظارات ، ككل الناس • وتبدو عليه مسحة من النبل
 وكانوا يتأبطون حواظـ جلدية : هل فهمت ؟ »
- « ولهذا السبب ينبغى أن أعثر عليه •• أفاهم أنت • »
- « لقد طلب منى أن يمكث هنا ثلاث ساعات • »
- « حسن • أين هو الآن ؟ »
- « أغلق فمك ، واستمع الى ما يقال لك •• لقد طلب منى أن يمكث
 هنا •• ولكننى لم أوافق • أسامع أنت ؟ »
- صمت •

- « قلت لك اننى لم أوافق • »
- « أين يمكن أن يذهب ؟ »
- « لم يقل شيئاً •• انه مثلك •• الصمت ينتشر ، اليوم •• »
- وكان همـلريش يقف منتصباً وسط الحجرة ، وقد تجمع جسده
 وكادت نظـرته تعبر عن الحقـد •• فقال كاتوف فى هدوء ، دون أن ينظر
 اليه :
- « انما أنت تسرف فى شتمى •• وكأنك تريد أن تنال نصيباً من
 الشتائم ، لكى تستطيع الدفاع عن نفسك • »
- « وماذا تستطيع أن تفهم من أمرى ؟ وماذا يعنىك من هذا كله ؟ »
 لا تنظر الى هكذا بخصلة شعرك المنتصبة كعرف الديك الصغير ، ويديك
 المفتوحتين ، كأنك يسوع المسيح ينتظر الصلب ••• »
- ودون أن يضم كاتوف قبضته ، وضعها على كتف همـلريش •
- « لا تزال الحال سيئة هناك فى الطابق العلوى • »

ـ « انها أقل سوءا الآن .. ولكن ، هذا يكفى على النحو الذى هو عليه .
يا للصبى المسكين ! انه بجسده الهزيل ، ورأسته الضخم ، يشبه أرنباً
مسلوخاً .. دعنا من ذلك ... »

وتخلص البلجيكى من قبضة كاتوف فى عنف ، وتوقف ثم اتجه الى أقصى
أطراف الحجرة فى حركة صبيانية غريبة ، وكأنه يظهر الجفاء .

قال : « ان شر ما فى الأمر لم يحدث بعد . كلا .. لا تفعل كمن يعانى
من الحكمة ، ويتلوى فى تحرج .. أنا لم أش بتشن الى البوليس .. اطمئن ..
لم أفعل بعد ، على الأقل .. »

وهز كاتوف كتفيه فى أسى .

ـ « من الأفضل أن توضح ما تعنيه . »

ـ « كنت أريد أن أرحل معه . »

ـ « مع تشن ؟ »

وتأكد كاتوف من أنه الآن لن يعثر عليه . وكان يتكلم بصوت هادئ
كليل أشبه بصوت من حلت بهم الهزيمة . ان شانج - كاي - شيك لن يعود
الا فى الليل ، ولن يتمكن تشن من الاقدام على أية محاولة قبل ذلك .

وأشار همليش بإبهامه ، من فوق كتفه ، الى الاتجاه الذى صدرت منه
صرخة الطفل .

ـ « هذا ما فى الأمر . هو ذاك . ماذا تريدنى أن أفعل ؟ »

ـ « الانتظار .. »

ـ « لأن الولد سيموت ، أليس كذلك ؟ انصت الى جيذا .. ان هذا
ما أتمناه نصف يومى .. ولكن اذا حدث ذلك ، فأننى أتمنى أن يبقى ،
وآلا يموت ، ولو ظل مريضاً .. عاجزاً .. »

ـ « انى أعرف ... »

فقال همليش وقد أحس أن التأثير الذى يريده قد فسد : « ماذا ؟ ماذا
تعرف ؟ وأنت لم تتزوج ! »

— « كنت متزوجا . »

— « ليتنى رأيتك حينذاك . . بهذه الهيئة التى تبدى عليها . . كلا . . ليس هذا من أجلنا . . كل هذه الشطائر الصغيرة التى تتجول فى الشارع . . وأحس أن « كاتوف » يفكر فى المرأة الساهرة على الطفل فى الطابق العلوى .
— « انه تفتان . أجل . . وهى تفعل كل ما تستطيعه . والباقي ، أى ما لا تملكه ، فهو ما يملكه الأغنياء . . وحين أشاهد أناسا يبدو عليهم أنهم متحابون ، أود لو هشمت وجوههم . »

— « التفانى . . هذا كثير . . الشيء الضرورى الوحيد هو ألا يكون المرء وحيدا . »

— « ولأجل هذا تبقى هنا ، أليس كذلك ؟ لتساعدنى ؟ »

— « أجل . »

— « بدافع الشفقة ؟ »

— « ليس بدافع الشفقة ، وإنما بدافع . . . »

غير أن كاتوف لم يجد الكلمة التى تعبر عما يريد . . وربما لم يكن لمثل هذه الكلمة وجود ، فحاول أن يشرح ما يقصد بطريق غير مباشر :

— « لقد عرفت ذلك ، أو ما يقاربه . . وكذلك هذا النوع الذى تبدى من السخط . . كيف تريد أن يفهم الناس الأشياء الا عن طريق الذكريات . . ولهذا السبب لم تغضبني . »

وكان قد اقترب منه ، وهو يتحدث — وقد غاصت رأسه بين كتفيه ، بصوته الذى يأكل المقاطع ، ناظرا اليه من طرف عينيه ، وكان كل منهما وهو يقف على هذا النحو خافضا رأسه كمن يتأهب لدخول معركة بين الاسطوانات . . غير أن كاتوف ، كان يعرف أنه الأقوى ، وان لم يكن يدرى على أى نحو كان هو الأقوى . ربما كان صوته ، أو هدوءه ، بل ومودته هى التى تمنحه هذا التفوق .

— « حين يلتقى رجل لا يهمه أى شيء ، بهذا التفانى الحقيقى ، أو بهذه التضحية الصادقة أو بشيء من هذا القبيل . . فانه يكون فى حكم المنتهى . »

— « لا تبالغ . وماذا يصنع حينئذ ؟ »

فأجابه كاتوف وهو ينظر اليه فى هدوء : « يمارس السادية . »
وأطلق الجدد صفيره . وفى الشارع ، تبددت خطوات رويدا رويدا .

وأردف كاتوف قائلا : « السادية بالدبابيس ، أمر نادر . أما السادية بالأقوال فأبعد من أن تكون شيئا نادرا . ولكن اذا استسلمت المرأة استسلاما مطلقا ، واذا كانت قادرة على أن تتجاوز ذلك . . لقد عرفت شخصا أخذ النقود التى أدخرتها امرأته سنوات طوالا للذهاب الى المصحة وقامر بها . . مسألة حياة أو موت . . ولكنه خسرهما (فى مثل هذه الأحوال نخسر دائما) ، وقد عاد ممزقا محطما تماما ، مثلك فى هذه اللحظة ، ونظرت اليه وهو يقترب من فراشها ، ففهمت كل شيء على الفور ، أترى؟ ثم ماذا ؟ لقد حاولت أن تعزيه . . »

قال هملريش متمهلا : « سهل على المرء أن يعزى سواه من أن يعزى نفسه . . »

ورفع عينيه بغتة ثم قال : « هل كنت أنت ، ذلك الشخص ؟ »
- « كفى . » وضرب كاتوف بقبضته منضدة الحساب ، واستطرد قائلا :

- « لو كنت أنا ، لقلت انه أنا ، لا سواى . » غير أن غضبه انفثا فجأة .
« أنا لم أفعل كل هذا . . وليس من الضروري أن يفعل الانسان مثل هذا . . واذا كان المرء لا يؤمن بشيء ، وخاصة اذا كان لا يؤمن بشيء ، فانه مرغم على احترام العواطف القلبية الصادقة حين يلتقى بها . . هذا أمر مفروغ منه . . وهذا ما تفعله أنت . . ولو كنت بمفردك دون المرأة والطفل لرحلت ، أنا واثق من ذلك . . أجل . . »

- « ولما كنت لا تعيش الا من أجل هذه العواطف القلبية ، فانها تلتهمك . . واذا لم يكن بد من أن تؤكل دائما ، فلماذا لا تأكلك هذه العواطف ؟ . . ولكن هذا كله سفاهات . . وليست المسألة أن تكون على صواب . اننى لا أستطيع أن أحتمل أننى طردت تشن من الباب ، وما كنت أستطيع أن أطيق إبقاءه . . »

- « ينبغى ألا يطلب المرء من رفاقه الا ما يستطيعون القيام به . . اننى

- أريد رفاقا لا قديسين • فأنا لا أنق في القديسين ••• «
 - « أحقا أنك رافقت رجال منجم الرصاص طوعية واختيارا ؟ »
 قال كاتوف مخرجا : « كنت في معسكر الاعتقال •• والمناجم والمعسكر
 سيان ••• »
 - « سيان • هذا غير صحيح • »
 - « وماذا تعرف عن ذلك ؟ »
 - « هذا غير صحيح • ولو كنت في مكاني لاحتفظت بتشن • »
 - « أنا ليس لدى أطفال •• »
 - « يبدو لي أن هذا كان خليقا بأن يهون الأمر على ، وحتى فكرة أن
 يقتلوه لي ، لو لم يكن مريضا •• انى غبى •• صحيح أننى غبى •• بل ربما
 لم أكن عاملا • ثم ماذا ؟ اننى أبدو لنفسي كعامود النور ، الذى يتبول عنده
 كل من هب ودب من الناس • »

وأوماً بوجهه المفرطح من جديد الى الطابق العلوى ، اذ طفق الطفل
 يصرخ مرة أخرى • ولم يجسر كاتوف على أن يقول : « سيحمل الموت اليك
 الخلاص » ، فقد كان الموت هو الذى حمل اليه هو الخلاص • ومنذ أن شرع
 همليش فى الكلام ، حضرت بينهما ذكرى زوجته •• كان عائدا من سيبيريا
 دون أمل ، منهزما ، وقد تحطمت دراساته للطب ، وأصبح عاملا فى مصنع ،
 موقنا أنه سيموت قبل أن يشهد الثورة ، ولكنه اكتشف فى أسى انه مازال
 مرتبطا بالحياة لأنه كان يعذب عاملة صغيرة تحبه • ولكنها ماكادت تتقبل
 الآلام التى يكيلها لها ، حتى سيطرت عليه تلك الرقة المحيرة التى يبدوها
 الشخص المعذب لمن يسومه العذاب ، ومنذ ذلك الحين لم يعد يحيا الا من
 أجلها ، مواصلا بحكم العادة عمله الثورى ، وقد استبدت به تلك الرقة التى
 لا حدود لها ، الكامنة فى قلب تلك الفتاة الساذجة •• فكان يقضى الساعات
 الطوال يداعب شعرها ، وكانا يمضيان اليوم كله فى الفراش •• ولكنها
 ماتت ••• ومنذ ذلك الحين •• غير أن هذا كان بينه وبين همليش •

ولم يكن يستطيع بالأقوال ، أن يفعل شيئا • ولكن فيما وراء الأقوال ••
 كان يملك ما تستطيع الاشارات والنظرات ، ومجرد الحضور ، التعبير عنه •

وكان يعرف بالتجربة أن أسوأ ما فى الألم هو الوحدة التى تصاحبه .
 والتعبير عن الألم نوع من الخلاص أيضا . . غير أن الانسان يجهل الكلمات
 التى تعبر عن آلامه العميقة . . فاذا أساء التعبير ، أو التجأ الى الكذب ، فإن
 همليش سيجد مبرراً آخر لاحتقار نفسه . . ذلك أنه يتألم على الأخص من
 نفسه . ونظر اليه كاتوف فى أسى دون أن يحدد نظرتة ، وقد أدهشه مرة
 أخرى أن يلاحظ ندرة وارتباك الحركات التى يستطيع بها لرجل أن يعبر
 عن محبته .

قال : « يجب أن تفهم دون أن أقول شيئاً . . فليس ثمة ما يقال . »
 ورفع همليش يده ، وتركها تسقط فى تشاقل وكأنه لا يستطيع أن
 يختار الا بين التعاسة وعبث الحياة . . ولكنه ظل فى مواجهة كاتوف ، غارقاً
 فى شجونته .

وكان يجول فى خاطر كاتوف : « سوف أستطيع أن أنصرف حالا بحثاً
 عن تشن . »
الساعة السادسة

قل فيرال للكولونيل الذى كان يرتدى حلتة الرسمية هذه المرة : « لقد
 دفعت النقود أمس ، فما موقفنا الآن ؟ »

– « لقد بعث الحاكم العسكرى الى الجنرال تشانج – كاي – شيك
 بمذكرة طويلة جداً يطلب منه فيها ماينبغي أن يفعله فى حالة قيام الشغب . »
 – « يريد أن يغطى مسئوليته ؟ »

ونظر الكولونيل الى فيرال من فوق الغشاوة التى ترين على عينيه ، وأجاب
 فحسب : « هذه هى الترجمة . »

وقرأ فيرال المذكرة .

قال الكولونيل : « ولسى الرد أيضا . »
 وناولته صورة : وكان فيها نقشان فوق توقيع تشانج – كاي – شيك
 – « وهذا معناه ؟ »

– « أطلقوا الرصاصي . »

وتطلع فيرال الى خريطة شنغهاي المعلقة على الحائط ، بما فيها من يقع
 حمراء كبيرة تشير الى جماهير العمال والبؤساء .. وهم شيء واحد - وهمس
 فى نفسه : « ثلاثة آلاف رجل من الحرس النقابى ، وربما كان وراءهم
 ثلاثمائة ألف رجل .. ولكن هل يجرؤون على التحرك ؟ وفى الجهة الأخرى،
 تشانج - كاي - شيك والجيش .. »

وسأل : « هل سيبدأ باعدام الزعماء الشيوعيين رميا بالرصاص قبل
 قيام أى شغب ؟ »

- « بكل تأكيد .. وحينئذ لن يكون ثمة شغب ، فالشيوعيون مجردون
 من السلاح تقريبا ، ووراء تشانج - كاي - شيك تقف قواته .. والفرقة
 الأولى فى الجبهة ، وقد كانت هى الخطر الوحيد . »
 - « شكرا ، والى اللقاء . »

كان فيرال ذاهبا لزيارة فاليرى . وكان خادم ينتظره الى جوار السائق،
 وقد وضع على ركبتيه عندليباً فى قفص كبير مذهب . وكانت « فاليرى » قد
 رجت فيرال أن يقدم لها هذه الهدية .. وما كادت سيارته تشرع فى المسير
 حتى أخرج من جيبه رسالة ، وأخذ يعيد قراءتها : ان ما كان يخشاه منذ
 شهر قد وقع : سوف تنقطع القروض الأمريكية عنه .

لم تعد طلبات حكومة الهند الصينية تكفى لكى تواصل المصانع نشاطها ،
 تلك المصانع التى أنشئت من أجل سوق كان ينبغى أن تتسع شهرا اثر
 شهر ، ولكنها الآن تنكمش يوما بعد يوم : ولحقت الخسائر بمشروعات
 اتحاد الشركات الصناعية .. وكانت أسعار الأسهم التى تحافظ عليها فى
 باريس بنوك فيرال والجماعات المالية الفرنسية المرتبطة بها ، يحافظ عليها
 التضخم بوجه خاص ، قد راحت تهبط دون توقف منذ تشييت الفرنك . غير
 أن بنوك الاتحاد لم تكن تستمد قوتها الا من أرباح مزارعها - ولا سيما من
 شركات المطاط . وقد رفع مشروع ستيفنسون (*) سعر المطاط من ١٦ سنتا

(*) مشروع يهدف الى الحد من انتاج المطاط داخل الامبراطورية البريطانية
 كلها (وهى المنتج العالمى الرئيسى) وذلك حتى يمكن رفع سعر هذه السلعة
 التى انخفضت الى أقل من تكاليف الانتاج .

الى ١١٢ . وانتفع فيرال الذى يشرف على مزارع المطاط فى الهند الصينية من هذا الرفع دون أن يجد ما يجبره على تحديد انتاجه ، اذ لم تكن مزارعه واقعة داخل الاراضى البريطانية . وكذلك كانت البنوك الأمريكية تعرف بالتجربة كم يكلف أمريكا هذا المشروع - وهى المستهلك الرئيسى - فقبلت من تلقاء نفسها اعطاء القروض بضمان المزارع . غير أن زيادة الانتاج الوطنى فى جزر الهند الشرقية الهولندية والتهديد بانشاء مزارع أمريكية منافسة فى الفلبين والبرازيل وليبيريا ، قد أفضى الآن الى تدهور فى الأسعار ، فقطعت البنوك الأمريكية قروضها لنفس الأسباب التى دفعتها الى منح هذه القروض ، وهكذا أصيب فيرال بثلاث نكبات فى وقت واحد : تدهور قيمة المادة الأولية الوحيدة التى تستند اليها أعماله - وكان قد تمكن من الحصول على قروض بنوع من المضاربة ، لا على قيمة انتاجه ، بل على قيمة مزارعه نفسها - وتثبيت قيمة الفرنك الذى أدى الى تخفيض سندات كلفها (وكان كثير منها تملكه بنوكه التى كانت مصرة على السيطرة على السوق) ، وأخيرا سحب القروض الأمريكية . . ولم يكن يجهل انتشار خبر هذا السحب سيدفع الانتهازيين فى أسواق باريس ونيويورك الى اتخاذ موقف من تخفيض سندات . . وهو موقف مضمون تماما . وهكذا لم يكن من الممكن انقاذه الا على أساس دوافع أخلاقية ، أى بوساطة الحكومة الفرنسية .

ان اقتراب الافلاس يحمل الى الجماعات المالية فى طياته وعيا شديدا بالأمة التى تنتمى اليها . ولما كانت الحكومات قد ألفت أن ترى « سرقة الادخار » فانها لا تحب أن ترى أصحاب الادخار مجردين من كل أمل فى استرداد أموالهم والمستثمر الذى يمكن أن يفكر - بأمل المقامر العنيد - فى استرجاع أمواله المفقودة فى يوم من الأيام - هذا المستثمر يكون فى حالة لا تخلو من عزاء . وهكذا كان من العسير على حكومة فرنسا أن تتخلى عن الاتحاد ، بعد أن تخلت عن بنك الصين الصناعى . . ولكن كان لابد لفيرال ، لكى يطلب منها المعونة - ألا يكون بلا أمل ، فلأبد قبل كل شئ أن يتم تحطيم الشيوعية فى الصين . فمن الممكن تشييد خطوط السكك الحديدية الصينية ، اذا كان تشانج - كاي - شيك مسيطرا على الأقاليم الصينية ، وكان القرض المطلوب لذلك هو ثلاثة آلاف مليون من الفرنكات الذهبية ، وهذا معناه ملايين كثيرة من الفرنكات الورقية . وبالطبع ، لم يكن هو الذى

سيتسلم وحده طلبيات المواد المستخدمة فى المشروع ، كما أنه ليس وحده الذى يدافع اليوم عن تشانج - كاي - شيك . . . بيد أنه مشترك فى المقامرة . فضلا عن ذلك فان البنوك الأمريكية تخشى انتصار الشيوعية الصينية ، وسقوطها يؤدى الى اجراء تعديل فى سياسة تلك البنوك . وكان فيرال - بوصفه فرنسيا - يتمتع ببعض الامتيازات فى الصين ، « ولم يكن ثمة شك فى اشتراك الاتحاد فى انشاء السكك الحديدية » . وكان يستطيع - وله فى ذلك مبرراته - أن يطلب من الحكومة معونة لتوطيد مركزه ، وسوف تفضل الحكومة تقديم هذه المعونة على وقوع كارثة جديدة : فاذا كانت قروضه أمريكية ، فان ودائعهم وأسهمهم فرنسية . لقد كانت أوراقه لا تستطيع أن تربح جميعا ابان أزمة صينية حادة ، ولكن ، كما أن مشروع ستفنسون قد ضمن فى حينه حياة الاتحاد فكذلك سيضمن حياته اليوم انتصار الكومنتانج . واذا كان تثبيت الفرنك قد لعب ضده ، فان سقوط الشيوعية الصينية سيلعب فى مصلحته . . .

ألن يفعل شيئا طوال حياته سوى أن يتربص لهذه الدفعات فى الاقتصاد العالمى ، لكى ينتفع بقوتها ، وهى الدفعات التى تبدأ كأنها عطايا ثم تنتهى كأنها ضربات بالرأس فى بطنه ؟ وفى هذه الليلة سواء أدت المقاومة الى الانتصار أم الى الهزيمة ، كان يشعر بنفسه معتمدا على قوى العالم جميعا . أن هناك تلك المرأة التى لا يعتمد عليها ، والتى ستعتمد عليه بعد لحظة . والاعتراف بالاستسلام المرتسم فوق هذا الوجه المملوك سوف يحجب عنه ضروب القسر المتشابكة التى تخضع لها حياته - وكأن هذا الاستسلام يد موضوعة فوق عينيه . وكان قد رآها من جديد فى عدة صالونات (لم تكن قد عادت من كيوتو الا منذ ثلاثة أيام) ، فتماسك عنها مغضبا فى كل مرة بسبب تدللها الذى تسرى الوقاحة فى رفته ، مما كان يثير رغبته ، ثم قبلت أن تلقاه تلك الليلة . وكان فى حاجته غير المحدودة الى أن يكون موضع التفضيل - والاعجاب أيسر وأشمل اذا صدر لجنس عن جنس آخر - يهيب بالاثارة لاذكاء الاعجاب ، حين يصبح الاعجاب غير مؤكد . وكأن ما تبديه من مقاومة له هو أشد ما يثير شهوته . غير أنه لم يكن يرى كل هذا فى وضوح . ذلك أن حاجته الى أن يتخيل نفسه مكانها منذ أن يبدأ فى لمس جسدها ، هى التى كان يستمد منها احساسه الجاد بالامتلاك . وكان يستشعر مقدما ما فى

الجسد الذى يأخذه غلابا طعاما الذى من الجسد المستسلم له . . طعاما الذى من
أى جسد آخر .

وغادر سيارته ، ودخل محل « آستور » يتبعه خادمه الذى كان يحمل
قفصه على طرف ذراعه فى وقار . كانت الدنيا تعج بملايين من الأشباح :
النسوة اللواتى لا يحفل بحبهن - وغريم حى هو المرأة التى يريدنها أن تحبه .
واستولت عليه فكرة الامتلاك التام ، وأصبحت ثابتة فى نفسه ، واستحضر
غروره غرورا معاديا كالمقامر المتحمس الذى يستدعى مقامرا آخر ليباريه ،
بدلا من أن ينشد السلام . وقد كان استهلال اللعبة على الأقل طيبا هذا
المساء ، اذ كانا سيبدآن بالاضطجاع معا .

وما كاد يدخل القاعة حتى اقترب منه خادم أوروبى .

- « مدام سرجى تبلغ مسيو فيرال أنها لن تعود هذه الليلة ، وان هذا
السيد سيشرح له الأمر » .

ونظر فيرال - منذهلا - الى « هذا السيد » الجالس الى جانب الستار
الحاجز (لبارافان) موليا ظهره واستدار الرجل ، انه مدير أحد البنوك
الانجليزية الذى دأب على مغازلة فاليرى منذ شهر ، والى جواره ، وراء البارافان
كان ثمة خادم يمسك فى وقار لا يقل عن وقار خادم فيرال - عندليبها فى
قفص . ونهض الانجليزى مرتبكا ، وصافح فيرال قائلا :
- « عليك أن تفسر لى . . يا سيدى . . . »

وفهما معا أنهما ضحية « مقلب » . فتبادلا النظر وسط ابتسامات
الخادمين الصينيين الماكرة ، ووقار الخدم البيض الذى تنم شدته عن
التكلف . وكانت هذه الساعة هى ساعة الكوكتيل ، وشنغهاى كلها مجتمعة
فى هذا المكان . وأحس فيرال أن موقفه أدهى الى السخرية ، لأن الانجليزى
كان شابا تقريبا .

وفى الحال ساوره احتقار لا يقل عنفا عن الغضب الذى استبد به وكان
فى هذا الاحتقار تعويض فوري عن المهانة التى فرضت عليه . وشعر بالحماسة
الانسانية الحقيقية تكتنفه ، تلك الحماسة التى تلتصق بالانسان وتثقل على
كاهليه : وهؤلاء الخلق الذين ينظرون اليه انما هم أبغض أغبياء على الأرض .

ومع ذلك فقد افترض ، لأنه كان يجهل ما يعرفونه ، أنهم على علم بكل شيء ، وأحس ازاء تهكمهم ، أنه تحت وطأة شلل ساحق ربضت فيه الكراهية .

وسأل خادمه الخادم الآخر : « أهذا من أجل مسابقة ؟ »

— « لا أدري . »

— « ان عصفورى . . . ذكر . »

— « أجل . . وعصفورى أنثى . »

— « لابد أن هذا ما يقصدونه . »

وانحنى الانجليزى أمام فيرال ، واتجه صوب البواب ، فناوله هذا رسالة ، وقراها ، ثم نادى خادمه ، وأخرج بطاقة زيارة من محفظته ، وثبتها على القفص ، وقال للبواب : « لمدام سرجى » وخرج .

وأمعن فيرال الفكر ، دفاعا عن نفسه . لقد أصابته فى أشد مواطن نفسه حساسية ، وكأنها فقات عينيه أثناء نومه : لقد أنكرت وجوده . والذي يستطيع أن يفكر فيه ، أن يفعله ، أن يريد ، لم يعد له وجود . لقد وقع هذا المشهة المضحك ، وليس فى الامكان ألا يكون قد وقع . انه وحده الذى يوجد فى عالم من الأشباح ، ولقد كان هو ، هو بالذات ، موضع الاستهزاء . فضلا عن ذلك — اذ أنه لم يكن يفكر فى عاقبة ما ، ولكن فى سلسلة متلاحقة من الهزائم ، وكأن الغضب قد جعل منه مازوخيا (محبا للعذاب) — فضلا عن ذلك لن يضطجع معها . وأخذ تعطشه للانتقام من هذا الجسد الساخر يزداد شيئا فشيئا ، فظل هناك وحده ، فى مواجهة هؤلاء البلهاء ، وخادمه غير المكترث ، بقفصه الموضوع فوق طرف ذراعه . وكان هذا العصفور اهانة مستمرة له . . ولكن ، عليه قبل كل شيء أن يبقى . فطلب كأسا من الكوكتيل ، وأشعل لفافة تبغ ، ثم ظل بلا حراك ، منشغلا بتكسير عود الثقاب بين أصابعه داخل جيب سترته . والتقت نظرتة بزوجين . كان بالرجل شيء من الجاذبية أضفاه عليه ائتلاف شعره الأشيب بوجه غض الشباب ، أما المرأة ، وهى لطيفة ، ولكنها سوقية قليلا ، فكانت تتطلع اليه فى شعور من شكران العاشقة هو مزيج من الحنان والشهوانية . وناجى فيرال نفسه قائلا فى جيبه : « انها تحبه . . وليس من شك أنه صعلوك »

أبله وربما كان من أولئك الذين يعتمدون في معاشهم على عمل من أعمالى . . .
وأرسل فى استدعاء البواب .

— « لديك رسالة من أجلى . . أعطنيها . »

وظهرت الدهشة على البواب ، ولكنه لم يتخل عن حديثه ، وناولته
الرسالة .

— « هل تعلم — ياعزيزى أن النساء الفارسيات ، حين يستولى عليهن
الغضب — يضربن أزواجهن بنعالهن ذات المسامير؟ انهن لايشعرن بالمسئولية . .
ولكنهن سرعان ما يعدن بعد ذلك الى الحياة العادية تلك الحياة التى لا تلتزم
فيها المرأة بشيء حين تسكب الدمع بين يدي رجل ما ، وانما حين تضاجعه —
هل تصدق ذلك ؟ — الحياة التى يملك فيها الرجال النساء . . ولست امرأة
من أولئك اللواتى يمكن امتلاكهن ، لست جسدا أحق تقضى منه وطرك وأنت
تلقى بأكاذيب كتلك التى تلقيها للأطفال والمرضى . أنت تعرف كثيرا من
الأمور ياعزيزى ، ولكن ، ربما وافاك الأجل دون أن تلحظ أن المرأة كائن
انسانى هى « أيضا » ولقد التقيت دائما (وربما لن التقى أبدا الا بهذا
الصنف ، ولكن هذا مما يؤسف له ، ولن تستطيع أن تعرف كم من المرات
سأقول وا أسفاه !) برجال وجدوا فى شيئا من السحر ، وكلفوا أنفسهم
مشقة مؤثرة لإبراز حماقاتى ، ولكنهم كانوا يعرفون كيف يلحقون بأصدقائهم
فى اللحظة التى يتعلق فيها الأمر بالأشياء الانسانية الحقيقية (اللهم الا
إذا كانوا يبحثون — بالطبع — عن العزاء) . ونزواتى شيء لازم لى ، لا لكى
أروك فحسب ، بل لكى تنصت الى حين أتكلم ، وحماقتى الفاتنة ألا فاعرف
قيمتها : انها تشبه رقتك . وإذا كان من الممكن للألم أن يتولد عن السيطرة
التي تريدها أن تكون لك على ، فما أنت بفاطن اليه . . .

ولقد التقيت بما يكفى من الرجال لكى أعرف كيف ينبغى أن يكون
رأى فى العلاقات العابرة : وما من شيء يمكن أن يخلو من الأهمية بالنسبة
للرجل منذ يتعلق بهذا الشيء بكبريائه ، والمتعة كلمة تسمح له بارتضاء
كبريائه بأسرع ما يمكن ، وفى أغلب الأحيان . وانى لأرفض أن أكون مجرد
جسد ، كما ترفض أنت أن تكون مجرد دفتر شيكات ، وانك لتتصرف معى
كما تتصرف العاهرات معك : « تكلم . . ولكن ادفع . . . » اننى « أيضا »

ذلك الجسد الذى تريدنى أن أكونه (فقط) وأنا أعلم ذلك . وليس من اليسير على دائما أن أدافع عن نفسى ضد الفكرة التى تدور فى أذهان الآخرين . وحضورك يقربنى من جسدى ، فى اغتياظ ، كما يقربنى منه الربيع فى ابتهاج . وبمناسبة الربيع ، أرجو أن تسرى عن نفسك بالعصافير . . كما أرجو أن تترك مفاتيح الكهرباء « فى حالها » فى المرة القادمة . »

وأكد لنفسه أنه شق طرقا ، وحول بلادا بأكملها ، وانتزع آلاف الفلاحين من آكواخهم المصنوعة من القش وأسكنهم حول مصانع فى حجرات صغيرة من الصاج المعرج - تماما كأمرأى الاقطاع ، وممثلى الامبراطورية ، ومع ذلك فقد كان العصفور الأسود فى قفصه يهزأ به . وكانت قوة فيرال ، وصفاء ذهنه والجرأة التى حولت الهند الصينية من حال الى حال ، والتى جعله الخطاب الذى تسلمه من أمريكا يشعر بثقلها الساحق . . كل هذا قد انتهى الى هذا العصفور المضحك ، وكأنه الكون كله ، هذا العصفور الذى لا يأبه به بلا أدنى جدال . « أتمنح كل هذه الأهمية لامرأة ؟ » . ولم يكن الأمر يتعلق بالمرأة ، فما هى الا مجرد حجاب قد انتزع : وانما المسألة أنه قدرمى بنفسه بكل قوته ضد حدود ارادته . . وكان انفعاله الجنسى الخائب يغذى غضبه . ويلقى به فى حال من التخدير يهيب فيه المضحك بالدم . والانتقام لا يكون سريعا الا من الجسد . وكان كلابيك قد قص عليه قصة وحشية عن زعيم قبيلة أفغانى ، اعتدى زعيم مجاور على امرأته وعادت اليه تحمل خطابا جاء فيه : « أعيد اليك امرأتك ، بعد أن تأكدت أنها ليست ممتعة كما يقال عنها » ، لما أسر هذا الزعيم المعتدى على امرأته أوثقه أمامها وهى عارية وانتزع عينيه وهو يقول له : « لقد رأيتها واحتقرتها ، والآن تستطيع أن تقسم انك لن تراها أبدا . » وتخيل نفسه فى حجرة فاليرى وهى موثقة الى السرير ، صارخة صرخات أقرب الى صيحات اللذة ، مغلولة ، وهى تتلوى تحت سيطرة الألم ، ما دامت لا تفعل ذلك تحت سيطرة الجنس . . . وكان البواب ينتظر . « ينبغى أن أبقى جامدا بلا حراك كهذا الأبله ، الذى أتلهف - مع ذلك - الى صفعه صفعتين . » ، غير أن هذا الأبله لم يبد عليه أى أثر لابتسامة ما ، لعله سيضحك فيما بعد . وقال فيرال : « سأعود بعد لحظة » ، ولم يدفع ثمن الكوكتيل ، وترك قبعته ، وخرج .

قال للسائق : « الى أكبر تاجر للعصافير . »

« كان هذا التاجر قريبا جدا ، غير أن الحانوت كان مغلقا . »
 قال السائق : « هناك فى المدينة الصينية شارع لتجار العصافير . »
 - « هيا اليه . »

وبينا كانت السيارة تتقدم فى طريقها ، استقر فكر فيرال على اعتراف
 أخراه فى أحد كتب الطب - أدلت به امرأة مجنونة بالرغبة فى ان تضرب
 بالسياط ، وكانت قد ضربت موعدا لرجل مجهول بخطاب بعثت به اليه ،
 ثم اكتشفت فى ذعر أنها تريد الفرار فى اللحظة التى كانت فيها راقدة على
 سرير الفندق وقد تسلح الرجل بالسوط وشل حركة ذراعيها تماما تحت
 ملابسها التى رفعها عن ساقها . . . وكان الوجه مختفيا ، ولكنه كان وجه
 فاليرى . . . هل يقف عند أول ماخور صينى فى طريقه ؟ كلا . . . ما من جسد
 يستطيع أن يخلصه من كبريائه الجنسية الثائرة التى أمسى نهبا لها .

وتوقفت السيارة أمام الأسوار الشائكة . كانت قبالتها المدينة الصينية ،
 سوداء ، غير مأمونة . فليكن . وغادر فيرال السيارة ، ووضع مسدسه فى
 جيب سترته ، آملا أن يهاجم : فالمرء يقتل حين تعرض له الفرصة .

وكان شارع تجار الحيوانات نائما ، فطرق الخادم فى هدوء على
 أول مصراع ، صائحا : « مشتر » ذلك أن التجار يخشون الجنود . وفتح
 الباب بعد خمس دقائق ، وهناك فى الظلال الحمراء الداكنة الفخمة التى تخيم
 على الحوانيت الصينية ، وتحيط بمشكاة ، أعلنت بعض قفزات القطط أو
 القروء المكتومة ورفيف الأجنحة استيقاظ الحيوانات . وفى الظلام ، كانت
 « بقع مستطيلة ذات لون وردى خافت : انها ببغاوات مربوطة الى عصي .

- « كم ثمن هذه العصافير جميعا ؟ »

- « العصافير فقط ؟ ثمانمائة من الدولارات . »

كان تاجرا صغيرا لا يملك طيورا نادرة . وأخرج فيرال دفتر شيكاته
 وتردد قليلا : ان هذا التاجر يريد نقودا . وفهم الخادم فقال : « هذا هو
 مسيو فيرال ، والسيارة تنتظر هناك . » وخرج التاجر ، فشاهد مصابيح
 السيارة ، مشتبكة بالأسوار الشائكة .

— « هذا حسن » .

وكانت هذه الثقة التي تدل على ما يتمتع به من نفوذ ، سببا في اثاره
ثائرة فيرال ، ذلك أن قوته الواضحة ، بدليل معرفة هـذا التاجر الصغير
باسمه — كانت خالية من كل معنى ، مادام لا يستطيع أن يستخدمها . ومع
ذلك ، فقد هرعت لنجدته كبرياؤه ، تدعمها العملية التي يقوم بها وأنعشه
هواء الليل البارد فأخذ الغضب وأخذت الأخيلة السادية تتحالى الى ضرب من
التقرز ، وان كان يعلم أنه لم ينته منها تماما .

قال التاجر : « ان لدى قنغرا أيضا » .

فهز فيرال كتفيه . غير أن صبيا — قد استيقظ كذلك — كان قد وصل
فعلا حاملا القنغر بين ذراعيه . وكان القنغر حيوانا ضئيل القامة ، يكسوه
جلد كالفراء ، وجعل ينظر الى فيرال بعينين أشبه بعينى غزال مذعور .

— « جميل » .

وكتب شيكا آخر .

وعاد فيرال متمهلا صوب السيارة . يتبغى قبل كل شيء — اذا حكى
قاليرى حكاية القفصين — ولن يفوتها أن تحكيها — فيكفى أن يحكى نهاية
القصة لكي يتجنب الاستهزاء . وحمل التاجر والصبى والخادم الأقفاص
الصغيرة ، ووضعوها فى السيارة ، وعادوا لحمل أقفاص أخرى ، وفى النهاية
حملوا القنغر والبغاوات فى أقفاص صغيرة مستديرة وهنأك ، فيما وراء
المدينة الصينية ، دوت بضع طلقات . حسن جدا . . كلما تقاتلوا ، كان
ذلك أفضل . وواصلت السيارة سيرها تحت أعين الحراس المبهورة .

وفى محل « آستور » . استدعى فيرال المدير .

— « أرجو أن تتكرم بالصعود الى حجرة مدام سرجى . » انها غائبة ،
وأريد أن أعد لها مفاجأة . »

وأخفى المدير دهشته ، بل استنكاره أيضا : فقد كان محل « آستور »
يعتمد على أموال الاتحاد . وكان مجرد وجود رجل أبيض يتحدث اليه فيرال ،
قد انتزعه من عالم المهانة التي لحقت به ، وأعاناه على أن يعود وسط
« الآخرين » . وكان التاجر الصينى والليل قد تركله بين أفكاره المسيطرة .

عليه . وهو وان لم يكن قد تخلص منها تماما الآن . فانها على الأقل لم تعد مسيطرة عليه وحدها .

ولم تكد تمضى خمس دقائق . حتى كان قد وضع الأقفاص فى الحجرة . وكانت الأشياء الثمينة كلها مرتبة فى الدواليب ، وكان أحدها غير مغلق ، وتناول « بيجاما » منشورة على السرير ليرميها داخل الدولاب ، ولكنه ما كاد يلمس الحرير الدافئ حتى بدا له أن هذا الدفء قد سرى عبر ذراعه الى جسده كله ، وأن هذا الحرير الذى يضمه قد غطى نهدها تماما : وكانت الأثواب والبيجامات المعلقة فى الدولاب المنفرج تحتفظ بشئ أكثر حسية من جسد فاليرى نفسها . وكاد يمزق هذه الثياب التى ما زالت مشبعة بحضورهما . ولو كان يستطيع أن يحمل البيجاما معه ، لحملها . . ولكنه ألقى بها فى الدولاب ، الذى أغلق الخادم بابه . وفى اللحظة التى فارقت فيها البيجاما يده ، غزت خياله فجأة أسطورة هرقل وأومفال ، وتبدى له هرقل مرتديا ثوب امرأة ، ثوبا لينا دافئا كهذه البيجاما ، مهينا راضيا بهوانه . وعيئا حاول أن يستحضر المشاهد السادية التى سيطرت عليه منذ لحظة : غير أن الرجل الذى ضربته أومفال وديجانير ظل جائما على تفكيره كله ، مغرقا اياه فى تلذذ ذليل . واقترب من سمعه وقع خطوات . . فوضع يده على مسدسه القابع فى جيبه ، فلو أنها دخلت هذه اللحظة ، لقتلها بلا شك . غير أن وقع الخطوات ضعف ، متجاوزا الباب ، فأخرج فيرال يده من جيبه ، ووضعها فى جيب آخر تناول منه منديله فى عصبية . . كان لابد أن يتصرف - على أى نحو كان - حتى يتخلص من هذه المشاعر : فأطلق الببغاوات ، بيد أن الطيور المذعورة لا ذت بالأركان وبالسقائر . وقفز القنغر على السرير ، ومكث هناك . وأطفأ فيرال المصباح الرئيسى ، ولم يترك سوى المصباح الساهر . فشرعت الببغاوات فى الطيران بألوانها الوردية والبيضاء ، وهى تحرك أجنحتها المقوسة المزركشة حركات رائعة فبدت أشبه بعنقاوات شركة الهند الشرقية ، محدثة ضجة خسنة قلقة .

وكانت هذه الأقفاص المملئة بالطيور المضطربة ، والموضوعة بلا نظام على قطع الأثاث كلها ، وعلى الأرض ، وعلى المدفأة ، تضايقه . وحاول أن يقرر أمرا بشأنها ، ولكنه لم يصل الى شئ فانصرف . ثم عاد ، فأدرك فى الحال : أن الحجرة تبدو كالمنهوبة . . هل ينجو من ارتكاب الحماقات هذه الليلة ؟

لقد ترك ، على الرغم منه ، صورة ساطعة لغضبه فى هذه الحجرة .
 قال للخادم : « افتح الأقفاص » . فقال المدير :
 - « سوف تتسخ الحجرة يا مسيو فيرال » .
 - « تستطيع مدام سرجى أن تغيرها » . اهدأ .. فلن يحدث ذلك الليلة ..
 وابتعت الى بحسابها .
 - « هل تريد زهورا يا مسيو فيرال ؟ »
 - « لا شئ سوى الطيور .. ولا تدع أى شخص يدخل هنا .. حتى
 الخدم » .

وكان على النافذة ، لدرء البعوض ، ستار معدنى ، فلن تستطيع الطيور
 الفرار .. وفتح المدير مصراعى النافذة حتى لا تمتلىء الحجرة برائحة
 الحيوان .

والآن ، أخذت طيور الجزائر تحوم على قطع الأثاث والستائر وفى أركان
 السقف ، منطفئة اللون فى هذا النور الخافت وكأنها طيور الفريسكات
 الصينية . وهكذا قدم لقاليرى - بدافع من الحقد - أجل هداياه . وأطفأ
 النور ، ثم أضاءه ، وأطفأه ، ثم أضاءه مرة أخرى ، واستخدم لذلك مفتاح
 أباجورة السرير ، وتذكر الليلة الأخيرة التى قضها مع قاليرى فى منزله .
 وود لو ينتزع هذا المفتاح حتى لا تستطيع استخدامه بعد ذلك أبدا .. مع
 أى شخص آخر . ولكنه لم يكن يريد أن يترك وراءه أى أثر ينم عن الغضب .
 قال للخادم : « احمل الأقفاص الخالية .. واحرقها » .

وتساءل المدير وهو ينظر الى فيرال فى اعجاب : « واذا سألت مدام سرجى
 عن بعث هذه الطيور ، فهل أخبرها ؟ »
 - « انها لن تسأل .. لأنها ستتعرف على التوقيع » .

وانصرف .. ينبغى أن يضاجع الليلة أية امرأة .. ومع ذلك ، لم يشعر
 برغبة فى أن يذهب مباشرة الى المطعم الصينى .. وكان يكفيه - مؤقتا -
 أنه على يقين من وجود أجساد تحت تصرفه . وقد كان يحدث فى كثير من
 الأحيان أن يوقظه كابوس من نومه قفزا من السرير ، ولكن كانت تستولى

عليه رغبة فى أن يعود الى النوم على الرغم من الكابوس الذى يجده ثانية ، كما تستولى عليه فى الوقت نفسه رغبة فى التحرر من هذا الكابوس بأن يصحو تماما ، فالنوم معناه الكابوس ، ولكن الكابوس يعنى أيضا العودة الى نفسه ، واليقظة معناها السلام ، ولكنها تعنى أيضا الرجوع الى العالم . وكان الجنس فى هذه الليلة هو الكابوس . واستقر عزمه أخيرا على الاستيقاظ فطلب من السائق أن يتوجه به الى المنتدى الفرنسى : الكلام وانشاء علاقات مع انسان ، حتى ولو كان ذلك عن طريق الحديث ، هو أشد ضروب اليقظة يقينا .

وكان المشرب زاخرا بالناس : وهذا ما يحدث دائما فى أوقات الاضطرابات . وعلى مقربة من النافذة المواربة ، جلس چيسور وحيدا منعزلا أمام كأس من الكوكتيل الحلو ، وقد وضع عبادة من الصوف البنى الفاتح فوق كتفيه : وكان كيو قد اتصل تليفونيا ليخبره أن كل شيء يسير على ما يرام ، فسعى أبوه الى المشرب بحثا عن الشائعات المنتشرة ، التى غالبا ما تكون سخيفة ، ولكنها لا تخلو فى بعض الأحيان من الدلالة . . ولكنها لم تكن اليوم كذلك . واتجه اليه فيرال وسط ما يلقاه من تحيات . وكان يعرف طبيعة محاضراته ، ولكنه لم يكن يعيرها أية أهمية ، كما كان يجهل وجود كيو حاليا فى شنغهاى . وكان يعتقد أن من الوضاعة أن يسأل مارسيل عن أشخاص معينين ، وفضلا عن ذلك ، لم يكن للدور الذى يقوم به كيو أى طابع عام .

ان هؤلاء الحمقى جميعا ، الذين ينظرون اليه فى استهجان وجل ، يعتقدون أن الأفيون هو معقد الصلة بينه وبين چيسور العجوز . وهم فى ذلك مخطئون . وتظاهر فيرال بأنه يدخن غليوننا أو غليونين ، أى أقل دائما من الأنفاس اللازمة لكى يشعر بتأثير الأفيون - وذلك لأنه كان يرى فى جو قاعة التدخين ، وفى الغليون الذى ينتقل من فم الى آخر ، وسيلة للتأثير على النساء . وكان يجزع من عملية الغزل التى ينبغى أن يقوم بها ، ومن المساومة التى تجعل من الاهتمام الذى يبديه بامرأة ، ثمنا لما تقدمه له من متعة ، ولهذا فقد كان يقبل متلهفا أية فرصة تغنيه عن هذه الضرورة .

أما المزاج الذى كان يدفعه للذهاب أحيانا الى بكين لمشاركة چيسور العجوز فى التمدد على أريكته ، فكان أشد من ذلك تعقيدا . ويأتى حبه

للفضيحة فى المرتبة الأولى ، ثم رغبته فى ألا يكون مجرد رئيس للاتحاد
فحسب ، بل أن يكون متميزا بأفعاله عن هذا المنصب ، وهى وسيلة للاعتقاد
بأنه أعلى منه . وقد كان تذوقه الذى يكاد يكون عدوانيا للفن والفكر ،
والاستهتار الذى يسميه صفاء فى الفكر . . كان هذا كله مجرد دفاع ؟ فهو
لم ينحدر من « الأسر » الهيمنة على المؤسسات المالية الكبيرة ، أو على الحركة
العامة للأموال ، أو على التفتيش على أموال الدولة . وكانت أسرة « فيرال »
مرتبطة أشد الارتباط بتاريخ الجمهورية بحيث لا يمكن أن يدرجه القوم فى
عداد الانتهازين ، ومع ذلك فانه ما برح هاويا ، أيا كان نفوذه . ولا كان
أبرع من أن يحاول ردم الفجوة التى تحيط به ، فانه يعمل على توسيعها .
وكانت ثقافة چيسور الواسعة ، وذكاؤه الذى يضعه دائما فى خدمة محدثه ،
وازدرأؤه للتقاليد ، ووجهات نظره الفريدة دائما التى لا يتوانى فيرال عن أن
ينسبها الى نفسه حين يغادره . . كانت هذه الأشياء جميعا تعمل على التقريب
بينهما ، أكثر مما تعمل بقية العناصر الأخرى على التفرقة بينهما . وكان
چيسور لا يتكلم فى السياسة مع فيرال الا على مستوى الفلسفة ، وقد اعتاد
فيرال أن يقول انه فى حاجة الى الذكاء ، وكان هذا صحيحا ما لم يصدمه
هذا الذكاء .

ونظر حواليه : فى اللحظة التى جلس فيها ، اتجهت اليه الأنظار كلها
تقريبا . وقد كان على استعداد لأن يتزوج من طاهيته هذا المساء لمجرد أن
يفرضها على هذا الجمع . وكان يشيره أن يحكم على هؤلاء الحمقى على ما يفعل ،
وكلما قلت رؤيته لهم ، كان ذلك أفضل : . ولهذا اقترح چيسور أن يشربا
فى الشرفة ، التى تطل على الحديقة . . وكان الخدم قد أخرجوا بضعة مناضد
على الرغم من برودة الجو .

وسأل چيسور : « هل تعتقد أنه من الممكن أن نعرف . . نعرف كائنا
حيا ؟ »

وكانا قد استقرا بجوار مصباح صغير ، تتبدد هائته فى ظلمة الليل
التي أخذ الضباب يملؤها شيئا فشيئا .

ونظر اليه چيسور وقال لنفسه : « انه ما كان يجد فى نفسه هذا الميل
الى علم النفس لو كان يستطيع أن يفرض ارادته . »

وسأله : « امرأة ؟ »

— « وما أهمية ذلك ؟ »

— « ان الفكر الذى يجتهد لفهم امرأة ينطوى على شئ من العشق ..
والرغبة فى أن تعرف امرأة ما هى الا طريقة لامتلاكها أو للانتقام منها .. »
وكانت عاهر صغيرة تقول لأخرى ، حول المائدة المجاورة : « انها
لا تستطيع أن تفعل ذلك بهذه السهولة .. اننى أقول لك ، انها امرأة تغار
من فتنتى .. »

واستأنف چيسور كلامه قائلا : « انى أعتقد أن اللجوء الى الذكاء يحاول
تعويض هذا : فإن معرفة كائن ما عاطفة سلبية ، والعاطفة الايجابية ،
الواقع ، هى الشعور بأن المرء غريب دائما عن يحبه .. »

— « وهل من الممكن أن نحب يوما ؟ »

— « الزمن يخفى أحيانا هذا القلق .. الزمن وحده .. اننا لانعرف أبدا
كائنا ما ، ولكن قد يزايلنا أحيانا الشعور بأننا نجهله (اننى أفكر فى
ابنى .. أليس كذلك .. وفى صبي آخر أيضا ..) المعرفة بواسطة العقل
هى المحاولة الباطلة للتغاضى عن الزمان .. »

— « ليست وظيفة العقل أن يتغاضى عن الأشياء .. »

فتطلع اليه چيسور : « ماذا تعنى : بالعقل ؟ »

— « بوجه عام ؟ »

— « أجل .. »

وفكر فيرال ، ثم قال :

— « امتلاك الوسائل لقهر الأشياء أو الناس .. »

وابتسم « چيسور » ابتسامة غير ملحوظة ، ففى كل مرة يطرح هذا
السؤال ، يجيب محدثه — أيا كان — اجابة هى صورة رغبته الحقيقية ، أو
صورته فى نظر نفسه .. غير أن نظرة فيرال أصبحت أشد غزارة ..

وسأل : « هل تعرف العقاب الذى كان يوقع على المرأة التى تسوء سيدها ،

هنا ، فى عهد الامبراطوريات الاولى ؟ »

— « كانت هناك عقوبات كثيرة .. أليس كذلك ؟ ويبدو أن العقاب الرئيسي كان تقييد المرأة الى رمث ، بعد قطع أيديها ، وانتزاع عينيها ، على ما أعتقد ، ثم ... »

وفى أثناء كلامه ، كان چيسور يلاحظ الانتباه المتزايد ، بل الرضا الذي كان فيرال ينصت به :

— « ... ثم تركها تطفو فوق تلك الأنهار التي لا تنتهى حتى تموت جوعا أو تعباً ، وقد قيد عشيقها الى جانبها فوق الرمث نفسه ... »
— « عشيقها ؟ »

كيف يمكن التوفيق بين هذه اللامبالاة التي ألقى بها السؤال ، وبين هذا الانتباه ، وهذه النظرة ؟ ولم يكن چيسور يستطيع أن يخمن — خلو ذهن فيرال من العاشق ، ولكنه كان قد استدرك نفسه فعلاً .

واستطرد قائلاً : « وأغرب ما فى الأمر هو أن هذه العقوبات الوحشية قد صاغ نصوصها حتى القرن الرابع فيما يبدو — حكماء انسانيون طيبون ، وفقاً لما نعرفه عن حياتهم الخاصة ... »

— « أجل .. لاشك أنهم كانوا حكماء . »

وتطلع چيسور الى هذا الوجه الحاد ذى العينين المغمضتين ، يضيئه من أسفل المصباح الصغير ، وقد تعلق شعاع من النور بشاربه . طلقات الرصاص تدوى من بعيد .. كم من حيوات يتقرر مصيرها فى هذا الضباب الليلي ؟ ونظر الى هذا الوجه المتوتر فى مرارة بسبب مهانة صادرة من أعماق الجسد والروح ، وهو يدافع عن نفسه ضد هذه المهانة بكل ما أوتى من قوة زهيدة هى الحق الانسانى ؛ وكان فوق الحقد ذلك البغض الذى يضره كل من الجنسيتين للآخر كما لو كان على أقدم أنواع الكراهية أن تتولد من جديد عن هذه الدماء التى ما برحت تسيل فوق هذه الأرض التى غصت .

طلقات رصاص من جديد ، قريبة جداً هذه المرة بحيث جعلت الأكواب تهتز على المائدة .

وكان « چيسور » قد اعتاد سماع طلقات الرصاص هذه التى تأتى كل يوم من المدينة الصينية . وعلى الرغم من مكالمة « كيو » التليفونية ، فان هذه

الطلقات أقلتته فجأة • وكان يجهل مدى الدور السياسى الذى يلعبه فيرال • ،
بيد أن هذا الدور لا يمكن الا أن يكون فى خدمة تشانج - كاي - شيك •
ورأى من الطبيعى أن يكون جالسا الى جواره فلم يكن يجد نفسه متواطئا
أبدا ، حتى مع نفسه - ولكن رغبته فى معاونته قد انقطعت • طلقات رصاص
من جديد ، أبعد هذه المرة •

وسأل : « ماذا يجرى ؟ »

- « لا أدرى •• بيد أن الزعماء الزرق والحمراء قد أصدروا معا إعلانا
عظيما بالاتحاد • ويبدو أنه يسير على ما يرام • »

وقال چيسور : « انه يكذب : فلا بد أن يكون على علم بما أعلمه أنا على
الأقل • »

وأردف فيرال : « وسواء أكانوا من الحمراء أم من البيض ، فإن الكادحين
سيظلون كادحين •• اللهم الا اذا ماتوا • ألا ترى أن من الغباوة التى يتسم
بها الجنس البشرى أن يفقد الانسان الذى لا يملك سوى حياة واحدة - هذه
الحياة من أجل فكرة ؟ »

- « من النادر أن يستطيع انسان •• كيف أعبر ؟ احتمال وضعه
كانسان ••• »

وجال بخاطره رأى من آراء كيو : فكل ما يقبل الناس أن يموتوا فى
سبيله ، متجاوزين الانتفاع ، يتجه فى غموض - قل أو كثر - الى تبرير
ذلك الوضع بتأسيسه على الكرامة ، وهكذا كانت المسيحية بالنسبة للعبد ،
والأمة بالنسبة للمواطن ، والشيعوية بالنسبة للعامل •

ولكنه لم يكن يود أن يناقش أفكار كيو مع فيرال • وعاد مرة أخرى الى
جليسه فقال :

- « لابد أن يتعاطى الانسان مخدرا دائما : الأفيون فى هذه البلاد ،
والحشيش فى بلاد الاسلام ، والمرأة فى الغرب ••• وربما كان الحب هو
على وجه الخصوص الوسيلة التى يستخدمها الغربى للتحرر من وضعه
كانسان ••• »

وتحت أقواله ، كان يتسرب تيار مضاد ، تختلط فيه الوجوه وتحتجب :

« تشن » وجريمة القتل ، كلابيك وجنونه ، كاتوف والثورة • ماى والحب ، هو والأفيون • • أما كيو • • فكان وحده الذى يقاوم هذه المجالات •

وأجاب فيرال : « لن ينال سوى عدد أقل كثيرا من النساء ، لو أنهم استطعن الحصول وهن واقفات فى وضع رأسى على عبارات الاعجاب التى يحتجن إليها ، والتى تقضى عليهن بالذهاب الى الفراش • »

— « وكم من الرجال يصدق عليهم أيضا هذا القول ؟ »

— « ولكن الرجل يستطيع — بل يجب عليه — أن يستغنى عن المرأة : الفعل ، والفعل وحده هو الذى يبرر الحياة ، ويرضى الرجل الأبيض • ماذا نظن اذا حدثونا عن مصور عظيم لا يصنع لوحات ؟ انما الرجل مجموع أفعاله ، مجموع ما أتى من أفعال ، وما يستطيع أن يفعل • ولاشئ خلاف ذلك • ولست ما يصوغه من حياتى هذا اللقاء بتلك المرأة أو بذلك الرجل • اننى سبلى • • • و • • • »

— « ينبغى أن تكون السبل موجودة من قبل • • »

وكان جيسور قد اعتزم — منذ أن تناهت اليه طلقات الرصاص الأخيرة — أن يكف عن القيام بدور المبرر •

— « ان لم يكن بيدك ، فسيكون ذلك بيد غيرك • • • والأمر أشبه بقائد يقول : بجنودى أستطيع أن أضرب المدينة • • ولكنه ، لو كان قادرا على ضربها ، لما كان قائدا • • فضلا عن ذلك ، فربما كان الرجال لا يكثرثون بالسلطان • • وما يفتنهم فى هذه الفكرة ، ليس هو القدرة الحقيقية ، بل ما يتوهمون أنه سيجلب لهم سرور التصرف على هواهم • ان قوة الملك هو أن يحكم ، أليس كذلك ؟ غير أن الانسان لا يتوق الى أن يحكم ، وانما يود أن يقهر كما قلت أنت • • أى أن يكون أكثر من انسان • • فى عالم الناس • انه الافلات من الوضع الانسانى كما قلت لك • • أى ألا يكون قويا فحسب ، بل قادرا على كل شئ • والمرض الوهمى الذى ليست ارادة القوة غير تبريره العقلى هو ارادة الألوهية • • فكل انسان يحلم بأن يكون الها • »

وكان ما يقوله « جيسور » يزعج فيرال ، غير أن روحه لم تكن مهياة لاستقباله • واذا لم يعمل الشيخ على تبريره ، فلن يجد خلاصا من فكرته المسيطرة عليه :

« لماذا اذن لا ينال الآلهة - فى رأيك - النسوة الغانيات الا اذ
اتخذوا صورة انسانية أو حيرانية ؟ »

وأحس چيسور - وكأنه رأى رؤية العين - بأن ظلا قد استقر الى
جزارهما ، وكان فيرال قد نهض .

قال چيسور دون أن ينظر اليه : « أنت فى حاجة الى استخدام ما هو
جوهرى فى نفسك ، لكى تشعر شعورا أعنف بالوجود » .

ولم يكن فيرال يصل فى تخمينه الى أن نفاذ رأى چيسور يأتى من أنه
يتعرف فى محدثيه على أجزاء من شخصيته هو ، وأنه من الممكن تكوين أدق
صورة عنه بجمع تلك النماذج من فهمه الثاقب .

واستطرد الشيخ قائلا بابتسامة واعية : « الاله يستطيع أن يملك :
ولكنه لا يستطيع أن يقهر » والمثل الأعلى لاله ما ، هو أن يصبح انسانا مع
علمه بأنه يستطيع الرجوع الى قدرته ، وحلم الانسان هو أن يصبح الها دون
أن يفقد شخصيته . . »

ينبغى - بكل تأكيد - أن يضاجع امرأة . . وانصرف فيرال .

وقال چيسور لنفسه : « حالة غريبة من خداع الذات المتواصل . .
ولعله يتصور نفسه هذا المساء - من حيث الجنس - كما يتصور أى
بورچوازى رومانتيكى صغير » . وحين اتصل چيسور - بعد الحرب بقليل -
بالقوى الاقتصادية فى شنغهاى ، لم يكن اندهاشه قليلا اذ رأى أن فكرته
التي كونها عن الرجل الرأسمالى لا تطابق أى شىء . . ذلك أن جل من التقى
بهم حينئذ كانوا قد حددوا حياتهم العاطفية بصورة أو بأخرى ، وكانت
هذه الصورة دائما هى صورة الزواج : الفكرة المسيطرة التي تصنع رجل
الأعمال الكبير ، حين لا يكون وريثا قابلا للاستبدال ، لا تتلاءم مع التشئت
الغرامى . وكان يشرح هذه المسألة لطلابه قائلا : « ان الرأسمالية الحديثة
ارادة تنظيم أكثر منها ارادة قدرة . . »

وكان فيرال يفكر - وهو فى سيارته - فى أن علاقاته بالنساء كانت
دائما واحدة ، ولا معنى لها . . وربما ، كان قد أحب ، ذات يوم . . فى
الزمان الغابر . من هو هذا العالم النفسانى المخمور الغافل الذى اخترع

تسنيمة العاطفة التي تسم حياتها الآن بالحب ؟ الحب ، فكرة مستبدة مبالغ
خيها ، ان نساءه يسيطرون عليه .. أجل - سيطرة الرغبة في الانتقام . انه
يلجأ الى النساء للحكم عليه .. وهو الذي لا يقبل أى حكم . والمرأة التي
تعبر عن اعجابها به بأن تمنحه نفسها ، ودون أن يناضلها ، لا وجود لها
بالنسبة له .. ولم يكن أمامه سوى المومسات والعاهرات . ولحسن الحظ ،
كانت ثمة أجساد .. والا .. » ستموت يا عزيزى دون أن تظن الى أن المرأة
كائن انساني .. » ربما كان ذلك بالنسبة لها .. لا بالنسبة له . المرأة ،
كائن انساني . انها مجرد راحة ، رحلة ، عدو ...

وأخذ - فى طريقه - غانية من أحد بيوت طريق نانكين : فتاة ذات وجه
رشيق عذب .. وجلست الى جواره فى السيارة ، وقد أسندت يديها فى
وزانة على قيثارها ، فبدت كتمثال صغير من تماثيل « تانج » . ووصلا أخيرا
الى منزله . وصعد درجات السلم أمامها ، وقد تحولت خطواته الطويلة المعتادة
الى خطوة متناقلة . وحدث نفسه قائلا : « هيا .. الى النوم » . النوم ، هو
السلام . لقد عاش ، وناضل ، وخلق .. وتحت هذه المظاهر كلها ، فى
أعمق أعماق نفسه ، كان يجد هذه الحقيقة الوحيدة ، بهجة الانسلاخ والتخلي
على الشاطئ - كما يتخلي المرء عن جسد رفيق غريق - عن هذا الكائن الذى
هو نفسه والذى عليه أن يبعث فيه حياة جديدة كل يوم . « انما النوم هو
الشيء الوحيد الذى تمنيته دائما ، فى الواقع ، منذ سنين عديدة .. »

وماذا ينتظر أفضل من هذا النوم الذى تحمله له تلك المرأة الشابة
ذات النعل الرنان من خلفه فى كل خطوة تخطوها على درجات السلم ؟ ودخلا
حجرة التدخين : حجرة صغيرة ذات متكئات مغطاة بسجاجيد من منغوليا ،
صنعت للاغراء الحسى أكثر منها للاسترسال فى الأحلام . وعلى الجدران ،
لوحة كبيرة من المرحلة الأولى للمصور « كاما » وراية من التبت . ووضعت
المرأة قيثارها على أريكة . وكانت هناك على الصينية آلات تدخين الأفيون
القديمة ، ذات مقابض من اليشب ، محلاة ولكنها غير عملية ، فان صاحبها
يقتنيها ولا يستخدمها . ومدت يدها نحوها ، فأوقفها بحركة منه . وانبعثت
من بعيد طلقة رصاص جعلت الابر تهتز فوق الصينية .

- « هل تريد أن أغنى ؟ »

- « ليس الآن . »

ونظر الى جسدها الذى يخفيه وينم عنه فى آن واحد ذلك الثوب الضيق المصنوع من الحرير البنفسجى الذى كانت ترتديه . وكان يعرف أنها منذهلة : فقد جرت العادة ألا يضاجع المرء غانية الا اذا غنت ، وتحدثت ، وقدمت الطعام ، أو أعدت الغليون . والا ، فلماذا لم يلجأ الى المومسات ؟

ـ « ألا تريد أن تدخن أيضا ؟ »

ـ « كلا . . اخلعى ملابسك . »

وكان يعلم أنه ينكر كرامتها ، وكان يود أن تتجرد من ملابسها فى الحال ، ولكنه كان يعلم أنها سترفض . ولم يترك مضيئا سوى مصباح ساهر واحد . وناجى نفسه قائلا : « العشق ، هو مذلة للذات أو للآخر ، أو ربما للثنين معا . . انه فكرة ، بكل وضوح . . » ومهما يكن من أمر ، فهي أشد اثارة على هذا النحو ، بهذا القميص الصينى الملتصق بجسدها . ولكنها لم تكن بالبكاء تثيره ، أو لعله لا يفعل الا بخضوع هذا الجسد الذى ينتظره ، على حين لا يحرك هو ساكنا . . كانت لذته تنبثق من أنه يضع نفسه مكان « الأخرى » . . هذا واضح : مكان الأخرى . . المقهورة ، المقهورة بواسطة . . والخلاصة ، أنه لا يضاجع أبدا الا نفسه ، ولكنه لا يستطيع أن يصل الى هذه النتيجة الا بشرط ألا يكون بمفرده . وفهم الآن ما ذهب اليه ظن چيسور : أجل ان ارادة القدرة عنده لا تبلغ موضعها أبدا ولا تعيش الا على تجديده ولو أنه يمتلك فى حياته امرأة واحدة قط ، فقد امتلك ، وسيملك من خلال هذه المرأة الصينية التى تنتظره الشئ الوحيد الذى يتحرق شوقا اليه ، وهو نفسه . انه فى حاجة الى عيون الآخرين لكي ينظر الى نفسه ، وإلى حواس امرأة أخرى لكي يحس بنفسه . وتطلع الى الصور التبتية ، وثبت نظره عندها دون أن يعرف لماذا : على عالم لا لون له يضرب فيه جماعة من المسافرين ، كان هيكلان من العظام متشابهان تماما ، يتعانقان فى تشنج .

واقترب من المرأة .

الساعة العاشرة والنصف

قال تشن لنفسه : « حبذا لو لم تتأخر السيارة أكثر من ذلك . . » . . وفى العتمة الكاملة لن يكون واثقا من تسديد ضربته ، وستطفأ مصابيح الشارع الأخيرة بعد لحظات . وكان ليل الصين الموحش - الصين المليئة بحقول الأرز والمستنقعات - قد استولى على الشارع شبه المهجور ، وأخذت

الأضواء الخافتة المنبعثة من شقوق المصاريع المواربة ، عبر الزجاج المغلق - تنطفئ واحدا اثر الآخر ، كما تعلقت الأشعة الأخيرة بالقضبان المبللة ، ربعاوزل التلخراف ، وجعلت تضعف دقيقة بعد أخرى ، ولم يعد تشن يراها الا على الاعلانات العمودية المغطاة بحروف مذهبة . وكانت هذه الليلة التي يغشاها الضباب هي ليلته الأخيرة ، وكان بها راضيا . لقد اعتزم أن ينفجر مع العربة ، في لمحة كالبرق تضيء لحظة هذا الشارع البغيض ، وتغطي جدارا برشاش من الدماء . وخطرت له أقدم أسطورة صينية ومؤداها أن الناس هم ديدان الأرض . . ينبغي أن يصبح الارهاب نزعة صوفية . العزلة أولا ، وليتخذ الارهابي قراره بمفرده ، وينفذه بمفرده ، فان قوة البوليس مصدرها الخيانة ، والقاتل الذي يتصرف وحده لا يخاطر بافشاء سره والعزلة أخيرا ، وان كان من الصعب على من يعيش خارج العالم ألا يبحث عن أقرانه . وكان تشن يعرف الاعتراضات التي تقوم في وجه الارهاب : وتتلخص في الاضطهاد البوليسى للعمال ، واللجوء الى الفاشية . بيد أن الاضطهاد لا يمكن أن يكون أعنف مما هو الآن ، والفاشية لا يمكن أن تكون أوضح . وربما كان هو وكيو يفكران في فئتين مختلفتين من الناس . فما الأمر أمر الابقاء على أفضل الناس المسحوقين في طبقتهم لتخليصها مما هي فيه ، وانما اعطاء معنى لانسحاقهم هذا نفسه : بأن يكون كل منهم مسئولا وقاضيا على حياة سيد من السادة . اعطاء معنى مباشر للفرد الذي يعيش بلا أمل ، ومضاعفة الاغتيالات لابوساطة تنظيم ، ولكن بوساطة فكرة : أى الاستكثار من الشهداء . وسوف ينصت الناس لـ « پى » حين يكتب ، لأنه - أى تشن - سوف يموت : انه يعرف الوزن الذى تكتسبه فكرة ما نتيجة للدماء المبدولة في سبيلها . وكل ما كان عدا فكرته المصممة كان يتحلل في الليل الذى يخفى وراء تلك السيارة التى لن تلبث أن تصل بعد قليل . . وكان الضباب - يغذيه الدخان المنبعث من البواخر - يحطم في أعماق الشارع شيئا فشيئا - الأرضفة التى لم تخل تماما ، فقد كان ثمة بعض السابلة المتعجلين يسير الواحد منهم وراء الآخر دون أن يتجاوزه الا نادرا ، وكأن الحرب قد فرضت على المدينة نظاما صارما . وكان الصمت العام الذى يخيم على مسيرهم يضيف على اضطرابهم طابعا يكاد يكون خياليا . . ما كانوا يحملون متاعا أو سلالا ، أو يدفعون أمامهم عربات صغيرة ، فلعل نشاطهم هذه الليلة كان بلا هدف . ونظر « تشن » الى جميع هذه الظلال التى تسرى دون جلبه صوب النهر ، فى حركة دائمة لا تفسير

لها ، أليس هذا هو القدر بعينه ، هذه القوة التي تدفعهم الى الطرف الآخر من الطريق ، هناك حيث يبدو القوس المضيء باللافتات التي توشك ألا تظهر أمام ظلمات النهر - كأنه باب الموت نفسه ؟ وكانت تلك الحروف الضخمة الغائصة فى أفق مضطرب ، تضيق فى ذلك العالم الفاجع الغائم كما تضيق فى حقب الزمان ، وكأنما كان النفير العسكرى لسيارة تشانج - كاي - شيك الذى بدأ يتردد فى صوت مكتوم فى مؤخرة الشارع شبه المهجور - آتيا هو أيضا من الأزمنة البوذية ، لا من هيئة أركان الحرب • وضغط تشن على القبلة تحت ذراعه فى شئ من العرفان بالجميل • وكانت المنارات وحدها هى التى تخترق الضباب • وفى الحال ، ظهرت السيارة كلها فجأة ، تتقدمها السيارة الفورد المخصصة للحراسة ، وخيل الى تشن للمرة الثانية أن السيارة تتقدم بسرعة غير عادية • وفجأة سدت الشارع ثلاث من عربات الجر ، فهدأت السيارتان من سرعتهم • وحاول تشن أن يعاود السيطرة على نفسه • وكان ارتبأكه قد تشتت فعلا • ومرت الفورد ، ووصلت السيارة : سيارة أمريكية ضخمة ، تعلق بسلميهما رجلان من البوليس • وكانت تبدو من القوة بحيث أحس تشن أنه لو لم يتقدم وانتظر ، فسوف يتنحى عن طريقها على الرغم منه • وتناول قنبلته من مقبضها كأنها زجاجة لبن ، وكانت سيارة الجنرال ضخمة ، على بعد خمسة أمتار • • وجرها نحوها فى سرور منتش ، وقذف بنفسه تحتها ، مغمض العينين •

وعاد الى صوابه بعد عدة لحظات ، لم يحس ولم يسمع قرقرة العظام التى كان ينتظرها ، ولكنه غاص فى كرة باهرة الضوء • ولم تعد تغطيه سترته • وبيده اليمنى كان يمسك قطعة من غطاء السيارة مليئة بالوحل والدماء • • وعلى بعد بضعة أمتار كومة من الرماد الأحمر ، طبقة من الزجاج المسحوق يتألق فيها شعاع أخير من النور • • ومن • • ولم يعد يميز شيئا : وأحس بألم ، سرعان ما تجاوز فى ظرف ثانية منطقة الوعي • ولم تعد رؤيته واضحة ، ومع ذلك ، شعر بأن المكان ما برح مهجورا ، هل يخشى رجال البوليس قنبلة ثانية ؟ كان يتألم بجسده كله ، ألما لا سبيل الى تحديد موضعه : وأصبح كله ألما • ثمة شخص يقترب • وتذكر أنه ينبغى عليه أن يخرج مسدسه • وحاول أن يبلغ جيب سرواله • • لا جيب ، ولا سروال ، ولا ساق ، وانما لحم مفرى • المسدس الآخر ، فى جيب قميصه • لقد طارت

فتحتته ، فأمسك بالسلاح من فوهته ، وأداره دون أن يعرف كيف أداره ، ورفع بالغريزة ترس الأمان بسبابته • وأخيرا فتح عينيه ، كان كل شيء يدور بطريقة متمهلة قاهرة وفقا لدائرة واسعر ، ومع ذلك لم يكن لشيء وجود سوى الألم • وكان رجل من رجال البوليس قريبا منه • وأراد تشن أن يسأل عما اذا كان تشانج - كاي - شيك قد مات ، ولكنه كان يريد ذلك في عالم آخر ، ففي هذا العالم ، لم يعد ذلك الموت يعنيه في شيء •

وبكل قوته ، ركله رجل البوليس في جنبه ركلة ، أدارته • فصرخ تشن ، وأطلق مسدسه الى الأمام جزافا ، وضاعفت هذه الهزة ن أله الذي كان يعتقد أنه لا قرار له • وكان على وشك أن يفقد صوابه أو أن يموت • وبذل أقصى مجهود في حياته ، بأن توصل الى ادخال فوهة المسدس في فمه • وتوقع أن تكون الهزة الجديدة أشد ألما من الأولى، فلم يبد حراكا • وانقبضت عضلاته جميعا نتيجة لركلة غاضبة من كعب رجل آخر من رجال البوليس ، فأطلق النار دون أن يلحظ شيئا •

الجميع المتأخرين

الساعة الحادية عشرة والرابع

سارت السيارة - عبر الضباب - فى الممشى الرمل الطويل الذى يؤدى الى بيت من بيوت الميسر . وقال « كلابيك » لنفسه : « لدى وقت للصعود ، قبل أن أذهب الى « القط الأسود » . وكان مصرا على ألا يفوته كيو ، بسبب النقود التى كان ينتظرها منه ، ولأنه ربما لم يكن مقبلا هذه المرة على تنبيهه الى خطر فحسب ، بل على انقاذه . وكان قد حصل دون عناء على المعلومات التى طلبها منه كيو : فقد كان المخبرون يعلمون أن الأوامر قد صدرت الى قوات تشانج - كاي - شيك الخاصة بالتحرك فى الساعة الحادية عشرة ، وأن اللجان الشيوعية ستحاصر جميعا . ولم يعد الأمر مقصورا على ترديد : « رد الفعل وشيك الوقوع » ، بل كان « لا تذهب هذا المساء الى أية لجنة » . ولم ينس أن كيو يجب أن يرحل قبل الساعة الحادية عشرة والنصف . فهناك الليلة اذن اجتماع شيوخى ما ، ينوى تشانج - كاي - شيك أن يسحقه . وقد يكون ما يعلمه رجال البوليس كاذبا فى بعض الأحيان ، غير أن وقوع هذين الأمرين فى وقت واحد كان جليا كل الجلاء ، ويستطيع كيو - اذا أخطر - أن يرجى الاجتماع ، أو ألا يذهب اليه - اذا كان قد فات أو ان الارحاء . « واذا أعطانى مائة دولار ، فربما أصبح معى ما يكفى من النقود : مائة ، ومائة وسبعة عشر حصلت عليها بعد الظهر بطرقى اللطيفة وغير المشروعة على السواء ، أى مائتين وسبعة عشر دولارا . ولكن ، ربما ، لم يكن معه شيء : فلا توجد هذه المرة أسلحة تحت تصرفه . فلنحاول اذن أن نتخلص بمفردنا ، من هذه الورطة » ووقفت السيارة . وأعطى كلابيك وكان يرتدى السموكنج - دولارين للسائق . وشكره السائق - العارى الرأس - بابتسامة عريضة : اذ كان يستحق على المسافة التى قطعها دولارا واحدا .

- « هذه الزيادة بقصد أن تسمح لك بشراء قبعة صغيرة سوداء . »

ثم أردف قائلا ، وقد رفع سبابته ، كمن يعلن الحقيقة :

- « قلت : قبعة صغيرة سوداء . »

وانصرف السائق .

واستطرد كلابيك قائلا وهو واقف وسط الحصباء : « لأن هذه الشخصية

من وجهة النظر الجمالية - التى هى وجهة نظر النفوس العظيمة - تتطلب
قبعة صغيرة سوداء • «

وكانت السيارة قد رحلت •• وعلى هذا كان يوجه كلامه الى الليل ،
وانبعثت من الحديقة رائحة البقس والأفنوم البليلين ، وكأن الليل يرد
عليه • وكانت هذه الرائحة المريرة تذكره بأوروبا • وتحسس البارون جيبه
الأيمن ، وبدلاً من أن يشعر بالمحفظة ، أحس بالمسدس ، فقد كانت المحفظة فى
الجيب الأيسر • وتطلع الى النوافذ غير المضاءة التى لا تكاد تبين :
« فلنفكر ••• » وكان يعلم أنه يطيل هذه اللحظة لأن اللعبة لم تكن قد بدأت
بعد ، ولأن الفرار ما زال ممكناً • « اذا أمطرت السماء - بعد غد - فسوف
تتبعث هذه الرائحة : وربما أكون حينذاك ميتاً •• ميتاً ؟ ماذا أقول ؟ حماقة •
لا كلمة : اننى خالد • » ودخل ، ثم صعد الى الطابق الأول • وكان يبدو
وكان جلبة أحجار اللعب (الفيش) وصوت المشرف على القمار ترتفع وتنخفض
مع حلقات الدخان •• وكان الخدم نائمين ، أما المخبرون الروسيون من رجال
البوليس الخصوصى ، فقد وضعوا أيديهم داخل جيوب ستراتهم وأمسكوا
بهرات قصيرة فى أياديهم اليمنى) ، واستندوا على أفاريز النوافذ ، أو
أخذوا يتجولون فى لا مبالاة ، دون أن يناموا • وبلغ كلابيك الصالون
الكبير : وفى ضباب التبغ حيث كانت حصباء الجدار تلمع لمعاناً مختلطاً ،
أخذت بقع السموكنج السوداء ، والأكتاف البيضاء تميل - بالتبادل - على
المائدة الخضراء •

وهتفت أصوات : « مرحى •• يا توتو • »

وكثيراً ما كان البارون يسمى « توتو » فى شنفهاى • ومع ذلك ، لم
يسبق له أن أتى الى هذا المكان الا مصادفة ، فى صحبة بعض أصدقائه ، اذ
أنه لم يكن مقامراً ••• وفتح ذراعيه ، كالأب الطيب الذى يفرح بلقاء
أطفاله :

- « مرحى •• اننى شديد التأثر لاستطاعنى الانضمام الى هذا الحفل
العائلى الصغير ••• »

غير أن المشرف ألقى كرتة : فتحول الانتباه عن كلابيك •• ها هنا يفقد

قيمته : لأن هؤلاء ليسوا بحاجة الى التلهى • كانت وجوههم مركزة بجمعها
فى المنظر الى هذه الكرة ، فى نظام مطلق •

انه يملك مائة وسبعة عشر دولارا •• واللعب على الأرقام شبيد
الخطورة ••• ولكنه كان قد اختار سلفا •• زوجى أو فردى •

قال للمشرف : « ناولنى عددا من « الفيش » الصغيرة اللطيفة • »

— « من أية فئة ؟ »

— « عشرين • »

وقرر أن يلعب بفيشة واحدة فى كل مرة : وأن يلتزم الأرقام الزوجية
دائما •• لابد أن يربح على الأقل ثلاثمائة دولار •

وراهن •• وكان الرقم الرابع خمسة •• خسارة •• لا أهمية ولا اهتمام •
وراهن من جديد ، على رقم زوجى دائما •• اثنان •• رابح • من جديد ،
الرقم ٧ خسارة • نم الرقم ٩ : خسارة •• ٤ ، رابح • ثلاثة : خسران ٧
و ١ : خسارة •• وفقد ثمانين دولارا •• ولم تبق غير فيشة واحدة •
رهانه الأخير •

ألقاها بيده اليسرى • ولم يعد يحرك اليد اليسرى ، وكأن ثبات الكرة
قد ثبت هذه اليد المرتبطة بها • ومع ذلك ، فقد كانت هذه اليد تجتذبه
نحو نفسه • وتذكر فجأة : لم تكن هذه اليد هى التى تضايقه ، بل الساعة
التى يحملها فى معصمه • الحادية عشرة وخمسة وعشرين دقيقة •• لم تبق
له سوى خمس دقائق لكى يلحق بـ « كيو » •

وكان على ثقة من الفوز ، فى الرهان قبل الأخير : وإذا كان لابد من أن
يخسر ، فانه لا يمكن أن يخسر بهذه السرعة • انه لم يخطئ حين لم يعلق أية
أهمية على خسارته الأولى ، فقد كانت بلا شك نذير شؤم • بيد أننا نكاد
نربح دائما فى الرهان الأخير •• وقد ربح الفردى ثلاث مرات متعاقبة • ومع
ذلك ، فقد كان الفردى هو الذى يربح — منذ وصوله — أكثر من الزوجى ،
بدليل خسارته • هل يغير •• ويلعب على الفردى ؟ غير أن شيئا كان يدفعه
الآن الى أن يظل سلبيا ، وأن يذعن : وخيل اليه أنه قد أتى لهذا • كل

حركة عبارة عن طقس من الطقوس المقدسة يتخرج فى أن يخل به . وترك رهانه على الزوجى .

وقذف المشرف بالكرة . . فاندفعت فى استرخاء - كالعادة ، وبدأت كأنها تتردد . ولم يكن كلايك قد رأى منذ البداية خروج الأحمر أو الأسود رابحا . وعلى هذا تكون لهما الآن أكبر الفرص للربح . واستمرت الكرة فى تجوالها . . لماذا لم يلعب على الأحمر ؟ وأبطأت الكرة فى سيرها ووقفت عند رقم ٢ . رابح .

لابد أن يضع الآن الأربعين دولارا على رقم ٧ ، وأن يراهن على هذا الرقم . . هذا واضح ؛ وعليه بعد ذلك أن يغادر هذه العصابة . ووضع فيشته ، وربح . وحين دفع المشرف نحوه بأربعة عشرة فيشة - وحين لمسها اكتشف مندهلا أنه يستطيع أن يكسب : لم يكن ذلك خيالا ، « يانصيبا » خياليا يكسبه رابحون مجهولون . وخيل اليه فجأة أن البنك مدين له بهذا المبلغ لا لأنه راهن على الرقم الرابع ، أو لأنه خسر فى البداية ، وإنما من الأزل بسبب خياله وحرية فكره ، وأن هذه الكرة قد وضعت المصادفة فى خدمته لكى يدفع كل ديون حظه . ومع ذلك ، لو أنه راهن من جديد على رقم آخر ، فسوف يخسر . وترك مائتين من الدولارات على رقم فردى - وكانت الخسارة من نصيبه .

وترك المائدة لحظة ، وهو نائر ، واقترب من النافذة .

هناك الليل فى الخارج ، وتحت الأشجار كانت تنبعث الأضواء الحمراء من المنصايح الخلفية للسيارات . وعلى الرغم من زجاج النوافذ ، تناهت الى سمعه جلبة عظيمة من الأصوات ، والضحكات . وفجأة ، انطلقت جملة قيلت بلهجة غاضبة ، دون أن يميز كلامها . . انفعالات . . هؤلاء الناس جميعا الذين يمرون خلال الضباب . . أى حياة حمقاء خاملة تلك التى يحيونها ؟ لم يكن يلوح أشباحا ، بل تلك مجرد أصوات فى الليل . أما فى هذه القاعة ، فكانت الدماء تسرى فى عروق حية . . وهؤلاء الذين لا يلعبون . ليسوا بشرا . ألم يكن ماضيه سوى حماقة طويلة ؟ وعاد الى المائدة .

ووضع ستين دولارا على رقم زوجى ، من جديد . هذه الكرة التى

ستهدأ حركتها كانت مصيرا .. ومصيره « هو » قبل كل شيء .. انه لا يناضل مخلوقا ، وانما يناضل نوعا من الاله ، وهذا الاله ، كان فى الوقت نفسه ، هو ذاته نفسها .. وانطلقت الكرة .

وأحس على الفور بتلك الحيرة السلبية التى كان يبحث عنها : وخيل اليه من حديداً أنه يتنفس على حياته ، وأنه يعلقها على هذه الكرة العابرة . وبفضلها كان يرتضى ، لأمر مرة ، الشخصيتين اللتين يتألف منهما : كلابيك الذى يريد أن يعيش ، وكلابيك الذى يريد أن يتحطم . ولماذا ينظر فى الساعة ؟ لقد ألقى به « كيو » فى عالم من الأحلام ، وخيل اليه أنه يغذى هذه الكرة ، لا بما يقدم عليه من رهان ، بل بحياته نفسها - فانه اذا لا يرى « كيو » فقد أضاع كل فرصة للحصول على المال - كما كان يغذيها بحياة شخص آخر ، وكان جهل هذا الآخر بذلك يبت فى الكرة ، التى بدأت انحناءاتها ترتضى ، حياة ارتباطات النجوم ، والأمراض المميتة ، وكل ما يعتقد الناس أن مصائرهم معلقة به . وأية علاقة بين النقود وبين هذه الكرة التى تتردد على حافة الثقوب كأنها خطم الحيوان ، والتى يعانق بوساطتها مصيره الخاص؟ انها الوسيلة الوحيدة التى وجدها لامتلاك ذاته ، وهو يحرص الآن على الربح ، لا لكى يهرب ، بل لكى يبقى ، ولكى يخاطر من جديد ، حتى تجعل المقامرة بهذه الحرية التى ظفر بها - حركته تلك أمعن فى العبث ! واكتشف وهو مستند على مقدم ساعده ، ودون أن يواصل النظر الى الكرة التى تابعت سيرها المتباطىء شيئاً فشيئاً ، وقد انتابت عضلات ساقه وكتفيه قشعريرة - اكتشف معنى اللاعب ، ونشوة الخسارة ، خسة .

وكانت خسارة للجميع تقريبا .. وملاً الدخان القاعدة ، كما ملأها فى الوقت نفسه ارتخاء يائس فى الأعصاب ، وجلبة أحجار اللعب التى يحصدها بدولاراته السبعة عشر ؟ وأخرج الورقة المالية ذات الدولارات العشرة ووضعها على رقم زوجى .

وبلغ من شدة ايقانه بالخسارة أنه لم يلعب بالمبلغ كله ، وكأنه يريد أن يشعر بأنه يخسر لأطول وقت ممكن . وما أن شرعت الكرة فى التردد ، حتى تبعثها يده اليمنى ، بينما ظلت يده اليسرى مثبتة الى المائدة وأدرك الآن الحياة المليئة التى تعيها أدوات اللعب : فهذه الكرة ليست كغيرها من

الكرات ، أى تلك التى لا تستخدم فى اللعب ، بل ان تردد حركتها نفسه تردد حى : فهذه الحركة المحتومة الرخوة فى آن واحد ترتجف على هذا النحو لأن حيوات كثيرة مرتبطة بها . وفى أثناء دورانها ، لا يجرؤ لاعب على أن يسحب نفسا من سيجارته المشتعلة . . ودخلت الكرة فى خلية حمراء ، وخرجت منها ، ثم تجولت مرة أخرى ودخلت فى رقم ٩ . وحاول كلابيك أن ينتزعها من مكانها بحركة غير ملحوظة من يده اليسرى الموضوعة على المائدة . . لقد خسر هذه المرة أيضا .

خمسة دولارات على الزوجى . . آخر فيشة . . من جديد .

وقطعت الكرة المقذوفة دوائر واسعة ، غير أن الحياة لم تتردد فيها بعد . واستأنرت الساعة دونها - على الرغم من ذلك - بنظرة كلابيك . ولم يكن كلابيك يشدها الى ظهر معصمه ، وانما الى بطن المعصم ، عند الموضع الذى يقاس فيه النبض . وبسط يده على المائدة فلم يعد يرى سوى الكرة . واكتشف أن اللعب انتحار بلا موت : كان يكفيه أن يضع نقوده هناك ، وأن يتطلع الى هذه الكرة ، وينتظر ، وكأنه ينتظر بعد أن تجرع سما . . سما متجددا بلا انقطاع ، مضافا اليه الكبرياء التى دفعت الى تناوله . . ووقفت الكرة على رقم ٤ . . رابع .

وجعله المكسب أقرب ما يكون الى اللامبالاة . . ومع ذلك ، فلو أنه خسر ! . . وربح مرة أخرى ، وخسر مرة أخرى . وتبقى معه من جديد أربعون دولارا . ولكنه كان يريد أن يستعيد لهفة الرهان الأخير . . وكانت « الفيش » قد تكدست على الأحمر الذى لم يكسب منذ مدة طويلة . وخبب بصره هو أيضا ذلك اللون الذى التقت عنده أنظار اللاعبين جميعا . ولكن خيل اليه أنه اذا تخلى عن الزوجى ، فقد تخلى عن القتال . فاحتفظ بالزوجى ، ووضع عليه الدولارات الأربعين . ما من مجازفة يمكن أن تعادل هذا أبدا : ولعل كيو لم يرحل بعد : ومن المؤكد أنه بعد انقضاء عشر دقائق - لن يستطيع اللحاق به ، ولكنه ، ربما كان يستطيع الآن . . الآن . . الآن ، انه يلعب بآخر درهم يملكه . . بحياته ، وبحياة شخص آخر ، وعلى الأخص بحياة شخص آخر . . كان يعرف أنه يسلم كيو ، وأن « كيو » هو الذى كان مقيدا

الى هذه الكرة ، الى هذه المائدة ، انه هو ، كلابيك ، قد بات هذه الكرة المسيطرة على الجميع ، وعليه - عليه هو الذى ينظر اليها .. حيا ، حياة لم يشعر بها من قبل .. حياة خارج نفسه ، وقد أزهقه خجل يبعث على الدوار .

وخرج فى الساعة الواحدة بعد أن أغلقت « الحلقة » ، وقد تبقى له أربعة وعشرون دولارا . وهذا هواء الخارج من ثائرتة ، وكأنه هواء غابة . وكان الضباب أضعف كثيرا منه فى الساعة الحادية عشرة . لعل السماء قد أمطرت : فكل شئ مبتل . ومع أنه لم ير فى ظلمة الليل البقس أو الأفنوم ، فانه ضمن مرقع أوراقهما الخضراء القائمة من رائحتهما المريرة . وحدث نفسه قائلا : من الغريب أن يقال ان احساس المقامر يتولد عن الأمل فى الربح ! وهذا أشبه بأن نقول ان الرجال يتبارزون لكى يصبحوا أبطالاً فى لعبة الشيش .. « ولكن ، يبدو أن سكون الليل قد طرد مع الضباب كل ألوان القلق ، وكل الآلام التى تنتاب البشر . ومع ذلك ، ثمة طلقات نارية ، تدوى بعيدا . » لقد عادوا الى اطلاق النار .. »

وغادر الحديقة ، مجتهدا فى ألا يفكر فى « كيو » ، وشرع فى المسير .. وأصبح وجود الأشجار نادرا . وفجأة من خلال ما تبقى من الضباب ، بزغ على سطح الأشياء ضوء القمر الباهت . ورفع كلابيك عينيه . لقد انبثق القمر لتوه من ضفة ممزقة شكلتها سحب مينة ، وأخذ يتسلل ويبدأ من ثقب واسع ، قاتم وشفاف ، كأنه بحيرة بأعماقها الزاخرة بالنجوم . وأضفى نوره - الذى يشتد رويدا رويدا - على المنازل المخلقة ، والمدينة المهجورة ، حياة من عالم آخر لا تنتمى الى هذه الأرض ، وكأن جو القمر قد جاء ليستقر بصفاته فجأة فى هذا السكون العظيم ، ومع ذلك كان الناس يعيشون خلف هذا « الديكور » الذى ينشره كوكب خلا من الحياة . وجميع الناس تقريبا نيام ، وحياة النوم القلقة تتلاءم مع هذا الخواء الذى يخيم على مدينة ابتلعها الأرض ، وكأنها أيضا حياة كوكب آخر . « فى « ألف ليلة وليلة » مدن صغيرة مليئة بالنائمين ، مدن مهجورة منذ قرون ، بمساجدها القابعة تحت القمر .. مدن كأنها الحسان النائمت فى الصحراء .. ولكن هذا لا ينفى أننى قد أموت . » ولم يكن الموت ، وخاصة موته ، حقيقيا جدا فى هذا الجو

• اللانسانى الى درجة اشعاره بأنه متطفل عليه • وأولئك الذين لم يناموا ؟
 « هناك الذين يقرءون • • الذين يتأكلون بين الهموم (يا له من تعبير جميل !)
 والذين يباشرون الحب • » ان حياة المستقبل تنبض وراء كل هذا السكون •
 انسانية هائجة ، لا يستطيع شىء أن يخلصها من نفسها ! ومرت رائحة
 الجثث من المدينة الصينية مع الريح التى هبت من جديد • • وبذل كلابيك
 مجهودا لكى يلتقط أنفاسه : لقد عاوده القلق • انه يتحمل فى يسر فكرة
 الموت ، ولكنه لا يتحمل رائحته • أخذت هذه الرائحة تسيطر شيئا فشيئا
 على المنظر (الديكور) الذى يخفى جنون العالم تحت هدوء الأبدية ، وطفقت
 الريح تهب دون أن ينبعث منها أدنى صفير ، حتى بلغ القمر الشاطئ المقابل
 من السحب ، وغرق كل شىء من جديد فى غياهب الظلمات • « أهذا حلم ؟ »
 غير أن الرائحة الفظيعة قذفت به الى الحياة ، الى الليل القلق ، حيث راحت
 مصابيح الشارع - التى كانت مختلطة الضوء منذ وقت قريب تلقى دوائر
 واسعة من النور على الرصيف الذى مسح المطر كل ما كان عليه من خطوات •

أين يذهب ؟ لقد انتابه التردد • لن يستطيع أن ينسى كيو ، لو أنه حاول
 أن ينام • وكان يسير الآن فى شارع مليء بالحانات الصغيرة ، والمواخير
 المتواضعة ، التى تحمل لافتات مكتوبة بكل لغات الأمم البحرية • ودخل أول
 حانة صادفته •

وجلس على مقربة من النافذة • وكانت الخادومات الثلاث - احدهن
 مولدة والاثنان الأخريان من البيض - جالسات مع زبائن ، وقد هم أحدهم
 بالرحيل • وانتظر كلابيك ، وتطلع الى الخارج • لا شىء ، ولو ملاح واحد • •
 ومن بعيد ، طلقات بنادق • ووثب ، متعمدا : اذ جلست الى جانبه خادمة
 شقراء ممثلة ، لا عمل لها • وقال لنفسه : « كأنها واحدة من نماذج روبنز ،
 ولكنها ليست نموذجا كاملا : وكان ينبغى أن تكون نموذجا لجوردان • •
 لا كلمة • • • » وأخذ يدير قبعته على سبابته بسرعة عظيمة • • ثم جعلها
 تقفز ، والتقطها من الحافة فى رفق ، ووضعها على ركبتى المرأة •

- « اعتنى ، يا صديقتى العزيزة ، بهذه القبعة الصغيرة • • انها الوحيدة
 من نوعها فى شنغهاى • • فضلا عن ذلك ، فانها أليفة • • • »

وانفرجت أساير المرأة : ها هو أحد المهرجين • وأضفى المرح حياة

مفاجئة على وجهها الذى ظل جامدا حتى تلك اللحظة .

سألته : « هل نشرب ، أم نصعد ؟ »

ـ « الاثنان . »

وحملت اليه ـ كأسا من الشيدام Schiodam قائلة : « انه مشروب .
تخصصت فيه هذه الدار . »

وسألها كلابيك : « دون مقابل ؟ »

فهزت كتفيها وقالت : « ماذا يعينى من هذا كله ؟ »

ـ « ألدك متاعب ؟ »

ونظرت اليه . . ينبغي أن تلزم جانب الحذر مع المهرجين . . ومع ذلك ،
فقد كان وحيدا ، وليس معه من يريد تلهيته ، انه حقا لا يسخر منها .

ـ « وهل يمكن أن يكون لدى شئ سواها . . فى مثل هذه الحياة ؟ »

ـ « هل تدخنين ؟ »

ـ « الأفيون غال جدا . ومن الممكن أن أحقن ، طبعا ، ولكننى أخاف ،
لأن الابر التى يحققون بها قدرة ، ومن الممكن أن تحدث الخرابيج واذا أصبت
بالخرابيج ، فانهم يطردوننى خارج الدار . . وهناك عشرة نساء على استعداد
لاحتلال مكانى . . ثم . . . »

ولاحظ لهجتها ، فقال فى نفسه : « انها فلمنكية . . » وقاطعها :

ـ « من الممكن الحصول على الأفيون بثمن ليس مرتفعا جدا . . اننى
أدفع دولارين وخمسة وسبعين سنتا لهذا الصنف . »

ـ « وهل أنت من الشمال أيضا ؟ »

وناولها علبة دون أن يجيبها وبدأ عليها الاعتراف بالجميل . . لأنها
التقت بأحد مواطنيها ، ولأنه منحها هذه الهدية .

ـ « مازال ذلك الثمن غاليا بالنسبة الى . . غير أن هذا لم يكن ليكلفنى

شيئا كثيرا . سأمضغ شيئا منه الليلة . »

ـ « ألا تحبين التدخين ؟ »

— « أفعتقد أن لدى غليوننا ؟ ماذا تتصور ؟ »

وابتسمت فى مرارة ، وهى سعيدة على الرغم من ذلك • غير أن الارتياح
المعتاد عاودها :

— « لماذا أعطيتنى اياه ؟ »

— « دعك من ذلك ••• فهذا يبعث السرور الى نفسى •• لقد كنت من
هذا (الوسط) ••• »

وفى الواقع ، لم يكن يبدو عليه أنه مدمن ، ولكنه لم يكن بكل تأكيد من
ذلك « الوسط » منذ مدة طويلة (كان يحتاج أحيانا الى أن يبتكر لنفسه
سيرا كاملة ، ولكنه قلما كان يلجأ الى ذلك) واقتربت منه ، على المقعد •

— « كل ما فى الأمر •• حاول أن تكونى لطيفة : فستكون هذه هى المرة
الأخيرة التى أضاجع فيها امرأة ••• »

— « ولماذا ؟ »

كان ذكاؤها بطيئا ، ولكنها لم تكن غبية ، وبعد أن أجابت ، فهمت
ما يرمى اليه :

— « أتريد أن تنتحر ؟ »

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى تسمع فيها مثل هذه القصة ، وتناولت
بين راحتيها يد كلازيك الموضوع على المائدة ، ولثمتها ، بحركة مرتبكة ،
توشك أن تكون أموية •

— « يا للخسارة ! •• »

— « أتريد أن تصعدى الآن ؟ »

وكانت قد سمعت الناس تقول : ان هذه الرغبة تأتى أحيانا الى الرجال
قبل الموت • ولكنها لم تكن تجرؤ على أن تكون البادئة بالنهوض : فقد خيل
اليها أنها لو فعلت ذلك ، فكأنما تتعجل انتحاره • واحتفظت بيده بين يديها •
ونظر اليها من بعيد جدا ، رغم اتصال جسديهما ، وقد أرخى جسده على
المقعد ، وشبك ساقيه ، وألصق ذراعيه بجسمه كحشرة تشعر بالبرد ، ودفع

أنفه الى الأمام • وعلى الرغم من أنه لم يكن قد احتسى الا قليلا من الخمر ،
فقد كان ثملا بهذه الكذبة ، بهذا الدفء ، وبهذا العالم الخيالى الذى اختلقه •
حين قال انه سينتحر ، لم يكن يصدق نفسه ، ولكنها ما دامت قد صدقته ،
فقد ولىح عالما لا وجود فيه المحقيقة •• انه عالم لا يقال عنه انه صادق أو
زائف ، بل معاش • ومادام لا وجود للماضى الذى اخترعه الآن ، ولا لتلك
الحركة البدائية ، التى يفترض أنها حركة حميمة وعليها تأسست علاقته بهذه
المرأة ، فلا وجود لشيء • ولم يعد العالم يضغط بثقله على كاهله • اذ قد تحرر ،
فانه لا يعيش الا فى العالم الخيالى الذى خلقه ، قويا بالرابطة التى تقيمها
كل شفقة انسانية ازاء الموت • وبلغ من شدة انتشائه أن ارتجفت يده •
وشعرت المرأة بهذه الرجفة ، فظنت أن مصدرها القلق :

— « ألا توجد وسيلة لتدبير •• هذا الموقف ؟ »

— « كلا • »

وبدا كأن القبة الموضوعة على ركن المائدة — تنظر اليه فى سخرية •
فالتقى بها على المقعد حتى لا يراها •

وسأله قائلة : « حكاية حب ؟ »

وانطلق مدفع من بعيد ، فقالت لنفسها : « كأن عدد من سيموتون الليلة
غير كاف ! »

ونضهن دون أن يجيب عليها ، فاعتقدت أن سؤالها قد أثار فى نفسه
الذكريات • وعلى الرغم من فضولها ، فقد ودت أن تسأله المذرة ، ولكنها
لم تجرؤ ، فنهضت هى أيضا • وصعدا •

وعندما خرج — ولم يكن يلتفت وراءه ، ولكنه كان يعلم أنها تتابعه
بنظراتها من وراء زجاج النافذة — لم تكن نفسه قد شبعت ولا شهوته ، وكان
الضباب قد عاد • وبعد مسير ربع ساعة (لم يستطع هواء الليل المنعش
أن يهدى أعصابه) ، توقف أمام مشرب برتغالى ، كان زجاج نوافذه شفافا ،
فرأى بمنأى عن الزبائن امرأة سمراء نحيفة ذات عينيْن واسعتين جدا ، قد
وقفت تشأمل الليل ، وقد وضعت يديها على نهديها كأنما اتحميها • وتطلع
إليها « كلابيك » دون حراك • « اننى كالنساء اللواتى لا يعلمن ما يستنبطه
منهن عاشق جديد •• هيا بنا ننتحر مع هذه المرأة ! »

الحادية عشرة والنصف

انتظر كيو وماى فى صخب « القط الأسود » • الدقائق الخمس الأخيرة • من المفروض أن يكونا الآن قد غادرا المكان فعلا • وكان تخلف « كلابيك » عن الحضور ماثرا لدهشة كيو (لقد جمع له ما يقرب من مائتى دولار) ، بيد أن هذه الدهشة لم تبلغ أقصاها : فكلما تصرف كلابيك على هذا النحو ، بدا مشابها لنفسه ، لدرجة أنه لم يكن يدهش أولئك الذين يعرفونه غير نصف دهشة • وكان كيو ينظر اليه بوصفه شخصا غريب الأطوار جديرا بأن يوصف فى قصة ، ولكنه كان معترفا له بالجميل لأنه قام بتحذيره ، وبدأ يشعر نحوه شيئا فشيئا بتعاطف حقيقى • ومع ذلك ، فقد بدأ الشك يساوره فى قيمة المعلومات التى أفضى بها البارون اليه ، وزاد من تشككه هذا الموعد الذى أخلفه •

ومع أن رقصة « الفوكس تروت » لم تكن قد انتهت بعد ، الا أن حركة شديدة اتجهت صوب ضابط من ضباط تشانج - كاي - شيك دخل فى هذه اللحظة • وانصرف عن الرقص أزواج من الراقصين ، واقتربوا ، وعلى الرغم من أن كيو لم يسمع شيئا ، الا أنه أدرك أن الأمر يتعلق بحدث على جانب كبير من الأهمية • وكانت « ماى » قد اتجهت فعلا نحو هذه الجماعة : ففى « القط الأسود » كانت أى امرأة محلا لجميع الشبهات ومن ثم بريئة من كل شبهة وسرعان ما عادت اليه •

قالت له بصوت منخفض : « لقد ألقيت قنبلة تحت سيارة تشانج - كاي - شيك • ولكنه لم يكن فى السيارة • »

وسألها كيو : « والقاتل ؟ »

وعادت الى الجماعة مرة أخرى ، ثم رجعت يتبعها رجل يريد أن تراقصه بالقوة ، ولكنه لم يلبث أن تخلى عنها حين رأى أنها لم تكن وحدها •

قالت : « لقد هرب • »

.. « فلهذا أمل ذلك ... »

وكان كيو يعلم الى أى مدى تخلو مثل هذه المعلومات من الدقة فى معظم الأحيان • ولكن ، لم يكن محتملا أن تشانج - كاي - شيك قد قتل : فان

مقتله من الأهمية بحيث لا يمكن أن يجهله الضابط . وقال كيو : « سنعرف ذلك من اللجنة العسكرية . . هلمى بنا الى هناك على الفور . »

وكان من فرط ما يتمنى أن يكون تشن قد أفلت ، يشك فى ذلك شكاً تاماً . وسواء أكان تشانج - كاي - شيك مازال فى شنغهاى ، أم أنه قد رحل فعلاً الى نانكين ، فإن محاولة الإغتيال الفاشلة تضيف على اجتماع اللجنة العسكرية أهمية بالغة . ومع ذلك ، ماذا ينتظر منه ؟ لقد نقل تأكيد كلابيك - ذلك العصر - الى لجنة مركزية مستريية ، وتحرص على أن تكون كذلك : وجاء هذا الاعتداء مصداقاً لنظريات كيو ، الى حد يعفيه من القيام بتأكيداتها .

وفضلاً عن ذلك ، كانت اللجنة تدبر للاتحاد ، لا للنضال : وكان الزعيم السياسى للحمر ، وأحد زعماء الزرق قد ألقيا فى شنغهاى - منذ أيام - خطباً مؤثرة . وبدأ اخفاق الجماهير فى الاستيلاء على منطقة الامتيازات اليابانية فى هانكيو يبين أن الحمر مشلولون فى الصين الوسطى نفسها ، وكانت القوات المنشورية تزحف على هانكيو التى ينبغى أن تقاتلهم قبل أن تقاتل قوات تشانج - كاي - شيك . . .

وتقدم كيو فى الضباب ، و « ماى » الى جواره دون أن يتكلما . اذا كان لابد للشيوعيين من أن يقاتلوا الليلة ، فانهم لن يكادوا يتمكنون من الدفاع عن أنفسهم . وسواء أكانوا قد سلموا أسلحتهم الأخيرة أم لم يسلموها ، فكيف يشتبكون فى قتال لا ينادى به ضمن كل عشرة رجال سوى واحد ، ضد تعليمات الحزب الشيوعى الصينى ، وكيف يحاربون جيشاً عديداً مؤلفاً من المتطوعين البورجوازيين المسلحين على الطريقة الأوروبية ومتفوقاً من حيث أنه البادى بالهجوم ؟ فى الشهر الماضى ، كانت المدينة كلها تطالب بجيش ثورى متحد ، أما الديكتاتور فكان يمثل المصالح الأجنبية ، وكانت المدينة متطرفة فى وطنيتها ، وكانت البورجوازية الصغيرة التى تستوعب عدداً كبيراً من أفراد الشعب ، ديموقراطية ، لا شيوعية ، وكان الجيش ، فى هذه المرة هناك مهدداً ، لا هارباً صوب نانكين ، ولم يكن تشانج - كاي - شيك جلاداً مذبحة فبراير ، بل ، كان بطلاً وطنياً ، اللهم الا فى نظر الشيوعيين . وهكذا كان الجميع ضد البوليس ، فى الشهر الماضى ، أما اليوم ، فكان الشيوعيون ضد الجيش ويستقفي المدينة موقف الحياذ ، ولعلها أميل للجنرال . وما كانوا

يستطيعون الدفاع عن الأحياء العمالية إلا فى مشقة ، وربما استطاعوا الدفاع عن تشاى ثم ماذا ؟ لو كان كلابيك مخططا ، وتأخر رد الفعل شهرا واحدا ، اذن لاستطاعت اللجنة العسكرية ، وكيو وكاتوف تنظيم مائتى ألف رجل ، ولتمكنت جماعات الهجوم الجديدة المؤلفة من شيوعيين مقتنعين أن يسيطروا على النقابات : بيد أنه لابد من شهر على الأقل لإنشاء منظمة دقيقة تستطيع توجيه الجماهير .

وتظل مشكلة الأسلحة قائمة . فلابد من أن نعرف كيف يمكن تسليم الجماهير فى حالة قيام تشانج - كاي - شيك بانقلاب للاستيلاء على السلطة ، لا أن نتساءل عما اذا كان من الواجب تسليم ألفين أو ثلاثة آلاف بندقية . واذا طال النقاش ، طال بقاء الرجال بلا سلاح . وحتى اذا طالبت اللجنة العسكرية بالأسلحة - أيا كانت الأسباب التى تدعيها - فان اللجنة المركزية التى تعرف أن المبادئ التروتسكية تهاجم الاتحاد مع الكومنتانج - تفرغ من كل موقف يمكن أن يبدو - سواء بالحق أو بالباطل - مرتبطا بموقف المعارضة الروسية .

بدأ كيو يرى فى الضباب الذى لم ينقشع بعد - والذى أرغمه على السير على الرصيف خوفا من السيارات - الضوء الخافت المنبعث من المنزل الذى انعقدت فيه اللجنة العسكرية . ضباب وليل كثيفان : فلم يجد بدا من اشعال قداحته ليعرف الساعة . كان قد تأخر بضع دقائق . واعتزم الاسراع ، فوضع ذراع ماى تحت ذراعه : فضمت نفسها فى رفق اليه . وما كاد يخطو بضع خطوات ، حتى أحس فى جسد « ماى » بشهقة ، وارتخاء صاعق وسقطت على الأرض ، وهى تنزلق أمامه . « ماى ! » وتعثر وسقط على يديه ورجليه ، وفى هذه اللحظة التى نهض فيها ، تلقى بكل قوة ضربة من هراوة على قفاه . فسقط الى الأمام عليها ، بكل جسمه .

وخرج ثلاثة من رجال البوليس من أحد المنازل . وانضموا الى الشرطى الذى ضربه وكانت سيارة خالية تقف على مبعدة ، فقفوا كيو فيها ، ثم شرعوا فى الرحيل ، ولم يبدءوا فى تقييده الا بعد رحيلهم .

وحين ثابت « ماى » الى رشدها (وكان ما ظنه كيو شهقة هو ضربة هراوة على

أسفل الضلوع) ، كانت ثلثة من جنود تشانج - كاي - شيك تحرس مدخل اللجنة العسكرية ، ولم تلحظهم - بسبب الضباب - الا بعد أن اقتربت منهم اقترابا شديدا . وواصلت «ماي» السير في نفس الاتجاه (كانت تتنفس في مشقة وتتألم من الضربة) حتى عادت بأسرع ما يمكن الى منزل چيسور .

منتصف الليل

ما أن علم همليش أن قنبلة قد أُلقيت على تشانج - كاي - شيك ، حتى انطلق جريا وراء الأنباء . وقيل له ان الجنرال قد قتل وأن القاتل لاذ بالفرار، ولكنه - أمام السيارة المقلوبة وغطائها المنزوع - شاهد جثة تشن على الرصيف ، ضئيلة ، تنزف منها الدماء ، وقد بللها الضباب ، وجلس الى جانبها جندي لحراستها ، كما علم أن الجنرال لم يكن موجودا في السيارة . وخيل اليه - وكان مخطئا - أن رفضه التجاء تشن اليه ، كان من أسباب مصرعه . فهرع يائسا الى مركز الاسعاف الشيوعى في حيه ، ومكث هناك ساعة يناقش - بلا جدوى - محاولة الاغتيال . وفيما هو كذلك دخل أحد الرفاق وأنهى اليهم بالخبر التالي : هو أن جنود تشانج - كاي - شيك قد أغلقوا لتوهم اتحاد النساجين في شاپاي .

- « ولم يقاوم الرفاق ؟ »

- « لقد أعدم الذين احتجوا جميعا رميا بالرصاص على الفور . وفي شاپاي ، يطلق الرصاص على المجاهدين أيضا ، أو تحرق منازلهم . . . ولقد تفرقت الحكومة البلدية ، وأغلقت النقايات . »

ولم تصدر تعليمات من اللجنة المركزية . . وانصرف الرفاق المتزوجون في الحال ، لتهريب زوجاتهم وأطفالهم .

وما أن خرج همليش حتى سمع طلقات الرصاص ، وكان يجازف بأن يتعرف الجنود عليه ، ولكن كان لابد من اصطحاب الطفل والمرأة قبل كل شيء . ومرت أمامه في الضباب سيارتان مصفحتان ، وعربات نقل محملة بجنود تشانج - كاي - شيك ، وعلى بعد ، كانت طلقات الرصاص لا تنقطع أبدا ، كما كان بعضها ينطلق على مسافة قريبة جدا .

ولم يكن ثمة جنود فى شارع الجمهوريتين ، ولا فى الشارع الذى يقع حانوته فى ناصية من نواصيه • كلا • • انقطع ظهور الجنود • وكان باب الحانوت مفتوحا • وجرى الى الداخل ، وهناك فى كل مكان على الأرض ، قد تناثرت قطع الاسطوانات فى بقع كبيرة من الدم • لقد « مسيح » الحانوت بالقنابل اليدوية ، كأنه خندق • وعلى منضدة الحساب ، استلقت امرأته ، مقعبة تقريبا ، وقد اصطبغ صدرها بلون الجرح • وفى ركن ، ذراع طفل وبدت اليد - وهى منفصلة عن الجسد أصغر حجما مما كانت عليه فى الواقع • وحدث همليش نفسه قائلا : « على شرط أن يكونا قد ماتا ! » وكان خائفا - على الأخص - من الاحتضار الذى ينبغى أن يشهده ، عاجزا لا يستطيع إلا أن يتألم فحسب ، كما هى العادة ، كان يخشى ذلك أكثر مما يخشى هذه الأدراج الملطخة بالبقع الحمراء والشرطايا • وأحس من خلال حذائه بالأرض اللزجة • « هذا دمهما • » وبقي جامدا فى مكانه ، لا يجرؤ على الحركة وهو ينظر • • • وينظر • • • واكتشف أخيرا جثة الطفل على مقربة من الباب الذى كان يخفيها • وانفجرت على البعد قنبلتان • وكان همليش يتنفس فى مشقة ، وقد سحقته رائحة الدماء المنتشرة • « لا داع لدفنهما • • • » وأغلق الباب بالمفتاح ، ووقف أمامه • « اذا أتوا وتعرفوا على فأنا هالك لا محالة • » ولكنه لم يستطع الانصراف •

وكان يعلم أنه يتعذب ، غير أن هالة من اللامبالاة أحاطت بآله • • تلك اللامبالاة التى تعقب الأمراض والضربات فوق الرأس • ما من ألم يمكن أن يثيره : وخلاصة القول أن القدر قد نجح هذه المرة فى أن يسدد إليه ضربة أفضل من سائر الضربات الأخرى • ولم يكن الموت يدهشه : فهذا يتساوى مع الحياة • وكان الشيء الوحيد الذى يمضه هو تفكيره فى أنه قد كان هناك وراء هذا الباب عذاب يعادل ما يوجد الآن من دماء • ومع ذلك ، فقد أساء القدر للعب هذه المرة ، فهو حين انتزع منه كل ما يملكه ، قد حرره •

ودخل ، ثم أغلق الباب • وعلى الرغم من انهياره ، واحساسه بأنه قد تلقى ضربة بالهراوة على أم عنقه ، وتخاذل كتفيه ، على الرغم من كل هذا فإنه لم يكن يستطيع أن يطرد من انتباهه هذه الفرحة الضارية الثقيلة العميقة ، فرحة التحرر • وفى فزع ورضى أحس بها تزجر فى نفسه كنهز يتدافع تحت الأرض ، ويقترّب ، وكانت الجثتان مطروحتين هناك ، وقدماه

اللتان كانتا تلتصقان بالارض ، قد التصقتا بدمائهما ، ما من شيء يمكن أن يكون أشد عبثا من هذه الجريمة ، وعلى الأخص جريمة قتل الطفل المريض : فقد كان يخيّل اليه أن هذا الطفل أشد براءة من المرأة الميتة . ولكنه ، لم يعد الآن عاجزا . الآن يستطيع أن يقتل هو أيضا . وتكشفت له بغتة أن الحياة ليست هي الطريقة الوحيدة للاتصال بين الكائنات ، بل انها ليست أفضل طريقة ، انه يعرفهما ، ويحبهما ، ويملكهما في الانتقام أكثر مما يملكهما في الحياة . وأحس ، مرة أخرى ، بنعليه يلتصقان وترنج : ان العضلات لا يساعدها الفكر . . . بيد أن حماسا شديدا ضج بالثورة في نفسه أقوى حماس عرفه في حياته ، واستسلم لهذه النشوة الرهيبة استسلاما تاما . « يستطيع المرء أن يقتل في حب . . . في حب ، يا لعنة الله ! » وردد هذا القول وهو يضرب منضدة الحساب بقبضته - وكأنه يتحدى الكون كله . . . وسحب يده في الحال . وقد أحس كأن شيئا ضغط على حلقه بحيث لا يستطيع أن يشهق : لقد كانت منضدة الحساب ملطخة بالدماء أيضا ونظر الى بقعة الدم انتهى أصبحت قاتمة اللون فوق يده المرتعشة وهي تهتز كأنما أصابته نوبة عصبية : وراحت تنفصل عنها قشور صغيرة . . . يجب أن يضحك ، أن يبكي ، أن يهرب من هذه العقدة الملفوفة في الصدر . . . لا شيء يتحرك . واستقرت لامبالاة الكون الشاسعة مع النور الساكن على الاسطوانات وعلى الموتى ، وعلى الدم . وأخذت هذه العبارة « كانوا ينتزعون أطراف المحكوم عليهم بأسياخ محماة في النار » تصعد وتهبط في دماغه ، وكان قد نسيها منذ عهد المدرسة ، ولكنه أحس أنها تعنى في غموض ، أنه يجب أن يرحل ، وأن ينتزع نفسه هو أيضا من هذا المكان .

وأخيرا ، أصبح الرحيل ممكنا ، دون أن يدري كيف أصبح ذلك . واستطاع أن يخرج ، وشرع يسير في تهييج مكثور يثير في نفسه دوامات من الحقد لا حدود لها . . . وتوقف ، بعد أن قطع ثلاثين مترا . « لقد تركت الباب مفتوحا عليهما » ، وعاد على أعقابيه . . . وكلما اقترب أحس بالشهقات تتكون وتنعقد في مكان أكثر انخفاضا من الحلق ، هناك في الصدر ، حيث استقرت . وأغمض عينيه ، ثم شد الباب . فقرقع القفل : انه مغلق . . . وانصرف مرة أخرى . وغمغم قائلا في الطريق : « لم ينته الأمر بعد ، بل لقد بدأ . . . لقد بدأ » وتقدم - وقد دفع كتفيه الى الأمام - كقائد زورق

متجها صوب بلاد غامضة لا يعرف عنها الا أن الناس يقتلون فيها ، وكأنه
يسحب بكتفيه ودماغه ثقل موتاه جميعا . . الذين لم يعودوا يمنعونهم - أخيرا
- عن التقدم .

وبيدين مرتجفتين ، وأسنان تصطك ، تدفعه حريته الرهيبة ، وصل بعد
عشر دقائق الى مركز الاسعاف . وكان منزلا من طابق واحد . ولم يكن من
شك أنهم قد وضعوا المراتب مرفوعة خلف النوافذ ، فعلى الرغم من عدم
وجود المصاريع الخشبية لم يكن المرء يستطيع أن يرى مستطيلات مضيئة
فى الضباب وانما أشعة رأسية فحسب ، وكان الهدوء الذى يخيم على الشارع
- الذى يكاد يكون زقاقا - هدوءا مطلقا . وكانت هذه الخطوط المضيئة
تتخذ هناك شدة اشارات الميناء الضوئية الضئيلة والحادة فى الوقت نفسه .
ودق الجرس ، ففتح الباب نصف فتحة ، وتعرفوا عليه . ووراء الباب وقف
أربعة من المحاربين وقد أمسكوا بمسدسات الموزر فى قبضاتهم ، ينظرون
اليه أثناء مروره . وكان الدهليز الواسع - أشبه بجماعات الحشرات يعج
بحياة غامضة الاتجاه ، ولكنها واضحة الحركة ، كأن كل شئ يأتى من
الكهف . أما الطابق العلوى فكان خاليا من الحياة . وبمعزل عن الآخرين ،
كان هناك عاملان يقومان بتركيب مدفع رشاش فوق أعلى السلم يسيطر على
الدهليز . ولم يكن هذا المدفع يلمع ، ولكنه كان يجذب الانتباه كالمحارب
فى الكنيسة . وكان ثمة طلبة وعمال يركضون . ومر أمام لفائف من الأسلاك
المشائكة (فيم يمكن أن تفيد هذه الأسلاك ؟) وصعد درجات السلم ثم دار
حول المدفع الرشاش ، وأخيرا بلغ البسطة . وخرج كاتوف من أحد المكاتب،
ونظر اليه نظرة استفهام . ودون أن يقول شيئا ، مد يده الدامية .

- « هل جرحت ؟ هناك ضمادات فى الطابق السفلى . هل أخفى
الصبى ؟ »

ولم يكن همليش يستطيع أن يتكلم . . فدفع يده فى عناد وبلاهة ،
وقال لنفسه : « هذا دمهما » بيد أن ذلك ليس مما يمكن الإفصاح عنه .

وقال أخيرا « عندى سكين . . اعطني بندقية . »

- « لم يعد لدينا منها الكثير . »

- « قنابل يدوية اذن . »

وتردد كاتوف •

« عليك اللعنة ، أظن أنني خائف ! »

« انزل •• هناك قنابل يدوية فى الصناديق •• انها ليست كثيرة ••
هل تعرف أين كيو ؟ »

« لم أره •• ولكننى رأيت تشن : لقد مات • »

« أعلم ذلك • »

ونزل همليش •• وكان بعض الرفاق قد غاصوا بأذرعهم حتى أكتافهم
يفتشون فى صندوق مفتوح •• لقد أوشكت الذخيرة على النفاد • وأخذ
الرجال المضطربين يتحركون فى نور المصابيح الساطع ، ولم تكن هناك
فتحات لمرور الهواء ، وأدهشه حجم هذه الأجساد الكثيفة التى التقى بها
متحلقة حول الصندوق ، بعد الأشباح التى كانت تتسلل تحت مصابيح
الدھليز انجوبة ، أدهشه حجم هذه الأجساد ، وكأن هؤلاء الرجال قد
اكتسبوا الحق فجأة - حبال الموت - فى حياة أقوى من حياة الآخرين • وملأ
جيوبه ثم صعد مرة أخرى • وكان الآخرون - الأشباح - قد انتهوا من تركيب
المدفع الرشاش ، ووضعوا الأسلاك الشائكة خلف الأبواب الى الورا قليلا
حتى يمكن فتحه : اذ كانت دقات الجرس تتوالى دقيقة بعد أخرى • وأطل
من كوة الباب : كان الشارع الذى يلفه الضباب هادئا وخاليا دائما ، وكان
الرفاق يصلون دون أن يكون من الممكن تمييز أشكالهم فى الضباب ، وكأنهم
أسماك فى مياه عكرة ، تحت عمود الظل الذى تلقيه سطوح البناء • واستدار
على أعقابهم لكى يبحث عن كاتوف : فى وقت واحد ، دقتان متعجلتان من
الجرس ، وطلقة رصاص أعقبتها صوت أنفاس تختنق ، ثم سقط جسم •

« ها هم أولاء ! » صاح بهذه العبارة فى وقت واحد عدد من الحراس
الواقفين عند الباب وخيم الصمت على الدھليز ، تقطعه الأصوات المكثومة
وجلبة الأسلحة الصاعدة من الكهف • واتخذ الرجال مراكز القتال •

الساعة الواحدة والنصف :

تقدم كلايبك فى دھليز فندقه الصينى ، وهو يفتق من كذبتة ، كما

يفيق الآخرون من نشوة الخمر ؛ وكان الخدم الوصنيون المنبطحون على منضدة مستديرة تحت لوحة الأجراس ، يرشون بذور عباد الشمس حول المباشق . . . وكان يعرف أنه لن ينام ، ففتح باب حجرته في كآبة ، وألقى سترته فوق النسخة المألوفة من « أقاصيص هوفمان » وسكب شيئاً من الويسكى ، اذ كانت الخمر تبدد القلق الذي يهبط عليه في بعض الأحيان . ثمة شيء قد تغير في الحجرة . واجتهد في أن يتحول بفكره عن هذا الموضوع ، فان غياب أشياء معينة غياباً لا تفسير له خليق بأن يسلط عليه قلماً طاعياً . وكان قد توصل الى الهرب من كل ما يؤسس عليه الناس حياتهم : الحب ، الأسرة ، العمل ، ولكنه لم ينجح في الهرب من الخوف . ولقد انبثق الخوف في نفسه شعوراً حاداً بوحده ، ولكي يطرد هذا الشعور كان يدلف في العادة الى أقرب حانة ، ويلجأ الى النسوة اللواتي يمنحن أجسادهن ويفتحن قلوبهن بينما يشرد منهن الفكر الى شيء آخر . أما الليلة فقد كان الفرار مستحيلاً : فقد كان منهك القوى ، متخماً بالكاذيب وضروب الأخوة الوقتية . . . وأبصر نفسه في المرأة فاقترب منها قائلاً :

– « مع هذا كله أيها العزيز . . . لماذا تهرب ، في واقع الأمر ؟ وكم من الوقت سيدوم كل هذا ؟ لقد كانت لك زوجة : ولكن ما علينا ما علينا ! وعشيقات ، وأموال ، وتستطيع أن تفكر في كل ذلك حين تشعر بالحاجة الى الأشباح لتهازأ بك . لا كلمة ! ان لك مواهب ، كما يقولون – وخيالاً وكل الصفات الضرورية لخلق رجل طفيلي : وتستطيع أن تكون وصيفاً لـ « فيرال » حين تصل من العمر الى أرذله . وهناك أيضاً مهنة الجنتلمان المتسول ، والبوليس والانتحار . قواد؟ ها هو جنون العظمة يعاودك . يبقى الانتحار . . . وهذا ما أقوله لك . . . ولكنك لا تريد أن تموت . لا تريد أن تموت أيها الوجد الصغير ! انظر ، فان لك مع ذلك سحنة من تلك السحن الجميلة التي تليق بالأموات . . . »

وازداد اقتراباً حتى لامست أنفه المرأة ، وشوه سحنته ، ففتح فمه متخذاً هيئة المزراب ؛ وقال كأن هذا القناع يجيبه :

– « ألا يستطيع كل انسان أن يموت ؟ من الواضح ، أنه لابد من وجود جميع الأصناف لكي يكون ثمة عالم . صه ، فانك حين تموت ، ستذهب الى الفردوس . وسيكون الله رفيقاً طيباً لشخص مثلك . . . »

وأبدل من سحنته ، فأغلق فمه ، وسحبه نحو ذقنه ، وأغمض عينيه نصف اغماضة ، كأنه يرتدى قناع محارب من الساموراي فى حفلة تنكرية . وفى الحال - وكأن القلق الذى لم تكف الأقوال للأفصاح عنه ، قد وجد له تعبيرا مباشرا يؤديه بكل قوته - بدأ فى تغيير سحنته ، فجعلها قردا تارة ، وأبله تارة أخرى ، ومذعورا تارة نالثة ، وفى حالة اغماء تارة رابعة . . وتحول الى كل الصور التمثيلية التى يمكن أن يعبر بها الوجه الانسانى . ولم يكن هذا كافيا فاستخدم أصابعه ، يشد بها ركنى عينيه ، أو يوسع بها فمه حتى يصبح كالرجل الضاحك الذى يشبه فمه فم الضفدعة ، مفرطحا أنفه ، مطيلا أذنيه . وكان كل وجه من هذه الوجوه يتحدث اليه ، ويكشف له عن جزء من نفسه حجبته الحياة ؛ واتخذت هذه العريضة فى الحجرة المنعزلة مع ضباب الليل الذى تكاثف عند النافذة ، صورة لهو الجنون الفظيعة . وسمع ضحكته - رنة صوت واحدة شبيهة بجرس فى صوت أمه ، واكتشف وجهه ، فجأة ، فتراجع فى فزع ، وجلس لاهث الأنفاس . وكانت هناك كراسية من الورق الأبيض ، وقلم من الرصاص على المقعد . لو أنه استمر على هذه الحال فسوف ينقلب مجنونا ، ما فى ذلك ريب . ولكى يدافع عن نفسه ضد هذه المرأة المخيفة ، شرع فى الكتابة :

« سينتهى بك الأمر الى أن تصبح ملكا ، ياعزيزى توتو ، ملكا فى دفء مستشفى مريح للمجانين ، بفضل هديانك الذى هو صديقك الوحيد ؛ اذا واصلت الشراب . ولكن ، هل أنت مخمور فى هذه اللحظة ، أم لا . . أنت الذى تتخيل كل هذه الأشياء ، ماذا تنتظر لكى تتخيل نفسك سعيدا ؟ هل تعتقد . . . »

وطرق الباب . . فتدحرج « كلابيك » الى الواقع . . متحررا ولسكنه مبهور . . وطرق الباب من جديد .

- « ادخل . »

معطف من الصوف ، وقبعة من الفلين الأسود ، وشعر أشيب : انه الأب .
چيسور .

وتلغثم كلابيك قائلا : « ولكننى . . . ولكننى . . . »

قال چيسور : « لقد ألقى القبض على كيو . . هل تعرف كوينج ؟ »

- « أنا .. ولكنني لم أتسبب في شيء .. »
 ونظر اليه چيسور متمعنا وقال لنفسه : « لعله لا يكون مخمورا .. »
 وردد قائلا : « هل تعرف كوينج ؟ »
 — « أجل ، أنا ، أنا .. أعرفه .. ولقد ادبت له خدمة .. خدمة عظيمة .. »
 — « هل تستطيع أن تطلب منه خدمة ؟ »
 — « يستطيع كوينج بوصفه مديرا للأمن عند تشانج — كاي — شيك
 أن يطلق سراح كيو ، أو على الأقل ، أن يمنع اعدامه رميا بالرصاص : هذا
 أشد الأمور استعجالا ، أليس كذلك .. »
 — « مفهوم .. مفهوم .. »

وكان مع ذلك ، قليل الثقة في اعتراف كوينج بجميله ، الى درجة أنه
 رأى من العبث بل من الوقاحة أن يذهب لزيارته ، حتى بعد المعلومات التي
 أدلى بها شبيلفسكى . وجلس على السرير ، وقد طأطأ أنفه الى الأرض . لم
 يكن يجروء على الكلام ، وتبين من لهجة چيسور أنه لا يشك مطلقا في مسئوليته
 ازاء هذا الاعتقال : بل كان چيسور يرى فيه الصديق الذي جاء يحذر كيو
 في ذلك الأصيل ، لا ذلك الرجل الذي كان يقامر في الموعد الذي ضربه لـ
 « كيو » . بيد أن « كلابيك » لم يستطع أن يقنع نفسه بهذا ، فلم يتجاسر
 على النظر اليه ، ولم يستطع أن يتمالك هدوء أعصابه . وأخذ چيسور
 يتساءل من أية دراما ، أو أى شطط خرج كلابيك ، دون أن يتكهن بأن وجوده
 سبب من أسباب هذه الأنفاس اللاهثة .. وكان يبدو لـ « كلابيك » أن
 چيسور يتهمه :

- « أنت تعرف يا عزيزي ، أنني لست .. مجنونا — في نهاية الأمر —
 الى هذا الحد ، أنا .. أنا .. »

ولم يكن يستطيع أن يكف عن التلعثم ، وكان يبدو له أحيانا أن چيسور
 هو الشخص الوحيد الذي فهمه ، وأنه أحيانا يعتبره مهرجا . ونظر اليه
 الرجل العجوز دون أن يقول شيئا .

- « أنا .. ما رأيك في ؟ »

وكان چيسور يود لو أمسك به من كتفيه ، واقتاده الى كوينج ، بدلا من الحديث معه ، غير أن هذه الحيرة كانت تبدو تحت السكر الذى عزاه اليه ، حتى أنه لم يكن يجرو أن يرفض الدخول فى اللعبة .

ـ « هناك أولئك الذين يشعرون بالحاجة الى الكتابة ، وأولئك الذين يشعرون بالحاجة الى الحلم ، وأولئك الذين يشعرون بالحاجة الى الكلام . . وهذا كله سواء . . والمسرح ليس شيئا جديا ، وانما مصارعة الثيران هى الشيء الجدى ، وكذلك الروايات ليست شيئا جديا ، وانما جنون الكذب هو الجدى . »

ونفض كلابيك ، فسأله چيسور :

ـ « هل أصيب ذراعك ؟ »

ـ « مجرد ألم فى العضلات . . لا كلمة . . . »

وكان كلابيك قد أدار ذراعه فى حركة مرتبكة لاختفاء ساعة يده عن نظر چيسور ، وكان هذه الساعة التى دلت على الوقت فى دار القمار - تريد أن تشي به . . غير أنه لاحظ من سؤال چيسور أن هذه الحركة كانت حمقاء .

ـ « متى ستذهب لرؤية كوينج ؟ »

ـ « صباح غد ؟ » فقال چيسور فى مرارة :

ـ « ولماذا لا يكون ذلك الآن ؟ ان البوليس لا ينام الليل ، ويمكن أن يحدث أى شيء . . . »

ولم يكن كلابيك يريد شيئا أفضل من ذلك . ولم يكن هذا الشعور بدافع من الندم - فلو أنه كان على مائدة القمار من جديد لبقى مرة أخرى - وانما على سبيل التعويض .

ـ « هيا بنا يا عزيزى . . . بسرعة . . »

وأقلقه من جديد التغيير الذى لاحظته حين دخل الحجرة ، ونظر فى امعان ، فأذهله أنه لم يلمح ذلك التغيير من قبل . كانت احدى اللوحات الطاوية « التى تحمله على جناح الأحلام » وأجل تمثالين عنده ، قد اختفت . وعلى

المائدة ، وقع نظره على رسالة بخط شبيلفسكى . وتكهّن بالأسر . ولكنه لم يجرؤ على قراءة الخطاب ، ذلك لأن شبيلفسكى هو الذى أبلغه بأن كيو مهدد ، فلو أنه تهور بالحديث عنه ، فلن يمسك نفسه عن الافضاء بكل شيء . فتناول الخطاب ، ووضعها فى جيبه .

وما أن خرجا الى الشارع ، حتى التقيا بالسيارات المصفحة وعربات النقل المحملة بالجنود .

ولم يكن « كلابيك » قد استرد كل هدوئه ، ولكى يخفى انزعاجه الذى لم يستطع بعد أن يتخلص منه ، تظاهر بالجنون ، كعاداته .

— « ليتنى كنت ساحرا ، اذن لأرسلت الى الخليفة حصانا بقرن واحد . . . أجل . . . حصانا بقرن واحد . . . بحيث يبدو فى القصر بلون الشمس ، صائحا : « أعلم أيها الخليفة أن السلطانة الأولى تخونك ! لا كلمة ! » وسأبدو أنا رائعا لو كنت على هيئة حصان بقرن واحد ، وأنا بأنفى هذا ! ومن المفهوم طبعاً ، أن هذا كله غير حقيقى . يقال ان أحدا لا يعرف مقدار اللذة التى يمكن أن يشعر بها المرء اذا عاش فى نظر شخص آخر حياة أخرى غير حياته هو . . . وعلى الأخص ، فى نظر امرأة ما . . . »

— « ومن هى المرأة التى لم تتظاهر بحياة زائفة على الأقل بالنسبة لرجل من الرجال الذين عرضوا لها فى الشارع ؟ »

— « هل تعتقد . . . أن الناس جميعا مصابون بجنون الكذب ؟ »

وكانت جفون كلابيك تختلج فى عصبية ، وأبطأ فى سيره .

قال : « كلا . . . اصغ الى . . . تكلم معى فى صراحة : لماذا تعتقد أنهم ليسوا كذلك ؟ »

وأحس الآن فى نفسه برغبة — غريبة عليه بصورة شاذة ، ولكنها جد قوية — فى أن يسأل چيسور عن رأيه فى الميسر ، ومع ذلك ، كان يعتقد — اعتقادا لاشك فيه — انه لو تحدث عن الميسر فسيعترف بكل شيء . . . هل سيتكلم ؟ ان الصمت يدفعه الى ذلك قسرا ، ولحسن الحظ ، أجاب چيسور :

« لعلى آخر من يصلح من الناس لاجابتك .. الأفيون لا يعلم المرء
الا شيئا واحدا ، وهو أنه خارج الألم الجثمانى ، لا يوجد شيء واقعى »

« الألم ، أجل .. و .. الخوف .. »

« الخوف ؟ »

« ألم تشعر بالخوف قط .. أثناء تناولك الأف .. الأفيون ؟ »

« كلا ... لماذا ؟ »

« آه ... »

والحقيقة أن چيسور كان يعتقد أنه لو كان العالم بلا واقع فإن الناس ،
بل أولئك الذين يعارضون العالم أشد معارضة ، يملكون واقعا قويا جدا ،
وأن كلابيك بالذات ، واحد من الكائنات النادرة جدا التى لا واقع لها . وكان
« چيسور » يعانى هذه الحقيقة فى قلق ، لأنه بين هذين اليدين المصنوعتين
من الضباب وضع مصير « كيو » وهناك ، تحت المواقف التى يتخذها كل
انسان ، أعماق يمكن لمسها ، والتفكير فى الألم الذى يمكن أن يحتمله الشخص
يجعل من الممكن تقدير طبيعة هذه الأعمال . وقد كان ألم كلابيك مستقلا
عنه ، كالم الطفل ؛ فهو لم يكن مسئولا عنه ، ومن الممكن أن يحطمه هذا
الألم ، ولكنه لا يمكن أن يدخل عليه أى تغيير . وكان كلابيك يستطيع أن
يتوقف عن الوجود ، وأن يختفى فى رذيلة ما ، أو ضرب من ضروب الجنون ،
ولكنه لا يستطيع أن يصبح رجلا . « قلب من ذهب ، ولكنه أجوف » . ولاحظ
چيسور أن أعماق كلابيك لا تنطوى على ألم أو وحدة . كما هى الحال بالنسبة
لسائر الناس ، ولكنها تنطوى على الاحساس . وكان چيسور يحكم أحيانا
على الناس بأن يتخيلهم فى شيخوختهم : أما كلابيك فلم يكن يستطيع أن
يشيخ : فالعمر لا يؤدى به الى التجربة الانسانية ، وانما الى الادمان : ادمان
النساء أو المخدرات - حيث تتلاقى جميع وسائله لتجاهل الحياة . وحدث
البارون نفسه قائلا : « ربما لو سردت عليه كل شيء ، لوجد كل شيء
عاديا .. » وكانت طلقات الرصاص تدوى الآن فى أنحاء المدينة الصينية
كلها . وطلب كلابيك من چيسور أن يتركه عند حدود منطقة الامتيازات :
اذ أن « كوينج » لن يستقبله . وتوقف چيسور ، وهو ينظر الى طيفه الهزيل
المضطرب يبتلعه الضباب .

كان مقر القسم الخاص من بوليس تشانج - كاي - شيك ، فيلا بسيطة مشيدة حوالى ١٩٢٠ على طراز « بيكون - لى - بروير » ، غير أن نوافذها كانت محاطة بزخارف برتغالية مسرفة ، ضاربة الى الصفرة والزرقة . ووقف على الباب حارسان ، وجنود آخرون أكثر من اللازم ، وكان الرجال جميعا مسلحين ، هذا كل شيء . وعلى بطاقة قدمها له سكرتير ، كتب كلابيك «توتو» ، وترك السطر الخاص بسبب الزيارة خاليا ، ثم انتظر . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يجد نفسه فيها فى مكان مضاء منذ غادر حجرته : فأخرج من جيبه رسالة شبيلقسكى وأخذ يطالعها .

« صديقى العزيز »

لقد استسلمت لالحاحك . . . وكانت تنكوى قائمة على أساس ، ولكنى أمعنت الفكر : انك تسمح لى على هذا النحو بأن أعود الى الطمأنينة ، والأرباح التى تلوح لى بها صفقتى فى هذه اللحظة - عظيمة القيمة ومضمونة الى درجة أننى سأتمكن - بكل تأكيد - قبل عام واحد ، من أن أقدم لك مصحوبة بشكرى تحفا من نفس النوع . بل أجل منها . ان تجارة الأغذية فى هذه المدينة . . . »

وأعقبت ذلك أربع صفحات من الشروح .

وقال كلابيك لنفسه : « ليس ذلك أفضل . . . ليس أفضل بحال من الأحوال . . » غير أن حارسا أقبل يطلبه .

كان كونيچ ينتظره ، جالسا الى مكتبه ، ووجهه ناحية الباب . ونهض كونيچ بجسمه المكتنز ووجهه الأسمر ، وأنفه المنحدر فى سحنته المربعة ، وتقدم نحوه وشد على يده بطريقة سريعة قوية أبعدتهما أكثر من أن تكون قد قربت بينهما .

- « هل أنت على ما يرام ؟ حسن . كنت أعرف أننى سأراك اليوم . . . وكنت سعيدا لاستطاعتى أن أكون ذا نفع لك - بدورى . »

فأجاب كلابيك شبه متلعثم : « أنت رجل مرهوب . . . ولكننى أسائل نفسى . أليس ثمة سوء تفاهم : فأنت تعلم أننى لا أشتغل بالسياسة . . »

« لا وجود لسوء تفاهم . »

وقال كلابيك لنفسه : « ان عرفانه بالجميل يبدو أشبه بالتعطف من جانبه . »

— « أمامك يومان للرحيل . . لقد أسديت الى خدمة ذات مرة : وها أنذا اليوم قد أرسلت من يحذرك . »

— « كي . . . كيف ؟ ؟ أكنت أنت الذى أرسلت من يحذرنى ؟ »

— « وهل تعتقد أن شبيلفسكى كان يجرؤ ؟ انك تعامل ادارة الأمن الصينى ، غير أن الصينيين لم يعودوا هم الذين يديرونها . وهكذا لم يعد ثمة مجال للسخافات الآن . »

وبدأ كلابيك يعجب بـ « شبيلفسكى » ، وان شاب هذا الاعجاب ضرب من الغضب .

واستطرد قائلا : « ومادمت تريد أخيرا ، أن تتذكرنى ، فاسمح لى أن أطلب منك شيئا آخر . »

— « وما هو ؟ »

ولم يعد « كلابيك » يأمل كثيرا : فان كل اجابة جديدة من كونيچ أثبتت له أن الصداقة التى كان يعتمد عليها ، لا وجود لها ، أو لم يعد لها وجود . واذا كان كونيچ قد قام بتحذيره ، فمعنى ذلك أنه لم يعد مدينا له بشيء . وهكذا قال مدفوعا بالرغبة فى اراحة ضميره ، أكثر من أن يكون مدفوعا بالأمل :

— « أليس فى الامكان القيام بأى شيء من أجل الفتى چيسور ؟ أعتقد أنك لا تهتم كثيرا بهذه المسائل . . . »

— « ومن يكون ؟ »

— « شيوعى . . . على ما أعتقد . »

— « وماذا هو شيوعى أولا ؟ الآن والده شيوعى ؟ أم لأنه مولد ؟ أم لأنه لا يجد عملا ؟ من الحماسة أن يكون أحد العمال شيوعيا ، فما بالك به ! وأخيرا ، ماذا ؟ »

— « ليس من الممكن تلخيص المسألة فى يسر . . . »

واستغرق كلابيك فى التفكير :

« ربما ، لأنه مولد ٠٠٠ ولكنه كان يستطيع أن يدبر أمره ، فقد كانت والدته يابانية ٠٠٠ ولكنه لم يحاول ، انه يقول شيئا عن : (ارادة الكرامة) ٠٠٠ »

« بدافع الكرامة ! »

واستولى الذهول على كلابيك : كان « كونيچ » يصرخ فى وجهه ، ولم يكن ينتظر أن يكون لهذه الكلمة مثل هذا التأثير الشديد ، فتساءل : « هل أفلت لسانى ؟ »

وقال كونيچ متسائلا ، وهو يحرك سبابته فى عصبية وكأنه يستمر فى الكلام دون أن يسمعه أحد :

« ماذا يعنى هذا ، أولا ؟ » وردد قائلا : « بدافع الكرامة ! » ولم يكن كلابيك يستطيع أن يخطئ فى فهم اللهجة التى تشيع فى صوته : انها لهجة الحقذ . وكان واقفا على يمين كلابيك ، فأضفى أنفه الذى كان يبدو معقوفا حدة شديدة على وجهه .

« قل لى - يا عزيزى الصغير توتو ، هل تؤمن بالكرامة ؟ »

« عند الآخرين ٠٠٠ »

« نعم ؟ »

فأخذ كلابيك الى الصمت .

« أتعرف ما كان يفعله الحمر بالضباط الأسرى ؟ »

وظل « كلابيك » ممتنعا عن الاجابة . لقد أصبح الأمر خطيرا ، وأحس أن هذه الجملة تمهيد ، أو مساعدة يعطيها كونيچ لنفسه : فهو لم يكن ينتظر ردا .

« كنت فى سيبيريا ، مترجما فى معسكر للأسرى . وتمكنت من الخروج من هذا المعسكر بأن التحقت بخدمة الجيش الأبيض تحت قيادة سيمينوف . وكان الأبيض والحمر عندى سبان ، كل ما كنت أريده هو أن أعود الى ألمانيا . وأسرنى الحمر . وكدت أموت من البرد ، وكانوا يلطموننى بقبضاتهم وهم

يدعوننى بالكابتن (كنت ملازما حينذاك) حتى أسقط على الأرض ، ليرفعوننى من جديد . ولم أكن أرتدى بزة سيمينوف الرسمية ذات رعوس الموتى الصغيرة . . بل كنت أضع نجمة فوق كل كتف . »

وتوقف عن الكلام ، فقال كلابيك لنفسه : « انه يستطيع أن يرفض دون أن يهول فى المسألة الى هذا الحد . » واستطرد « كونيچ » بصوت لاهث ثقيل ينطوى على شىء حاول كلابيك أن يفهمه :

– « لقد دقوا مسمارا فى كل كتف من كتفى خلال كل من النجمتين . . مسمارا طويلا كالاصبع . . . انصت جيدا لما أقول ياعزيزى الصغير توتو . » وأمسك بذراعه ، وقد سدد عينيه فى عيني كلابيك ، وهو ينظر اليه نظرة غائمة :

– « وبكيت كما تبكى المرأة . . كما يبكى العجل . . بكيت أمامهم . . أتفهم ؟ أجل ؟ فلنترك القصة عند هذا الحد . . . فلن يخسر أحدا شيئا . »

وأوضحت هذه النظرة التى تعبر عن رجل يشتفى شيئا ما . . أوضحت لكلابيك ما يريد . ولم يكن هذا الاعتراف موضع دهشة : ذلك أنه لم يكن اعترافا ، بل انتقاما . ومن المؤكد أنه يقص هذه الحكاية – أو يرددها لنفسه – فى كل مرة يستطيع فيها أن يقتل ، وكأن هذه القصة تستطيع أن تخذش المهانة التى لا حدود لها . . المهانة التى تعذبه ، حتى ينبثق منها الدم .

– « من الأفضل – يا عزيزى – ألا تحدثنى كثيرا عن الكرامة . . ان كرامتى . . كرامتى أنا ، هى أن أقتلهم . وماذا تريد ان يهمنى من الصين ؟ ها ! وهل تعيننى الصين ؟ اننى لم أنضم الى الكومنتانج الا لكى أستطيع أن أقتل عددا منهم . . . اننى لم أعد أحيأ ، كما كنت أحيأ من قبل ، كإنسان ، كإى شخص كان ، كآخر أحق من الحمقى الذين يعبرون أمام هذه النافذة ، الا حين يقتلون . . ان حالى أشبه بحال مدمن الأفيون مع غليونه . . . ضرب من الجنون . . لقد جئت تطلب منى أن أنقذه ؟ لو أنك أنقذت حياتى ثلاث مرات . . . »

وهز كتفيه ، ثم استطرد غاضبا :

– « هل تعرف يا عزيزى توتو ما يعنيه أن ترى حياة شخص ما تتخذ

معنى . . معنى مطلقا ، وأن تشمئز من نفسك . . . »

وأنهى جملته من بين أسنانه ، ولكن دون أن يتحرك ، وقد وضع يديه
في جيوبه ، وأخذ شعره المرتب يهتز مع كل كلمة ينتزعها من نفسه .

قال كلابيك بصوت هامس : « هناك النسيان . . . »

— « لقد انقضى أكثر من عام دون أن أضاجع امرأة ! فهل يكفيك
هذا ؟ » . . »

وتوقف بغتة ، ثم استطرد بصوت أشد انخفاضا :

— « ولكن قل اذن يا عزيزى توتو — ان الفتى چيسور ، الفتى چيسور،
. . . لقد أشرت الى سوء تفاهم ، أما زلت تريد أن تعرف لماذا صدرت ادانتك؟
هأنبئك بالسبب . ألم تكن أنت الذى عقدت صفقة بنادق « شانتونج » ؟
فهل تعرف لمن كانت هذه البنادق ؟ »

— « اننا لا نطرح أسئلة فى هذه المهنة ، ولا كلمة ! »

وقرب سبابته من فمه ، وفقا لعاداته المألوفة . . ولكنه أحس بالحرج
على الفور .

— « لقد كانت مرسلة الى الشيوعيين . ومادمت تجازف بحياتك ، فكان
من الواجب عليهم أن يخبروك . . ومهما يكن من أمر ، فقد كانت المسألة
كلها نصب واحتيال . لقد استخدموك لكسب الوقت ، وفى نفس الليلة
نهبوا السفينة . وان لم أكن مخطئا ، فقد كان ربيبك الحالى هو الذى ورطك
فى هذه المسألة . »

وأوشك كلابيك أن يجيبه بقوله : « ومع ذلك فقد تسلمت قيمة عمولتى »
تغير أن هذا التصريح الذى أدلى به محدثه قد أشاع الرضا على وجه هذا الأخير،
الى درجة أن البارون لم يعد يريد الآن الا الانصراف . وعلى الرغم من أن كيو
قد وفى بوعوده ، الا أنه قام بحياته دون أن يخبره . هل كان من الممكن
أن يقامر بها لو أنه عرف ؟ كلا . كان كيو على حق حين أثر قضيته عليه :
ومن ناحية أخرى فانه (أى البارون) على حق حين يتخلى عن « كيو » لاسيما
وهو فى الحقيقة لا يستطيع شيئا . وهز كتفيه فى بساطة .

— « اذن ، فأمامى ثمان وأربعون ساعة للرحيل ؟ »

— « أجل .. أنت لا تصر على ما تريد .. وأنت مصيب فى ذلك . الى اللقاء . »

« يقول انه لم يرقد مع امرأة منذ أكثر من عام » بهذا حدث كلابيك نفسه ، وهو ينزل درجات السلم . . لابد أنه يقضى فى العادة بهذه الاعترافات ، لأولئك الذين سوف يموتون . . . وأيا كان الأمر ، فالأفضل حقا أن ألوذ بالفرار . « ولم يستطع أن يتخلص من اللهجة التى قال بها كونيچ هذه العبارة : « لكى يعيش المرء كإنسان . . كئى إنسان . . » وظل مشدوها بهذا الإدمان الشامل الذى لا يستطيع أن يشبعه إلا الدم وحده : وكان قد شاهد من ضحايا الحروب الأهلية فى الصين ، وفى سبيريا ما يكفى لكى يعرف ما ينجم عن المذلة الشديدة من انكار للعالم : الدم المراق فى عناد ، والمخدرات ، والأمراض العصبية هى وحدها التى تغذى المرء فى مثل هذه العزلة . وأدرك الآن لماذا كان كونيچ يحب صحبته ، اذ لم يكن يجهل كيف يضعف — فى حضرته — كل واقع . ومشى متباطئا ، فزعا من أن يجد چيسور الذى كان ينتظره فى الجانب الآخر من الأسلاك الشائكة . ماذا يقول له ؟ .. هما قد فات الأوان : اذ تقدم چيسور للقاءه — تدفعه اللهفة — خارجا من الضباب ، على بعد مترين منه . وكان يحلق فيه ببصر زائف ، كالمجانين .

واستولى الفزع على كلابيك ، فتوقف عن السير . . وكان « چيسور » قد أمسك بذراعه :

وسأله بصوت حزين ، دون أن يغيره الانفعال : « ألا يمكن عمل أى شىء ؟ وهز كلابيك رأسه بالنفى ، دون أن ينطق بشىء . »

— « هيا بنا . سأطلب المعونة من صديق آخر . »

وكان جنونه قد تكشف له ، حين أبصر كلابيك خارجا من الضباب . والحوار الذى تخيله بينهما ، بعد عودة البارون ، كان عبثا : ذلك أن كلابيك لم يكن مترجما أو وسيطا . . وإنما كان ورقة لعب . ومادام اللعب قد تم بهذه الورقة ، وخسرت — وهذا ما كان ظاهرا على وجه كلابيك — فلا مفر من اللعب بورقة أخرى . وعلى الرغم من أنه كان مفعما بالقلق والكرب الشديد

فقد ظل محتفظا بصفاء فكره فى أعماق يأسه • وكان « فيرال » قد خطر على باله ، غير أن « فيرال » لم يكن ممن يتدخلون فى نزاع من هذا القبيل • وذهب ليحاول اقناع صديقين له بالتدخل ...

واستدعى كونيغ سكرتيرا وقال له :

« غدا ، أريد الفتى چيسور - هنا - بعد انتهاء اجتماعات المجلس • »

الساعة الخامسة

من نوافذ الطابق الأول شاهد كاتوف وهملريش فوق الومضات القصيرة المنبعثة من طلقات الرصاص المصفرة ، فى نهاية الليل - مطلع النهار وهو يحدث انعكاسات ضوئية رصاصية على السقوف المجاورة فى نفس الوقت الذى أخذت فيه ملامح المنازل فى الوضوح • وشرع كل منهما يميز من جديد وجه الآخر ، ويعرف ما يفكر فيه ، بعد أن بلل المطر شعرهما ، وعلاهما الشحوب • انه اليوم الأخير • لم تعد ثمة ذخيرة تقريبا ، وما من حركة شعبية. هرعت لنجدها • • هناك طلقات مدافع ناحية « شاپاي » : انهم رفاق محاصرون. مثلها • ولقد شرح « كاتوف » لـ « هملريش » لماذا أصبحا هالكين : ففى أية لحظة سيحمل رجال تشانج - كاي - شيك المدافع الصغيرة العيار التى. يستخدمها حرس الجنرال ، وما أن يتمكنوا من ادخال واحد من هذه المدافع فى المنزل المواجه لمركز الاسعاف ، فسوف تتداعى المراتب والجدران كما فى ألعاب المهرجان • وكان المدفع الرشاش الذى يملكه الشيوعيون لا يزال يسيطر على باب هذا المنزل ، حتى اذا نفذ الرصاص ، انتهت سيطرته عليه • وهذا شئ لن يطول انتظاره ، اذ أنهم ظلوا يطلقونه فى ثورة غضب ، مدفوعين. بثأر يريدون أن يأخذوا به مقدما : ولما كانوا يعلمون أن مصيرهم القتل. لا محالة ، فان القتل كان هو المعنى الوحيد الذى يمكن أن يخلعوه على ساعاتهم. الأخيرة • • بيد أنهم بدءوا يملون هذا أيضا • وأصبح أعداؤهم لا يظهرون الا نادرا ، بعد أن أحسنوا التحصن شيئا فشيئا • وبدأ كأن القتال قد ضعف أثناء الليل ، وأن هذا النهار الوليد الذى يكشف عن شبح عدو واحد ، يحمل لهم التحرر ، كما حمل الليل سجنهم ، وهو خاطر واضح. البطلان • وأصبح انعكاس ضوء النهار رماديا شاحبا ، على سقوف المنازل ، وفوق المعركة المتوقفة ، بدا كأن النور يمتص قطعا كبيرة من الليل ، دون

أتى يترك أمام المنازل سوى شللات سود . وطفقت الظلال تنكمش رويدا رويدا ، وكان النظر اليها يتيح للمرء ألا يفكر فى الرجال الذين سيلقون حتفهم هناك . كانت هذه الظلال تتقلص كما تفعل كل يوم فى حركتها الأبدية ، وان تكن تفعل اليوم ذلك فى فخامة وحشية ، لأنهم لن يروها بعد ذلك أبدا . وفجأة أضيئت النوافذ المقابلة جميعا ، وانهمر الرصاص صوب الباب كأنه حفنة من الحصى : كان أحد رجالهم قد أبرز ستره فوق طرف عصا . . . وقنع العدو بموقف المراقبة .

قال همليش : « ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ » وكان يحصى الجثث التى ظهرت الآن فى عرض الشارع .

وأجاب كاتوف بصوت يكاد يكون منخفضا : « هذا كله مضيعة للوقت . . . وما عليهم الا أن ينتظروا . . . فالنهار لهم . »

ولم يكن هناك سوى خمسة من الجرحى مستلقين فى الحجرة ؛ ولم يكونوا يتأوهون بل كان منهم اثنان يدخان وهما يتطلعان الى النهار الذى بدأ يبزغ بين الجدار والمراتب . وعلى مسافة أبعد ، كان « مسوين » ، ومقاتل آخر يحرسان النافذة الثانية . وكادت طلقات الرصاص أن تنقطع . . . هل كانت قوات تشانج - كاي - شيك تنتظر فى كل مكان ؟ وحين كان الشيوعيون هم المنتصرون فى الشهر السابق ، فانهم كانوا يعرفون تقدم تلك القوات ساعة بساعة . ولكنهم اليوم لا يعرفون شيئا ، كما كان المنهزمون حينذاك لا يعرفون شيئا . وانفتح باب المنزل المعادى ، وكأنما ليؤكد ما قاله كاتوف منذ لحظة (كان الممران أحدهما فى مواجهة الآخر) ، وفى الحال ، أنبأت فرقة مدفع رشاش الشيوعيين بما يجرى حولهم . وحدث كاتوف نفسه قائلا : « انهم يحملون المدفع عن طريق الأسطح . »

.. « من هنا ! »

وكان رجاله المشرفون على المدفع الرشاش هم الذين ينادون . فخرج همليش وكاتوف وكضا ، بعد أن أدركوا الموقف : ان المدفع الرشاش المعادى - الذى يحميه دون شك درع من الصلب - يطلق نيرانه بلا توقف . ولم يكن ثمة شيوعيون فى ممر مركز الاسعاف ، نظرا لأن هذا الممر يقع تحت نيران مدفعهم الرشاش الذى يسيطر من أعلى درجة فى السلم - وهو

مصوب الى أسفل - على طريق دخول أعدائهم • غير أن الدرع المصفح يحمى.
الآن هؤلاء الأعداء • ومع ذلك فلا بد قبل كل شيء - من الاستمرار فى إطلاق النار • وكان الهدف قد سقط على جانبه ، صريعا بلا شك ؛ وكان مالىء خزان المدفع هو الذى صرخ • • وطفق يملأ الخزان ، ثم يطلق النار ، رصاصة تلو رصاصة • وكان الرصاص يجعل قطعاً من خشب السلم ومن قشرة الحائط تتطاير ، وكانت بعض الأصوات المكتومة التى تنبعث فى فترات غريبة السرعة من الصمت تدل على أن بعض تلك الرصاصات يدخل فى جسد شخص حتى أو ميت • ووثب هملريش وكاتوف ، وزجر البلجيكي قائلاً : « لن تكون أنت ! » وبضربة من كتفه نحى كاتوف ، فتدحرج فى الدهليز ، ووثب هو الى مكان الهدف • وكان العدو يطلق نيرانه الآن فى مكان أشد انخفاضا • • ولم يستمر إطلاقه طويلا وسأل هملريش : « أما زالت هناك ضمادات ؟ » وبدلاً من أن يجيب أبرز مالىء خزان المدفع الرشاش رأسه الى الأمام ، وهبط السلم كله • ولاحظ هملريش أنه لا يعرف كيف يحشون مدفعاً رشاشاً •

وصعد فى قفزة واحدة وأحس أن عينه وسمانة ساقه قد أصيبتا إصابة خفيفة • وفى الدهليز ، فوق الزاوية التى يطلق العدو منها النار ، توقف : ولم تكن عينه قد أصيبت الا بقطعة من الجص انفصلت عن الحائط برصاصة ، وكانت سمانة ساقه تنزف ، فقد أصيبت إصابة سطحية برصاصة أخرى • لقد دخل الآن الحجرة التى كان بها كاتوف متكئاً ، يجتنب نحوه مرتبة باحدى يديه (لا لكى يحتسى ورائها ، بل ليختبئ) ويمسك بالأخرى مجموعة من القنابل اليدوية : اذ كانت القنابل اليدوية - اذا انفجرت على مقربة - هى التى تستطيع وحدها أن تؤثر فى الدرع المصفح •

وكان لابد من القائها من النافذة فى ممر الأعداء • ووضع كاتوف مجموعة أخرى ورائه ، فأمسك بها هملريش وألقاها فى نفس الوقت الذى قذف فيه كاتوف بمجموعة من فوق المرتبة • ووجد كاتوف نفسه ملقى على الأرض ، وقد حصده الرصاص ، وكأن قنابله اليدوية هى التى طرحته أرضاً : فبمجرد ظهور رأسيهما وأذرعهما من وراء المرتبة ، انهال عليهما الرصاص من النوافذ جميعاً - « ألم تكن هذه القرقة الشبيهة بقرقة عيدان الكبريت صادرة عن ساقية ؟ » ألقى هملريش على نفسه هذا السؤال بعد أن انبطح فى الوقت

المناسب . وما برحت الرصاصات تدخل دائما ، غير أن الجدار كان يحصى
الرجلين الآن بعد أن سقطا : اذ كانت فتحة النافذة على بعد ستين سنتيمترا
فوق الأرض . وعلى الرغم من طلقات البنادق كان همليش يشعر بالسكون
فقد صمت المدفعان الرشاشان وتقدم على مرفقيه صوب كاتوف الذي لم
يكن يبدي حراكا ، وجره من كتفيه . وتبادل الاثنان النظرات فى صمت ،
خارج نطاق الرصاص : وكان نور النهار الساطع قد اجتاح الغرفة الآن على
الرغم من المراتب والاستحكامات . وفقد كاتوف وعيه ، وقد ثقيبت فخذه بقعة
حرارة أخذت تتسع على أرض الحجرة وكأنها موضوعة على نشافة . وتناهى الى
همليش صوت سوين وهو يصيح : « المدافع ! » ثم انطلق انفجار هائل
بلا دوى ، وفى اللحظة التى رفع فيها رأسه ، تلقى صدمة عند قاعدة أنفه ،
وفقد وعيه بدوره .

وثاب همليش الى رشده شيئا فشيئا ، صاعدا من الأعماق صوب هذا
السطح من الصمت الغريب ، حتى لقد خيل اليه أنه هو الذى يبعث فيه
الحياة : لقد كف المدفع عن الانطلاق . وكان المدفع قد تحطم بزاوية مائلة ،
وعلى الأرض ، وقد غطتهم قطع الحصى والحطام ، رقد كاتوف والآخرون ،
فاقدين وعيهم ، أو فارقتهم الحياة . وكان يشعر بظما شديدا ، بالحمى .
ولم يكن الجرح الذوى أصيب به فى سماعة ساقه خطيرا . وزحف حتى بلغ
الباب وعند الدهليز ، تمكن من النهوض متثاقلا مستندا على الجدار . وباستثناء
رأسه الذى وقعت عليه قطعة انفصلت عن البناء ، فقد كان ألمه منتشرا
لا يستطيع له تحديدا ، ونزل متعلقا بالسياج . لا على السلم المؤدى الى
الشارع حيث ينتظر الأعداء دائما ، بلا شك ، ولكن على السلم المؤدى الى
الفناء . كان قد انقطع اطلاق النار . وكانت جدران ممر الدخول مليئة
بالفجوات التى تؤوى فيما سبق مناضد . فألقى بنفسه فى أول فجوة
صادفها ، ونظر الى الفناء .

الى يمين منزل يبدو مهجورا (وان كان على يقين من أنه ليس كذلك)
كانت هناك حظيرة من صفيح ، وعلى بعد منزل به حافتان بارزتان كالقرنين
(على طراز المعابد الهندية) ، وصف من الأعمدة الخشبية التى يتناقص طولها
شيئا فشيئا حتى تغوص صوب الريف الذى لن يراه أبدا . وكانت الأسلاك
الشائكة المتشابكة عبر الباب تخطط هذا المنظر المميت والنهار الرمادى

بخطوط سوداء كأنها تصدعات فى وعاء صينى • وظهر شبح وراء هذا المنظر • شبح أشبه بالدب : انه رجل قادم بوجهه وقد انحنى ظهره تماما ، وبدأ يتعلق بالأسلاك الشائكة •

وكان رصاص همليش قد نفذ ، فجعل يتابع ببصره هذه الكتلة التى تمر من سلك الى آخر قبل أن يستطيع التنبؤ بحركتها (كانت الأسلاك واضحة فى ضوء النهار ، ولكنها كانت خارج منظوره) ، وتعلقت الكتلة ، ثم سقطت ، وتعلقت من جديد ، كالحشرة الضخمة • واقترب همليش ملتصقا بالحائط • وكان من الواضح أن الرجل ، سيمر ؛ ومع ذلك فقد حدث فى هذه اللحظة أن أخذ - بعد أن تورط - يحاول التخلص من الأسلاك التى اشتبكت بشيابه وهو يصدر قبعا * غريبا ، وخيل الى همليش أن هذه الحشرة المتوحشة يمكن أن تبقى هناك الى الأبد هائلة مطوية على نفسها ، ومعلقة فى ذلك النهار الرمادى • غير أنها مدت يدا واضحة سوداء مفتوحة متباعدة الأصابع لتمسك بسلك آخر ، وواصل الجسم حركته •

وكانت هذه هى النهاية • • فوراءه ، الشراع والمدفع الرشاش ؛ وفوق ، كاتوف ورجاله منطرحين أرضا • وهذا المنزل المهجور ، القائم فى مواجهة المركز بلاشك يكمن فيه ضاربو المدفع الرشاش ، أولئك الذين ما زالوا يملكون ذخيرة من الرصاص • فاذا خرج أطلقوا الرصاص على ركبتيه ، لكى يأخذوه أسيرا (أحس فجأة ، بهشاشة هذه العظام الصغيرة ، الرضفات * ولكنه ربما استطاع على الأقل أن يقتل هذا الشخص •

ومضى هذا المسخ المؤلف من الدب والانسان والعنكبوت يخلص نفسه من الأسلاك • والى جانب كتلته السوداء ، كان ثمة خط من النور يحدد ضلع مسدسه • وأحس همليش بنفسه كأنه فى أعماق ثقب ، أقل افتتانا بهذا المخلوق البطيء الذى يقترب كالموت نفسه ، منه بكل ما يعقبه ، بكل ما سيسحقه مرة أخرى كغطاء التابوت حين يطبق على انسان حى ؛ وكان ما خنق حياة أيامه جميعا ، هو الذى يعود ها هنا ليسحقه بضربة واحدة • « لقد طحنونى طيلة

(*) الصوت الذى يحدثه الخنزير •

(*) الرضفات جمع رصفة وهى صابونة الركبة • •

سبعة وتلاني عامما ، وسيقتلوننى الآن . » ولم يكن عذابه هو الذى يقترب
فحسب ، بل كان عذاب زوجته المبقورة البطن ، وعذاب ابنه المريض المقتول :
لقد امتزج هذا كله فى ضباب من العطش والحمى والحقد . وأحس من جديد
ببقعة الدم على يده اليسرى ، دون أن ينظر اليها . ولم تكن كالحرق أو كشىء
يضايقه ، بل كل ما فى الأمر أنه كان يعلم أنها موجودة هناك ، وأن هذا
الرجل سيخرج فى نهاية الأمن من الأسلاك . وهذا الرجل الذى سيكون
أول عابر ، لن يقتل أولئك الذين يزحفون فى الطابق العلوى فى سبيل المال ،
وانما من أجل فكرة ، من أجل ايمان ، وهذا الشبح المتوقف الآن أمام سد
الأسلاك الشائكة ، كان همليش يبغضه ، بل يبغض حتى تفكيره - فلم يكن
يكفى أن يقتلهم هذا الجنس من السعداء ، بل ينبغي أن يعتقد أيضا أنه على
صواب . وكان الطيف - بعد أن شد الآن قامته - يمتد بشكل عجيب على
الفناء الرمادى ، وعلى أسلاك البرق التى تغوص فى الهدوء الذى لا حد له
لهذا الصباح الربيعى الممطر . ومن احدى النوافذ ارتفعت صيحة نداء ، رد
عليها الرجل ، وملأت اجابته الدهليز ، وأحاطت بهمليش . واختفى خط
النور الواقع على المسدس ، غائضا فى الجراب ، وحل مكانه قضيب مسطح
يكاد يكون أبيض فى هذه العتمة : كان الرجل يسحب حربته . . ولم يكن
رجلا ، بل كان كل ما عناه همليش حتى هذه اللحظة . وفى هذا الدهليز
المظلم ، وازاء هؤلاء الجنود القابعين وراء المدفع الرشاش عبر الباب ، وهذا
العدو الذى يدنو . . مس البلجيكي جنون الحقد ، وبدا له أن دم أهله لم
يعد بقعة دم على يده ، بل انه مازال سائلا وساخنا . « هكذا قد أذاقونا جميعا
الموت طيلة حياتنا . . ولكن هذا سيدفع الثمن . . سيدفع الثمن . . »
واقترب الرجل - خطوة خطوة ، وقد شهر حربته الى الأمام . وجلس همليش
القرفصاء ، وأبصر على الفور أن الطيف يكبر ، بينما أخذ الجذع يتصاغر
فوق ساقين قويتين كالأوتاد . وفى اللحظة التى وصلت فيها الحربة فوق
رأسه ، نهض وتعلقت يده اليمنى بعنق الرجل ، وجعل يضغط عليها .
وسقطت الحربة من جراء الصدمة . وكان هذا العنق أضخم من أن تطوقه يد
واحدة ، فغاص الابهام وأطراف الأصابع فى تشنيج داخل اللحم بدلا من أن
توقف تنفسه ، غير أن يده الأخرى كانت قد أصيبت بالجنون ، فأخذت تخط
على الوجه اللاهث فى غضب عنيف . وطفق همليش يزجر قائلا : « ستدفع
الثمن ! ستدفع الثمن ! » وترنح الرجل ، وبغريزته استند الى الحائط .

ودق همليش رأسه على الحائط بكل قوته ، وانحنى لحظة ، وأحس الرجل الصيني بجسم ضخم يدخل فيه ، ويمزق أحشائه : انها الحربة وفتح يديه الاثنتين ، ثم وضعهما على بطنه وهو يئن أنينا حادا ، وسقط ، وكتفاه الى الأمام ، بين ساقى همليش ، ثم ارتخى دفعة واحدة ، وعلى يده المفتوحة سقطت قطرة من الدم من الحربة تبعثها قطرة أخرى . وكأن هذه اليد التي تتلطح لحظة بعد أخرى بالدم ، كانت رمزا لثأره ، ولهذا تجاسر همليش ، أخيرا ونظر الى يده ، فأدرك أن بقعة الدم قد انمحت منذ ساعات .

واكتشف أنه قد لا يموت . فاندفع يجر الضابط من ثيابه ، وقد استولى عليه في وقت واحد الحب لهذا الرجل الذي جاء يحمل له الخلاص ، والغضب لأن ثيابه لا تنتزع بسرعة كافية من جسمه ، وكأنه يحتجزها . وأخذ يهز هذا الجسد المنقذ ، وكأنه يرقصه ليسقط عنه الثياب . وأخيرا ، ارتدى حلة الضابط ، وأظهر نفسه من النافذة المطلة على الشارع ، وقد أخفى وجهه المائل بحافة (الكاكست) . وفتح الأعداء الرابضون في مواجهة المركز - النوافذ وهم يتصايحون . « ينبغي أن أنجو بجلدى قبل أن يصلوا الى هنا . وخرج من جانب الشارع ، ثم انعطف الى اليسار ، كما كان ينبغي أن يفعل . الرجل الذي قتله ، لكى يلحق بجماعته .

وصاح الرجال الواقفون في النافذة : « أسرى ! »

وأتى مصادفة بحركة صوب أولئك الذين كان من المفروض أن ينضم اليهم . وكان امتناعهم عن اطلاق النار عليه شيئا طبيعيا وغيبيا في الوقت . نفسه : اذ لم يتبق في نفسه شيء من الدهشة . وابستدار الى اليسار مرة أخرى ، وانصرف نحو منطقة الامتيازات : وكانت هذه المنطقة محروسة ، ولكنه كان يعرف جميع المنازل ذات المدخلين التي توجد في شارع «الجمهوريتين» .

وكان رجال الكومنتانج قد شرعوا يخرجون ، الواحد تلو الآخر ..

الجميع الساتر

الساعة العاشرة

قال الحارس : « مؤقتا . »

وأدرك كيو أنهم يزجون به فى السجن العام .

وما أن دخل السجن ، بل وقبل أن يستطيع النظر ، صدمته الرائحة الكريهة : مزيج من السلخانة ، ومعرض الكلاب ، والمراحيض . وكان الباب الذى اجتازه لتوه يؤدى الى دهليز شبيه بالدهليز الذى غادره ، وعلى اليمين ، وعلى اليسار ، وحتى السقف قضبان خشبية ضخمة . وفى تلك الأقفاص الخشبية ، كان ثمة رجال . وفى الوسط ، كان السجناء يجلس الى منضدة صغيرة عليها سوط : مقبضه قصير ، وذبالته مفرطحة عريضة كال كف ، وسمكها سمك اصبع . . وقصارى القول انه سلاح . قال : « ابقى هنا ، يا ابن الخنزير . »

وكتب الرجل الذى اعتاد الظلام - البيانات المطلوبة عن أوصافه . وكان كيو مازال يعانى من ألم رأسه ، وأعطاه السكون احساسا بأنه سيغفى عليه ، فاستند بظهره على القضبان .

وصاح صوت من خلفه : « كيف . . كيف . . كيف حالك ؟ »

كان صوتا غريبا كصوت الببغاء ، ولكنه صوت انسان . وكان المكان من الظلمة بحيث لم يستطع أن يميز وجهه ، اذ لم يكن يبصر سوى أصابع ضخمة متشبثة بالقضبان - غير بعيد عن عنقه . ووراءها كانت أشباح مسرفة فى الطول تتزاحم ، منها ما رقد على أرائك خشبية ، ومنها ما ظل واقفا : رجال أشبه بالدود .

أجاب وهو يتنحى : « لست على ما يرام تماما . »

قال السجناء : « اغلق فمك . . يا ابن السلحفاة . . اذا كنت لا تريد أن تتلقى يدى فوق فمك . »

وكان كيو قد استمع عدة مرات الى كلمة « مؤقت » وبذلك أدرك أنه لن يبقى طويلا فى هذا المكان . واعتزم ألا يستمع الى الشتائم ، وأن يحتمل

كل ما يمكن احتمالاه ، المهم هو أن يخرج من هنا لمواصلة الكفاح . ومع ذلك ، فقد أحس الى درجة الغثيان بالمدلة التي يشعر بها كل انسان أمام الانسان الذي يخضع له تمام الخضوع : عاجزا حيال هذا الشبح الوسخ ذي السوط - مسلوبا من نفسه .

وصاح الصوت من جديد : « كيف .. كيف .. كيف حالك ؟ »
وفتح السجان بابا ، يتخلل لحسن الحظ قضبان اليسار : ودخل كيو الاصطبل . وفي مؤخرته ، كانت هناك أريكة خشبية يرقد عليها رجل واحد .
وأعيد اغلاق الباب .

وصأله الرجل : « سجين سياسى ؟ »
- « أجل . وأنت ؟ »
- « كلا . كنت فى عهد الامبراطورية من المنادرة (المثقفين) .. »

وبدأ كيو يتعود على الظلمة .. وبالفعل كان محدثه رجلا مسنا ، أشبه بالقط الأبيض العجوز الذى يكاد يكون بلا أنف ، وله شارب هزيل وأذنان مديبتان .

- « ... اننى أبيع النساء .. وحين تكون تجارتي رائجة ، أعطى نقودا للبوليس ، فيتركنى فى سلام .. وحين تسوء الأحوال يعتقد أننى أضن عليه . بالمال ، فيزج بى فى السجن . ولما كانت الأحوال سيئة فى الوقت الحاضر ، فإننى أفضل أن أطعم فى السجن ، بدلا من ان أموت جوعا وانا متمتع بحريتى ... »
- « هنا ! »

- « فلتعلم .. ان المرء يعتاد على ذلك .. والأحوال فى الخارج كذلك ليست حسنة جدا ، حين يكون المرء عجوزا مثلى ، وضعيفا ... »

- « ولكن ، كيف لم توضع مع الآخرين ؟ »
- « اننى أرشو كاتب السجن أحيانا .. وهكذا ، فى كل مرة أحضر الى هنا ، أضن الى فئة المساجين (المؤقتين) . »

وحمل السجنان الطعام : أدخل من بين القضبان سلطانيتين صغيرتين ، مليئتين بعجينة بلون الوحل ينبعث منها بخار آسن كالجو المحيط بالمكان .
لقد دس مغرفة في قدر من الفخار ، وقذف بالعجينة المتماسكة في كل سلطانية صغيرة ، فسقطت فيها محدثة صوتا كالطبل ، ثم انصرف الى المساجين القابعين في القفص الآخر ، واحدا واحدا .

قال صوت : « لا داع لذلك : فالموعد غدا » (وقال المثقف العجوز لـ « كيو » انه يعنى بذلك تنفيذ حكم الاعدام فيه) .

وقال صوت آخر : « وأنا أيضا .. وعلى هذا يمكنك أن تعطيني ضعف كمية العجين .. فان التفكير فيما سيحدث غدا ، يجعلني أشعر بالجوع » .
وسأله الحارس : « أتريد قبضتي على فمك ؟ »

ودخل جندي ، ليسأله سؤالا . فاجتاز القفص الأيمن ، وضرب جسدا في رفق ، وقال :

ـ « انه يتحرك .. ليس من شك أنه مازال حيا ... »

وانصرف الجندي .

ومد « كيو » بصره بكل انتباهه محاولا أن يرى الى أى هذه الأشباح تنتمي تلك الأصوات التي اشتد قربها من الموت ، ولعله قد بات مثلها . ولم يستطع أن يميز شيئا : هؤلاء الرجال سيموتون قبل أن يزدوا بالنسبة اليه عن مجرد أصوات .

وسأله رفيقه : « أنت لا تأكل ؟ »

ـ « كلا » .

ـ « ان الحال يكون دائما على هذا النحو في البداية ... »

وتناول سلطانية كيو . ودخل الحارس ، ثم لطم الرجل بكل قوته ، وخرج من جديد ، حاملا السلطانية دون أن يتفوه بكلمة .

وتساءل كيو بصوت خفيض : « لماذا لم يلمسني أنا ؟ »

ـ « لقد كنت أنا وحدي المذنب ، ولكن ، ليست هذه هي العلة : فأنت

سجين سياسى ، مؤقت ، كما أنك ترتدى ثيابا أنيقة ، ولهذا سيحاول أن ينتزع منك - أو من أهلك - شيئا من النقود .. ولكن هذا لا يمنع .. انتظر ... »

وقال كيو لنفسه : « المال يتعقبنى حتى فى هذا الجحر ! »

وكان المشهد متفقا مع جو الأساطير ، حتى لقد خيل إليه أن خسة السجن خسة غير واقعية تماما ؛ وبدأت له فى الوقت نفسه قدرا نتنا ، وكأن السلطان يكفى لتحويل كل انسان الى حيوان .. كما لم تكن هذه المخلوقات المغمورة التى يعج بها المكان وراء القضبان ، والتى تثير الخوف وكأنها الزواحف أو الحشرات الهائلة التى راودت أحلام طفولته .. لم تكن هذه أيضا من بنى البشر . عزلة ومذلة كاملتان .. ودار فى نفسه : « انتبه » اذ أحس أنه قد ازداد ضعفا . وخطر له أنه لو لم يكن قد تغلب على فكرة موته ، لالتقى بالرعب وفتح محبس حزامه ، ودس قنينة السيانور فى جيبه .

وهتف به الصوت من جديد : « كيف .. كيف ، كيف حالك ؟ »

وصاح المساجين من القفص الآخر معا : « كفى ! »

وكان كيو قد تعود الآن على الظلمة ، فلم يدهشه عدد الأصوات : فقد كان هناك ما يزيد على عشرة أجسام راقدة على الأرائك الخشبية ، وراء القضبان .

وصاح السجنان : « أظنك ستخرس ؟ »

- « كيف .. كيف .. كيف حالك ؟ »

ونفض السجنان .

وسأل كيو بصوت خافت : « أترأه مهرجا أم متمردا ؟ »

فأجاب المثقف : « لا هذا ولا ذاك . انه مجنون . »

- « ولكن لماذا ... »

وكف كيو عن توجيه الأسئلة : فقد سد جاره أذنيه . وتردد فى الظلمة صياح حاد أجش ، ينم عن الألم والرعب فى آن واحد . فينا كان كيو ينظر.

الى جاره ، خنق ، كان السجن قد دخل القفص الآخر بسوطه . وطرقته
ذباله السوط . فانطلقت الصيحة نفسها مرة أخرى . ولم يجرؤ كيو على
سد أذنيه . بل انتظر ، متعلقا بقضيبين ، الصرخة الرهيبة التي ستسرى
مرة أخرى فى جسده حتى أظافره .

قال أحد الأصوات : « اضربه بشدة ، حتى يدعنا فى سلام ! »
وقالت أربعة أو خمسة أصوات : « فليضته هذا كله حتى ننام فى
هدوء . »

ومال المثقف على كيو ، سادا أذنيه دائما : « هذه هي المرة الحادية عشرة
التي يضربه فيها - على ما يبدو - منذ سبعة أيام . فأنا هنا منذ يومين :
وهذه هي المرة الرابعة منذ بحيتى . وعلى الرغم من كل شيء . . فالمرء يسمع
قائلا . . وأذا لا يستطيع ان أغمض عيني ، كما ترى : اذ يخيل الى أننى حين
أنظر اليه ، فكأنى أهد له يد المساعدة ، وأننى لا أتخلى عنه . . . »

ونظر كيو أيضا ، ولكنه لم يكذب بصر شيئا . . وتساءل فى فزع : « شفقة
أم قسوة ؟ » ان كل ما هو منحط فى الانسان ، وكل ما هو قابل للافتتان
قد أهيب به هنا فى عنف وحشى كأشد ما تكون الوحشية ، وكان كيو
يصارع بكل فكره هذا الهوان الانسانى : وتذكر الجهد الذى كان ضروريا
بالنسبة اليه دائما لكى يفر من رؤية الأجسام الانسانية المعذبة اذا التقى بها
مصادفة : كان ينتزع نفسه انتزاعا من مثل هذا المشهد . أما أن بشرا
يستطيعون شهود رجل مجنون ، غير مؤذ - بل عجوز بلا ريب اذا حكمنا عليه
من صوته - ويوافقون على تعذيبه . فقد استحضر هذا الى ذاكرته نفس
الفزع الذى أحس به حين أفغى اليه تشن باعترافاته ، ليلة هانكيو :
« الانطبوط . . » وقد حدنه كاتوف عن المجهود الذى يبذله طالب الطب
حين تفتح أمامه - للمرة الأولى - بطن انسان ، فتسفر عن أعضاء حية . انه
نفس الرعب الذى يشل المرء ، الرعب الذى يختلف اختلافا تاما عن الخوف ،
رعب جبار حتى قبل أن يحكم عليه الذهن الواعى ، وانه لرعب أبعد على
الحيرة بمقدار ما أحس كيو بخضوعه له . ومع ذلك ، فان عينيه اللتين كانتا
أقل تعودا على الظلمة من عيني رفيقه ، لم تميزا سوى ومضة الجلد التي
تنتزع الأنات كأنها خطاف . ومنذ الضربة الأولى ، لم يبد حراكا ، بل ظل

متشبثا بالقضبان ، وقد وضيع يديه فى مستوي وجهه • ولكنه لم يلبث أن صباح :

ـ « أيها السجنان ! »

ـ « أتريد ضربة ؟ »

ـ « أريد أن أكلمك • »

ـ « نعم ؟ »

وبينا كان السجنان يغلق القفل الضخم غاضبا ، أخذ المذنبون الذين تركهم يتواثبون ، اذ كانوا يبغضون المسجونين « السياسيين » الذين لم يكونوا يختلطون بهم •

ـ « أقدم ، أيها السجنان ، أقدم ! دعنا نضحك ! »

وكان الرجل قد وقف فى مواجهة كيو ، يشطر جسمه رأسيا قضيب من القضبان الحديدية ، ويعبر وجهه عن أحقر أنواع الغضب • • غضب الأحق الذى يعتقد أن سلطته موضع الاعتراض ، ومع ذلك ، لم تكن ملامحه خسيصة : فهى ، منتظمة ، عادية • • •

قال كيو : « اسمع • »

وحقق كل منهما فى عينى الآخر ، وكان السجنان أطول من كيو الذى ما برحت يدها متشبثتين بالقضبان على كل من جانبيه رأسه • وقبل أن يفطن كيو الى ما حدث ، خيل اليه أن يده اليسرى قد تمزقت اربا : فقد هوى السوط الذى يمسك به السجنان خلف ظهره ، على يده بكل قوة • • ولم يستطع كيو أن يمنع نفسه من الصراخ •

ودمدم المساجين الذين يقفون قبالة : « حسن جدا ! • لقد جاء دورهم • »

وكانت يدا كيو قد سقطتا بطول جسمه ، وقد استولى عليهما خوف ذاتى ، دون أن يلحظ هو شيئا من ذلك •

وسأله الحارس : « أليك شىء آخر تريد أن تقوله ؟ »

وكان السوط الآن بينهما .

وصر كيو على أسنانه بكل قوته ، وبخس المجهود الذي يحتاج إليه لرفع نقل هائل ، ودون أن تفارق عيناه الحارس ، حول يديه مزة أخرى نحو القضبان . وبينما كان يرفعهما متحملا ، تراجع الرجل ترجعا غير ملحوظ ، لكي يفسح لحركته مكانا . . . وفرق السوط - على القضبان هذه المرة . وكان رد الفعل المنعكس أقوى من كيو . فسحب يديه ، ولكنه أعادهما فورا في توتر رهق كتفيه ، فأدرك الحارس من نظراته أنه لن يسحبهما هذه المرة . فبصق في وجهه ورفع السوط متعلدا .

قال كيو : « اذا أنت . . . كفتت عن ضرب المجنون . . فسوف أعطيك حين أخرج . . خمسين دولارا . »
ولاح التردد على السجان ، ولكنه قال أخيرا :
- « طيب . »

ونحى نظراته بعيدا ، وأحس كيو أنه تخلص من توتر عنيف حتى ظن أنه على وشك الانهيار . وكانت يده اليسرى تؤله إلى درجة أنه لم يكن يستطيع أن يطبقها . ورفعها في نفس الوقت الذي رفع فيه يده الأخرى إلى مستوى كتفيه ، وتركها ممدودة ، في هذا الوضع .
وانطلقت ضحكات أخرى .

وسأله الحارس وهو يقهقه أيضا : « أتبسط لي بذلك ؟ »

وصافحه . وأحس كيو أنه لن ينسى طوال حياته هذه الضغطة على اليد ، لا بسبب ما عاناه من ألم ، ولكن لأن الحياة لم تفرض عليه شيئا أبشع من ذلك . فسحب يده ، وألقى بنفسه على الأريكة . وتردد الحارس ، وهز رأسه وهو يحكمها بمقبض السوط ، ثم عاد إلى المنضدة ، بينما طفق الرجل المجنون ينمشج بالكاء .

ومرت ساعات رتيبة من المهانة . وأخيرا ، أقبل عدد من الجنود يطالبون كيو لاقتياده إلى الشرطة الخصوصية . لعلمهم يسوقونه إلى الموت ، ومع ذلك ،

فقد خرج فى فرحة أدهشه عنفها : فقد خيل اليه أنه ترك هناك شيطرا دنسا
من نفسه .

ـ « ادخل ! »

ودفع أحد الحراس الصينيين « كيو » من كتفه ، ولكن دون لكز ، ذلك
أن الحراس حين يتعاملون مع الأجانب (وكان كيو بالنسبة للشخص الصينى
يابانيا أو أوروبا ، ولكنه أجنبى بكل تأكيد) كانوا يخفون من الوحشية
التي يعتقدون أنهم ملزمون باتباعها . وبإشارة من كونييج ، ظلوا خارج
الحجرة . وتقدم كيو صوب المكتب ، مخفيا فى جيبه يده اليسرى المتورمة ،
ناظرا الى هذا الرجل الذى أخذ بدوره يبحث عن عينيه : وجه حليق حاد
الزوايا ، أنف منحرف ، وشعر ممشط . « من الجلى أن رجلا سيأمر بقتلك
دون شك - يشبه أى رجل آخر » ومد كونييج يده نحو مسدسه الموضوع
على المائدة : كلا . لقد تناول علبة السجائر ، وقدمها لـ « كيو » .

ـ « شكرا . . اننى لا أدخن »

ـ « ان طعام السجن كرهه ، كما ينبغي أن يكون ، فهل تحب أن تتناول
غداءك معى ؟ »

وعلى المائدة ، كانت القهوة ، والبن ، وفنجانان ، وشرائح من الخبز .
ـ « بعض الخبز فحسب . أشكرك »

وابتسم كونييج :

ـ « انه نفس وعاء القهوة لى ولك ، كما ترى . . . »

وكان كيو قد حزم أمره على الحذر ، ومهما يكن من أمر ، فان كونييج لم
يلح فى شىء . وظل كيو واقفا (لم يكن هناك مقاعد) أمام المكتب ، وهو
يقضم خبزه كالطفل . وكان كل شىء بعد مهانة السجن يتسم بخفة غير
حقيقية . وكان يعلم أن حياته فى خطر ، بيد أن الموت نفسه بدا له أمرا
بسيطا . وأوحت اليه انسانية رئيس الشرطة بشىء قليل من الثقة ؛ وقد
ظل كونييج بعيدا عنه ، وكأنه منفصل عن أريحيته : فهي متقدمة قليلا ،
وهو متأخر قليلا . ومع ذلك ، لم يكن من المحال أن تصدر رقة هذا الرجل

عن اللامبالاة : فهدر من الجنس الأبيض وربما انتهى الى هذه المهنة عن طريق
المصادفة ، أو الجشع . وكان هذا ما يتمناه كيو الذى لم يكن يشعر نحوه
بأى تعاطف ، ولكنه كان يريد أن يستريح ، أن يتخلص من التوتر الذى
أرهقه فى السجن . واكتشف مبلغ الارهاق الذى يلحق بالمرء حين يكون
مرغما على المجوء كلية الى ذاته .

ودق جرس التليفون .

قال كونيچ : « آلو . أجل ، چيسوزا ، كيوشى (١) . . . تماما . انه
عندى . »

ثم قال مخاطبا كيو : « يسألوننى عما اذا كنت مازلت حيا . »

— « لماذا أرسلت فى طلبى ؟ »

— « أعتقد أننا سنتفاهم . »

التلفون من جديد .

— « آلو . كلا . . . كنت أقول له أننا سنتفاهم بكل تأكيد . رميا
بالرصا ص ؟ اتصل بى مرة أخرى . سنرى . »

ومنذ أن دخل كيو ، لم تتحول نظرة كونيچ عن عينيه .

سأله وهو يعلق الساعة : « ما رأيك فى الموضوع ؟ »

— « لا شىء . »

وخفض كونيچ عينيه ، ثم رفعهما :

— « هل أنت حريص على الحياة ؟ »

— « هذا يتوقف على الكيفية التى عليها أعيش . »

— « من الممكن أيضا أن يموت المرء بطرق متباينة . »

— « ليس لنا أن نختار . . . »

— « أعتقد أننا نختار دائما طريقتنا فى الحياة ؟ »

(١) « كيو » اختصار لاسم « كيوشى » .

وكان «كونيچ» يفكر فى نفسه • أما كيو ، فكان قد اعتزم ألا ينزل عن
أى شىء جوهرى ، ولكنه لم يكن يريد فى الوقت نفسه أن يثير غضبه :
- « لا أدري ، وأنت ؟ »

- « لقد قالوا لى : أنك شيوعى ، بدافع •• من الكرامة •• فهل هذا
صحيح ؟ »

ولم يفهم كيو بادىء الأمر ، إذ كان يتساءل - وهو ينتظر فى توتر أن
يبقى جرس التلفون - ماذا يعنيه هذا الاستجواب الغريب ، وأخيرا سأل
كونيچ : « آتيتكم بهذا حقا ؟ »
- « أكثر مما يمكن أن تظن • »

وكان ثمة تهديد يشيع فى لهجته ، وإن لم يظهر فى عبارته نفسها ،
وأجاب كيو :

- « أعنقد أن الشيوعية ستجعل الكرامة ممكنة بالنسبة لأولئك الذين
أحارب معهم • وعلى كل حال فإن القوة المضادة للشيوعية ترغمهم على ألا
تكون لهم كرامة ، اللهم إلا إذا كانت لهم حكمة •• والحكمة نادرة بينهم ،
كما هى نادرة بين غيرهم •• بل ربما كانت أشد ندرة بينهم لأنهم فقراء ،
ولأن عملهم يفصلهم عن حياتهم • لماذا سألتنى هذا السؤال ، ما دمت لاتصغى
لاجابتي ؟ »

- « ماذا تعنى بالكرامة ؟ انها لا تعنى شيئا على الإطلاق • »

ودق جرس التلفون • وقال كيو لنفسه : « حياتى » ، ولم يرفع كونيچ
السماعة •

قال كيو : « انها ضد المذلة •• وحين يأتى المرء من حيث أتيت ، فانها
تعنى شيئا • »

وظل جرس التلفون يرن دون مجيب ، فوضع كونيچ يده على الجهاز •
وألغى هذا السؤال فحسب : « أين أخفيت الأسلحة ؟ »

- « تستطيع أن تدع التلفون هادئا • لقد فهمت أخيرا ، أن هذه المكالمات
بمجرد تمثيلية تقومون بإخراجها من أجلى • »

وانحنى كيو بسرعة : فقد كان كونييج على وشك أن يقذف على رأسه بأحد المسدسين ، الفارغ طبعا ، ولكنه وضعه على المنضدة .

قال : « عندي ما هو أفضل من ذلك .. أما فيما يتعلق بالتلفون ، فسرعان ما ستري ان كان مجرد حيلة ، أيها العزيز .. هل سبق لك أن شاهدت شخصا يعذبونه ؟ »

وحاول كيو أن يضم أصابعه المتورمة في جيبه . وكان « السيانور » في هذا الجيب الأيسر ، فخشى أن يسقط منه اذا حاول أن يرفعه الى فمه .

— « لقد شاهدت على الأقل أناسا عذبوا : فقد خضنت غمار الحرب الأهلية وما يدهشني ، هو لماذا سألتني عن المكان الذي خبئت فيه الأسلحة .. فأنت تعرف مكانها ، أو ستعرف — فلماذا تسألني ؟ »

— « لقد سحق الشيوعيون في كل مكان »

وظل كيو صامتا .

— « لقد سحقوا فعلا . فكر مليا : اذا اشتغلت من أجلنا ، فقد نجوت ، ولن يعلم ذلك أحد .. اني أدبر أمر هربك .. »

وحدث كيو نفسه قائلا : « كان لابد أن يبدأ الأمر على هذا النحو . » ومنحته العصبية قدرة على السخرية ، وان لم يكن يريد لها . ولكنه كان يعرف أن البوليس لا يقنع بالعهود المشكوك فيها . ومع ذلك ، فقد أدهشه هذا العرض ، وكأنه — لأنه عرض تقليدي — قد كف عن أن يكون حقيقيا .

واستطرد كونييج قائلا : « أنا وحدي الذي سأعرف . هذا يكفي .. » وتساءل كيو : « لماذا هذا الاعتداد الذي نطق به عبارة « هذا يكفي ؟ »

وأجاب في صوت محايد : « لن أدخل في خدمتك »

— « حذاري : فأنني أستطيع أن أرسلك الى البوليس السرى مع عشرة من الأبرياء قائلا لهم : ان مصيرهم مرهون بك ، وانهم سيقبضون في السجن اذا لم تتكلم ، وانهم أحرار في اختيار وسائلهم .. »

— « الجلادون ، أبسط من ذلك كثيرا .. »

ـ « هذا خطأ . فان تعاقب الصراعات وألوان القصور سر من ذلك ،
لا تتحدث عما لا تعرف . . . بعد على الأقل . »

ـ « لقد شاهدتهم تقريبا يعذبون مجنوننا . . مجنوننا . . أتفهمنى ؟ »

ـ « هل تقدر المجازفة التى تجازفها تمام التقدير ؟ »

ـ « قلت لك ، اننى اشتركت فى الحرب الأهلية . . فأنا أعرف . .
ولقد قام رجالنا أيضا بالتعذيب فلا بد من مسرات كثيرة للناس لكى نعوض
هذا الذى ارتكبناه . . وعلى أى حال ، فلن ألتحق بخدمتكم . »

وظن كونيج أنه على الرغم مما قاله له « كيو » فانه لم يفطن الى وطأة
الخطر الذى كان يتهدهده . وقال لنفسه : « ان شبابه يساعده . » وكان
قد استجوب منذ ساعتين ، سجيناً من التشيك ، ولم تمض عشر دقائق حتى
كانا قد تأخيا : ذلك أن كلا منهما كان ينتمى الى عالم لم يعد هو عالم الناس ،
واذا كان « كيو » لا يخاف نظرا لقصور فى خياله ، فصبرا . . .

ـ « ألم تسأل نفسك لماذا لم أقذف بالمسدس فى وجهك ؟ »

ـ « اننى أعتقد أننى قريب من الموت . . وهذا يطفىء حب الاستطلاع .
وقد قلت ان لديك وسائل أفضل . . . »

ودق « كونيج » الجرس .

ـ « ربما جئت اليك الليلة لأسألك ما رأيك فى الكرامة الانسانية . »

وأردف قائلاً للحراس الذين دخلوا : « الى فناء السجن . . قسم أ »

الساعة الرابعة

اختلط كلابيك بالحركة التى تدفع جماهير منطقة الامتيازات صوب
الأسلاك الشائكة : ففى شارع الجمهوريتين كان الجلاذ يمر حاملاً سيفه
المقوس على كتفه ، تتبعه كوكبة من رجال البوليس المسلحين بمسدسات
الموزر . وعاد كلابيك أدراجه على الفور . وتوغل فى منطقة الامتيازات .
لقد قبضوا على كيو ، وتحطم الدفاع الشيوعى ، وقتل عدد من أصدقاء الحركة
فى المدينة الاوروبية نفسها . . وقد أمهله كونيج حتى المساء : فلن يظل
مستمعاً بالحماية بعد ذلك . . وكانت ثمة طلقات فى كل مكان تقريبا .

ويخيل اليه . والرياح تحملها ، أنها تقترب منه ومعها الموت . قال وهو يصر على أسنانه : « لا أريد أن أموت ، لا أريد أن أموت . . . » ولاحظ انه يركض . . وأخيرا وصل الى رصيف الميناء .

لم يكن يحمل جواز سفر ، كما لم يكن يملك من المال ما يكفي لشراء تذكرة .

ثلاث بواخر . احدهما فرنسية . وتوقف كلابيك عن الجرى . . أختبئ في زوارق النجاة المغطاة بقماش القارع السميك ؟ لا مندوحة له من الصعود الى السطح ، ولن يسمح له الرجل القائم على السلم بالعبور . هذه حماقة ، على كل حال . . ماذا عن المخازن الموجودة في بطن الباخرة ؟ أحرق ، أحرق ، أحرق . أذهب لمقابلة القبطان ، بالقوة ؟ كم تخلص من مآزق في حياته على هذا النحو ! أما في هذه المرة فقد يظنه القبطان شيوعيا ، ويرفض قبوله على سفينته . والسفينة سترحل بعد ساعتين ، هذه اذن لحظة غير مناسبة لازعاج القبطان . واذا اكتشف أمره بعد ابحار الباخرة فسوف يدبر أموره ، ولكن ، ينبغي الصعود اليها الآن .

وتخيل نفسه في ركن ما ، قابعا في برميل ، بيد أن خياله لم ينقذه هذه المرة . وبدا له كأنه يقدم نفسه قربانا لهذه البواخر الهائلة ، الجاثمة ، المحملة بالمتاع ، التي لا تأبه له الى درجة الحقد ، وكأنها يضرع اليها لتشفع له عند اله مجهول . ووقف ازاء الباخرة الفرنسية ، وأخذ ينظر ، مفتونا بسلم الصعود ، الى الناس الذين يصعدون وينزلون (لم يكن منهم من يفكر فيه ، أو يخمن لهفته ، ولهذا السبب ود لو يقتلهم جميعا) ، وهم يبرزون تذاكرهم أثناء اجتيازهم المعبر . هل يلقى تذكرة زائفة ؟ سخف !

ووزنته بعوضة ، فهشها ، وحينئذ لمس وجنته : لقد بدأت لحيته تنبت . وقرر أن يذهب للحلاقة دون أن يبتعد عن السفينة ، وكأن اعتناء المرء بزيئته مما ييسر أمر الرحيل . وهناك وراء مخازن البضائع ، بين الحانات الأمريكية وحوانيت العاديات ، ملح حانوت حلاق صيني . وكان صاحب المحل يملك مقهى زريا أيضا ، ولم يكن يفصل بين تجارتيه سوى حصيرة مشدودة . وجلس كلابيك - منتظرا دوره - الى جانب الحصير ، وواصل مراقبة سلم الباخرة . وعلى الجانب الآخر ، كان ثمة أشخاص يتحدثون : قال صوت رجل : « هذا هو الثالث . »

ـ « أجابه صوت امرأة : « لن يأخذنا أحد ومعنا الطفل . ماذا نر حاولنا الذهاب الى أحد الفنادق الفخمة ، فربما ؟ ... »

ـ « بهذه الثياب التي نرتديها ؟ ان البواب ذا الشرطة سيطردها قبل أن نلمس الباب . »

ـ « للأطفال الحق في البكاء هناك أيضا .. فلنحاول مرة أخرى في أى مكان آخر . »

ـ « منذ أن يرى أصحاب الفنادق الطفل ، فانهم سيرفضون . وليست هناك سوى الفنادق الصينية التي يمكن أن تقبل ، غير أن الطفل سيمرض بسبب طعامهم القذر . »

ـ « لو أننا استطعنا أن نهرب الطفل ، في أحد الفنادق الأوروبية الفقيرة ، فربما لم يجرؤوا على القاءنا الى الخارج ، ما دما قد أقمنا فعلا . ومهما يكن من أمر ، فاننا نكون قد كسبنا ليلة . وعليها أن نلف الطفل حتى يعتقدوا أنه حزمة من الثياب . »

ـ « الثياب لا تصرخ . »

ـ « لن يصرخ و (الهزاة) في فمه . »

ـ « ربما ... سأدبر الأمر مع الرجل ، على أن تلحق بى فيما بعد . لن تمكثى هكذا أكثر من دقيقة أمامه . »

وساد الصمت . ونظر كلاييك الى الصقالة .. وتناهى الى سمعه خفيف أوراق .

ـ « انك لا تستطيع أن تتصور كم يحز في نفسى . أن أحمله على هذا النحو .. وانى لأشعر أن ذلك سيكون فألا سيئا طيلة حياته ... وأخشى أن يؤذيه ... »

وعاد الصمت من جديد . أتراهما قد رحلا ؟ وترك الزبون مقعده .. وأشار الحلاق الى كلاييك ، الذى استقر فى ذلك المقعد دون أن تتحول عينه عن الباخرة .. وكان السلم خاليا فى هذه اللحظة ، ولكن ما كاد وجه كلاييك يغطى بالصابون حتى صعد بحار ، وقد أمسك بيديه دلوين جديدين

(لعله قد اشتراها لتوه) ووضع مكنسة على كتفه • وتابعه كلابيك بنظراته خطوة خطوة : وود لو كان كلبا على شرط أن يصعد الكلب هذا السلم وأن يرحل • وصر البجار أمام الرجل الواقف على « الصقالة » دون أن يقول شيئا •

ودفع كلابيك أجر الحلاقة ، وهو يرمى بقطع النقود على الحوض ، ونزع المناشف التي وضعها حول رقبتة ، وخرج ، ممتلئ الوجه بالصابون • كان يعرف أين يجد بائعي النياب القديمة • • وخلق الناس فيه ، فعاد على أعقابهم بعد عشر خطوات ، وغسل وجهه ، ومضى من جديد •

ووجد - دون عناء - حلة بجار زرقاء عند أول بائع التقى به • وبلغ فندقه بأسرع ما يستطيع ، وأبدل ثيابه • • تلزمني أيضا مكانس أو أى شيء من هذا القبيل • هل اشترى من الخدم مكانس قديمة ؟ سخف : فلماذا يتنزه بجار بمكانسه قلى البر ؟ لكى يتنفس هواء أجمل ؟ هذه بلاهة تامة • انه اذا كن قد اجتاز الصقالة بمكانسه فذلك لأنه ابتاعها من البر • • • اذن فلا بد أن تكون المكانس جديدة • • • فعلينا بشرائها • •

ودخل دكانا بطريقته « الكلابيكية » المعتادة • • وازاء نظرة الاحتقار التى رشقه بها البائع الانجليزى هتف قائلا : « فى أحضانى ! » ووضع المكنسة على كتفه ، واستدار ، فأسقط مصباحا من النحاس ، وخرج •

وكانت هذه العبارة « فى أحضانى ! » تعبر عما يشعر به على الرغم مما فيها من مبالغة مقصودة : فقد كان حتى هذه اللحظة يمثل ملهاة يسودها القلق ، اراحة لضميره وبدافع من الخوف ، ولكن دون أن يفلت من الفكرة التى لا يستطيع الاعتراف بها لنفسه وهى أنه قد يفشل ، غير أن ازدراء البائع - على الرغم من أن كلابيك متناسيا جلته ، لم يكن ليتخذ هيئة البجار - أثبت أنه يستطيع النجاح • واتجه صوب الباخرة ، والمكنسة فوق كتفه ، متطلعا فى سيره الى العيون جميعا لكى يجد فيها تأكيدا لمهنته الجديدة • وعاوده مرة أخرى ذلك الدهول الذى أحس به حين كان يقف أمام الصقالة • • ذهول لاحتساسه بأن مصيره أمر لا يحفل به الآخرون ، وبأنه لا وجود له الا بالنسبة الى نفسه : فلقد كان المسافرين يصعدون منذ لحظة دون أن يلتفتوا

الى هذا الرجل الواقف على الرصيف ، ربما ليلقى هناك مصرعه ، والآن ينظر السابلة بلا اكتراث لهذا البحار ؛ وام يبرز من هذا الحشد شخص مندهش . أو شخص يتعرف عليه ، بل ما من وجه ظهر عليه شيء من الفضول . . . ولم يكن الأمر أن حياة زائفة يمكن أن تدهشه ، ولكنها فرضت عليه هذه المرة فرضاً ، وربما توقفت عليها حياته الحقيقية . وأحس بالظماً . فتوقف عند مشرب صيني ، ووضع مكانسه على الأرض . وما أن شرب ، حتى أدرك أنه لم يكن ظمآن على الاطلاق ، بل كان يلتبس اختباراً آخر . وكانت الطريقة التي ناوله بها صاحب المشرب باقى نقوده كافية لكى يعلم ذلك . فمئذ أن أبدل ثيابه ، تبدل العالم من حوله . وأخذ يبحث فيم تغير العالم : انها النظرات التي لم تعد كما كانت . لقد أصبح جليسه العادى المتلقى لجنونه بالكذب جهورا من الناس .

وفى الوقت نفسه - سواء أكان الأمر متعلقا بغريزة الدفاع أو باللذة - فقد غمره هو نفسه ذلك القبول العام لشخصيته الجديدة . والتقى على حين غرة ، ومصادفة ، بأروع نجاح فى حياته . . . كلا . . . ان الناس لا وجود لهم ، ما دام يكفى المرء ثوب لكى يهرب من نفسه . ولكى يجد حياة أخرى فى عيون الآخرين . وقد كان هذا - من حيث العمق - هو الغربة عينها ، والسعادة عينها اللتين فاز بهما حين اختلط لأول مرة بالجمهور الصينى . « ومع ذلك يقولون بالفرنسية (صنعت قصة) faire une histoire بمعنى كتبها ، لا بمعنى عشتها ! » وتسلق المعبرة - حاملا مكانسه كأنها البنادق ، ومر - وقد لانت ساقاه - أمام الرجل الواقف عند « الصقالة » ، حتى وجد نفسه على سطح السفينة . ومضى الى الأمام بين الركاب ، ووضع مكانسه على لفة من الحبال . لم يكن ثمة ما يخاطر به الآن قبل أول مرسى ، ومع ذلك فقد كان أبعد ما يكون عن الاطمئنان . واقترب منه أحد الركاب ، وكان روسيا تشبه رأسه شكل حبة الفول ، وقال له :

« هل أنت من بحارة السفينة ؟ »

ودون أن ينتظر جوابا استطرد قائلاً :

« هل الحياة ممتعة على ظهر السفينة ؟ »

« أما عن هذا ، فليست لديك أية فكرة ، يا صديقى ، ان الفرنسى

يجب الترحال ، هذه حقيقة : فلا تتفوه بكلمة • الضباط أنذال ، غير أنهم ليسوا أكثر ندالة من أصحاب الأعمال ، والمرء لا ينام نوما مريحا (أنا لأحب السراير المعلقة : مسألة ذوق) ، ولكننا نأكل جيدا ، كما أن المرء يرى أشياء كثيرة • حينما كنت فى أمريكا الجنوبية كان المبشرون يلقنون الهمجيين عن ظهر قلب خلال أيام وأيام ، ترانيم صغيرة باللغة اللاتينية • فاذا وصل الأسقف ، بدأ المبشر فى قيادة الفرقة : ويسود الصمت ، والهمجيون يشابهون الاحترام • ولكن • لا تتفوه بكلمة ! لقد جاءت الترنيمة من تلقاء نفسها : فان ببغاوات الغابة - يا صديقى - الذين لم يسمعوها غيرها ، ينشدونها فى خشوع وتبجيل ، اننى التقيت مرة وسط البحر • فى جزر « سولاويسى » (باندونيسيا) منذ عشر سنوات بسفن عربية - قديمة هائلة ، منحوتة كغلاف جوزة الهند الخشبي وملآنة بأهوات أهلكتهم الطاعون ، وقد تدلت أذرعهم هكذا على طول السياج تحت سيل من النوارس • تماما • • • »

- « هذا من قبيل حسن الحظ • • فانا أسافر منذ سبعة أعوام ومع ذلك لم أشاهد شيئا كهذا • »

- « لابد من ادخال أساليب الفن فى الحياة يا صديقى • • لا لكى تنشئ فنا • كلا • • والله ، كلا ! ولكن للاستمتاع بالحياة • • لا تتفوه بكلمة ! » وربت على بطنه ، واستدار فى حذر ، فقد وقفت سيارة يعرفها عند أسفل السلم : انه فيرال يعود الى فرنسا •

وشرع صبى يجوب جناح الدرجة الأولى ، وهو يقرع جرس الرحيل • وكانت كل دقة من الجرس ترن فى داخل صدر كلابيك •

وهجس فى نفسه : « أوروبا • • لقد انتهى العيد • • والآن الى أوروبا • » وبدأ له كأن فرنسا ماثلة أمامه مع الجرس الذى أخذ يقترب منه ، لا بوصفه ايذانا بالخلاص ، بل بالسجن • ولولا خطر الموت الذى يتهدهده ، لنزل الى الشاطئ مرة أخرى •

وسأل الروسى : « هل مشرب الدرجة الثالثة مفتوح ؟ »

- « منذ ساعة • ويستطيع كل الناس أن يذهبوا اليه أن تبهر السفينة • »

— « هيا بنا لنسكر ... »

* *

الساعة السادسة

فى القاعة الكبيرة — التى كانت يوما ما فناء مدرسة — انتظر مائتا جريح شيوعى حتى يتم الاجهاز عليهم . وكان « كاتوف » الذى جاء ضمن الدفعة الأخيرة ، يتكئ على مرفقه ، وينظر حواليه . كان الجميع ممددين على الأرض، وقد جعل كثيرون منهم يثنون بطريقة منتظمة غير مألوفة ، وكان بعضهم يدخنون كما فعل أولئك الذين كانوا فى مركز الاسعاف ، بينما أخذت حلقات الدخان تتصاعد حتى السقف ، الذى قد شمله الظلام رغم النوافذ الأوروبية الواسعة ، التى أعمتها المساء والضباب فى الخارج . وكان هذا السقف يبدو عاليا جدا ، فرق هؤلاء الرجال الراقدين جميعا . ومع أن النهار لم يكن قد اختفى بعد ، فان الجو كان جوا ليلىا . وتساءل كاتوف : « أيرجع هذا الى الجروح ، أم لأننا نرقد جميعا كأننا فى محطة ؟ انها محطة ، وسنرحل منها الى لا مكان .. هذا كل ما فى الأمر ... »

وكان أربعة من الحراس الصينيين يتجولون وسط الجرحى ، وقد ثبتوا الحراب فى بنادقهم ، وكانت حراهم تعكس بصورة غريبة ضوء ذلك النهار الواهن ، وقد بدت واضحة مستقيمة فوق جميع هذه الأجساد التى فقدت شكلها . وفى الخارج ، فى أعماق الضباب ، كانت الأضواء المصفرة — التى تنبعث من مصابيح الغاز بلا شك — تبدو هى أيضا ساهرة عليهم ، وكأنما صدر عنها (لأنه صدر كذلك من أعماق الضباب) صفير طغى على الهمسات والتأوهات : انه صفير قاطرة ، لقد كانوا على مقربة من محطة « شاپاي » . ثمة شىء فى هذه القاعة الواسعة متوتر توترا عنيفا ، لم يكن هو انتظار الموت . وعلم « كاتوف » علم ذلك من حلقه : انه العطش والجوع . وطفق ينظر — وقد أسند ظهره الى الجدار — من اليسار لليمين : كثير من الوجوه المعروفة ، اذ كان عدد كبير من الجرحى محاربين فى « التشون » « tchoons » وعلى طول جانب من الجوانب الضيقة فى القاعة ، كان مكان خال — طوله ثلاثة أمتار — محجوزا . فسأل بصوت مرتفع : « لماذا يبقى الجرحى مكდسين

بعضهم فوق بعض بدلا من أن يتحركوا الى ذلك المكان ؟ » وكان كاتوف ضمن
الدفعة التي جىء بها أخيرا ، واستند على الحائط ، محاولا النهوض ، وعلى
الرغم من أن جروحه كانت توجعه فقد خيل اليه أنه يستطيع أن يظل واقفا ،
ولكنه توقف ، وهو ما زال منحنيا : ودون أن يتفوه أحد بكلمة واحدة ،
احس حوله برعب شديد جعله يجمد فى مكانه . أكان ذلك الرعب فى
النظرات ؟ انه لا يكاد يتبينها . أكان فى الأوضاع لقد كانوا جميعا فى أوضاع
الجرحى الذين يتعذبون لحسابهم الخاص . ومع ذلك ، وأيا كانت الطريقة
التي انتقل بها ، فقد كان الرعب ماثلا هناك - لم يكن خوفا بل فزعاً .
فزع الحيوان . فزع الانسان المنفرد ازاء ما ليس انسانيا . ودون أن ينقطع
عن الاستناد الى الجدار ، تخطى كاتوف جسده جاره .

وتسأل صوت منبعث من الأرض : « هل أنت مجنون ؟ »

- « لماذا ؟ »

سؤال وأمر فى آن معا . ولكن ما من مجيب . وبدلا من أن يلقيه أحد
الحراس - ركان على بعد خمسة أمتار منه - على الأرض ، نظر اليه فى
ذهول .

وسأل من جديد فى عنف أشد : « لماذا ؟ »

فقال صوت آخر منبعثا من الأرض دائما : « انه لا يعرف » وفى الوقت
نفسه ، قال صوت آخر أشد انخفاضا : « سيعرف فى الوقت المناسب . »

وكان قد ألقى سؤاله الثانى بصوت مرتفع جدا . وكان تردد هذا
الحشد ينطوى فى ذاته على شيء رهيب ، ولأن جميع هؤلاء الرجال تقريبا
يعرفونه : لقد كان الخطر المعلق على هذا الحائط يجثم على الجميع ، وبالأخص
عليه هو .

قال أحد الجرحى : « عد الى الرقاد . »

لماذا لا يناديه أى واحد منهم باسمه ؟ ولماذا لا يتدخل الحارس ؟ لقد رآه
وهو يعيد الى الأرض بكعب بندقيته منذ لحظة جزيحا كان يريد تغيير
مكانه واقترب من محدته الأخير ، واستلقى الى جواره فقال الرجل بصوت
منخفض : « انهم يضعون هناك أولئك الذين سيعذبونهم . »

وفهم كاتوف ، الجميع يعرفون ، ولكنهم لا يجرؤون على قول ما يعرفون سواء أكانوا يخافون من الكلام ، أم لأن ما من واحد فيهم يجرؤ على التحدث بذلك اليه . فقد قال صوت : « سيأتى ذلك فى الوقت المناسب . . . »

وفتح الباب . . . ودخل جنديان يحملان مصباحين يحيطان بنقلات تدحرج الجرحى كاللفافات ، بالقرب من كاتوف . وجاء الليل ، صاعدا من الأرض حيث تتقاطع التأوهات كالجرذان الجارية ، ممتزجة برائحة بشعة : فقد كانت الغالبية العظمى من الرجال لا تستطيع الحركة . . وأغلق الباب من جديد .

ومضى الوقت . . لاشئ سوى خطوات الحراس ، ولمعة الحراب الأخيرة فوق آلاف صرخات الألم . وفجأة ، وكأنما جعلت الظلمة الضباب أشد كثافة ، تردد من بعيد جدا صفير القاطرة ، أشد انكثاما . وضغط أحد الواصلين الجدد - وكان منبجحا - بيديه على أذنيه ، وجأر ولم يصرخ الآخرون ، غير أن الرعب كان ماثلا هناك من جديد ، على سطح الأرض .

ورفع الرجل رأسه ، وانتصب على مرفقيه ، وصاح : « أوغاد ، قتلة ! »

وتقدم أحد الحراس ، فدحرجه بضربة من قدمه فى ضلوعه . فسكت . وابتعد الحارس . وشرع الجريح يجمعهم . وكان المكان قد اشتدت ظلمته الآن الى درجة لم يستطع معها كاتوف أن يميز نظرتة ، ولكنه كان يسمع صوته ، وأحس أنه سيتكلم كلاما واضحا فى الحال . وأوقع أنه لم يلبث أن قال : « . . انهم لا يطلقون بنادقهم على الأسرى ، ولكنهم يلقون بهم أحياء فى رجل القاطرة . . والآن . . ها هم يصفرون . . » وعاد الحارس ، فساد الصمت ، ولم تنبعث الا أصوات الألم .

وفتح الباب من جديد . . حراب أخرى ، مضاءة الآن من أسفل الى أعلى بضوء المصابيح . . ولكن . . دون أن يجلبوا أية جرحى هذه المرة . ودخل ضابط من ضباط الكومنتانج بمفرده . ومع أن كاتوف لم يعد يرى سوى كتلة الأجسام ، الا أنه أحس أن كل رجل قد تخشب . وهناك ، وقف الضابط . . بلا حجم . . مجرد شبح لا يكاد يجلوه ضوء المصابيح على خلفية المساء ، وقف ليلقي أوامره على أحد الحراس . . واقترب هذا الأخير باحثا عن

كاتوف ، فلم يلبث أن عشر عليه • ودون أن يلمسه ، ودون أن يتفوه بشيء ،
أوما إليه فقط - باحترام - أن ينهض • فاستطاع النهوض في مشقة ، وقد
أدار وجهه الى الباب ، هناك حيث استمر الضابط في القاء أوامره ، بينما
وقف الجندي الى يساره ممسكا بالبندقية باحدى ذراعيه ، والمصباح بالذراع
الأخرى • وعلى يمينه ، لم يكن غير الفراغ الشاغر والجدار الأبيض • وأشار
الجندي الى الفراغ ببندقيته ، فابتسم كاتوف في مرارة ، وفي كبرياء
يائسة • غير أن احدا لم يكن يرى وجهه : أما الحارس فقد تعمد ألا ينظر
إليه ، بينما استند كل جريح من أولئك الجرحى الذين لا يحتضرون على ساق
أو ذراع ، أو ذقن ، ليتابعوا بنظراتهم شبحه الذي لم يكن حالك السواد ،
والذي أخذ يكبر على حائط المعذبين •

وخرج الضابط ، بينما ظل الباب مفتوحا •

وأدى الحراس تحييتهم بالسلاح : فقد دخل أحد المدنيين ، ومن الخارج
صاح صوت « قسم ا » لم يلبث أن أقفل الباب على أثره • واصطحب أحد
الحراس الرجل المدني نحو الحائط دون أن يكف عن الدمعة ، وتعرف
كاتوف الذي كان قريبا جدا • • تعرف - مذهولا - على كيو • ولما لم يكن
كيو جريحا ، فقد ظن الحراس الذين شاهدوه بين ضابطين ، أنه أحد
مستشاري تشانج - كاي - شيك الأجانب ، وحين أدركوا الآن خطأهم ،
أخذوا يسبونهم من بعيد • وردد « كيو » في الظل الى جانب كاتوف •

وسأله كاتوف : « هل تعرف ما ينتظرنا ؟ »

- « لقد حرصوا على اخطاري • • ولكنني لا أبالي : ان لدى السيانور • •
أعمك أنت أيضا ؟ »

- « أجل • • »

- « أأنت جريح ؟ »

- « في الساقين • • • ولكنني أستطيع أن أمشي • »

- « أكنت هنا منذ زمن طويل ؟ »

- « كلا • • متى اعتقلوك ؟ »

ـ « مساء أمس .. أما من طريقة للهرب ، من هنا ؟ »

ـ « ما من سبيل .. ان الجميع تقريبا مصابون بجراح خطيرة .. وفي الخارج ، جنود فى كل مكان .. ألم تر المدافع الرشاشة أمام الباب ؟ »

ـ « بلى ـ أين اعتقلوك ؟ »

وكان الاثنان فى حاجة الى الهرب من هذه السهرة الجنائزية ، وفى حاجة الى أن يتكلما .. ويتكلما . أما كاتوف فقد أخذ يتحدث عن الاستيلاء على مركز الاسعاف وأما كيو ، فقد جعل يتحدث عن السجن ، وعن مقابلاته مع كونيچ ، وعما عرفه منذ ذلك الحين ، قبل أن يدخل السجن المؤقت ، وكان قد علم أن « ماى » لم تعتقل .

كان كاتوف راقدًا على جنبه ، على مقربة منه ، يفصله عنه كل ما يعاينيه من ألم : فم منفرج وشفتان متضخمتان تحت أنفه المرح ، وعينان شبيهة بمغمضتين .. ولكنه كان مرتبطًا بهذا الرجل ، تصله به تلك الصداقة المطلقة، الخالية من التحفظات والريبة ، التى لا يمنحها سوى الموت : وهذه الحياة التى قدر عليها الموت ، وقد حطت الى جوار حياته فى ذلك الظل المسلى بالتهديدات والجروح ، وسط هؤلاء الاخوة جميعا من متسولى الثورة : ان كل واحد من هؤلاء الرجال قد فطن فى غيظ فطنة عابرة الى العظمة الوحيدة التى يمكن أن تكون له وحده .

واقتراد الحراس ثلاثة من الصينيين ، ووضعوا منفصلين عن حشد الجرحى، وعن الرجال الراقدين على طول الجدار أيضا . وكان قد تم اعتقالهم قبل القتال ، وحوكموا محاكمة غامضة ، وهم ينتظرون الآن الاعدام رميا بالرصاص . ونادى أحدهم : « كاتوف ! »

وكان « لو ـ يو ـ شوين » شريك همليش .

ـ « ماذا ؟ »

ـ « هل تعرف اذا كان الرمي بالرصاص يجرى على مقربة من هذا المكان ، أم بعيدا عنه ؟ »

ـ « لا أدري . اننا لا نسمع شيئا .. على أية حال . »

وقال صوت أبعد قليلا :

« يبدو أن الجلاذ ، سينتزع - بعد تنفيذ الحكم - أسنانك الذهبية »
فقال صوت آخر :

« لا أبالي ، لأننى لا أملك أسنانا ذهبية . »

وكان الصينيون الثلاثة يدخنون السجاير ، نفسا وراء الآخر ، فى عناد .
وسألهم أحد الجرحى ، وكان أبعد قليلا : « أليكم عدد من علب
الكبريت ؟ »

« أجل . »

« أرسلوا الى واحدة . »

وأرسل اليه « او » علبته .

وقال بصوت هامس : « أود أن يتمكن أحدكم من ابلاغ ابنى أننى قد
استقبلت الموت بشجاعة » وأضاف بصوت أشد همسا : « ليس من اليسير
على المرء أن يموت . »

واكتشف « كاتوف » فى نفسه سرورا مكتوما : فطيسى لديه زوجة أو
أطفال .

وفتح الباب .

وصاح الحارس : « أرسل الى واحدا ! »

وتلاصق الرجال الثلاثة واحدا بجوار الآخر ،

قال الحارس : « ما بالكم ؟ .. احزموا أمركم ... »

ولم يجرؤ على الاختيار . وفجأة تقدم أحد الصينيين المجهولين خطوة الى
الأمام ، وألقى سيجارته التى لم تكند تشتعل ، وأشعل أخرى بعد أن حطم
عودين من الثقاب ، ومضى نحو الباب حثيث الخطى وهو يزدرد أضرار سترته
واحدا وراء الآخر . وأغلق الباب من جديد .

وجمع أحد الجرحى أعواد الثقاب المعطمة ، وكان هو وجيرانه قد كسروا

العلبة التي أعطاها لهم « لو - يو - شوين » قطعا صغيرة ، وأخذوا يلعبون بها « السيجة » وبعد أقل من خمس دقائق ، فتح الباب مرة أخرى :

— « واحد آخر ! »

وتقدم « لو » ورفيقه معا ، وقد أمسك كل منهما بذراع صاحبه • وأخذ « لو » يتلو بصوت مرتفع لا طابع له ، مشهد موت البطل من مسرحية شهيرة ، غير أن المجتمع الصينى القديم كان قد انهار تماما ، فلم يستمع اليه أحد • وسأل الجندى : « أيكما ؟ »

فلم يجب أحد •

— « هيا •• لا مفر من الكلام •• أليس كذلك ؟ »

وفرقهم بضربة من بندقيته : وكان « لو » أقرب اليه من الآخر : فأمسكه من كتفه •

وخلص « لو » كتفه من قبضة الجندى ، وتقدم • أما رفيقه فعاد الى مكانه ، ورقد •

وأحس كيو كم سيكون الموت أصعب بالنسبة لهذا الرجل ممن سبقاه : فلقد أصبح من دونهما الآن وحيدا • وانه لفى مثل شجاعة « لو » ما دام قد تقدم معه • غير أن طريقته التى يرقد بها الآن على الأرض ، ككلب الصيد القابع ، وقد أحاطت ذراعاها بجسمه ، كانت تفصح عن خوفه • والواقع ، أنه أصيب بنوبة عصبية ، حين لمسه الحارس • وأمسك به جنديان : أمسك أحدهما قدميه ، وأمسك الآخر رأسه وحمله •

أغمض كيو عينيه ، بعد أن رقد على ظهره ، واضعا يديه على صدره : كان هذا هو الوضع الذى يتخذه الموتى تماما • وتخيل نفسه فى هذا الوضع ، ممددا بلا حراك ، مغمض العينين ، تعلو وجهه تلك الطمأنينة التى يهبها الموت لمدة يوم واحد للجثث كلها تقريبا • وكأنما يجب التعبير عن كرامة أبأس الناس • لقد شاهد أشخاصا كثيرين يحتضرون ، واعتقد دائما — تساعده فى ذلك تربيته اليابانية — أنه من الجميل أن يموت المرء « ميتته » الخاصة ، أي موتا يشابه الحياة التى عاشها • وكان يعتقد أيضا أن الموت شيء سلبى ،

أما الانتحار ففعل ايجابي • وحين يأتون للبحث عن أول واحد فيهم ، فسوف يقتل نفسه في وعى تام • وتذكر - وقد توفى قلبه عن الخفقان - اسطوانات الحاكى • • كان زمانا يحتفظ فيه الأمل بمعناه ! لن يعود لرؤية « ماى » وكان الأثم الوحيد الذى يمس أعماق نفسه هو ألها ، وكان موته اذئاب • وخطر له : « هذا هو ندم الموت » فى سخريه مقبضة • ولم يكن يشعر بشيء من هذا تجاه أبيه الذى كان يبدو له دائما فى مظهر القوة ، لا فى مظهر الضعف • وكانت « ماى » قد خلصته منذ عام من كل شعور بالعزلة ، وان لم تخلصه تماما من كل شعور بالمرارة • وما كاد يفكر فيها حتى انبثق فى نفسه ذلك الشعور الغامر بالهرب فى الحنان الذى يحدثه اندماج الأجساد لأول مرة ، هذا فى الوقت الذى انفصل فيه تماما عن الأحياء • • ينبغى الآن أن تنساني • • ولو كتب ذلك اليها لما زادها الا عذابا وتعلقا به • وكأننى أقول لها أن تحب شخصا آخر • يا للسجن من مكان يتوقف فيه الزمن ، بينما يستمر فى كل مكان آخر • • • • • كلا ! انما فى فناء السجن هذا الذى تفصله المدافع الرشاشة عن بغية العالم • • فى هذا المكان ، على الثورة - أيا كان مصيرها ، وأيا كان المكان الذى ستبحث منه - أن تتلقى الضربة القاضية ، وفى كل مكان ، يكدح الناس فيه : فى الألم ، وفى الباطل ، وفى المذلة ، تتجه الافكار الى قوم حكم عليهم بالاعدام شبيهين بهؤلاء ، كما يصلى المؤمنون ، وفى المدينة ، بدأ الناس يحبون هؤلاء الذين قدر عليهم الموت ، وكأنهم ماتوا فعلا • • • • • ومن بين كل الأماكن التى غطتها هذه الليلة الأخيرة من الأرض ، كان مكان الحشرجات هذا هو أشد الأماكن ثقلا بما يحمله من حب رجولى ، بلا أدنى ريب • عليك بالأنين مع هذا الحشد الراقد ، وبالانضمام الى هذا الألم المبدول - الى أقصى همس شكواه ! وأشاعت ضجة غير مسموعة همس الألم هذا حتى أعماق الليل : لقد كان لهؤلاء الرجال جميعا أطفال شأنهم فى ذلك شأن همليش ، ومع ذلك ، فان المصير المحتوم الذى تقبلوه قد تصاعد مع طنين الجرحى الصادر عنهم ، كما تصعد الطمأنينة فى المساء ، حتى غمر كيو وهو مغمض العينين ، وقد شبك يديه فوق جسده المهجور ، فى جلال النشيد الجنائزى • هكذا يكون قد قاتل فى سبيل ما يحمل فى عصره أقوى المعانى ، وأعظم الآمال ، وما هو يموت وسط هؤلاء الذين ود أن يعيش بينهم ، انه يموت - كأي واحد من أولئك الرجال الراقدين - لأنه أعطى معنى لحياته • وما قيمة حياة لا يقبل المرء أن يموت فى سبيلها ؟ ومن السهل أن

يموت الانسان ، حين لا يموت وعيدا . انه موت مشبع بهذه الرجفة الأخوية بهذا الجمع من المهزومين الذين ستعترف بهم الجماهير على أنهم شهداؤها ، أسطورة دامية ستتألف منها أساطير ذهبية ! كيف يمكن ألا يسمع - والموت مطل عليه فعلا - هذه الهمسة من التضحية الانسانية التي تهيب به قائلة ان قلب الانسان الباسل ملاذ للموتى لا يقل قدرا عن الروح ؟ انه يمسك الآن بالنسيانور في يده . وكم تصائل مرارا : أيموت فى سر ؟ وكان يعلم أنه لو قرر أن يقتل نفسه ، فسيقتل نفسه ؛ ولكن ، لما كان يعرف عدم المبالاة الضارفة التي بها تسيطر لنا الحياة القناع عن أنفسنا ، فانه لم يكن بلا قلق بشعاع اللحظة التي سيسحق فيها الموت فكره بكل ثقله ، دون رجعة .

كلا ، ان الموت يمكن أن يكون فعلا مجيدا ، والتعبير الأسمى عن حياة ما أشبه هذا الموت بها ؛ كما أنه يعنى أيضا الافلات من هذين الجنديين اللذين يقتربان منه فى تردد . وحطم قطعة السم بين أسنانه ، كما لو كان أمر بذلك ، وسمع « كاتوف » يسأله فى قلق ، ويلمسه ، وفى اللحظة التي أراد فيها أن يتشبث به ، وقد تقطعت أنفاسه ، أحس أن قواه جميعا تتجاوزته وتتفسخ بعيدا عنه قبل أن يستولى عليه تشنج جبار .

وأقبل الجنود يبحثون بين الحشد عن سجينين لا يستطيعان النهوض . ولم يكن من شك فى أن احراق المرء حيا يمنحه حقا فى تشريفات خاصة ، وان تكن محدودة : فقد حملا على نقالة واحدة ، هذا فوق ذاك ، أو يكاد يكون فوقه ، ثم ألقيا على يسار كاتوف ، وكان الى يمينه يرقد « كيو » بعد أن فارقتة الحياة . وفى المكان الخالى الذى يفصل هؤلاء الرجال عن الذين لم يحكم عليهم الا بالموت ، ألقى الجنود على مقربة من مصباحهم . وغاصت الرؤوس والنظرات رويدا رويدا فى الظلام ، بحيث لم تكن تعود الا نادرا الى هذا الضوء الذى كان يدل فى مؤخرة القاعة ، على مكان الماثلين للاعدام .

وأحس كاتوف منذ أن مات كيو - الذى ظل يحتضر دقيقة على أقل تقدير - أنه قد رد الى عزلة زاد من شدتها وإيلامها أنه كان فى كنف من رجاله . وكانت صورة الصينى الذى لزم أن يحملوه ليقتلوه ، - وقد عصفت به نوبة عصبية - تسيطر عليه . ومع ذلك ، فقد كان يجد فى هذا التسليم

الثام احساسا بالراحة ، وكأنه كان ينتظر هذا منذ سنوات ؛ راحة يلقاها مصادفة ، ويعثر عليها من جديد ، فى اللحظات الفاجعة من حياته . ترى أين قرأ هذه العبارة : « ليست كشوف المكتشفين بل آلامهم هى التى أحسدهم عليها ، وهى التى تجتذبني . . . » وترامى الصغير البعيد الى القاعة للمرة الثالثة ، وكأنما ليحيب على خاطره . ووثب جازاه الراقدان على يساره . . . وكانا صينيين فى ميعه الصبا : أحدهما سوين الذى لا يعرفه الا لأنه قاتل معه فى مركز الاسعاف : أما الثانى ، فلم يكن يعرفه (لم يكن بى) لماذا لم يكونا مع الآخرين !

وسأل : « تنظيم جماعات القتال ؟ »

فاجاب سوين : « محاولة اغتيال تشانج - كاي - شيك . »

- « مع تشن ؟ »

- « كلا . . . لقد أراد أن يلقي القنبلة بمفرده . ولم يكن تشانج فى السيارة . أما أنا فكنت أنتظر السيارة فى مكان أبعد . وقد القوا القبض على ، ومعى القنبلة . »

وكان الصوت الذى أجابه مخنقاً ، مما دعا كاتوف الى أن يتفرس بانتباه فى الوجهين : كان الشابان يبكيان ، دون أن تصدر عنهما زفرة . وجال فى ضمير كاتوف : « لا جدوى من الكلمات . » وأراد سوين أن يحرك كتفه ، ولكن وجهه تقلص من الألم ، فقد كان جريحا فى ذراعه أيضا .

قال : « سألحرق . . . سألحرق حيا . . . والعينان أيضا ، العينان ، أتفهم ؟ »

وهنا كان رفيقه ينتحيم .

قال كاتوف : « من الممكن أن يكون ذلك بحادثة . »

وكان يبدو أنهما لا يتحادثان معاً ، بل كأنهما يخاطبان شخصا ثالثاً غير مرئى .

- « ليس الأمر سواء . »

- « كلا . . . فهذا أقل روعة . »

وردد سوين بصوت أشد انخفاضا : « العينان أيضا .. العينان أيضا ..
وكل أصبع من الأصابع .. والبطن ، البطن »

قال الآخر بصوت أصم : « اسكت ! »

وكان يريد أن يصرخ ، ولكن لم يعد فى استطاعته أن يفعل ذلك ،
وتصلبت يده على مقربة من جروح سوين الذى تقلصت عضلاته .

وتمتم كاتوف : « الكرامة الانسانية » وقد عادت الى خاطره المقابلة التى
تمت بين كيو وكونييج . وكف كل من المائلين للاعدام عن الكلام . وفيما وراء
شعلة المصباح ، فى الظلمة التى أظلمت الآن تماما ، لم تنقطع جلبة الجروح
— وازداد اقترابا من سوين ورفيقه ، وكان أحد الحراس يروى قصة
لزملائه : فكانوا برؤوسهم المجتمعة يحولون بين المصباح والمائلين للاعدام
الذين لم يعد من الممكن أن يرى بعضهم بعضا . وعلى الرغم من الجلبة ، وعلى
الرغم من كل أولئك الرجال الذين قاتلوا مثله ، كان كاتوف وحيدا .. وحيدا
بين جثة صديقه الميت ، ورفيقه المدعورين .. وحيدا بين هذا الجدار ، وذاك
الصغير المتبدد فى الليل . بيد أن الانسان يستطيع أن يكون أقوى من هذه
الوحدة ، بل ربما استطاع أن يكون أقوى من هذا الصغير البشع : كان الخوف
فى نفسه يصرع ضد أفطع اغواء فى حياته . وفتح بدوره قفل حزامه .
وأخيرا قال بصوت منخفض جدا : « أنت ، يا من هناك .. سوين ، ضع
راحتك على صدري ، وخذه منى حين ألمسه : اننى أريد أن أعطيك ما عندي
من السيانور انه لا يكفى الا اثنين فقط . »

كان قد زهد فى كل شيء ، الا فى أن يقول ان السيانور يكفى لاثنين
فقط ، وحطم قطعة السيانور الى نصفين ، وهو راقد على جنبه . وحجب
الحراس الضوء الذين كانت تحيط بهم هالته المضطربة ، ولكن ، ألن
يتحركوا ؟ من المحال أن يرى المرء شيئا ، وكان كاتوف يقدم هذه الهبة التى
هى أثنى من حياته لتلك اليد الدافئة التى استقرت عليه ، لا الى أجسام ،
ولا الى أصوات . وتقلصت كأنها حيوان ، وانفصلت عنه على الفور . وانتظر ،
وقد توتر جسده كله .. وفجأة ، سمع أحد الصوتين :

— « لقد ضاعت .. سقطت . »

ولم تكد الالهة تغير شيئا من هذا الصوت ، وكأن هذه الكارثة الحاسمة الفاجعة ، لم تكن ممكنة ، وكان كل شيء كان يمكن علاجه . أما بالنسبة لكاتوف ، فقد كان الأمر محالا . . . وتساعد غضب لا حدود له داخل نفسه ، ولكنه لم يلبث أن هدا ، وقد تغلبت عليه هذه الاستحالة . ومع ذلك ! كيف يغطي « هذا » لكى يفقده هذه الأبله !

وسأل : « أين ؟ »

.. - « قبل جسدى . . لم أستطع أن أمسك به حين ناولنى اياه سوين : ان يدي جريحة أيضا . »

قال سوين : « لقد أسقط الجزءين . »

لاشك أنهم سيبحثون فى المكان الممتد بينهم . . وبحثوا بعد ذلك بين كاتوف وسوين . الذى كان يرقد عليه الآخر تقريبا ، اذ كان كاتوف يشعر دون ان يرى شيئا أن كتلة الجسدين قريبة منه . وأخذ يبحث هو أيضا ، جامدا فى التغلب على عصبيته ، وفى وضع يده منبسطة على الأرض من عشرة سنتيمترات . الى عشرة سنتيمترات ، وفى كل مكان يستطيع أن يبلغه . ومست أيديهما يده . وفجأة أمسكت بها احدهما ، وضغطت عليه ، واحتفظت بها .

وقال أحد الاصوات : « وحتى لو لم نجد شيئا . . . »

وضغط كاتوف هو أيضا على اليد ، وقد أوشك على البكاء ، متأثرا بهذه الاخوة المسكينه التى لا وجه لها ، ولا صوت حقيقى لها تقريبا (فان أنواع التهامس جميعا متشابهة) وهى التى منحت له فى هذا الكلام نظير أعظم هبة قدمها فى حياته ، وربما قدمها عبثا . ومع أن سوين واصل بحثه ، فان اليدين ظلتا متحدتين . وتحول الضغط فجأة الى تشبث :

- « ها هى ذى . »

يا للعبث ! . . ولكن ! سأل الآخر :

- « هل انت متأكد من أنها ليست حصاة ؟ »

لقد كان على الأرض قطع كثيرة من الجص .

قال كاتوف : « اعطينيها ! »

وبأطراف أصابعه ، تعرف على شكليهما .

وناوله اياهما - ردهما اليه - وضغط بقوة أشد على اليد التي كانت تبحث من جديد عن يده ، وانتظر ، وقد ارتجفت كتفاه ، واصطكت أسنانه ، وخطر له : « حبذا لو أن السيانون لم يتحلل على الرغم من الورقة المفضضة ! » وفجأة لوت اليد التي يمسك بها يده ، فكأنه قد اتصل خلالها بالجسم الغائب في الظلام ، وأحس أن هذا الجسم متوتر . وتاق الى مثل هذا الاختناق التشنجي . وفي نفس هذه اللحظة تقريبا ، انطلقت من الآخر صرخة مكتومة لم يلحظها أحد . . ثم ، لا شيء .

وأحس كاتوف أنه مهجور . فانبطح على بطنه ، وانتظر . . دون أن تنقطع الرجفة التي أصابت كتفيه .

وفي منتصف الليل ، عاد الضابط . وبين صليل الأسلحة المتصادمة ، اقترب ستة جنود من المحكوم عليهم بالاعدام . لقد استيقظ المعتقلون جميعا . ولم يظهر المصباح الجديد بدوره غير صور طويلة مختلطة - قبور في الأرض المقلوبة فعلا - وومضات على بعض العيون . وكان كاتوف قد تمكن من النهوض . وأخذ الجندي الذي يقود هذه الكوكبة من الحرس ، بذراع كيو ، فأحس بتصلبها ، فأمسك بسوين على الفور ، وكان ذاك متصلبا أيضا . . . وانتشر اللغط من أول صفوف المعتقلين الى آخرها . . وأمسك قائد الكوكبة بقدم الأول ورفع ساقه ثم ساق الثاني ، ولكنهما سقطتا ، متصلبتين . فنادى الضابط الذي صنع مثل صنيعه . . وتضخمت الضجة بين صفوف المعتقلين ونظر الضابط الى كاتوف :

- « موتى ؟ »

لماذا يجيبه ؟

- « اعزلوا أقرب ستة من المساجين ! »

فأجاب كاتوف : « لا قائدة ، فأنا الذي أعطيتهما السيانون . »

وتردد الضابط ثم سأل أخيرا : « وأنت ؟ »

فأجاب كاتوف في سرور عميق : « لم يكن هناك الا ما يكفي لاثنتين . »

وخطر له : « سأتلقي الآن ضربة بكعب البندقية في وجهي » .

وتحول لغط المساجين الى صخب .

وقال الضابط : « هيا . فلنسر » ولم يضيف شيئا الى ذلك .

ولم ينس « كاتوف » أنه قد حكم عليه بالاعدام فعلا ، وأنه أبصر المدافع الرشاشة مصوبة نحوه ، وأنه استمع اليها حين أطلقت . . . ما أن أصبح في الخارج ، حتى أحاول ان أخنق واحدا منهم ، وسأترك يدي مطبقتين عليه حتى يضطروا الى قتلي . . وسيحرقونني ، ولكنني سأكون ميتا حينذاك . » وفي هذه اللحظة نفسها لف احد الجنود ذراعه حول جسم كاتوف ، بينما شد آخر يديه خلف ظهره ، وربطهما . وحدث نفسه قائلا : « ما أسعد حظ هذين الصغيرين ! هيا ! فلنفترض أنني مت أثناء اشتعال حريق ! » وشرع في المسير . وأطبق الصمت مرة أخرى كأنه فصح ، على الرغم من التأوهات . وسلطت شمعة المصباح - كما فعلت ذلك منذ لحظة على الجدار الأبيض - ظل كاتوف الذي أصبح الآن حالك السواد على النوافذ الكبيرة التي تطل على الليل ، وكان يعيش متثاقلا ، يقدم ساقا وراء أخرى ، تعوقه جروحه عن المسير ، وحين كان تمايله يقترب من المصباح ، كان طيف رأسه يتبدد في السقف . وكانت ظلمة القاعة كلها قد شاعت فيها الحياة ، وأخذت تتابعه بنظراتها خطوة خطوة . وساد السكون الى درجة أن الأرض كانت ترن كلما وطئتها قدمه ، وطفقت الرؤوس التي تهتز من أعلى الى أسفل ، تتابع ايقاع خطواته ، بشعور من الحب ، والذعر ، والاستسلام وكأن كل امرئ - رغم تشابه حركات الجميع - يكشف عن نفسه وهو يتتبع هذا الرحيل المترنح . وظل الجميع مرفوعي الرؤوس : وأغلق الباب من جديد .

وبدأت تصعد من الأرض جلبة من الأنفاس العميقة ، هي بعينها جلبة أنفاس النوم : لقد كان جميع أولئك الذين لم يموتوا بعد ، وهم لا يبدوون الآن حراكا ، وانما يتنفسون من أنوفهم ، وقد التصقت من القلق أفكاكهم ، ينتظرون الصغير .

اليوم التالي

ظل چيسور ينظر الى غليونه ، ما يزيد على خمس دقائق . وأمامه ، كان

المصباح موقدا « هذا لا يلزم المرء بشيء » وصندوق الأفيون الصغير مفتوحا ،
والابر ممسوحة • وفي الخارج ، كان الليل • وفي الحجرة ، كان ضربه
المصباح الصغير ، ومستطيل كبير من النور ، هو باب الحجرة المجاورة مفتوحا
حيث حملوا جثة كيو • وكان الفناء قد أخلى لآخرين ممن أعدموا ، ولم يكن
ثمة من يعترض على أن تؤخذ الجثث التي تلقى في الخارج • ولم يعثر أحد
على جثة كاتوف • وقد أحضرت « ماي » جثة كيو ، متخذة من الاحتياطات ،
ما تتخذه مع جريح شديد الإصابات • كان هناك ممدا • • ولم يكن رزينا-
كما كان كيو قبل أن ينتحر ، يعتقد أنه سيكون ، بل كان متشنجا بسبب
الاختناق ، شيئا آخر مختلفا عن الانسان • ومشطته ماي قبل زينته الجنازية ،
وهي تتحدث بفكرها الى الحضرة الأخيرة لهذا الوجه بكلمات الأمومة الهائلة ،
دون أن تجسر على النطق بها ، خوفا من أن تسمعها هي نفسها • وتمتعت
قائلة : « يا حبي » وكأنها تقول : « يا جسدي » اذ كانت تعرف جيدا أنه
ليس شيئا غريبا ، بل جزءا من ذات نفسها ، انتزع منها ، « يا حياتي • • »
وفطنت الى أنها تقول ذلك لميت ، بيد أنها كانت قد تجاوزت - منذ وقت
طويل - مرحلة الدموع • •

وراود جيسور هذا الخاطر : « كل ألم لا يساعد أحدا ألم لا معنى له • »
وكان في حالة من حالات الحذر وقد سحره مصباحه ، لائذا بذلك الافتتان •
« ان السلام هناك • • • السلام » ولكنه لم يكن يجروء على أن يمد يده • وكان
لا يؤمن بأي حياة بعد الموت ، كما لم يكن يضمم أى اجلال للموتى ، ومع ذلك
لم يجروء على أن يمد يده •

واقتربت منه ، وقد لان نغرها ، وغرق في هذا الوجه الغائب النظرة • •
ووضعت أصابعها في رفق على معصمه •

قالت بصوت قلق يوشك أن يكون همسا : « تعال • • يبدو لي أنه قد
استدفا قليلا • • • »

وبحث عن عيني هذا الوجه الانساني الذي اشتد به الألم ، دون أن
يسرکه الشرود قط • ونظرت اليه بلا ارتباك ، نظرة الأمل فيها أقل من
الضراعة ، ذلك أن آثار السم غير يقينية دائما ، وقد كانت طيبة • ونهض ،
ثم تبعها ، وهو ينود عن نفسه أملا بلغ من القوة بحيث خيل اليه أنه لو

استسلم له ، فانه لن يستطيع احتمال استرداده منه . وجس جبهة كيو التى عاتتها الزرقة ، وهذه الجبهة التى لن تحمل تجاعيد أبدا . . . كانت باردة ، برودة الموت التى لا لبس فيها . ولم يجرؤ على أن يسحب أصابعه ، وأن يلتقى بنظرة ماى ، فترك عينيه مشبتين على راحة كيو المفتوحة ، هناك بدأت بعض الخطوط تنمحي فعلا . .

قال : « كلا » عائدا الى حزنه العميق الذى لم يكن قد فارقه . ولاحظ انه لم يكن قد صدق ماى . وأجابته :

« وا حسرتاه ! » دون أن تضيف شيئا آخر .

ورأته ينصرف الى الحجرة المجاورة ، مترددا . فيم يفكر ؟ ما دام كيو هنا ، فان كل تفكير يجب أن يدور حوله . ان هذه الميتة كانت تتوقع منها شيئا ما ، اجابة تجهلها ، ولكنها مع ذلك موجودة . يا لحظ الآخرين الخسيس ، بصلواتهم ، وزهورهم الجنائزية ! اجابة تعدو القلق الذى ينتزع من يديها ضمات الأمومة التى لم يتلقاها أى طفل منها ، اجابة أعمق من هذا النداء الرهيب الذى يدفع به المرء الى محادثة الموتى بأرق صور الحياة . ان هذا الفم الذى قال لها بالأمس : « ظننت أنك ميتة » لن يتكلم بعد الآن أبدا ، وما كان ينبغى أن تدخل فى تواصل مع ما تبقى هنا من حياة بائسة . . مع جسد ، بل مع الموت نفسه . وظلت هناك ، بلا حراك ، تنتزع من ذكرياتها آلام احتضار عديدة سبق أن تأملها فى اذعان ، وقد سرت فى نفسها سلبية شاملة وهى ترحب فى وحشية بالعدم ترحيبا لا جدوى منه .

واستلقى « جيسور » من جديد على الأريكة . « ثم ينبغى أن أستيقظ فيما بعد . . . » الى متى سيحمل اليه كل نهار هذا الموت من جديد ؟ كان الغليون هناك : يمثل السلام . ما عليه الا أن يمد يده ، ليعد الكرة الصغيرة ، وسيفكر بعد ربع ساعة فى الموت نفسه بعدم اكتراث بسماحة لا حد لها ، كما يفكر فى مشلول يريد أن يوقع به الأذى . فلن يكون فى استطاعة الموت أن يبلغه ، وانما سيفقد كل سيطرة ، ينسل فى رفق نحو الطمأنينة التى تشمل الكون كله . كان التحرر هناك . . قريبا غاية القرب . ما من معونة يمكن أن تمنح للموتى . فلماذا نزداد عذابا ؟ وهل الألم قربان للحب ، أم للخوف ؟ . . غير أنه ظل لا يجرؤ على أن يلمس الصينية ، وراح القلق يعتصر

حلقة في نفس الوقت الذي اعتصرت فيه الرغبة والشهقات المكبوتة . وأمسك
اعتباطاً أول كتيب صادفه (لم يكن يمس أبداً كتب كيو ، ولكنه كان يعلم
أن كيو لن يقرأها) وكان عدداً من مجلة «سياسة بكين» قد سقطت عندما أحضروا
الجثة - وفي هذا العدد كان نص المحاضرة التي طرد چيسور بسببها من
الجامعة . وعلى الهامش ، وجد كتابة خطها كيو : « هذه المحاضرة هي محاضرة
أبي » . ولم يخبره كيو قط أنه كان يوافق عليها . وطوى چيسور المجلة في
رفق ، وتأمل أمله الميت .

١١١١١

وفتح الباب ، وقذف بالأفيون في الظلام ، ثم عاد إلى الجلوس ، خفيض
الكتفين ، منتظراً الفجر ، منتظراً أن يخفت صوت الألم نتيجة لاستنفاده في
الحوار الدائر بينه وبين نفسه ، ألمه . . وعلى الرغم من العذاب الذي فتح فمه ،
وأبدل قناعه الرزين بوجه ذاهل ، فإنه لم يفقد كل سيطرة على نفسه . وفي
هذه الليلة ، تغيرت حياته : فإن قوة الفكر ليست عظيمة حيال التغير الذي
يمكن أن يفرضه الموت على انسان ما . ولقد رد إلى نفسه من الآن فصاعداً . .
ولم يعد للعالم معنى ، بل لم يعد له وجود : سيكون بلا رجعة ، هناك ، إلى
جانب هذا الجسد الذي كان معقد الصلة بينه وبين الكون . . سيكون أشبه
بانتحار الآله . لم ينتظر من كيو نجاحاً أو سعادة ، ولكن ، ماذا يكون العالم
إذا خلا من كيو ؟ « لقد قذف بنى خارج الزمان » ، لقد كان الابن خضوعاً
للزمان ، لتدفق الأشياء ، ولقد كان چيسور بلاشك أملاً ، كما كان قلقاً :
أملاً في لاشيء . . . انتظارا . . . وكان ينبغي أن يتحطم حبه ، لكي يكتشف هذا .
ومع ذلك ، كان كل ما يحطمه يجد لديه ترحيباً نهماً ! « ثمة شيء جميل في
أن يموت الانسان » بهذا حدث نفسه . وأحس بالألم الجوهري يرتعش في
نفسه ، لا ذلك الألم الذي يأتي من الكائنات أو من الأشياء ، بل الألم الذي
ينبع من الانسان نفسه ، والذي تحاول الحياة أن تنتزعها منه ، وكان
يستطيع أن يتحاشاه . ولكن على شرط أن ينقطع عن التفكير فيه ، بيد أنه
كان يغوص فيه أكثر فأكثر ، وكأن هذا التأمل المدعور هو الصوت الوحيد
الذي كان يمكن أن يسمعه الموت ، كأن هذا الألم لكونه انساناً ، والذي ملأه
إلى أعماق فؤاده كان الخطاب الوحيد الخليقي بأن تسمعه جثة ابنه المقتول .

الجزء السابع

باريس ، يوليو

كان فيرال يروح بالصحيفة التي هوجم فيها الاتحاد أعنف هجوم ، حين وصل آخر الوافدين الى حجرة انتظار وزير المالية . وبين جماعات المنتظرين كان يجلس المدير المساعد للحركة العامة للأرصدة ، (كان شقيق فيرال قد مرض - بحكمة - في الأسبوع السابق) - ومندوب بنك فرنسا ، ومندوب البنك الرئيسي للشئون الفرنسية ، ومندوبى مؤسسات التسليف . وكان فيرال يعرفهم جميعا : فهذا ابن فلان وهذا صهر فلان ، وهؤلاء من الموظفين السابقين فى التفتيش المالى وفى الحركة العامة للأرصدة ، وكانت العلاقة بين الدولة والمؤسسات أوثق من ألا تدفع هذه المؤسسات الى الافادة من ارتباطها بموظفين يجدون لدى زملائهم القدامى ترحيبا مواتيا . ولاحظ فيرال دهشتهم: فقد كان من مقتضيات الحرف أن يصل قبلهم ، وحين لم يروه هناك ، ظنوا أنه لم يستدع للاجتماع . أما أن يسمح لنفسه بالحضور آخرهم ، فكان شيئا أدهشهم . وكان كل شىء يفصل بينهم : رأيهم فيهم ، ورأيهم فيه ، وطريقتهم فى ارتداء ملابسهم : فقد كانوا جميعا تقريبا يرتدون ثيابهم فى اهمال لا شخصى ، أما فيرال فكان يرتدى بذلته الخليطة الموشاة ، وقميصا من الحرير الرمادى ذا ياقة لينة من شمنهاى . ويحمل القول انهما كانا جنسين مختلفين .

وأدخلوا لدى الوزير على الفور تقريبا .

وكان فيرال يعرف الوزير معرفة سطحية . . . يرجع هذا التعبير على الوجه الذى ينتمى الى عصر آخر الى شعرة الأبيض الكثيف كشعر « الباروك » الشائعة فى عصر الوصاية ؟ ان هذا الوجه الدقيق الملامح ذا العينين الصافيتين، وهذه الابتسامة البالغة الحفاوة - (فقد كان برلمانيا قديما) تتفق مع شهرته كوزير لبق ، وهى شهرة توازى شهرة اندفاعه حين يسيطر عليه مزاجه النابليونى . وبينما كان كل امرئ يتخذ مجلسه ، طرقت خاطر « فيرال » حكاية شهيرة : « عندما كان الوزير وزيرا للخارجية ، هز ذات مرة أذبال سترة مبعوث فرنسا الى مراكش ، وفجأة تمزق ظهر السترة ، فقرع الجرس قائلا : « احضروا احدى ستراتى للسيد . » ثم قرع الجرس مرة ثانية فى اللحظة التي اختفى فيها الحاجب وقال : « أقدم سترة . » لأنه لا يستحق

سواها . « وكان وجهه غاية فى الجاذبية لولا نظرة يبدو أنها تنكر ما يعد به
فمه : وكانت احدى عينيه من الزجاج اثر اصابته فى حادث .

وانتظم مجلسهم : مدير الحركة العامة للأرصدة على يمين الوزير ، وفيرال
على يساره ، أما المندوبون فعلى أريكة فى مؤخرة المكتب .

قال الوزير : « تعرفون أيها السادة لماذا دعوتكم لهذا الاجتماع . وليس
من شك فى أنكم قد درستتم المسألة . واترك لمسيو فيرال أن يلخصها لكم ،
وأن يعرض عليكم وجهة نظره . »

وانتظر المندوبون فى صبر أن يقص عليهم فيرال - كما جرت العادة -
بعض النوادر .

قال فيرال : « أيها السادة ، من المؤلف فى اجتماع كهذا ، أن يقدم الجزء
تقارير متفائلة . وتحت أعينكم تقرير التفتيش المالى ، ان موقف الاتحاد -
من الوجهة العملية - أسوأ مما ينبىء به هذا التقرير . ولن أقدم لكم أبوابا
متضخمة ، أو قروضا مشكوكا فيها . ومن الواضح أنكم تعلمون خسائر
الاتحاد ، وأحب أن أوجه اهتمامكم الى جانبين من المكاسب لا يمكن أن يشير
اليهما أى تقرير ، وباسمهما تطلب معونتكم .

الجانب الأول هو أن الاتحاد يمثل العمل الفرنسى الوحيد من نوعه فى
الشرق الأقصى . وحتى فى عجزه ، ولو أشرف على الافلاس ، سيظل بناؤه
سليما . ان شبكات عملائه وفروع تجارته للبيع أو الشراء داخل الصين ،
والصلات المستقرة بين شرااته الصينيين وشركاته الانتاجية فى الهند الصينية،
كل هذا « باق » ويمكن بقاؤه . ولا أغالى اذا قلت ان نصف تجار «يانجستى»
يعتقدون أن فرنسا هى الاتحاد ، كما أن اليابان هى « ميتسوبيشى وشركاه »
وأنتم تعلمون أنه من الممكن مقارنة منظمنا من حيث الاتساع بشركة
ستاندارد اويل . وفضلا عن ذلك فان الثورة الصينية لن تكون أبدية .

والقنطة الثانية هى أنه بفضل الروابط التى تجمع بين الاتحاد وبين شطر
كبير من أصحاب التجارة الصينية ، قد شاركت بأشد الطرق فعالية فى
استيلاء الجنرال تشانج - كاي - شيك على السلطة . وبهذا أصبح من المؤكد
منذ الآن أن ذلك المشروع الخاص بمد السكك الحديدية الصينية التى نصت

الاتفاقيات على أن يكون من نصيب فرنسا إنما سيعهد به إلى الاتحاد . . .
وهذه مسألة تدركون أهميتها ، وعلى هذا الأساس أطلب منكم الموافقة على
تقديم المعونة التي يطلبها الاتحاد منكم ، بسبب ما تثبت وجوده ، يبدو لي
وجيها أن أتمنى ألا تختفى من آسيا المنظمة القوية الوحيدة التي تمثل بلدنا
- حتى ولو خرجت من الأيدي التي أنبستها . »

ومضى المندوبون يفحصون في عناية ذلك التقرير الذي سبق أن أحاطوا
به ، والذي ما كان يضيف إلى معلوماتهم شيئا جديدا : فلقد كان كل منهم
ينتظر أن يتكلم الوزير ، وتكلم الوزير فقال :

« ليس من مصلحة الدولة فحسب ، بل من مصلحة المؤسسات أيضا ألا
تصاب الثقة . وسقوط منظمات مهمة مثل بنك الصين الصناعي ، والاتحاد ،
لا يمكن إلا أن يكون ضارا للجميع . »

كان يتحدث بتبليد ، متكئا على ظهر مقعده ، شارد النظرة ، وهو يداعب
بطرف قلمه « النشافة » الموضوع أمامه . وانتظر المندوبون أن يزداد موقفه
تحديدا .

قال مندوب بنك فرنسا : « هل يسمح سيدي الوزير بأن أعرض عليكم
رأيا يختلف قليلا ؟ انني الوحيد هنا الذي لا يمثل بنكاً للقروض ، وبالتالي
فلمست متحيزا ، ستعمل الصدمات خلال بضعة شهور ، على التقليل من
الودائع ، هذا حق ، غير أنه بعد ستة شهور ، ستعود المبالغ المسحوبة آليا ،
ولاسيما إلى تلك المؤسسات الرئيسية التي تقدم ضمانات أكبر . وربما كان
انهيار الاتحاد - الذي هو أبعد ما يكون عن الضرر بالنسبة للبنوك التي
يمثلها هؤلاء السادة - ربما كان أهم على العكس من ذلك ، مفيدا . . . »

- « مع هذا الفارق ، وهو أنه من الثهور اللعب بالأرصدة . فان افلاس
خمس عشرة بنكاً من بنوك الأقاليم لن يكون مفيدا للمؤسسات ، حتى ولو لم
يكن ذلك إلا بسبب الاجراءات السياسية التي سيؤدي إليها هذا الافلاس . »

وقال فيرال لنفسه : « هذا كله كلام لا يقول شيئا اللهم إلا أن بنك
فرنسا يخاف من الارتباط ، وانه سيدفع اذا دفعت المؤسسات . »

وساد الصمت . . . والتقت نظرة الوزير المتسائلة بنظرة أحد المندوبين :

وجه ضابط من ضباط الفرسان ، ونظرة ملحة ، على أهبة اللوم ، وصوت واضح :

« وعلى عكس ما نصادفه عادة في مثل المحادثات التي تجمعنا ، يجب ان أقول اننى أقل تشاؤما من السيد فيرال حول مجموع أبواب التقرير الذى قدم لنا . ان موقف بنوك الجماعة مهدد بكارثة ، هذا حق ، غير أن بعض الشركات يمكن الدفاع عنها ، حتى في صورتها الحالية . »

قال فيرال : « انه العمل في مجموعه ذلك الذى أسألكم الإبقاء عليه . فاذا تحطم الاتحاد ، فقدت أعماله كل معنى بالنسبة لفرنسا . »

وقال مندوب آخر له وجه نحيف مرهف : « على العكس ، ان السيد فيرال يبدو لي متفائلا على الرغم من كل شيء ، فيما يتعلق بالأرصدة الرئيسية للاتحاد . . والقروض لم تستبعد بعد . »

وكان ينظر أثناء حديثه الى قلابة سترة فيرال ، وتابع هذا نظرتة حائرا ، وانتهى به الأمر الى الفهم : انه الوحيد الذى لم يضع أسمته . . عن عمد . وكان محدثه من حملة وسام الشرف (كومان دور) ولهذا أخذ ينظر فى عدااء الى هذه العروة التى تزدرية . ولم يكن فيرال ينتظر قط أى تقدير لغير قوته .

قال : « أنتم تعلمون أنها ستستبعد . . تستبعد وتغطى . وهذا يعنى البنوك الأمريكية لا عملاءها الذين سيأخذون ما نجعلهم يأخذونه . »
 — « فلنفترض ذلك . . واذا غطى القرض ، فمن يضمن لنا انشاء السكك الحديدية ؟ »

قال فيرال فى شيء من الدهشة (لم يكن من الممكن أن يجهل محدثه ما أزمع أن يجيبه به) :

« ولكن من المفروغ منه أن الشطر الأكبر من الأرصدة لن يدفع الى الحكومة الصينية ، وانما سيذهب مباشرة من البنوك الأمريكية الى الشركات المكلفة بتصنيع المواد ، هذا شيء واضح . والا هل تعتقدون أن الأمريكيين سيقدمون القرض ؟ »

« طبعا . . غير أنه من الممكن أن يقتل تشانج - كاي - شيك أو أن

يهزم ، واذا بعثت البلشفية من جديد ، لن يتم اصدار القرض . ومن جهتي أنا ، لا أعتقد أن تشانج - كاي - شيك سيظل قائما بالسلطة . ومعلوماتنا تؤكد أن سقوطه وشيك . »

وأجاب فيرال : « لقد سحق الشيوعيون في كل مكان . . وقد غادر بورودين لتوه هان - كيو وعاد الى موسكو . »

- « الشيوعيون . . بلا شك ، ولكن ، ليست الشيوعية على الاطلاق . لن تعود الصين أبدا الى ما كانت عليه ، وبعد انتصار تشانج - كاي - شيك ، ما زال هناك خطر أمواج جديدة للشيوعيين . . . »

- « رأيي أنه سيظل في السلطة بعد عشر سنوات أخرى : ولكن ، ما من مشروع لا ينطوي على شيء من المخاطرة . »

وجال في خاطره : (لا تستمعوا الا الى شجاعتم ، التي لا تنصحكم بشيء أبدا . وتركيا ، حين لم تعد درهما واحدا اليكم ، وراحت تشتري بأموالكم مدافع للحرب ؟ انكم لا تستطيعون أن تقوموا وحدكم بمشروع واحد عظيم . وحين تنتهي ألعيبكم القدرة مع الدولة ، تحسبون جبنكم حكمة ، وتظنون أنه يكفيكم أن تكونوا بلا أذرع لكي تصبحوا « فينوس ميلو » . . وهذه مغالاة .)

وقال بصوت عذب مندوب شاب مجعد الشعر : « لو ظل تشانج - كاي - شيك مسيطرا على الحكومة ، فسوف تسترد الصين استقلالها الجمركي . فمن يضمن لنا - حتى لو وافقنا على كل ما يفترضه السيد فيرال - أن نشاطه في الصين لن يفقد كل قيمته في اليوم الذي فيه تكفى بعض القوانين الصينية لاعدامه ؟ وهناك أجوبة عديدة يمكن أن تقدم عن هذا السؤال ، على ما أعرف . . فقال فيرال : « أجل . . عديدة . »

وأجاب المندوب الذي له وجه ضابط : « ومع ذلك ، يظل هذا المشروع غير يقيني ، أو حتى لو افترضنا أنه لا ينطوي على أية مخاطرة ، فلا بد له من قرض طويل الأجل ، والحقيقة أنه يقتضى مشاركة في مسألة تستمر طيلة العمر . . ونحن نعرف جميعا كيف أوشك مسيو « جرمان » على أن يقود « الكريدي ليونيه » الى الخراب لاهتمامه بشركة (ألوان أنيلين) ، وان تكن

من أفضل المشروعات الفرنسية . ووظيفتنا ليست المشاركة في صفقات ،
وانما اقراض الأموال على أساس ضمانات ، ولأجل قصير . أما فيما عدا ذلك ،
فالكلمة ليست لنا ، بل للبنوك التجارية . »

وساد الصمت ن بنيد . . صمت طويل هذه المرة .

وكان فيرال يفكر في الأسباب التي دعت الوزير الى عدم التدخل . كان
الجميع ، وهو نفسه - يتحدثون بلغة تقليدية منمقة ، شبيهة بلغات الطقوس
الآسيوية : فليس غريبا أن يكون كل شيء صينيا . أجل ، من الواضح جدا
أن ضمانات الاتحاد غير كافية والا ، فما معنى وجوده هنا ؟ ومنذ أن قامت
الحرب ، بلغت الخسائر التي احتملها التوفير الفرنسي (وقال لنفسه : « كما
تقول صحف التشهير : وكان الغضب يمدد بالحرارة) الذي اكتتب في
الأسهم والسندات الخاصة بالصفقات التجارية التي أوصنت بها المؤسسات
والبنوك التجارية الكبرى - حوالى أربعين مليارا - أى ما يزيد على اتفاقية
فرانكفورت . كانت الصفقة الرديئة تدفع نسبة سمسة أكبر من الصفقة
الجيدة ، هذا كل ما فى الأمر . ولكن لم يكن بد من أن تعرض هذه الصفقة
الرديئة على المؤسسات بوساطة واحد من أهلها ؟ انهم لن يدفعوا الا اذا تدخل
الوزير رسميا ، لأن فيرال لم يكن واحدا منهم . فهو غير متزوج ، وتدور
حواله قصص نسائية ، ويقال انه من مدمنى الأفيون ، وقد احتقر وسسام
جوقة الشرف (اللجيون دونير) . وربما كان متكبرا الى درجة لا تسمح به
بأن يتون متوافقا أو منافقا . ولعل الفردية العظيمة لا يمكن أن تنمو نموا
كاملا الا على سماء من النفاق : ولم يصل بورجيا الى منصب البابا مصادفة . .
ولم يكن كبار الفرديين يتجولون وسط الثوريين الفرنسيين المنتشرين بالفضيلة
فى أواخر القرن التاسع عشر ، بل فى عصر النهضة ، فى بناء اجتماعى هو
المسيحية ، بكل تأكيد . .

قال أكبر المندوبين سنا وهو يمضغ فى آن واحد المقاطع وشاربه القصير
لأبيض كشعره المتموج : « سيدى الوزير ، أما أننا على استعداد لاعانة
الدولة فهذا شيء لا يحتاج الى فضل بيان . . مفهوم . . وأنتم تعلمون
ذلك . »

وسحب مونوكله ، وتحولت حركات يديه ذات الأصابع المتباعدة قليلا
الى حركات رجل أعرج .

— « ولكن ، مع ذلك ينبغي أن نعرف الى أى مدى • ولا أقول ان كلا منا لا يستطيع أن يتولى تقديم خمسة ملايين • • حسن • »
وهز الوزير كتفيه هزة غير ملحوظة •

— « ولكن ، ليست هذه هى المسألة ، مادام ينبغي على الاتحاد أن يدفع على الأقل ٢٥٠ مليوناً من الودائع • ماذا إذن ؟ ان كانت الدولة تعتقد أن أزمة على هذا القدر من الأهمية ستكون ضارة ، فانها تستطيع بنفسها أن تدبر الأموال ، وأولى منا بانقاذ المودعين الفرنسيين والمودعين الاناميين بنك فرنسا والحكومة العامة للهند الصينية ، إذ أن لنا نحن أيضاً مودعيننا وحملات أسهمنا • وكل منا جاء الى هنا ليمثل مؤسسته • • • »

(وقال فيرال لنفسه : « من المفهوم أن الوزير لو أوضح أنه يصر على تدعيم الاتحاد ، فلن يكون ثمة مودعين أو حملة أسهم • »)

— « • • • من منا يمكن أن يؤكد أن حملة أسهمه يوافقون على قرض يهدف الى المحافظة على مؤسسة مزعزعة ؟ ان رأى حملة الأسهم — وليسوا وحدهم فى هذا رأى — نعرفه جيداً ! يجب تطهير السوق ، وملاشاة الصفقات التى لا تقوى على الحياة ، فالمحافظة عليها بصورة مصطنعة — هى أسوأ خدمة يمكن أن تسدى الى الجميع • وماذا يكون من شأن المنافسة الحرة التى تقوم عليها حياة التجارة الفرنسية ، لو تمت المحافظة على الصفقات الفاسدة بصورة آلية ؟ »

(وقال فيرال لنفسه : يا صديقى ، ان مؤسستك قد طالبت الدولة فى الشهر الاخير ، برفع التعريفة الجمركية بنسبة ٣٢٪ لتيسير المنافسة الحرة ، بلا شك !)

— « • • • والآن ؟ ان مهمتنا هى اقراض الأموال على ضمانات كما قيل بحق • والضمانات التى يقدمها لنا السيد فيرال • • لقد استمعتم الى السيد فيرال نفسه : فهل تريد الدولة أن تحل محل السيد فيرال هنا ، وأن تعطينا الضمانات نظير موافقتنا على منح الاتحاد الأموال التى يحتاج اليها ؟ وبعبارة موجزة ، فهل تهيب الدولة — دون تقديم أى تعويض — بولائنا ، أم أن الدولة تطلب منا — هى لا السيد فيرال — أن نيسر عملية مالية ، ولو كانت طويلة الاجل فى الحالة الاولى ، ولاؤنا للدولة أمر مفروغ منه — أليس كذلك ؟ »

ولكن يجب أن نضع في الاعتبارنا حيرا حملة اسهمنا ، وفي الحالة الثانية ، ما هي الضمانات التي تقدمها لنا ؟ »

وحدث فيرال نفسه قائلا : « لغة تكثفها (الشفرة) التامة . ولو لم تكن مستغرقين في تمثيل ملهاة لأجاب الوزير قائلا : « اننى أذوق الفكاهة في كلمة (ولاء) . ان جوهر مكاسبكم صادر عن علاقاتكم بالدولة . وأنتم تعيشون على السمسيرة ، وهي وظيفة لها أهمية مؤسساتكم ، ولا تعيشون من عمل أو فعالية . ولقد أعطتكم الدولة هذه السنة مائة مليون بصورة أو بأخرى ، وستسترد منكم عشرين ، فباركوا باسمها ، وافرنعوا . » ولكن لا وجود لأق خطر . . وأخرج الوزير من أحد أدراج مكتبه علبة من الحلوى (الكراملة) اللينة ، وأدارها على الحاضرين . فآكل كل واحد قطعة ماعدا فيرال . انه يعرف الآن ما يريد من مندوب المؤسسات : الدق ، ما دام من المحال مغادرة هذا المكتب دون أن يتنازلوا عن شيء ما للوزير ، ولكنهم يريدون أن يدفعوا أقل مبلغ ممكن . أما الوزير . . . وانتظر فيرال ، واثقا من أنه ما زال يفكر : « ماذا كان يبدو على شوازيل أنه فاعل لو كان في مكانى ؟ » يبدو : ان الوزير لا يطلب من عظماء المملكة دروسا في الارادة . . وانما الوقار أو السخرية : »

قال الوزير وهو ينقر المائدة لقرات خفيفة بقلمه : « السيد المدير المساعد للحركة العامة للأرصدة ، سيقول لكم ، مثلما أقول - اننى لا أستطيع اعطاءكم هذه الضمانات دون تصويت من البرلمان . . وقد جمعتكم أيها السادة لأن المسألة التي نناقشها تتعلق بهيبة فرنسا : فهل تعتقدون أن من وسائل الدفاع عنها طرح هذه المسألة أمام الراى العام ؟ »

« بلا شك . . بلا شك - ولكن ، اسمح لى يا سيدى الوزير . . . »

صمت ، واستغرق المندوبون الذين كانوا يعضغون حلواهم فى حالة من حالات التأمل لهيتموا من لهجة اقليم « أوفرني » التي أحسوا فجأة أنهم مهددون بها ، اذا فتحوا أفواههم . ونظر اليهم الوزير دون أن يبتسم واحدا وراء الآخر ، ونظر اليه فيرال - الذى كان يراه من جانب وجهه ذى العين الزجاجية - كما ينظر الى بغاء بيضاء كبيرة ، جامدة عابسة وسط عدد من الطيور .

واستطرد الوزير قائلا : « أرى من أيها السادة ، أننا متفقون على هذه النقطة . ومهما كانت الطريقة التي نواجه بها هذه المشكلة ، فمن الضروري تسديد الودائع . وستشارك الحكومة العامة للهند الصينية في تدعيم الاتحاد بنسبة الخمس . . فما هو نصيبكم في المساهمة ؟ »

ولاذ كل منهم الآن بقطعه من الحلوى . وقال فيرال لنفسه : « متعة صغيرة . انه يود أن يتلهى ، غير أن النتيجة واحدة بدون الحلوى . . . » وكان يدرك قيمة الحجة التي ساقها الوزير . وقد كان أخوه هو الذي رد على هؤلاء الذين يطلبون من الحركة العامة للأرصدة تحويلا دون تصويت من البرلمان : « لماذا لا أعطى لصديقتي العزيزة على الفور مائتي مليون ؟ » فترة نصمت . . أطول من فترات الصمت السابقة . وكان المندوبون يتهامون فيما بينهم .

قال فيرال : « حميدى الوزير ، لو أن شئون الاتحاد السليمة عادت الى سابق عهدها - بصورة أو بأخرى ، ولو أن الودائع دفعت ، على أى الحالات، ألا تعتقدون أن ثمة مجالا لأن نتمنى بذل مجهود أعظم ولكن على ألا تستبعد منه المحافظة على الاتحاد ؟ أليس لوجود هيئة فرنسية على هذا المدى من الاتساع أهمية فى نظر الدولة تعادل أهمية بضع مئات من الملايين فى صورة ودائع ؟ » فقال الوزير : « خمسة ملايين ليست رقما جادا ، أيها السادة . أينبغى على أن أهيب - بطريقة أشد الحاحا - بالولاء الذى تحدثتم عنه ؟ اننى أعرف انكم تتمسكون ومجالس ادارتكم تتمسك ، بتحاشى رقابة الدولة على البنوك . ألا تعتقدون أن انهيار مشروع كالاتحاد لا يدفع الرأى العام الى المطالبة بهذه الرقابة على النحو الذى يمكن أن تصبح به مستبدة . . . بل ربما عاجلة ؟ »

وحدث فيرال نفسه قائلا : « مزيد من اللغة الصينية . فهذا معناه الوحيد هو : « كفوا عن اقتراح خمسة ملايين مضحكة . » والرقابة على البنوك تهديد لا معنى له حين تلوح به حكومة سياستها معارضة الاجراءات التى من هذا القبيل . ولا يود الوزير أن يلجأ الى هذا الاجراء حقا بأكثر مما يريد المندوبون المسيطرون على وكالة هافاس شن حملة صحفية على الوزير . والدولة لا تستطيع أن تلعب لعبة خطيرة ضد البنوك ، كما أن البنوك لا تريد أن تلعب مثل هذه اللعبة ضد الدولة ؛ ذلك لأن الدولة والبنوك متواطئة فى كل شئ :

نفس الموظفين ، نفس المصالح ، نفس السيكولوجية • وسيكون الصراع بينهما أشبه بالصراع بين رئيسي قلمين دار واحدة ، وهو صراع - من ناحية أخرى - يعود بالحياة على الدار • • • ولكن بضرورة سيئة • وكما حدث له في فندق « آستور » ، لم تنقذه الا ضرورة عدم اظهار الضعف ، أو أى غضب • ولكنه كان مهزوما : فانه حين جعل من الفعالية قيمته الجوهرية ، لم يعوض شئ وجوده ازاء هؤلاء الرجال الذين احتقر أشخاصهم وأساليبهم دائما ، في هذا الموقف الذليل المهين • لقد كان أضعف منهم ، ومن ثم فإن كل ما يفكر فيه - وفقا لمذهبه نفسه - قد أصبح باطلا •

قال أكبر المندوبين سنا : « سيدى الوزير ، نحن حريصون على أن نظهر مرة أخرى نوايانا الحسنة للدولة ، ولكن ، اذا لم تكن هناك ضمانات ، فنحن لا نستطيع - ازاء حملة أسهمنا - أن نواجه قرضا للاتحاد أعلى من الودائع الموجودة ، على أن يضمن القرض باشرافنا الذى نقوم به فى هذه الحالة على شئون الجماعة السليمة • ويعلم الله أننا لسنا حريصين على هذا الاشراف ، وانما نقوم به احتراما لمصلحة الدولة العليا • • • »

وقال فيرال لنفسه : « انه شخصية لا نظير لها حقا ، بهيئته التى تشبه هيئة أستاذ متقاعد تحول الى « أوديب » ضريب • وجميع البلهاء ، بل وفرنسا نفسها ، انما يلتمسون النصيح لدى هؤلاء المديرين للوكالات ، واليهم تلقى أهوال الدولة - كالجلد المسحور - حين ينبغى مد سكك حديدية استراتيجية فى روسيا أو بولندا أو القطب الشمالى ! ومنذ أن قامت الحرب ، أضاعت هذه العصا الجالسة على الأريكة - أضاعت على المستثمرين الفرنسيين ثمانية عشر مليارا فى سندات الحكومة وحدها • حسن جدا : كما كان يقول منذ عشر سنوات : « ان كل من يطلب المشورة لاستغلال ثروته من شخص لا يعرفه معرفة وثيقة ، لابد أن يحل به الخراب • » ثمانية عشر مليارا • فضلا عن أربعين مليارا ذهبت فى صفقات تجارية ، فضلا عنى أنا أيضا •

قال الوزير : « مسيو داميرال • »

- « سيدى الوزير ، ليس بوسعى الا أن أنضم الى ما قيل على مسامعكم الآن • • ولا أستطيع - شأنى فى ذلك شأن « مسيو دى موريل » - أن أربط المؤسسة التى أمثلها دون الضمانات التى تحدث عنها • فلو أننى فعلت

ذلك ، لانتهكت المبادئ والتقاليد التي جعلت من هذه المؤسسة واحدة من أقوى المؤسسات في أوروبا ، وهي مبادئ وتقاليدها كثيرا ما هوجمت ، ولكنها تسمح لها بأن تبذل ولاءها للدولة حين تهيب بها كما أهابت منذ خمسة أشهر ، وكما تهيب بها اليوم ، وكما قد تهيب بها غدا . . . وتكرار هذه النداءات ، وما غزمتنا عليه من تلبيتها - هو ما يرغمني - يا سيدي الوزير - على أن أطلب الضمانات التي تقتضي هذه المبادئ ، وتلك التقاليد ، على أن نؤكد لها لجملة أسهمنا ، والتي بفضائها سمحت لنفسى أن أقول لكم - يا سيدي الوزير - أننا تحت تصرفكم . . . فليس من شك أننا نستطيع أن نسهم بعشرين مليوناً . . .

وتبادل المندوبون النظرات في ذعر : ستسدد الودائع . . . وفطن فيرال الآن الى ما أراده الوزير : ارتضاء شقيقه دون التزام ، وتسديد الودائع ، وأن يجعل المؤسسات تدفع ، ولكن أقل مبالغ ممكنة ، وإصدار بيان مرض . واتصلت المباشرة ، سيتحطم الاتحاد ، غير أن انهياره لا يهم الوزير اذا سددت الودائع . . . وستحصل المؤسسات على الضمان الذي طلبته (انها ستخسر مع ذلك ، ولكن خسائر قليلة) . وسيكون من الممكن المحافظة على بعض الأعمال ، على أن تصبح تابعة للمؤسسات . . . أما الباقي . . . ها هي ذى أحداث شغبهاى ستتحل الى شىء لا معنى له تماما . . . وكان يفضل أن يشعر بأنه جرد من كل شىء ، وأن يرى عمله خارج يده حيا ، وان اغتصب أو سرق . بيد أن الوزير لن يرى سوى الخوف الذى يعتمل فى نفسه من البرلمان ، ولن يمزق اليوم سترة أحد . ولو كان فيرال فى مكانه ، لبدأ بتولى أمر اتحاد قد أصالح فساداه ثم أبقى عليه بعد ذلك بأى ثمن . أما المؤسسات ، فلقد أكد دائما تخوفها الذى لا علاج له . وانه ليزكر مزهوا كلمة قالها أحد خصومه : « ان فيرال يريد دائما أن يكون البنك دارا للمقامرة . »

ودق جرس التلفون ، قريبا جدا . . . ودخل أحد الملحقين :

« سيدي الوزير ، رئيس مجلس الوزراء على الخط الخاص . »

« قل له ان الأمور تسير سيرا حسنا جدا . . . كلا ، سأذهب بنفسى . »

وخرج ، ثم عاد بعد لحظة ، وألقى نظرة استفهام على مندوب البنك الرئيسى للمشئون الفرنسية ، وهو الوحيد الممثل هنا ، وكان لهذا المندوب

شارب مستقيم مواز لنظارته ، وصدلعة ، وسحنة مرهقة . . ولم يكن قد تفوه بكلمة واحدة بعد .

قال متمهلا : « ان الابقاء على الاتحاد لا يهمنا بأى حال من الأحوال ، والمشاركة فى السكك الحديدية أمر تؤكده الاتفاقيات لفرنسا . واذا سقط الاتحاد ، فان شركة أخرى سوف تتكون أو سوف تنمو لتحل محله . »

قال فيرال : « وهذه الشركة الجديدة ، بدلا من نهوضها بتصنيع الهند الصينية سوف تقوم بتوزيع الأرباح . ولكنها ، مادام لم يسبق لها ان فعلت شيئا لتشانج - كاي - شيك فسوف تجد نفسها فى نفس الموقف الذى تجودن فيه أنفسكم اذا لم تكونوا قد أدبتم شيئا قط للدولة ، وأما المعاهد فسوف تحولها شركة أمريكية ، أو بريطانية ، الى « ستار » (باراقان) فرنسى بكل تأكيد . وسوف تقرضونها المال الذى ترفضون اقراضى اياه . لقد أنشأنا الاتحاد لأن البنوك الفرنسية فى آسيا تتبع فى الضمانات سياسة من شأنها أن تنتهى الى اقراض الانجليز لكى لا تقرض الصينيين . أما نحن فقد اتبعنا سياسة المجازفة ، وهذا . . . »

- « أنا لم اجرؤ على أن أقول ذلك . »

- « . . . واضح . ومن الطبيعى أن نجنى نتائج هذه السياسة . وسيصان الاقتصاد (وابتسم بركن واحد من ركنى فمه) حتى ثمانية وخمسين مليارا من الخسارة ، لا ثمانية وخمسين مليارا وبضع مئات من الملايين . فلنر معا اذن - أيها السادة ، اذا شئتم ، كيف يمكن أن يتوقف الاتحاد عن الوجود . »

كوبيه

فى ضوء الربيع اتساطع صعدت « ماى » - التى لم تكن تستطيع لشدة فقرها أن تستأجر سيارة - الى منزل كاما . ولو كان متاع چيسور ثقيلًا ، لكان لايد من اقتراض شيء من المال من المصور العجوز ، للحاق بالسفينة . وكان چيسور قد أنبأها ، وهو يغادر شنغهاى ، أنه سيلجأ الى كاما ، وحين وصل ، بعث اليها بعنوانه . . ومنذ ذلك الحين لم يصلها منه شيء . . حتى حين

أخبرته أنه قد عين أستاذا بمعهد صن - يات - سن في موسكو . فهل كان يخشى البوليس الياباني ؟

وكانت تطالع أثناء سيرها رسالة من « بي » سلمت اليها عند وصول السفينة الى « كوبيه » ، حين كانوا يفحصون جواز سفرها ، فقد استطاعت أن تؤوى - بعد موت « تشن » - هذا الشاب الذي كان تلميذا له ، في الفيلا التي لاذت بها . وجاء في الرسالة :

« ... وكل أولئك الذين تمكنوا من الفرار من شنغهاي ينتظرونك ، وقد استلمت الكتيبات ... »

وكان قد نشر تحت اسم مستعار وصفين لموت تشن : أحدهما نابع من قلبه ، قال فيه : « ان اغتيال الديكتاتور هو واجب الفرد نحو نفسه ، وينبغي فصله عن العمل السياسى الذى تحدده القوى الجماعية ، » أما الوصف الآخر فكان موجها الى التقليديين : « وكما أن الواجب البنوى - الدين الذى ندين به لأسلافنا - يدفعنا الى أن نبحث عن أنبل حياة لنا ، فكذلك يتطلب من كل فرد منا اغتيال المقتصب . » وقد أعادت المطابع السرية طبع كتيباته .

« ... وأيت أمس همليش ، الذى يفكر فيك . انه الآن عامل تركيب بمصنع الكهرباء ، وقد قال لى : « فى الماضى بدأت أحيا حين خرجت من المصنع ، اما الآن فقد بدأت أحيا حين دخلته . وهذه هى المرة الأولى فى حياتى التى أعمل فيها ، وأنا اعرف لماذا أعمل ، لا منتظرا فى صبر أن اموت ... » أخبرى جيسور اننا ننتظره . ومنذ أن جئت هنا أفكر فى المحاضرة التى قال فيها : « الحضارة تتحول حين يصير فجأة أشد عناصرها ايلاما - المذلة للعبد ، والعمل بالنسبة للعامل الحديث قيمة من القيم ، وحين لا يصبح الأمر فرارا من هذه المذلة ، بل انتظارا للخلاص بوساطتها ، ولا يصبح فرارا من هذا العمل ، بل العثور فيه على علة وجودك . ويجب أن يصبح المصنع - الذى ما زال أشبه بكنيسة ملحقه بالمقابر - بمثابة الكاتدرائية قديما وأن يرى فيه الناس - بدلا من الآلهة ، القوة الانسانية فى صراعها ضد الأرض ... »

أجل : ان الناس لا يساوون - بلاشك - الا ما أمكنهم أن يغيروه . ولقد مرت الثورة الآن بمرض رهيب ، ولكنها لم تمت . وقد كان كيو وأمثاله

سسخواء أكانوا أحياء ام موتى ، مهزومين أم منتصرين ، هم الذين أخرجوها الى العالم . وتابعتم قراءة الرسالة :

« ساعود الى الصين بوصفى مهيجا للثورات : فأنا لا أستطيع أن أصبح قط شيوعيا خالصا .. وما من شىء قد انتهى هناك . وربما التقينا هناك مرة أخرى ، وقد قيل لى ان طلبك قد قبل .. »

وسقطت من الرسالة المطوية قصاصة مقطوعة من صحيفة ، فتناولتها :
« ينبغى أن يصبح العمل السلاح الرئيسى فى حرب الطبقات . وان أهم خطة للتصنيع فى العالم هى الآن موضع بحث : وهذه الخطة تهدف الى تغيير جمهوريات الاتحاد السوفيتى كلها فى خمس سنوات ، وجعلها واحدة من أولى الدول الصناعية فى أوروبا ، ثم اللحاق بأمريكا ، وتجاوزها .. هكذا المشروع العملاق ... »

وكان جيسور ينتظرها واقفا داخل اطار الباب ، مرتديا الكيمونو . ولم يكن فى الممر حقائق .

وسأله وهى تدخل حجرة مجردة من الأثاث ، لا تحتوى شيئا سوى الحصر والأوراق ، وقد أسفرت مصاريعها المنزوعة عن الخايج بأكمله : « هل تسلمت رسائلى ؟ »

- « أجل . »

- « فلنسرع ، لأن السفينة ستعاود الرحيل بعد ساعتين . »

- « لن أرحل ، يا ماى . »

ونظرت اليه ، ثم قالت لنفسها : « لا جدوى من استجوابه ، فسوف يشرح قصده . » بيد أنه هو الذى سأل :

- « ماذا ستصنعين ؟ »

- « سأحاول أن أخدم فى أقسام مهيجات الثورة . ويبدو أن الأمر قد دبر فعلا . سأصل الى فلاديفوستوك بعد غد ، لأرحل منها فورا الى موسكو . فإذا لم تسر الأمور على ما يرام ، فسأعمل طبيبة فى سيبيريا . وأرجو أن ينجح الأمر الأول .. فلقد مللت من التمريض . والحياة دائما مع المرضى ،

حين لا يكون ذلك في سبيل كفاح معين - يحتاج الى حالة خاصة من النعمة الالهية ، وأنا ، لم يعد في نفسي أى نوع من النعم . . . وفضلا عن ذلك ، فقد أصبح من غير المحتمل بالنسبة لى الآن أن أشاهد شخصا يموت . . . وأخيرا . . . ان كان لابد أن أفعل ذلك . . . فهذه طريقة للأخذ بثأر كيو . »

- « لا ينتقم المرء وهو في مثل سنى . . »

والواقع ، أن شيئا في نفسه كان قد تغير . . . كان بعيدا . . . منفصلا ، وكان شطرا واحدا من نفسه هو الذى يوجد معها في هذه الحجرة . . . وتمدد على الأرض ، فلم يكن ثمة مقاعد . . . واستلقت هي أيضا الى جانب صينية للأفيون ، وسألته قائلة : « فماذا أنت صانع ؟ »

وهز كتفيه في غير مبالاة وقال :

- « اننى هنا - بفضل كما - أستاذ حر لتاريخ الفن الغربى . لقد عدت الى مهنتى الأولى ، كما ترين . . . »

وبحثت عن عينيه ، وهي مشدوهة ، وقالت :

- « وحتى الآن ، بعد أن هزمنا سياسيا ، وأوصدت مستشفياتنا ، تتكون جماعات سرية في الأقاليم جميعا . . . ولن ينسى رجالنا قط أنهم يقاسون من أجل قضية بشر آخرين ، لا بسبب حياتهم السابقة . . . وقد كنت تقول : « لقد استيقظوا واتبين من نوم ران عليهم ثلاثين قرنا ، ولن يعودوا بعده للنرم مرة أخرى . » وكنت تقول أيضا ان أولئك الذين منحوا وعيهم بالثورة الى ثلاثمائة مليون بائس ، لم يكونوا ظللا كالبشر العابرين - ولو أصابتهم الهزيمة ، أو التعذيب . . . ولو أصبحوا أمواتا . . »

وصمت برهة ، ثم استطردت قائلة : « وهم أموات الآن . »

- « اننى أفكر في ذلك دائما - يا « ماى » . هذا شيء آخر . . . ان موت كيو ، ليس هو العذاب فحسب ، أو التغيير فحسب . . . انه . . . تحول . . . اننى لم أحب العالم قط حبا جما ، وانما كان كيو هو الذى يربطنى بالبشر ، وبه كانوا يوجدون بالنسبة لى . . . أنا لا أرغب فى الذهاب الى موسكو . . . وسيكون تدريسي شيئا هناك . . . لقد انقطعت الماركسية عن الحياة داخل نفسى . . . كانت فى نظر كيو ارادة . . . اليس كذلك ؟ أما فى نظري أنا ، فانها

قدر ، وكنت أوافقك لأن قلقي من الموت يتفق مع القدر • ولم يعد في نفسي شيء من القلق تقريبا - يا « ماى » - منذ أن مات كيو ، أصبح الموت عندي سواء • لقد تحررت في آن واحد (تحررت ! •••) من الموت ومن الحياة ، فماذا عسانى أصنع هناك ؟ »

- « أن تتغير من جديد ، ربما • »

- « ليس عندي ابن آخر أفقده • »

وأدنى منه صينية الأفيون ، وأخذ يعد غليونته ، وأشارت بإصبعها - دون أن تقول شيئا - الى ربوة من الروابي القريبة : كان ما يقرب من مائة عامل ، مربوطين من أكتافهم ، يسحبون حملا ثقيلًا جدا غير مرئي ، في حركة العبيد المعروفة منذ آلاف السنين •

قال : « أجل ، أجل • »

وأضاف بعد لحظة : « ومع ذلك ، احذرى : فهؤلاء على استعداد للموت في سبيل اليابان • »

- « وكم يستغرق ذلك من الوقت ؟ »

- « أطول من العمر الذى سأعيشه • »

وكان جيسبور قد دخن غليونته في شهيق واحد • وعاد ففتح عينيه :

- « من الممكن أن يخدع الانسان الحياة زمنا طويلا ، ولكنها تنتهى دائما بأن تجعل منا ما نجعلنا من أجله • ان كل رجل عجوز اعترف ، صدقنى ، واذا كان كثير من الشيوخ يقضون حياة فارغة ، فذلك لأن كثيرا منهم كانوا فارغين ، ولكنهم يخفون هذه الحقيقة • بيد أن هذا نفسه لا أهمية له • وينبغي على الناس أن يتمكنوا من إدراك أنه لا وجود لشيء حقيقى ، وأن هناك عوامل من اختراع التأمل - بالأفيون أو بدونه - حيث كل شيء باطل ••• »

- « وماذا نتأمله في تلك العوالم ؟ »

- « ربما ، لا شيء سوى هذا الباطل •• وهذا كثير • »

وكان كيو قد قال لماي : « ان الأفيون يلعب دورا كبيرا في حياة أبى ،

ولكننى أسائل نفسى أحيانا هل الأفيون هو الذى يحدد حياته ، أم أنه يبرر به بعض القوى التى تبعث القلق فى نفسه

وواصل جيسور حديثه قائلا : « لبأن تشبن عاش خارج الثورة ، فاعتقدى أنه كان سينسى اغتيلاته بلا شك » ينسى

— « ان الآخرين لم ينسوا ، وقد حدثت محاولتان ارهابيتان منذ موته . . انه لم يطلق النساء ، ولهذا لم أعرفه قط ، ولكننى أعتقد أنه ما كان يستطيع أن يعيش خارج الثورة ، ولو عاما واحدا . لا وجود لكرامة لا تؤسس على الألم . .

وكان لا يكاد يسمعها .

واستطرد قائلا : « . . . ينسى . . . منذ أن مات كيو ، اكتشفت الموسيقى . الموسيقى وحدها . تستطيع أن تتحدث عن الموت . اننى أنصت الى « كانا » الآن كلما أخذ فى العزف . ومع ذلك دون أن أبذل مجهودا من جهتى (كان يتحدث الى نفسه بقدر ما يتحدث الى ماى) ماذا أتذكر أيضا ؟ رغباتى وقلقى ، مصيرى . نفسه ، حياتى ، أليس كذلك ؟ »

« (وحدثت ماى نفسها قائلة : « ولكن فى أثناء تحريك من حياتك ، هناك رجال من أمثال كاتوف ، يجرقون فى المراجيل . . . ومن أمثال كيو . . . »)

وضاغت نظرة جيسور فى الخارج ، وكأنها تتبع حركة نسيانه وهناك عبر الطريق ، كانت آلاف الأصوات المنبعثة من أعمال الميناء تبدو وكأنها ترحل مع الأمواج صوب البحر المضى . . . وكانت تتجاوب مع لآلاء الربيع اليابانى بكل ما يبذل له الرجال من مجهود . . بالبواجر ، والروافع والسيارات والجماهير النشيطة . . وكانت « ماى » تفكر فى رسالة « بى » : « انه فى هذا العمل — المنطوق كالحرب — على الأرض الروسية كلها ، وفى ارادة الجماعير التى ترى فى هذا العمل الحياة نفسها . . فى هذا كله وجد أمواتها ملاذهم . وكانت السماء تتألق من خلال تغور أشجار الصنوبر ، كما تتألق الشمس ، وانساب النسيم الذى كان يميل الأغصان فى لين ، على جسديهما الممددين . وخيل الى جيسور أن هذا النسيم ينفذ عابرا جسده ، كأنه نهر ، كأنه « الزمن » نفسه ، ولأول مرة ، خطرت له هذه الفكرة وهى أن

الزمان الذى يقربه من الموت ، لا يفصله عن العالم ، بل يربطه به فى توافق مطمئن . وتطلع الى تشابك الروافع على خافة المدينة ، والى البواخر ، والى الزوارق المنسابة على صفحة البحر ، والى البقع الانسانية الموجودة على الطريق وقال لنفسه : « كلهم يتعذبون . . . وكل منهم يتعذب لأنه يفكر . . . وفى الأعماق ، لا تفكر الروح فى الانسان الا بوصفه أبديا . . . والوعى بالحياة لا يمكن أن يكون الا قلقا . لا ينبغي التفكير فى الحياة بوساطة الروح ، بل بالأفيون . كم من آلام متناثرة فى هذا النور ، ستتلاشى حين يتلاشى الفكر ! . . . » وضم فى عرفان بالجميل أنبوبة غليونه ، وقد تحرر من كل شيء ، حتى من كونه انسانا ، متأملا اضطراب كل هذه الكائنات المجهولة التى تسعى نحو الموت فى الشمس التى تعشى الأبصار ، وكل يهدد فى أخفى أعماق نفسه قاتله المنطفل ، وحدث نفسه قائلا أيضا : « كل انسان مجنون ولكن ما اذا يكون المصير الانسانى ان لم يكن حياة من الجهود فى سبيل وحدة . هذا المجنون بالكون ؟ . . » وتراءى له فيرال مرة أخرى فى ضوء المصباح المنخفض أمام الليل الملى بالضباب ، وأصت اليه وهو يقول : « كل انسان يحلم بأن يكون الها . . . »

وغزت الهواء خمسون صفارة فى آن واحد : كان اليوم هو « وقفة » العيد ، وفيه يتوقف العمل . وقبل أن يعترى الميناء أى تغيير ، كان رجال صغار الأحجام - يظهرون كفتيان الكشافة - على الطريق الأيمن الذى يفضى الى المدينة وسرعان ما تغطيه الجماهير ، نائية ، سوداء ، وسط ضوضاء آلات التنبيه : انهم أصحاب العمل والعمال يغادرون مصانعهم معا . والجماهير تتدافع كأنها تشن هجوما ، تحملها تلك الحركة القلقة التى يبدو عليها أى حشد حين يتأمله المرء من بعيد . وكان خيسور قد شاهد فرار الحيوانات نحو الينابيع ، عند هبوط الظلام : كان واحد منها ، ثم بعضها ، ثم جميعها ، تهرول صوب الماء مدفوعة بقوة تهبط مع الظلمات ، وفى ذاكرته ، أضفى الأفيون على اندفاعها الكونى انسجاما وحشيا ، بينما بدا له الناس الضائعون فى الجلبة البعيدة التى تحدثها أحذيتهم الخشبية ، مجانين جميعا ، منفصلين عن الكون الذى يخفق قلبه فى مكان ما من الضوء النابض هناك عاليا ، فيأخذهم ثم يرمى بهم فى العزلة وكأنهم حبات حصاد مجهول . وكانت السحب الخفيفة ، المرتفعة جدا ، تعبر فوق أشجار الصنوبر القاتمة ، لتذوب رويدا رويدا فى السماء ، وقد بدا له أن جماعة منها . . . هذه الجماعة بالذات - تمثل الرجال الذين عرفهم

أو أحبهم ، والذين أصبحوا أمواتا . وكانت الانسانية كثيفة ثقيلة ، ثقيلة بلحمها ، ودمها . وعذابها . لاصقة بنفسها التصاقاً مؤبداً ، ككل ما يموت ، بيد أن الدم نفسه ، واللحم نفسه ، والألم نفسه ، بل الموت نفسه ، تتلاشى هناك فى الأعلى ، فى النور ، كما تتلاشى الموسيقى فى الليل البساجى : وذهب فكره الى موسيقى كاما ، وخيل اليه أن الألم الانسانى يصعد ، ويتبدد كأنه أغنية الأرض نفسها ، وعلى السلام المرتجف ، المختبئ فى صدره اختباء قلبه ، كان الألم - الذى تمت له السيطرة عليه - يطرقه على مهل بذراعيه الخاليتين من الانسانية .

ورددت قائلة : « هل تدخن كثيراً ؟ »

وكانت قد ألفت هذا السؤال من قبل ، ولكنه لم يسمعها . وعادت نظرة جيسور الى الغرفة ، ثم قال :

« اتعتقدين أننى لا أتكهن بما يدور فى فكرى ؟ وهل تعتقدين أننى لا أعرفه خيراً منّا . تعرفينه ؟ وهل تعتقدين أنه ليس من اليسير على أن أسألك بآى حق تحكمين على ؟ »

واستقرت نظرته عليها وهو يقول :

« أليست لديك أية رغبة فى انجاب طفل ؟ »

ولم تجب : ان هذه الرغبة العارمة دائماً تبدو لها الآن بمثابة خيانة . ولكنها تأملت فى ذعر هذا الوجه المطمئن . وكان فى الحقيقة قادماً اليها من أعماق الموت ، غريباً كأنه جثة من القبور العامة : لقد نقشت أعمال كيو فيما فرض على الصين المنهكة من قمع ، وفيما يعترى الجماهير من قلق أو أمل . وكان هذه الأعمال نقوش الامبراطوريات البدائية فى صخور شقتها الأنهار . ومع ذلك فان تلك الصين القديمة التى ألقى بها هؤلاء النفر بلا رجعة فى وجه الظلمات ، محدثين دويا كهزيم السيل ، لم تمنح من وجه العالم ، كما لم يمنح معنى حياة كيو من وجه والده .

وواصل جيسور حديثه قائلاً :

« الشئ الوحيد الذى أحببته قد انتزع منى ، أليس كذلك ، ومع ذلك تريدان ان أبقى كما أنا . اتعتقدين أن حبنى لم يكن مساوياً لحبك .. انت ، يا من لم يطرأ على حياتها تغير ؟ »

ـ « كما لا يطرأ تغيير جسم انسان حى أصبح ميتا ٠٠٠ »

وتناول يدها ، ثم قال :

ـ « أنت تعرفين هذه العبارة : « لا بد من تسعة أشهر لصنع انسان ، ويكفى يوم واحد لقتله » وقد عرفنا- أنا وأنت- ما تنطوى عليه هذه العبارة من صدق بقدر ما يمكن أن نعرف ٠٠٠ ماى ، اسمعى : ان الأمر لا يحتاج الى تسعة أشهر فحسب ، بل لا بد من خمسين عاما لصنع انسانا ٠٠ خمسين عاما من التضحيات ٠٠ ومن الارادة ٠٠ ومن ٠٠٠ ومن أشياء كثيرة ! وحين يتكون هذا الرجل ، وحين لا يعود فيه شىء من الطفولة أو المراهقة ٠٠ وحين تصبح رجلا - حقا - لا يصلح عندئذ الا لأن يموت »

ونظرت اليه فى رعب ، أما هو فكان يتطلع من جديد الى السحب :

ـ « لقد أحببت كيو حبا قلما يكنه الآباء لأبنائهم ٠٠ وأنت تعلمين ذلك ٠٠٠ »

وظل ممسكا بيدها ، ثم جذبها نحوه فوضعها بين راحتيه :

ـ « أصغى الى : ينبغى أن نحب الأحياء ، لا الأموات »

ـ « لست ذاهبة الى هناك لكى أحب »

وأخذ يتأمل الخليج الرائع ، المشبع بالشمس ، وكانت قد سحبت يدها .

ـ « على طريق الانتقام ، نلتقى - يا صغيرتى ماى - بالحياة ٠٠٠ »

ـ « ليس هذا سببا للبحث عنها ٠٠ »

ونهضت ، وأعطته يدها ، علامة الوداع ، ولكنه تناول وجهها بين كفيه ، وقبلها ٠٠ لقد قبلها كيو على هذا النحو فى اليوم الأخير ٠٠ على هذا النحو تماما ، منذ ذلك الحين ، لم تضم رأسها يدان .

قالت فى كبرياء مريرة : « لم أعد أبكى الآن ٠٠ هيهات »

دار الطباعة الحديثة
٩ كنيسة الوردية - افراس شارع البشير
ت ٨٢١٨ - ٩٠ - س ٨٩٩٩



يونيه ١٦٥